ميقات الحج

مجلة نصف سنوية تعنى بالشؤون الثقافية
والتاريخية والسياسية والاجتماعية للحج



٢

▪ الحج، رموز وحِكَم (١) ▪ صلاة الطواف ومكانها ▪
▪ شبهات معاصرة في الحج «٣» ▪ فقه الجدال في الحج «٢» ▪
▪ صفحات من تاريخ المدينة المنورة ▪
▪ حكايات من مكّة المكرمة ▪ أسماء بنت عميس، داعية لحقّ ▪
▪ الرحلة الحجيّة للعلّامة السيّد محسن الأمين ▪
▪ مكّة المكرمة دراسة في جغرافية المدن ▪

بسم الله الرحمن الرحیم

دو فصلنامه « میقات الحج »

کاتب:

محمدی ری شهری

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

میقات الحج المجلد۲

اشارة

عنوان و نام پدیدآور : میقات الحج[پیایند: مجله]

مشخصات نشر : تهران: منظمة الحج و الزیارة، ۱۴۱۷ ق. - = ۱۳۷۵ -

فاصله انتشار : شش ماه یکبار

یادداشت : عربی

فهرست‌نویسی براساس سال۳ شماره۵ سال۱۴۱۷ق.

یادداشت : این نشریه در بیروت نیز منتشر می‌شود

یادداشت : المدیرالمسؤول: محمد محمدی‌ری‌شهری

رئیس‌التحریر: علی قاضی‌عسکر

یادداشت : کتابنامه

ترجمه عنوان : Mighat al - haj

موضوع : حج -- نشریات ادواری

شناسه افزوده : محمدی ری‌شهری، محمد، ۱۳۲۵، -مدیر مسئول

Muhammadi Reyshahri, Muhammad

قاضی عسکر، سیدعلی، ۱۳۲۵، - سردبیر

شناسه افزوده : سازمان حج و زیارت

رده بندی کنگره : BP۱۸۸/۸

رده بندی د... : ۲۹۷/۳۵۷۰۵

ص: ۱

الحجُّ فی أحادیث الإمام الخمینی (۱)

العدد الثانی

الحجُّ فی أحادیث الإمام الخمینی (۱).

... والآن، ونحن علی أعتاب فریضة الحجّ المبارکة، من اللازم أن یکون لنا توجه للأبعاد العرفانیة والروحیة والاجتماعیة والسیاسیة والثقافیة لهذه الفریضة، عسی أن یکون ذلک باعثاً علی اتخاذ خطوات فعّالة أخری ..

کثیر من الاخوة الملتزمین تحدّثوا عن هذه الموضوعات، لهذا فإنّی أکتفی بإشارة عابرة إلی بعض أبعاد (هذه الفریضة) لعلّها تکون تذکرة.

لمّا کانت هذه المناسک العجیبة من أول الإحرام والتلبیة حتی آخر المناسک تنطوی علی اشارات عرفانیة وروحیة لا یتیسر الحدیث عنها بتفصیل فی هذا المقال، أکتفی ببعض إشارات التلبیات:

التلبیات المکرّرة تکون حقیقة من أولئک الذین سمعوا نداءَ اللّه، فأجابوا دعوته- سبحانه- باسمه الجامع.

المسألة مسألة الحضور فی المحضر (الإلهی)، ومشاهدة جمال المحبوب. وکأن الملبی قد ذابت ذاته فی هذا المحضر فیکرِّر تلبیة

(لبيك اللهم لبيك)، ويتبع ذلك سلب الشريك (لبيك لا شريك لك لبيك) .. سلب الشريك بالمعنى المطلق، وأهل اللّه يعلمون أن هذا السلب للشريك لايقتصر على الإلوهية، وإن كان سلب الشريك فى (الإلوهية) يشمل- فى نظر أهل المعرفة- جميع المراتب حتى فناء العالم. وتحوى (التلبية) جميع الفقرات الاحتياطية والاستحبابية، ففيها تخصيص الحمد باللّه والنعمة به وتنفى عنه (مرّة أخرى) الشريك (إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك). وهذه عند أهل المعرفة غاية التوحيد، وتعنى أنّ كل حمد ونعمة فى عالم الوجود إنما هو حمد اللّه ونعمة اللّه سبحانه بدون شريك.

ويجرى هذا الموضوع والهدف الأعلى فى كلّ موقف ومشعر وعمل وحركة وسكون، وخلافه الشرك بالمعنى الأعمّ.

***

الحجُّ فى أحاديث الامام الخامنئى «حفظه اللّه»

ص: ۲

الحجُّ فی أحادیث الإمام الخامنئی «حفظه اللَّه»

«وَأَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالحَجِّ یَأتُوکَ رِجَالًا وَعلی کُلِّ ضَامِرٍ یَأتِینَ مِنْ کُلِّ فَجٍّ عَمیقٍ» (۱).

أقبل شهر ذی الحجة الحرام بکلِّ ما یحمله من عطاء أبدی للأمة الإسلامیّة.

حمداً للَّه- سبحانه- علی ما أنعم به من هدیة خالدة وینبوع دفّاق، یستطیع المسلمون أن یتزوّدوا منهما کلّ سنة بقدر همتهم وبقدر معرفتهم.

المصالح والمنافع التی أودعها العِلم الإلهی والحکمة الإلهیة فی فریضة الحجِّ تبلغ من السعة والتنوّع بحیث لا یُری لها شبیه فی فریضة إسلامیّة أخری. الذکر والحضور المعنوی، ووعی الإنسان المسلم لنفسه فی خلوته مع اللَّه، وغسل القلب منصدإ الذنب والغفلة، وإحساس الحضور فی المجموع، واستشعار وحدة کلّ مسلم مع جمیع الأمّة المسلمة، وتحسّس القدرة المنبثقة عن عظمة جماعة المسلمین، وسعی کلّ فرد لأن یَبْرأ من أسقامه وأمراضه المعنویة، أی الذنوب، ثم البحث والسعی لمعرفة ما یعانی منه جسدُ الأمّة المسلمة من آلام وجراحات عمیقة، ومعرفة دوائها وعلاجها، ومواساة الشعوب المسلمة التی تشکل أعضاء هذا الجسد العظیم ... کلُّ ذلک قد أودع فی الحجّ .. فی ترکیب أعماله ومناسکه المختلفة.

القرآن یطلق علی أعمال الحجّ اسم «الشعائر». وهذا یعنی أنها لا تنحصر فی أعمال فردیة وتکالیف شخصیة، بل إنها معالم تثیر شعور الإنسان وتفتح معرفته علی ما ترمز له تلک المعالم وتدل علیه. ووراء هذه المعالم یقف التوحید، أی رفض کلّ القوی التی تهیمن بشکل من الأشکال علی جسم الإنسان وروحه، وترسیخ الحاکمیة الإلهیة المطلقة علی کلّ الوجود، وبعبارة واضحة ومألوفة: حاکمیة النظام الإسلامیّ والقوانین الإسلامیّة علی الحیاة الفردیة والاجتماعیة للمسلمین.

۱- ۱ الحجّ: ۲۷.

ص: ۳

الهوامش:

البعد العرفانی والتربوی والعبادی للحج

ص: ۴

البعد العرفانی والتربوی والعبادی للحج

محمد حسین فضل اللّه

أعتقـد أنّ أی بُعد من هذه الأبعاد یحتاج إلی حدیث مسـتقل، ولذلک: سأحاول إثارة بعض الأفکار فی هذا الموضوع، من خلال عدة نقاط:

النظرة التجزیئیة ... المشکلة:

النقطة الأولی: إن مشکلة الإسلام، فی تجارب المفکّرین المسلمین، هی النظرة التجزیئیة التی حاولت أن تنظر إلی کل جزءٍ فی الإسلام بعیـداً عن الأجزاء الأخری، فنقرأ عن البعـد الروحی، وعن البعـد الاجتماعی، وعن البعـد السیاسـی، وعن البعد الاقتصادی، کما لو کان کل واحـدٍ منها موضوعاً مسـتقلّا .. فی طبیعته، مما أدی إلی بعض الانعکاسات السـلبیة علی واقع التصوّر الإسـلامی، والممارسة العملیة للإنسان المسلم فی التزامه ببعض الجوانب من دون بعض آخر.

وإننـا نلاحـظ فی هـذا المجـال، أن هـذه النظرة تبعـدنا عن الفهم الشـمولی للإسـلام؛ لأنـه یختزن فی کـل جانب من جوانبه، الجوانب الأخری .. فنحن مثلًا عندما ندرس الناحیة الاقتصادیة فی الإسلام، فإننا لا نجد فیها جوّاً مادیاً یتحدّث عن العلاقات الاقتصادیة، وطریقة تحرکها فی علاقات الانتاج والتوزیع، وما إلی ذلک فقط، بل نجـد- إلی جانب ذلک- عمقاً روحیاً ومنهجاً أخلاقیاً، وحرکـةً اجتماعیةً وسیاسةً فی نطاق حرکـة الفرد والمجتمع، یوحی لنا بأن هـذه الأبعاد کلها تتکامل لتکوّن البعـد الاقتصادی فی المنهـج، وفی النظریة .. وفی ضوء ذلک فإننا لا نستطیع أن نفصل الجانب الذاتی عن الجانب الموضوعی فی المسألة الاقتصادیة.

وإذا أردنا أن ندرس البعد الأخلاقی فی الإسـلام، فإنک لن تسـتطیع دراسـته فی نطاق النظریة الأخلاقیة من الجانب الفلسـفی، بل لابد لک من استحضار المجالات الفردیة والاجتماعیة والسیاسیة والاقتصادیة کافة، حتی نقف

ص: ۵

علی الجانب العبادی، لتجد الخطوط الأخلاقیة تمتد إلیها من جهة، وتنطلق منها من جهةٍ أخری.

وهکذا لن تجد الجانب الروحی مفصولًا عن الجانب المادی، بل تجد هنا لوناً من التزاوج الواقعی والعملی، والتفاعل النظری بینهما علی مستوی التصور فی ترکیز النظریة الإسلامیة فی تفسیر الکون والحیاة والإنسان.

إننا ندعو إلی دراسة هذه المسألة بعمقٍ؛ لنصل إلی النتیجة الحاسمة التی نخرج منها بالفکرة القائلة: إن الإسلام کیان فکری وتشریعی عملی تتغذی جوانبه تماماً کما هو الجسد الذی یتکامل ویتغذی من کل أجهزته، فلا یستطیع أیّ جهازٍ، أن یعطی الحیاة الإنسانیة شیئاً إلّا من خلال الطاقة التی تمدها بقیة الأجهزة بالحیویّة، فیما تحمل من عناصر القوّة والحیاة.

وعلی هذا الأساس، نستطیع أن ندخل إلی الواقع الإسلامی للإنسان المسلم من خلال الحالة التکاملیة، لنوجّه السلوک العملی إلی مواجهة المسألة من هذا الموقع، لنتخلص من کثیرٍ من الخطط التی أثارها الکفر فی وعی الأمة، وحرکها الاستعمار فی حیاتها عندما فصل الإسلام عن الواقع، من خلال الفصل بین أجزاء الواقع ومفرداته، فجعل القضیة المطروحة، هی أن هناک دیناً ودنیا، وأن للدین دائرته، وللدنیا دائرتها، فآفاق الدین هی آفاق الغیب والروح والمثال، التی تنطلق معها العبادة فی أجواء الصلاة والصوم والحج والدعاء والابتهال والتصوف وغیبوبة الذات عن الواقع. أمّا آفاق الدنیا فهی آفاق الحیاة العامة والخاصة فی أجوائها المادیة، فی اجتماعیاتها وذاتیاتها، وسیاستها واقتصادها، وحربها وسلمها، وشهواتها وملذاتها. فللدین ربّه، وللدنیا ربّها .. واللَّه هو ربّ الدین، وقیصر هو ربّ الدنیا، فلیس للَّهأن یتدخل فیصلاحیات القیصر وشؤونه ولیس للقیصر أن یدخل إلی ملکوت اللَّه وساحته .. وهکذا دخل الإسلام هذه الدائرة .. وبقیت الدوائر الأخری تنتظر الفکر الآخر، والقوّة الأخری التی لا مکان فیها للإسلام.

وقد نلاحظ أن عصور التخلف التقلیدیة استطاعت أن تهیّیء الأرضیة الصالحة لمثل هذا الاتجاه فی الذهنیة الإسلامیة، وذلک فیما لاحظناه من الأبحاث العبادیة التی عاشتها التجارب الإسلامیة الفکریة والفقهیة التی حاولت أن تعتبر العبادات کیاناً مستقلًا مفصولًا عن الجوانب الأخری .. فنشأت عندنا شخصیة الإنسان المسلم العابد الذی یستغرق فی عبادته فینسی کل ماحوله، ومَن حوله ..

حتی «العرفان» الذی انطلق فی الدائرة الروحیة الإسلامیة، کفکر وممارسةٍ من أجل أن یکون أسلوباً متقدماً فیصنع الشخصیة الإسلامیة المتحررة من کل القیود، فتنتقل حرکتها فی سبیل الأهداف الکبیرة .. لیرتبط الإنسان بالحیاة من خلال الحریة الداخلیة المنفتحة علی اللَّه، المتحرکة فی الحیاة من خلاله؛ لیکون إنسان الحیاة، الحرّ فی فکره وفی إرادته .. وفی حرکة الحیاة من حوله. حتی العرفان هذا، دخلت فیه الفلسفة الیونانیة والهندیة وغیرهما، فجعلت منه- فی وعی الکثیرین فی الساحة الإسلامیة- فکراً منفصلًا عن الحیاة بحیث یستغرق فیه الإنسان- فی الأجواء الإلهیة التی یعیش فیها- الاستغراق فی هواجسه وتأملاته وابتهالاته مع اللَّه، من دون أن ینفتح من خلال ذلک علی الحیاة.

ص: ۶

وقد رأينا– فى تاريخنا وفى حاضرنا– الكثيرين ممن أخذوا بالعرفان كفلسفةٍ، وكسلوكٍ، وكاتجاهٍ، قد ابتعدوا عن الحياة، وعن قضاياها وهمومها ومشاكلها وحركتها فى ساحة الصراع، واستغرقوا فى الفكرة الانعزالية التى تعتبر ذلك كله شأناً مادياً لا يتناسب مع الانطلاقة الروحية المجرّدة التى يعيشها العارف؛ لأنها تشغله عن اللَّه ..

وقد لاحظنا فى بعض هؤلاء، أنهم لا يدققون فى قضايا الشرع فيما يمارسونه من أساليب الرياضة الروحية وفيما يفعلون، وفيما يتركون، ممّا قد يعيش الإنسان فيه الابتعاد عن التكليف الشرعى فيما يحلّ اللَّه وفيما يحرّمه، وربما وصل ذلك بالبعض الى اعتبار الشرع حالة فى الظاهر لا ترفع إلى مستوى العرفان، الذى هو عمق الوعى الروحى فى الباطن.

ولكننا نعرف أن «العرفان الإسلامى» قد انطلق من خلال مفاهيم القرآن، التى تلحظ فى الإنسان ارتباطه باللَّه، الذى يطلّ به على مسؤوليته فى الحياة عن الحياة كلّها، وعن الإنسان كله، فى المنهج الفكرى الذى أقامه الإسلام للحياة، وفى الخط التشريعى الذى أراد للناس أن يسيروا عليه، وفى الأجواء العامة التى وجّههم إلى أن يعيشوا فى داخلها وفى ساحاتها .. وبذلك كان يمثل الإعداد الفكرى والعملى للدخول إلى ساحة الإسلام فى الحياة من خلال اللَّه.

فليست هناك خلفيّة فلسفيّة يمكن للعرفان أن ينتمى اليها، أو ينطلق منها بعيداً عن المفاهيم القرآنية الإسلامية، التى أكدت أن يكون الإنسان المسلم إنساناً يتحرك فى الحياة؛ ليكون خليفة اللَّه فى الأرض، ليبنى الكون فى دائرة قدرته، على النهج الذى يحب اللَّه له أن يكون فيه، بعيداً عن كل ما يثقله؛ ليكون الإنسان الحرّ من الداخل، من أجل أن يؤكد حريته فى الخارج.

– محل الصورة–

الأبعاد العبادية فى انفتاحها على الأبعاد السياسية:

ص: ۷

النقطة الثانیة: إننا نرید- من خلال شمولیة النظرة الإسلامیة إلی الحیاة- أن نقترب من الأبعاد العبادیة التی تنفتح علی الأبعاد السیاسیة والاجتماعیة فی الحج، کما نفهم ذلک من خلال کل عباداتنا؛ لنصل إلی تأکید فکرتنا فی تکامل الإسلام فی کل مفرداته .. فنجد أن العبادة تلتقی بالسیاسة فی مفهومها الواسع، کما تطلّ علی ساحة الحیاة الاجتماعیة .. وبذلک تدخل قلب الحیاة، بدلًا من أن تنفصل عنه.

فإذا دققنا فی الصلاة، فی کلماتها وفی أفعالها، وفی إیحاءاتها .. وإذا درسنا الصوم فیما یثیره من أجواء نفسیة، وفیما یؤکده من قوّةٍ حرکیة، ولاحظنا ما فی الحج من معطیات ومؤثراتٍ وأجواء ونتائج .. فإننا نجد أنها تلتقی فی ارتفاعها بالإنسان إلیصفاء إنسانیته، وفی توجیهه إلی ما یحقق توازن حرکته الإنسانیة فی الحیاة .. لأن سرّ المشکلة الإنسانیة هو هذا الاستغراق فیما حوله من الحیاة الدنیا، بعیداً عن کل هدف کبیر ینطلق من مواقع القیم الخیّرة فی حرکة الرسالات .. إنها مسألة القضایا الکبیرة التی تأکلها أو تستنزف طاقاتها القضایا الصغیرة، التی تطوف بالإنسان فی دائرة شهواته وملذاته وأطماعه الذاتیة.

وکانت الفکرة الإسلامیة تتحرک علی أساس أن یجعل الإنسان دنیاه آخرةً، وأن تکون آخرته منطلقةً من حرکة مسؤولیته فی بناء الدنیا علی النهج الذی یحبه اللَّه .. فلا تمثل الآخرة- فی هذه النظرة- منطقة مستقلة عن الدنیا، بل الآخرة تمثل أهدف الدنیا الکبیرة التی تخضع لها حرکتها الصاعدة إلی اللَّه ..

فإذا أردت أن تفکر، کمسلم، یرید أن یمارس دوره فی الدنیا .. فکِّر ما هو هدفک منها .. لا مانع من أن تنطلق معها، وتتحرک فی داخلها .. وتحتوی مواقعها ومصادرها ومواردها، لکن .. فکّر لنفسک بالسؤال التالی .. ما هو هدفک منها؟

إن الآیة الکریمة تقول لک:

«وابتغ فیما أتاک اللَّهُ الدارَ الآخرة ولا تنس نصیبک من الدنیا وأحسِن کما أحسن اللَّه الیک ولا تبغِ الفساد فی الأرض انّ اللَّه لا یُحبّ المفسدین» (۱) ..

اجعل الدار الآخرة هدفاً لکل ما أعطاک اللَّه من علم أو من مال أو من قوّةٍ .. ولکل ما أعطاک من الحیاة ..

وعش حیاتک من خلال حاجاتک الجسدیّة .. وأحسن إلی الآخرین، فقد أعطاک اللَّه النموذج الأکمل للإحسان فیما أحسن اللَّه إلیک .. لتعرف کیف تحسن إلی الآخرین .. ولا تبغ الفساد فی الأرض فی کل المفردات التی تملکها مما تستطیع أن تستخدمه فی طریق الفساد، کما تستطیع أن تستخدمه فی طریق الصلاح والإصلاح .. لأن اللَّه لا یحب المفسدین.

وهکذا نجد أن العبادة یمکن أن تکون نافذةً واسعةً تطلّ علی کل ما فی الدنیا من قضایا ومشاکل للحیاة والإنسان، من حیث هی نافذة تتحرک فی آفاق الغیب، مع اللَّه، وفی نتائج المسؤولیة فی الدار الآخرة.

فی إیحاءات الحجّ المختلفة:

النقطة الثالثة: إننا نستطیع- من خلال ما أثرناه فی النقطة الثانیة- أن نقترب من هذه الأجواء، لنفکر فیما

۱- ۱ القصص: ۷۷.

ص: ۸

حشده التشریع الإسلامی فی تشریعه، فی الحج من عدة جوانب، تتفرّع فی شکلها وفی طبیعتها، وفی ایحاءاتها، فإذا وقفنا فی أجواء الإحرام، فإننا نشعر بأن هناک نوعاً من أنواع التدریب علی أن یتحرر الإنسان من کل ما یعیق حرکته من الارتباط بکل الأشیاء التی یمارسها فی عاداته، أو فی أجواء الترف التی یحبها، أو فی أجواء الحیاة الاجتماعیة التی یعیش فی داخلها.

ثم بعد ذلک- نجد کلمات التلبیة- فیما توحی به فی معانٍ واسعةٍ- تعنی التزاماً أمام اللَّه سبحانه، بطریقةٍ مؤکّدةٍ مضافةٍ بالاستجابة لکل نداءات اللَّه .. لیس- فقط- ما یقوله بعض المفسرین والمحلّلین، أنّ کلمة «لبیک» یراد بها الاستجابة لنداء إبراهیم علیه السلام فیما أمره اللَّه به، من أن یؤذن للناس بالحج لیدعوهم إلی الإقبال علیه، فیما تحدث به القرآن الکریم فی قوله تعالی:

«وأذّن فی الناس بالحجّ یأتوک رجالًا وعلی کلّ ضامرٍ یأتین من کلّ فجّ عمیق لیشهدوا منافع لهم ...» (۱).

فنحن نری أن المسألة أکثر شمولًا فی ذلک؛ لتکون استجابةً لکل نداءات اللَّه فی کتابه وفی رسالته فیما وجهه للناس، بعنوان «یا أیها الناس» وفیما وجهه للمؤمنین من خلال الإیمان بعنوان «یا أیها الذین آمنوا ..».

إن کلمة «لبیک» تعنی .. إننا یا رب نلتزم فی موقفنا هذا، بکل نداءاتک بالإسلام کله، فی عباداته، وفی أخلاقه، وفی جهاده، وفی سیاسته واقتصاده .. وفی مواجهة کل التحدیات التی یواجهها الإنسان من الشیطان الداخلی فی عمق نفسه، أو من الشیطان الخارجی فی عمق واقعه وفیما یحیط بحیاته ..

إنها الحرکة الصارخة، فی النداء الذی تنطلق به کل حناجر الحجاج؛ لتؤکد موقفهم الذی یرید أن یلتزم بالإسلام من جدید، فی مسیرتهم إلی مرکز الدعوة الإسلامیة الأولی فی مکّة ..؛ لتکون مسیرة الحجاج من سائر أقطار العالم هی مسیرة الإسلام التی تقول:- من خلال تلک الکلمات الخاضعة الهادرة- یا رب .. إذا کان الناس قد ترکوا الإسلام، فلم یؤمنوا به، ولم یرتبطوا به .. وإذا کان المسلمون قد انحرفوا عن خطه، وترکوا الکثیر من تعالیمه، وانتموا إلی الاتجاهات الأخری التی تختلف عن خطه المستقیم .. إذا کان الواقع هو ذلک .. فها نحن قادمون إلی بیتک المحرّم ..؛ لنقول لک، من کل قلوبنا، ومن کل عقولنا، ومن کل مواقعنا ومواقفنا وتطلعاتنا .. «لبیک اللهم لبیک». فقد جعلت الإسلام لنا- بکل عمقه وامتداده- .. رسالة الحیاة، ونحن نرید أن ننطلق إلی الحیاة، من خلاله ..

ومن هنا قد نفهم کیف أن التشریع لم یقتصر علی کلمة «لبیک» ولکنه أضاف کلمة «وحدک لا شریک لک»؛ لیؤکد الإنسان فیها أن التلبیة التی تتوجه إلی اللَّه سبحانه، لا یمکن أن تتوجه لأیّ انسانٍ آخر، فنحن فی الحیاة عندما نرید أن نستجیب لنداءٍ من أیّ منادٍ، أو لکل مبدإ أو قانونٍ من أیّ مشرّعٍ أو مفکّرٍ، أو لأیّة علاقة بالناس، فلابد من أن یکون ذلک منطلقاً من استجابتنا للَّه، وعلاقتنا به؛ لتکون علاقاتنا بالحیاة کلها منطلقةً من ذلک .. فلا شیء .. ولا حد .. مع اللَّه .. فهو وحده الذی نتوجه إلیه بکل ما فی قلوبنا من محبة وإخلاص وعبودیة .. فلا نتوجه لأیشخص معه .. بل إن علاقتنا بالناس منطلقة من علاقتنا باللَّه، من خلال باب اللَّه الذی یدخل منه الجمیع .. حتی علاقتنا برسول اللَّه، وبکل رسل اللَّه لا ترتبط بهم کأشخاص، بل بصفة أنهم رسل اللَّه، والمبلغون عنه .. وهکذا هی علاقتنا بالأئمة والأولیاء، من خلال أنهم عباد اللَّه الذین أطاعوه بما یجب، وعبدوه کما یرید ..

۱- ۱ الحج: ۲۶- ۲۷

ص: ۹

«لبیک لا شریک لک ..» لن نجیب غیرک، ولن نستمع إلی أیّ نداءٍ سواءٌ انطلق من حاکم، أو من حکومة، أو من حزب، أو من محور إقلیمیّ أو دولیّ .. فأنت وحدک، المحور الذی نتحرک فی ساحته؛ لأن ذلک هو الذی یجعلنا ننسجم مع عقیدتنا إذا أجبناک ..

«لبیک لا شریک لک» .. وتعود الکلمة من جدید؛ لتتضاعف، ولتعمِّق المشاعر فی نفس الإنسان ..، ثم لتطلّ علی الحیاة کلها، لِتطلّ علی کل ما فی الحیاة من ملوکٍ وجبابرةٍ وطغاةٍ، وما تحتویه من نِعم وثروات، فلا نجد المدّاحین الذین یمدحون هذا، ویحمدون ذاک؛ لیؤکد الإنسان فی موقف الحج .. أن الملک للّهوحده، وأن الحمد له وحده، وأن النعمة له وحده، فکل حمدٍ مستمدٌّ من حمده، وکل نعمةٍ مستمدّةٌ من نعمته، وکل ملک فهو ظلّ لملکه، فلیس هناک محمودون ممدوحون، ولیس هناک منعِمون فی ذاتهم، فهو وحدهصاحب الحمد والملک والنعمة .. وبذلک یحسُّ الإنسان هناک- أمام اللّه وحده- أنه بعیدٌ عن کل أحدٍ غیر اللّه- سبحانه وتعالی- .. ومن خلال ذلک یتأکد معنی العبودیة المطلقة للّه .. بأن تکون عبداً بکلّک، وبفکرک، وشعورک، وضمیرک .. وحرکتک .. وکل خطواتک العملیة فی الحیاة .. وفی جمیع مشاریعک علی کلصعیدٍ .. أن تکون الإنسان الذی یعیش العبودیة للّه ..؛ لتنطلق حریتک أمام العالم .. وأمام الأشیاء من خلال ذلک .. وبهذا تلتقی الحریة والعبودیة فی عمق الإنسان .. فتتعمق حریتک بمقدار ما تتعمق عبودیتک للّه .. فأنت من موقع عبودیتک للّهتأخذ حریتک .. أما الآخرون فإنهم یمارسون عبودیتهم للناس وللشهوات وللمطامع من موقع حریتهم المطلقة أمام اللّه ..

ثمّ ننطلق فی بعض ایحاءات الحج؛ لنصل إلی البیت الحرام، لنتساءل .. ماذا یعنی البیت، وماذا یعنی الطواف حوله .. هل هی الأحجار التی یتألف منها .. نقدّسها ..؟

إنها لیست حتمیّة جدیدة تتخذ الأحجار الثابتة بدلًا من الأحجار المتحرکة بل هی التمرد علی الصنمیة ..

ولکنها .. الرمز .. الرمز الذی یُراد من خلاله تربیة الإنسان علی طریقةٍ جدیدةٍ فی مواجهة حرکة الإسلام فیصعید الواقع .. فکیف نفهم ذلک؟

إننا- کمسلمین- قد نصنع للّهبیتاً فی مدننا وقُرانا .. فهذا مسجد للقبیلة، وهذا مسجدٌ للمحلة، وهذا مسجد البلد .. وتتنوع الصفات المحدودة لتدخل فیها دوائرنا العائلیة والقبلیة، فهذا مسجد آل فلان وذاک مسجد تلک القبیلة .. ودوائرنا القومیة، فهذا مسجد العرب، وهذا مسجد العجم .. وهکذا نحاول فی مساجدنا أن نحافظ علی کل الحدود التی تفصلنا عن بعضنا البعض، وتبعدنا عن ساحتنا الإنسانیة الواسعة؛ لنؤکد فیها عصبیاتنا العائلیة والإقلیمیة والقومیة .. أو لنبقی فی الدائرة الضیّقة المحدودة التی تحجب عنا رؤیة الدائرة الواسعة للحیاة وللإنسان، فکانت الکعبة- البیت الحرام- التی جعلها اللّه قیاماً للناس .. کل الناس بعیداً عن کلصفاتهم اللونیة والعرفیة والجغرافیة؛ لیکون بیتاً للّهفی حجم العالم .. البیت الإلهیّ العالمیّ، لیشعر کل مسلم .. أنه بیته .. ورمزه ومنطلقه .. ولهذا أراد اللّه لهم أن یتوجهوا إلیه أینما کانوا ... «.. فولّ وجهک شطر المسجد الحرام وحیث ما کنتم فولّوا وجوهکم شطره ..» (۱) ولا یتوجهون إلی غیره؛ لیکون قاعدة وحدتهم، ومنطلق عالمیتهم .. وموقع إنسانیتهم.

۱- ۱ البقرة: ۱۴۴.

ص: ١٠

ثم قـد نفهم جانباً آخر من الصورة .. فی الطواف حول البيت كعبادة، فنحن نعبـد اللّه بحسب الحالة الطبيعية أفراداً .. فی بيوتنا ومواقعنا الفرديـة .. ثم نمـارس العبـادة- بعـد ذلك- جماعـة فيصـلاة جماعـة محـدودةٍ، قـد تتسع فی أفرادها، وقـد تضـيق، تبعاً للموقع وللإمام وللمناسـبة .. وتبقى العبادة فی حـدودها الفرديـة والاجتماعيـة الضـيّقة .. فلا نعيش فيها الانفتاح فی عبادتنا للّهعلى مسـتوى حجم الأمة كلها، تبعاً للتنوع الواسع فی النطاق العالمی .. الإنسانی.

وهنا تأتی عبادة الطواف ..؛ لتكون العبادة حول البيت الإلهی العالمی فی حجم الأمة كلّها .. عندما يشترك المسـلمون- من سائر أقطار العـالم- ليعبـدوا اللّه كأُمّـةٍ، يتمثل فيها العربی والفارسـی والهنـدی والامريكی والافريقی والاوروبی، وما إلی ذلك؛ لينطلق الجميع فی عبادةٍ إسـلامية عامّـةٍ كأُمّـةٍ؛ ليعيشوا الأفق الواسع فی العبادة، وليتفاعلوا بهـذه الشخصـية الجديـدة التی تؤكد فی داخلهم معنی الامتداد الإنسانی الشعوری فی روحية العبادة بين يدی اللّه ...

ويتخلصوا بـذلك عمـا اعتادوه فی حياتهم؛ لأن الناس إذا مارسوا فكرهم وعبادتهم ومسؤولياتهم فی النطاق الضـيّق، فإن ذلك يتحول إلی حالـةٍ نفسـيةٍ ضـيّقة مخنوقـة فی الـدائرة المحدودة .. فينسونصـفتهم كجزء من الأمة الواسـعة .. بينما توحی العبادة فی داخل التنوع الإنسانی للأمـة المسـلمة بالبعـد العالمی للشخصـية، وهی بين يـدی اللّه رب العالمين ..؛ ليتمثل من خلال ذلك الهدف التربوی للحج، وهوصنع الإنسان المسلم العالمی، الذی يتحرر من ذاتيته وعائليته وإقليميته وقوميته عندما يطوف بالبيت العالمی للّه ..

وتلك هی القضـية التی قد نحتاج إلی أن نتمثلها ونعيشـها فی واقعنا الاجتماعی والسياسی ..؛ لندخل فی نشاطاتنا فی دور جيد، وساحةٍ جديدةٍ؛ لأن من مشاكلنا الإسـلامية أن المسلمين قد يغلب عليهم الاهتمام بقضاياهم الخاصة، التی قد تتطور من الحالة الذاتية إلی حالة البلـد الـذی ينتمی اليه الإنسان المسـلم، فيری أن قضايا بلـده الإسـلامی هی المحور الذی يجب أن يدور حوله كل النشاط الإسـلامی، سواءً كان نشاطه، أو نشاط الناس من حوله .. مما يجعله يصـرف كل طاقاته فی هذا الموقع، ويعمل علی أن يسـتخدم كل قضايا العالم من أجله .. من دون أن يفكر بأن عليه أن يسـتفيد من بلـده لخدمـة قضايا العالم الإسـلامی الأخری .. الأمر الذی قد يتحول إلی شـعور داخلیّ بالانفصال عن قضايا العالم ..

وهكـذا لاحظنا أن الواقع السياسـی الـذی يعيشه المسـلمون فی بلدانهم؛ هو أن قضـيةً إقليمية إسـلامية فی هذا البلد، وأن هناك قضـيةً قوميةً فی هذا المحيط الجغرافی .. وأن المسـلمين يتحركون فی حجم هذه القضايا تبعاً لمواقعهم المحلية، ولا يحاولون الاهتمام بقضايا الآخرين إلا من خلال علاقتها بهـذه القضـية، كما لو كانت قضـيةً أجنبيـةً يلامسونها كما يلامسون أيّة قضـية بعيدة عن ساحتهم .. وقد يسجلون علی الآخرين نقطة سوداء إذا انشغلوا عن هذه القضية بقضيتهم .. حتی لو كانت قضيةً إسلامية.

وقـد يقول البعض، إننی أهتم بهـذه القضـية الخاصـة؛ لأنها قضـية إسـلامية، ولأنَّ طبيعة الموقع الذی أمثله فی هذه الساحة يفرض علیّ الحركـة فی هذه الدائرة؛ لأنی أعرف منها ما لا يعرفه الآخرون، ولأنی أملك من مواقعها ما لا يملكه الآخرون، فی نوعية الحركة، وفی طبيعة النتائج؛ ولأن قيمتها قد تفوق قيمة كثيرٍ من القضايا الإسـلامية الأخری، بالنظر إلی أهميتها السياسـية، وقيمتها الإستراتيجيّة فيما هو الواقع الإسلامی فی حركة الصراع.

ص: ۱۱

وقد يكون هذا الكلام معقولًا ومقبولًا، ولكنّ هناك نقطةً مهمّة، وهى .. إن العقلية الإسلامية الشاملة تفرض على الإنسان المسلم الذى يتحرك فى قضية بلده أو منطقته- كقضيةٍ إسلامية- أن يدرس موقعها من المسألة الإسلامية فى العالم من حيث طبيعتها السياسية أوالاقتصادية أو الأمنية؛ لتعرف كيف يكون حجم حركتك وكيف يكون موقفك من هذا الوضع أو ذاك فى هذا البلد، أو فى ذلك البلد، فهناك فرق بين أن تفكر بأن تنتصر قضية بلدك حتى لو انهزمت كل قضايا الإسلام فى العالم، وبين أن تفكر ببلدك كجزءٍ من قضايا الإسلام الكبرى ..

إننا نقول، لا تتحمسوا لقضاياكم الخاصّة ..، لتقولوا بأن المسلمين فى هذا البلد يهتمون بقضاياهم، لأنهم لا يجدون أحداً من المسلمين الآخرين قادراً على حمايتها .. كما أن المسلمين فى البلد الآخر يقولون نفس القول .. لكنّ هناك نقطةً مهمّةً لا بدّ من ملاحظتها بدقة وهى؛ إننا نهتمّ بقضايانا على أساس أنها جزءٌ من كلٍّ، لا على أساس أنها قضيّةٌ منفصلةٌ عن الجسم الإسلامى.

إننا ندعو- من خلال الحجّ- إلى أن نصوغ شخصية الإنسان المسلم العالمى من جديد، الذى يفكر فى الإسلام بحجم العالم من خلال قدراته وإمكاناته، وليطوِّر نفسه بحيث يستطيع أن يكون مفيداً للمسلمين فى كل منطقة من مناطق الأرض .. فلا تتجمد طموحاتنا فى الزوايا الضيّقة والمواقع المحدودة، ولا تتساقط مواقفنا عند الحواجز الذاتية الخاصة ..

إننا إذا استطعنا الوصول إلى هذا الهدف الكبير فيصنع الشخصية الإسلامية العالمية؛ فإننا نستطيع أن نعتبر أنفسنا فى الموقع الصحيح للبداية الحاسمة؛ التى نتحول فيها إلى أمّةٍ بدلًا من أن نبقى أفراداً متناثرين، أو جماعات متفرّقة. وهذا هو ما نستوحيه من معنى الطواف حول البيت.

ثم ننتقل إلى السعى بين الصفا والمروة، الذى يمثل حركة الإنسان من بداية معينة إلى نهاية معينة، فى أشواط ..

من أجل أن نتعبد للَّهفى ذلك لأنه أمرنا به .. فكان السعى حركةً فى معنى الطاعة، وسرّ العبادة ..؛ لتكون انطلاقةً ايجابية تربويةً فى بداياتٍ ونهاياتٍ أخرى فى حركة الإنسان فى طلب العلم، أو فى تحصيل القوّة، أو فى مواجهةِ التحديات التى يفرضها المستكبرون، أو فى إطلاق المواقف المتحدية ضدهم، أو فى قضاء حوائج الناس ..؛ لأن اللَّه طلب منك السعى من أجل هذه الأمور، كما طلب منك السعى فى هذا المكان ..

إن اللَّه يريد منك أن تجعل الحياة حركةً من أجل اللَّه فى خط المسؤولية؛ لتحوّلها إلى ساحةٍ تبتعد عن كل الفئات الطاغية والكافرة والمستكبرة؛ ليكون سعيك بدايةً ونقطة انطلاق إلى كل الساحات فى العالم فيما أرادنا اللَّه أن نتحرك فيه من ساحات.

ثم نعيش- فى الحج- الوقفات، فى عرفة، وفى المزدلفة، وفى منى التى نعيش لياليها فى لحظات تأمّلٍ وتفكير ..

إننا نشعر بأن إيحاءاتها، وبأن الإنسان عندما يندمج فى أجواء الحركة فى الحياة، فى أىّ موقعٍ من مواقعها، وفى أىّ اتجاه من اتجاهاتها فى العلم والسياسة، والحرب والسلم، لا بدّ له من أن يقف ليفكر، وليتأمل، وليحسب حساب الأرباح والخسائر؛ ليكتشف فيما يمكن أن يكون قد وقع فيه من انحرافٍ فى خط السير، لئلا تؤدى بك الغفلة فى اندفاع الحركة

ص: ۱۲

إلی الشعور بالغرور، الذی یوحی لک بضخامة معینةٍ فی شخصیتک لا وجود لها فی الواقع، فیخیّل إلیک بأنک لا یمکن أن تخطئ! لأن الحق معک، فیما تملکه من وضوح الرؤیة للأشیاء، ومستوی المعرفة فی عقلک وتجربتک.

إن هذه الوقفات توحی لک- من موقع الرمز- بأن علیک أن تخفف من سرعة اندفاعاتک؛ لتقف وتفکر بما قلته أو فعلته، لتکتشف احتمالات الخطأ والصواب فیه؛ لتنقد نفسک نقداً موضوعیاً فی کل ذلک .. لتفهم نفسک جیّداً.

إن الموقف فی عرفات والمزدلفة ومنی- أمام اللّه- هو موقفٌ نقدیّ تأملیٌّ لتذکر نفسک، وتذکر ربک، وتفکر فی موقعک منه وفی موقفه منک .. وفیما یجب أن تتحرک فیه نحو المستقبل من أعمالٍ ومشاریع ونتائج .. ولا سیّما فی منی، التی توحی إلیک لیالیها بأنک فی الموقع الأخیر من الحج .. فکیف کنت .. وکیف أنت الآن، وماذا ترید أن تفعل غداً ..

وما هی طموحاتک الجدیدة؟ .. هل هی قصة الدنیا فی الإخلاد إلی الأرض، أو هی قصة الآخرة والدنیا فی عملیة الاندماج بینهما، فیما هی الفکرة، وفیما هی الروح، وفیما هو الهدف الکبیر فی ابتغاء رضوان اللّه .. کما یرید اللّه لنا أن نعیش المسألة هناک فی الابتهال إلیه.

«... فمن الناس من یقول ربنا آتنا فی الدنیا وما له فی الآخرة من خلاق ومنهم من یقول ربنا آتنا فی الدنیا حسنة وفی الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئک لهم نصیب مما کسبوا ...» (۱).

وبذلک فإن الحجّ لا یفصلک عن الدنیا، بل یرید أن یربطک بالآخرة إلی جانب الدنیا فی عملیة تکاملٍ وامتدادٍ.

وأخیراً .. إن الحجّ یُطلّ بنا علی فکرة الصراع ضد الشیطان، من خلال الإیحاء الحسی فی عملیة رجم الشیطان، بطریقة رمزیة لا تبتعد عن الواقع، فیما تتحرک به الحیاة .. إنک لم تستحضر شیطاناً خفیّاً یعیش فی زوایا نفسک من دون أن تعرف طبیعته، بل إنک تستحضر فی داخل وعیک الذاتی کل الشیاطین، من خلال طبیعة فکر الشیطان، لا من خلال حجمه ..

إنک تتطلع لتجد الشیطان فی نفسک وفی واقعک؛ لتبصر وتحدّق جیداً أین هو الشیطان فی داخل ذاتک، وأین هو فی حیاتک الاجتماعیة .. وفی حیاتک السیاسیة .. وما هو حجمه فیما یتمثل به من أحجام القوّة فی مواقع السلطة ..

بین حجمٍ کبیرٍ وصغیر، وأکبر .. أو متوسّطٍ؟

وهذا هو معنی نهایة الحجّ .. فی عملیة رجم الشیطان .. أیها الإنسان المسلم الحاج .. لقد انتهیت من عملیة التدریب فیما هی التجربة علی مستوی الحرکة الذاتیة فی العبادة، فی المواقع التی لا تمثل التحدی الصارخ فی ساحة الصراع .. وها أنت تقف لترجم الشیطان ..؛ لتری أمامک کل شیاطین الکفر والظلم والاستکبار فی مواقع القوّة فی العالم .. وها أنت قد انتهیت من الحج إلی ساحة العمل؛ لتنطلق فی الحیاة کلها بکل أصنامها ومواقفها ومشاکلها وشیاطینها ووسائلها وغایاتها ..

إنها عملیة النجاح، فی الحج .. بعد ذلک، لا فی نهایة الحج، بل فی نهایة الحیاة عندما یقوم الناس لرب العالمین.

هل انتهی الحجّ .. بانتهاء أعماله؟

إنه لم ینته بل بدأ الآن، لیکون الحجّ إلی الحیاة الإسلامیة التی تنتظر أکثر من حج، إلی الساحات الملتهبة فی الواقع الإسلامی فی کل أنحاء العالم ..؛ لیکون الدین کله للّه .. وتکون الحیاة فی خدمة اللّه ..

وتلک هی قصة الإنسان عندما یعبد ربه من موقع إحساسه بالإیمان المسؤول، والهدف المسؤول .. لا من موقع

۱- ۱ البقرة: ۲۰۰- ۲۰۲.

ص: ۱۳

إحساسه بالفراغ. وذلك هو البعـد الحقيقى للحـج .. إنهصـناعهٔ الإنسان المسـلم الـذى يحب اللَّه ويحب الإنسان والحياهٔ من خلال هذا الحبّ الواعى الخاشع المسؤول.

الهوامش:

ليشهدوا منافع لهم

ص: ۱۴

«ليشهدوا منافع لهم»

وهبة الزحيلى

الإسلام وشرائعه خير كلّه، ورحمة كلّه، ومصلحة كلّه، وفضل ونعمة مسداة كلّه، مَن دان به رشد، ومَن عمل به سعد، ومَن التزمه فاز ونجا، ومَن أعرض عنه أو انحرف زاغ وضلّ، وتاه وشذّ.

وكلّ شىء فى هذا الإسلام العظيم من عقيدة قائمة على التوحيد الخالص، والتنزيه المطلق للّه. وعبادة تصقل النفوس، وتهذب الطبائع، وتربى القلب، وتصحح الفكر، وتصلح الفرد والمجتمع. ومعاملة قائمة على الحقّ، والعدل والميزان، والاستقرار. وأخلاق وفضائل تقوِّم الاعوجاج، وتلجم الأهواء والشهوات، وتنمى عواطف الحبّ والودّ والخير والسلام، وتحقق الاستقامة والرشد، وراحة النفس والضمير، وسلامة الأمة والجماعة ... كل هذه العقائد والعبادات، والأخلاق والمعاملات، ذات غايات سامية ومقاصد عالية، هدفها تهذيب النفس الإنسانية، وتربية الإنسان تربية قويمةصحيحة، توفّر على العلماء والدولة والمعلمين ثروات كبرى، لا تحتاج إلا إلى شىءٍ من التذكير والبيان، والتبسيط فى تحديد الأهداف والسمات المميزة لها.

وهذا واضح كل الوضوح، ففى جانب العبادات المفروضة فى الإسلام- منصلاة وزكاة وصيام وحجّ على سبيل المثال- حصر دقيق لغاياتها فى القرآن، يدور حول التقويم والتهذيب والتربية والإصلاح، وأكتفى بإيراد آية كريمة فى كلّ منها عدا الحجّ:

ففى قوله تعالى عن الصّلاة: «.. إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ..» (۱) بيان الغاية التربوية منها.

وفى قوله سبحانه عن الزكاة: «خذ من أموالهمصدقةً تطهرهم وتزكيهم بها» (۲) إرشاد لجانب التطهير وتزكية النفوس وتخليصها من آفات البخل والشح، وإنقاذ المستضعفين من الفقراء والمساكين من ذلِّ الحاجة والضعف والعوز.

وفى قوله- عزّ وجلّ- عنصيام شهر رمضان: «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم، لعلكم تتقون» (۳) بيانصريح لثمرة الصوم وفائدته العظمى، وهى إعداد النفس لتقوى اللّه، بترك الشهوات

۱- ۱ العنكبوت: ۴۵.

۲- ۲ التوبة: ۱۰۳.

۳- ۳ البقرة: ۱۸۳.

ص: ۱۵

المباحة والمحظورة، وتقويم النفس وتربيتها وتزكيتها، والالتزام بالمأمورات الإلهية، واجتناب المنهيات.

فهذه كلها غايات تربوية سامية تتحقق بممارسة العبادات، ومنها فريضة الحجّ بدءاً من رحلة المغادرة للوطن ثم العودة إليه، وهذه الرحلة تدريب عملى ميدانى على آداب الإسلام وأخلاقه، وتجرد خالص للعبادة، وإظهار شامل للطاعة المطلقة، وتصفية الأعمال من شوائب المادة وآصار الدنيا ومغرياتها، وتعلقات الحياة الرغيدة ومفاتنها، وتجوال الفكر العميق فى تقديس اللَّه- تعالى- وجلاله وعظمته، وتحقيق- كغيره من العبادات- لمنافع الدين والدنيا والآخرة.

قال اللَّه تعالى فى كتابه الكريم: «وأذّن فى الناس بالحجِّ يأتوك رجالًا وعلى كلّ ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم اللَّه فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير» (۱)فجاء الأمر الإلهى- فى هاتين الآيتين- بفريضة الحجّ، مقروناً ببيان حكمة الحجّ، للفرد والجماعة والأمة، فى نطاق العبادة والنفع الذاتى والاجتماعى والسياسى، فكانت منافعه وفوائده خاصة وعامة، لأنه بمثابة مؤتمر عام، يستفيد منه الحجّاج فوائد دينية بأداء الفريضة، وتربوية أخلاقية بالممارسة الفعلية للعلاقات الاجتماعية الحساسة والعادية، وسياسية إسلامية. يتداول فيه المسلمون- بنحو جماعى- أوضاع بلادهم، وشؤون شعوبهم، بإخلاص وصراحة، وجدية وحرارة، ونقد بنّاء، ومذاكرة فى هموم وآمال وآلام الأمة الإسلامية، يعودون بعدها لبلادهم، وهم مزوّدون بماينبغى فعله على الصعيدين: المحلى الخاص والدولى العام، واضعين نصب أعينهم وحدة الأمة الإسلامية ومصلحتها العليا، وأخوّة المؤمنين وما تتطلبه من تضحيات جسام وتعاون وتضامن فعّال، ووقوف بصرامة وجرأة أمام مخططات الأعداء ومؤامراتهم الخبيثة أو المشبوهة، ومحاولة التغلب عليها وإحباطها، حفاظاً على العزّة والكرامة الإسلامية، وحماية لوجود المسلمين، ورعاية لمصالحهم فى الداخل والخارج، سواء فى وقت السلم والاستقرار، أو فى وقت المحنة والحرب والصراع المسلح، والمجابهة الاقتصادية والتحديات المختلفة.

والكلام عن الآية: «ليشهدوا منافع لهم» يحتاج لبيان معنى اللام فى الفعل، ومعرفة سبب تنكير كلمة «منافع»، وتحديد أنواع المنافع.

أمّا معنى لام «ليشهدوا» فهو- كما جاء فى تفسير الميزان- للتعليل أو الغاية، والجار والمجرور فى «لهم» متعلق بقوله: «يأتوك» والمعنى: يأتوك لشهادة منافع لهم، أو يأتوك فيشهدوا منافع لهم. وجاء فى أحكام القرآن لابن العربى: هذه لام المقصود والفائدة التى ينساق الحديث لها، وتنسّق عليه،- أى أنها لام الغاية والصيرورة- وأجلّها قوله تعالى: «... لتعلموا أنّ اللَّه على كل شىء قدير وأنّ اللَّه قد أحاط بكل شىء علماً» (۲). وقد تتصل هذه اللام بالفعل، كما تقدم، وتتصل بالحرف كقوله تعالى: «... لئلا يعلمَ أهلُ الكتاب ...» (۳).

وأمّا تنكير كلمة «منافع» فهو كما قال الفخر الرازى: إنما نكّر المنافع؛ لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة، دينية ودنيوية، لا توجد فى غيرها من العبادات. وقال الآلوسى: «منافع» أى عظيمة الخطر، كثيرة العدد، فتنكيرها- وإن

۱- ۱ الحج: ۲۷- ۲۸.

۲- ۲ الطلاق: ۱۲.

۳- ۳ الحديد: ۲۹.

ص: ۱۶

لم يكن فيها تنوين- للتعظيم والتكثير، ويجوز أن يكون للتنويع، أى نوعاً من المنافع الدينية والدنيوية.

وأما المراد بكلمة «منافع» فيروى عن محمد الباقر رضى الله عنه تخصيص المنافع بالأخروية وهى العفو والمغفرة. وفى رواية عن ابن عباس- رضى اللَّه عنهما- تخصيصها بالدنيوية. أى أنه حملها على منافع الدنيا، وهى أن يتجروا فى أيام الحجّ، وتكون إذناً بالاتجار، كما جاء فى آية أخرى: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلًا من ربكم» (۱). قال القرطبى: ولا خلاف فى أن المراد بالآية: التجارة.

والأولى عند جماهير المفسّرين حمل الكلمة على الأمرين، أى المنافع الدينية والدنيوية معاً، وروى ذلك عن ابن عباس، فقد أخرج ابن أبى حاتم عنه أنه قال فى الآية: منافع فى الدنيا ومنافع فى الآخرة، فأما منافع الآخرة فرضوان اللَّه تعالى، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من لحوم البُدْن (الإبل والبقر ونحوهما) فى ذلك اليوم، والذبائح والتجارات. وخصّ مجاهد منافع الدنيا بالتجارة، فهى جائزة للحاج من غير كراهة، إذا لم تكن هى المقصودة من السفر. وهذا مستبعد؛ لأن نداءهم ودعوتهم لذلك غير مقصود فى العبادة، بحسب العادة التشريعية.

والتعميم يشمل أربعة أمور: هى شهود (أى حضور) المناسك، كعرفات والمشعر الحرام، والمغفرة، والتجارة، والأموال، والمعنى: ليحضروا منافع لهم، أى ما يرضى اللَّه- تعالى- من أمر الدنيا والآخرة، فتتحقق بالحجّ منافع الدنيا والآخرة، وما أكثرها وأجداها لكل مؤمن.

وأُرجح القول بالعموم؛ عملًا بالمعهود من كثرة أفضال اللَّه وعوائده الحسنى على الناس؛ ولأن مقتضى الترغيب والتحريض على أداء الحجّ يناسب ذلك، ولا داعى للتضييق وتحجير الواسع، فإن سعة رحمة اللَّه شملت كلّ شىء. قال ابن العربى: والدليل عليه عموم قوله: «منافع» فكل ذلك يشتمل عليه هذا القول. وهذا يعضده تفسير قوله- تعالى-: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلًا من ربكم» وذلك هو التجارة بإجماع من العلماء. فيكون القصد من المنافع- إذن- منافع الدنيا والآخرة:

المنافع الدنيوية:

هى التى تكون سبباً لتقدم الحياة الإنسانية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية والعادات كلها.

فيكون الحجّ والعمرة مدرسة عملية تدريبية على تحقيق المساواة التامة بين الناس فى مظهرهم وحقوقهم وواجباتهم، فلا يتميز غنى بغناه، ولا يعرف فقير بفقره، ولا حاكم بعزّته وسلطانه، ولا متنفذ ذو جاه بنفوذه وجاهه، ولا متفوق فى أى شىء بتفوقه وتميزه فكراً وعملًا واختراعاً وتطبيقاً. الكل يضرعون إلى اللَّه، ويتجهون إلى عزّته، والطمع بعفوه ومغفرته، والجميع يتساوون فى أداء المناسك والشعائر فى الوقوف بعرفات، والمشعر الحرام، ورمى الجمار، والطواف حول الكعبة المشرفة، والسعى بين الصفا والمروة، والحلق أو التقصير.

وبعد أداء المناسك يتذاكر الحجاج الآراء فى تبادل خيراتهم ومنتجاتهم وثرواتهم، فينتفع الكل فرداً وجماعة، ويعقدون الصفقات أو يصدرون الوعود، وتتم المكاتبات ومعرفة العناوين لإكمال ما تمت المفاوضة حوله.

وفى أثناء ممارسة تلك الشعائر يتعاطف الناس، ويتعلمون كيفية التخلص من داء الشح والبخل، فتسخو الأيدى، ويكثر العطاء والبذل، ويزداد الإنفاق فى سبيل اللَّه، وتراق الدماء من الأضاحى والقربات، ويعم الخير

۱- ۱ البقرة: ۱۹۸.

ص: ۱۷

الطوعى، ويستفيد الكل من هذا وذاك. وهذا يحقق تضامناً وتكافلًا اجتماعياً وطيد الجذور بين الأسرة الإسلاميّة الكبرى، ويغتنى الفقراء، وتظهر ثمرات نداء سيدنا إبراهيم عليه السلام فيما حكاه اللَّه عنه: «ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرّم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون» (۱).

ويقوى الشعور بالانتماء الخالد للأمة الإسلاميّة، والغيرة على مصالحها، والإحساس بواجب المسلم وحقه على أخيه المسلم، وضرورة الإسهام فى تفادى المشكلات، وتخطى المحن والأزمات والصعاب، وترسيخ جذور وحدة المسلمين، بالتعارف والتآلف، وتقييم الأحوال والأوضاع، والتخطيط لمستقبل باسم زاهر بعيد عن العثرات والمآسى والآلام. ويشعر الحجّاج بقوة الروابط التى تربطهم بإخوانهم فى المشارق والمغارب، والتى أنعم اللَّه بها عليهم، فأنشأها الإيمان، وحققها لهم الإسلام، وأحكم نسيجها بروابط الأخوة السامية المخلصة، والمحبة الصادقة، والودّ فى اللَّه ومن أجل اللَّه، والإيثار والتضحية والفداء، والصدق فى القول والعمل، والتأثر ببيئة وأحوال الصفا والطهر الذى كان الحجُّ مظلة لها، ومؤثراً فى تكوينها، فيسهل اللقاء، وتتجرد النفوس عن الأطماع والمصالح الذاتية، والأهواء والشهوات الصارفة عن جادة الاستقامة.

وتظهر فى رحلة الحجّ أخلاق سامية- عدا ما ذكر- من الصبر والتجمل وتحمل الأذى والمشقة، والتخلص من العادات الذميمة والخصال السيئة، والترفع عن المعاصى والذنوب، وتحلى النفوس بعواطف المحبة وتنمية عوامل الخير وصنع المعروف، مما يجعل هذه الرحلة من أقوم السبل المؤدية إلى تهذيب الأنفس وتقويم الطباع، والشعور براحة النفس والأمن والاطمئنان، وغمرة الفرحة والسعادة بأداء الفريضة، وبذكر اللَّه: «... ألا بذكر اللَّه تطمئن القلوب» (۲).

وقد حذّر القرآن الكريم من التورط بما يتنافى مع إيجابيات الحجّ وآدابه المتعددة، فقال تعالى: «الحجُّ أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه اللَّه وتزودوا فإنّ خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب» (۳). ويبشّر النبيصلى الله عليه و آله و سلم الحجّاجَ المترفعين عن دنايا الأخلاق، المعتصمين بعفة اللسان وطهارة القلب، يبشرهم بالمغفرة الشاملة، فقال فيما يرويه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه والترمذى عن أبى هريرة: «مَن حجّ، فلم يرفُثْ، ولم يفسُق، رجع من ذنوبه كيومَ ولدته أُمّه» والرفث كما قال الأزهرى: كلمة جامعة لكل مايريده الرجل من المرأة. والفسق: المعصية، وقد جاء من حديث جابر مرفوعاً: «إن برَّ الحجّ: إطعام الطعام، وطيبُ الكلام، وإفشاء السلام».

ويمكن تلخيص منافع الحجّ الدنيوية: بطهر النفس، ونقاء القلب، وعفة اللسان، وسلامة الجوارح (الأعضاء) من كل ما يشينها ويوقع فى الأذى.

منافع الحجّ الأخروية:

۱- ۱ ابراهيم: ۳۷.

۲- ۲ الرعد: ۲۸.

۳- ۳ البقرة: ۱۹۷.

ص: ۱۸

هی وجوه التقرب إلی اللَّه تعالی، بما یمثّل عبودیة الإنسان من قول وفعل، وترک لذائذ الحیاة وشواغل العیش، کما جاء فی تفسیر المیزان. وثمرته واضحة وهی محو الذنوب، وغفران السیئات، وتحقیق المساواة بین العباد، فلا تفاضل بینهم إلا بالتقوی والعمل الصالح، کما فی قوله تعالی: «إن أکرمکم عند اللَّه أتقاکم إن اللَّه علیم خبیر» (۱).

إن مناسک الحجّ ترشد إلی معانٍ کثیرة، لا یصح لحاج تخطیها دون تأمل وإدراک، وإمعان النظر فیها؛ لأن فهم الحکمة التشریعیة منها تزید النفس متعة، وتبعث لأداء التکالیف الشرعیة والطاعات الإلهیة، وتحقق مغزی الحجّ علی النهج الربانی المقصود به خیر الإنسان وإسعاده.

فالإحرام والتجرّد من لباس الرجال- ما عدا ستر العورات بملابس الإحرام المعروفة- یقمع شهوات النفس والأهواء، ویبعد الناس عن التفکیر فی الدنیا، ویوجه الإنسان إلی الخالق والتفکیر بقدسیته وعظمته وجلاله، ویؤدی إلی سمو الروح، وترقی الوجدانات والضمائر، وإظهار الخضوع والتواضع للَّه‌تعالی، والبعد عن شوائب الکبریاء والغرور، وعلاج أمراض النفس من حبّ الاستعلاء ومزامنة الحقد والشحناء، وإخلاص العمل للَّه‌جلّ جلاله، وبغیر الإخلاص للَّه‌الذی هو جوهر الدین لا قیمة لأی‌عمل، ولا فضل لأی‌مسلم فی عبادة ومعاملة وخلق وغیر ذلک. ومن أهم مقومات الإخلاص: التسامح مع المسلمین، وتطهیر النفوس من البغضاء والأحقاد والخصومات لهم، سواء المعاصرون أم الغابرون، عملًا بقول اللَّه- تبارک وتعالی-: «والذین جاءُوا من بعدهم یقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذین سبقونا بالإیمان ولا تجعل فی قلوبنا غلًا للذین آمنوا، ربنا إنک رؤوف رحیم» (۲).

ونشید التلبیة الذی یردّده الحجّاج، بدءاً من الإحرام حتیصباح یوم العید برجم جمرة العقبة الکبری شاهد حی، وواقع ملموس علیصدق التوجه إلی اللَّه تعالی، والترفع عن أوضار (أوساخ) الدنیا وشهواتها، والتذکیر الدائم بطاعة اللَّه وامتثال أوامره واجتناب نواهیه.

والحضور إلی بیت اللَّه الحرام لزیارته یحقّق منافع الدنیا والآخرة؛ لأن شهود الکعبة المشرفة إرواء لتعلق القلوب المتلهفة لها، والإنسان مجبول علی حبّ النفع.

والطواف حول البیت الحرام یؤکّد وحدة المسلمین العامة، ودلیل علی التشبه بملائکة الرحمن الحافین حول العرش، وتصعید الروح نحو العلو الإلهی، وعروج إلی ملکوت اللَّه بالقلب والفکر، وتذکیر دائم بصاحب البیت وهو اللَّه جلّ وعلا، وتجدید العهد مع اللَّه علی الإقرار بربوبیته ووحدانیته، بدءاً من نقطة الانطلاق فی الطواف بالحجر الأسود أو الأسعد؛ لیکون قرینة أو أمارة علی وحدة العمل بین الناس، وطریقاً لإنفاذ عهد اللَّه علی الحقّ والعدل والخیر والتوحید والفضیلة. وهذا العهد الإلهی القدیم أشار إلیه القرآن المجید فی قوله تعالی: «وإذ أخذ ربّک من بنی آدم من ظهورهم ذریَتهم وأشهدهم علی أنفسهم، ألستُ بربکم قالوا بلی شهدنا أن تقولوا یوم القیامة إنا کنا عن هذا غافلین» (۳).

والسعی بین الصفا والمروة تردد فی معالم الرحمة الإلهیة، والتماس للمغفرة والرضا الربانی، وتلمس لأفضال اللَّه وخیراته، وطلب عونه لتحمل مشاق الحیاة، کما فعلت السیدة هاجر زوج إبراهیم الخلیل علیه السلام حین أعوزها الماء، فقامت تسعی ضارعة إلی اللَّه- تعالی- لإرواء ظمئها، وسدّ حاجة ابنها إسماعیل علیه السلام، قال اللَّه تعالی: «إن الصفا والمروة من شعائر اللَّه فمن حجّ البیت أو اعتمر فلا جناح علیه أن یطوّف بهما ومَن تطوع خیراً فإن اللَّه شاکر علیم» (۴).

۱- ۱ الحجرات: ۱۳.

۲- ۲ الحشر: ۱۰.

۳- ۳ الأعراف: ۱۷۲.

۴- ۴ البقرة: ۱۵۸.

ص: ۱۹

وقال النبيّصلى الله عليه و آله و سلم فيما رواه أحمد فى مسنده: «اسعَوا فإن اللَّه كتب عليكم السعى».

والوقوف بعرفة فى ساحة الرضوان الإلهى، الساحة الواحدة الشاملة لجميع الحجّاج، إقبال خالص على اللَّه عزّ وجلّ، واتصال روحانى مباشر مع اللَّه، واحتماء بسلطان اللَّه، وطلب فضله ورحمته، موقناً الحاج بإجابة دعائه.

وأما الرمى أو رجم إبليس فى يوم العيد وأيام التشريق الثلاثة: فهو رمز مادى لمقاومة وساوس الشيطان وأهوائه، والتخلص من نزعات الشر، ومحاربة الفساد والانحراف، فهو كما يقول المناطقة: «المحسوس يدل على المعقول» فيكون رمى الجمرات، واستلام الحجر الأسود، والطواف حول الكعبة، تمثيلًا للحقائق بصور المحسوسات، ورمزاً لمعانٍ عميقة بصور حركية مادية، تذكّر المؤمن بأهدافها وغاياتها، وتحمله على استدامة المقاومة لشرور النفس ونزعاتها.

هذا هو القصد من هذه الشعائر، وليس كما يتصور سخفاء العقول من المستشرقين، وضعفاء الإيمان، أن مناسك الحجّ دوران حول أحجار، وتعظيم للرموز المادية، وامتداد للوثنية.

وقد تنتهى هذه الشعائر بذبح الأضاحى والنذور وجزاءت المخالفة للمناسك؛ ليكون ذلك الوداع الأخير للرذيلة بإراقة الدم تعبيراً عن التخلص منها، والتزام فضيلة التضحية والفداء، كما قال اللَّه تعالى: «لن ينالَ اللَّهَ لحومُها ولا دماؤها ولكن ينالُه التقوى منكم كذلك سخّرها لكم لِتكبروا اللَّه على ما هداكم، وبشر المحسنين» (۱).

وكلّ هذه الشعائر والمناسك ذات المنافع الأخروية، تدل دلالة قوية على الثقة باللَّه، وطلب أفضاله، وتشعر الإنسان فى أعماق نفسه بعظمة اللَّه وجلاله؛ وحلاوة مناجاته وعبادته، وطلب رضاه وقربه، فيكثر البكاء، ويشتدّ النحيب، وتصفو النفوس، وتتكاثر حالات التوبة النصوح الخالصة للَّهوالندم على الماضى. هذا فضلًا عن تذكر أهل الإيمان بماضى الإسلام، وجهاد نبىّ اللَّه وصحبه الكرام فى نشر دعوة اللَّه، وتحطيم معاقل الشرك، وهدم معالم الوثنية، وتهاوى الأصنام، وانتصار دعوة الحقّ والتوحيد. وما أجمل منافع الحجّ فى حديث رواه البيهقى: «الحجاج والعمّار وفد اللَّه، إن سألوا أُعطوا، وإن دعوا أُجيبوا، وإن أنفقوا أُخلف لهم»!.

الهوامش:

۱- ۱ الحجّ: ۳۷.

ص :۲۰

إتمَام الحجج فی تفسیر مَدلول و لا جدَال فی الحَج

ص: ۲۱

إتمَام الحجج فى تفسير مَدلول و لا جدَال فى الحَج

محمد باقر حجتى

تمهيد:

الحمد للّهالذى حرّضنا على الجدال والقتال- فى جلّ الأحوال- ضد أولياء كل شيطان محتال، ومنافق بطّال، ومشرك مختال، وقال: «... حرّض المؤمنين على القتال ...»، و «... جاهد الكفار والمنافقينَ واغلُظ عليهم ...»، و «... فقاتلوا أولياء الشيطان ...»، وقال: «... وجادلهم بالتى هى أحسن ...».

والصلاة والسلام على محمد وجميع انبياء اللّه ورسله، الذين جادلوا بالحق ليدحضوا به الباطل، والمشركين فأكثروا جدالهم، وعلى آله الذين أفرغوا جهدهم فى دعوة الناس إلى سبيل ربّهم بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتى هى أحسن، فبذلوا وسعهم فى مجادلة الملاحدة والكفرة فأحسنوا جدالهم.

وبعد، فقد قال عزّ من قائل: «الحجُّ أشهر معلومات فمَن فرض فيهن الحجَّ فلا رفث ولا فسوق ولا جِدال فى الحجّ وما تفعلوا من خير يعلمه اللّه وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى واتّقون يا أولى الألباب» (۱).

قبل أن نتناول تفسير الآية نلقى الضوء على كلمة «جدال» لغة واصطلاحاً الواردة فيها:

ألف- المدلول اللغوى للجدال:

۱- كلمة الجدال، بكسر الجيم من «الجَدْل»، وللجدل ذكرت المعانى التالية: شدّة الفتل التى هى أصل معنى «الجدل» (۲)، فالإحكام والفتل هما روح هذه اللغة، ويشكّلان أساسها أيضاً. وسائر المعانى الأخرى التى ذكرت لهذه اللغة فى المعاجم وكتب اللغة ترجع إلى هذين المفهومين الذين هما أساسا هذهِ اللغة وتلائمهما. ولهذه المناسبة والملاءمة تطلق كلمة الجديل على «زمام الناقة» الذى يفتل من الأدم أو الشَّعْر، ويعلّق على عنق البعير أو الناقة، كما قال

۱- ۱ البقرة: ۱۹۷.

۲- ۲ معجم متن اللغة، ط دار مكتبة الحياة، بيروت ۱۳۳۷ ه. ق ۱: ۴۸۹.

ص: ۲۲

ابن منظور: «الجدیل حبل مفتول من أدم أو شعر یکون فی عنق البعیر أو الناقة». والذی یصحّح اطلاق الجدیل علی زمام النّاقة أو البعیر هو أن هذا الزّمام مفتول وأُحکم فَتْله. وبهذه المناسبة تستعمل کلمة المجادلة فی المخاصمة والمنازعة والمشاجرة، – وهی نظائر – لأن کل واحد من الخصمین یروم أن یفتلصاحبه عن رأیه الحق أو الباطل (۱).

ونشیر هنا إلی أن الجدیل فی بعض المعاجم – أیضاً – بمعنی الزّمام، وبمعنی عقدی اللؤلؤ والمجوهرات الملوّنة اللذَیْن تشدّهما المرأة علیصدرها: «الوشاح» (۲).

۲– اشتدادصغار الغزال والحیوانات الأخری لتکون قادرة علی أن تتبع أمّها. أو اشتداد الحبّة فی السّنبلة، وبهذه المناسبة تطلق کلمة الجدل والجدیل علی العظام الکبیرة والمستحکمة، والعظام المجوّفة فی الید والرّجل، وعلی معان أخری تفید جمیعها مفهوم القوّة والاستغلاظ. والجدل، باعتبار القدرة علی المخاصمة والجدال، قد استعمل انطلاقاً من هذا المفهوم، ولذلک أطلقت علی کل فرد لَدُود فی المخاصمة (۳).

وبمراجعة معاجم اللغة ودراسة النصوص الأصیلة التی وردت فیها مادّة هذه الکلمة، نستنتج أن فی مفهوم هذه الکلمة – فی الغالب – معنی الفتل أو الاستحکام والقوة، أو المعنیین معاً.

من هنا یجب أن نتلمّس فی مفهوم الجدال روح هذه اللفظة: التی هی عبارة عن القدرة والقوة والفتل والشدّ.

أی أن الفرد الذی یعمد إلی الجدال یکون قویاً «ومتصلباً» فی الخصومة، ویستهدفصرف الجانب الآخر عن نظریاته، ویدفعه إلی الاستسلام.

ویُری فی المعاجم توسعٌ أکثر فی المدلول اللغوی للجدال، لو أردنا استعراضه لطال بنا الحدیث؛ لذلک نختم الکلام مکتفین بهذا المقدار، لنبدأ الحدیث فی المدلول الاصطلاحی لکلمة الجدل والجدال:

ب– المفهوم الاصطلاحی للجدال والجدل: جدل/ ()

() الجدل طریقة فی المناقشة والاستدلال، وأخذ معانی متعددة فی المدارس الفلسفیة المختلفة:

* عند سقراط: مناقشة تقوم علی حوار وسؤال وجواب، یعنی (التهکم والتولید).

* عند أفلاطون: منهج فی التحلیل المنطقی یقوم علی قسمة الأشیاء إلی أجناس وأنواع، بحیث یصبح علم المبادئ الأولی والحقائق الأزلیة.

* عند أرسطو ومناطقة المسلمین: قیاس مؤلف من مشهورات ومسلّمات.

* عند هیغل: انتقال الذهن من قضیة ونقیضها إلی قضیة ناتجة عنهما، ثم متابعة ذلک حتی نصل إلی المطلق.

* عند کانط: منطق ظاهری ینحصر فی سفسطة المصادرة علی المطلوب وخداع الحواس. قال الجرجانی فی «التعریفات»: الجدل هو القیاس المؤلف من المشهورات والمسلّمات، والغرض منه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراک مقدّمات البرهان (۴).

الجدل والمجادلة فی القرآن الکریم والأحادیث:

۱– ۱ القاموس المحیط، ۳: ۳۶۴– وکتاب معجم متن اللغة، ۱: ۴۹۰.

۲– ۲ القاموس المحیط، ۳: ۳۶۴– وکتاب معجم متن اللغة.

۳– ۳ انظر المراجع السابقة المذکورة فی اللغة، الفیروز آبادی وابن منظور علی أن «الجدل» بالتحریک: اللّدَدْ فی الخصومة والقدرة علیها. راجع: القاموس المحیط، ۳: ۳۴۷– لسان العرب، ۱: ۴۲۰.

۴- ۴ راجع لسان العرب: المصطلحات العلمیة والفنیة، ۴: ۱۰۷.

ص: ۲۳

وردت كلمـة «الجـدل» فى كتاب اللَّه العزيز فى موضـعين، ووردت مشـتقّات من المجادلـة فى ثلاثـة وعشـرين موضـعاً، ووردت كلمة الجدال فى موضعين.

ينبغى قبـل دراسـة هـذه المواضـع التـذكير بـأن مصـطلح «الجـدل»- إضافـة إلى أنه يعنى فى المنطق القيـاس المتـأتى من المشـهورات والمسلّمات- فى علوم القرآن والتفسير يعنى أيضاً، الاستدلال والقياس البرهانى. وعلى سبيل المثال:

۱. بدر الدين الزركشى فى النوع الثالث والثلاثين عقد باباً فى كتابه «البرهان» تحت عنوان «فى معرفة جدله» (۱)، أى جدل القرآن.

۲. وهذا هو جلال الدين السيوطى فى النوع الثامن والستين فتح باباً فى كتابه «الإتقان» تحت عنوان «فى جدل القرآن» (۲).

وهما قصدا من الجدل «مفهوماً واسعاً» يشمل القياس الجدلى والقياس البرهانى عند المنطقيين. وقال بدر الدين الزركشى:

«وقد أفرده بالتصنيف نجم الدين الطوفىّ (ت ۷۱۶ ه. ق)، قال العلماء: «قد اشتمل القرآن الكريم على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير يبنى من كليات المعلومات العقلية أو السمعية إلا وكتاب اللَّه قد نطق به ..» (۳).

واضـح أن المقصود من هـذا المصـطلح ليس هو مفاهيم الجـدل الأخرى كالمغالطـة والسفسـطة، بل هو اسـتخدام القياس الذى يهدى الخصم إلى الحق والحقيقـة وصـلاح الحـال والمـآل، من هنـا لاـ يمكن القول: إن الجـدل أو المجادلـة تقوم على المخاصـمة واللّجاج المـذموم، وحتّى فى القرآن الكريم- حيث وردت مشـتقّات هـذه الكلمـة فى مواضع مختلفـة، وفى اسـتعمالات متباينـة- لم ترد جميعاً بمعنى الخصومة والجدال المذموم.

الجـدل والمجادلة فى القرآن أساساً بمفهوم الاسـتدلال، فوردت فى مواضع بمعنى الاسـتدلال الخاطئ والواهى الممزوج بالمخاصـمة، وفى مواضع أخرى بمعنى الاستدلال الصحيح والمنطقى ذى الأساس العقلانى المقرون بالأنس والمحبة والمودّة.

وبشـكل عام أن المنهىّ عنه فى القرآن من الجدل والمجادلة هو اللّجاج والعناد، والاسـتدلال المقرون بالسفسطة لإثبات أمر باطل بعيد عن الواقع. نقول فى تفسـير الآيـة ۱۹۷ مـن سـورة البقرة: إن الجـدال والاسـتدلال المتجه إلى إثبـات الحـق ليس بمنهىّ عنه فى القرآن الكريم بل هو أكثر من ذلك، فقد كُلّف المسلمون جميعاً بمثل هذا الجدال والمجادلة، كما سنرى فى تفسير هذه الآية:

«الحجُّ أشهر معلومات فمن فرض فيهنّ الحجّ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ...».

المـدة لأداء مناسك الحج هى الأشـهر التى عينتها الشـريعة المقدسة الإسـلامية، ولا يمكن أداء هذه المناسك أكثر من مرة واحدة فى السـنة، بينما يمكن شرعاً أداء العمرة عدّة مرات خلال أشهر السنة. والأشهر التى يمكن فيها أداء مناسك الحج على رأى الشيعة: شوال وذو القعدة وعشرة أيام من ذى الحجة أو كل ذى الحجة (۴)، وأهل السّنة

۱- ۱ البرهان فى علوم القرآن، ط دار المعرفة للطباعة والنشـر، بيروت، ۲: ۲۴. ولأجل الاطلاع على أنواع الاسـتدلال فى القرآن، راجع نفس المصدر، ۲: ۲۴- ۲۵.

۲- ۲ الإتقان فى علوم القرآن، تحقيق محمـد أبو الفضل ابراهيم، ۴: ۶۰. ذكر السـيوطى فى هذا النوع أصناف الجدل والاستدلال التى وردت فى القرآن الكريم، راجع نفس المصدر ۴: ۶۰- ۶۶.

۳- ۳ البرهـان فى علوم القرآن، ۲: ۲۴- وانظر أيضاً: الإتقان، ۴: ۶۰. حرىّ بالذكر أن السـيوطى فى كتابه «الإتقان» لم يأت بشىء زائد على ما فى البرهان.

۴- ۴ انظر مجمع البيـان للطبرسـى، ط كتابفروشـى اسـلاميهٔ، طهران، ۱۳۷۳ ه. ق، ۲: ۳۹۳- وجواهر الكلام فى شـرح شـرائع الإسلام للنجفى، ط دار إحياء التراثالعربى، ۱۹۸۱ م، ۱۸: ۱۲- ۱۳.

ص: ۲۴

أیضاً ذهبوا إلی أن الفترة هی شوال وذو القعدة وبعض أیام من ذی الحجة وقیل: إنها العشرة الأولی من هذا الشهر (۱).

من هنا لا یجوز تقدیم المناسک ولا تأخیرها عن هذه الأشهر، کما کان یفعل النسأة الذین کانوا یجیزون تقدیم الحج وتأخیره، وقد قال اللَّه تعالی: «إنّما النسیء زیادة فی الکفر یُضلّ به الّذین کفروا یُحلّونه عاماً ویُحرّمونه عاماً لیواطئوا عدّة ما حرّم اللَّه فیُحلّوا ما حرّم اللَّه، زیّن لهم سوء أعمالهم واللَّه لا یهدی القوم الکافرین» (۲)(۳).

النسأة هم الذین أحلّوا التقدیم والتأخیر فی الحج.

ومن أوجب علی نفسه الحجَّ فی هذه الأشهر- أی الأشهر المحدّدة لإحرام الحج- وأحرم فیها لعمرة التمتع علی رأی الشیعة، فلا یجوز له أن یمارس الأعمال الجنسیّة من جماع وتلذّذ: «فلا رفث». ولا یجوز له الکذب، کما یجب أن یصون لسانه من سبّ المؤمن وشتمه، فقد قال رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم: «سباب المؤمن فسوق وقتاله کفر» (۴).

وقیل: إن المراد بالفسوق کل ألوان المعاصی. وقال بعضهم: «إنه التنابز بالألقاب» أو «الکذب» (۵)، ولا جدال فی الحجِّ.

وکل ما یقدّمه الإنسان من عملصالح، فاللَّه به علیم، ولعدله یثیب الصّالحین علی ما قدّموا من خیر. وتأمر الآیة بالتزوّد فی الحجّ بما یحتاجه المسافر فی الطریق، أو بالأعمال الصالحة التی هی زاد الآخرة، «فإنّ خیر الزاد التقوی».

وتؤکد الآیة الکریمة علی التقوی لأجل مطالبة أهل العقول أن یتّقوا اللَّه «واتقون یا أولی الألباب»، هذا هو موجز تفسیر الآیة المذکورة فی سورة البقرة.

* والذی نرید أن ندرسه ونمعن النظر فیه بدقة هنا، هو الجدال المنهی عنه فی هذه الآیة، ذلک لأن فئة من السطحیین أو المتزمتین الجاهلین، أو الفقهاء المأجورین للمستکبرین، المنفذین لأوامر السلاطین، اتخذوا من هذه الآیة ذریعة لتوجیه سیاط نقدهم إلی المسلمین، الذین یرفعونصوتهم فی موسم الحجِّ بلعن شیاطین الإنس والجن، والذین یستهدفون توعیة المسلمین واستنهاضهم.

«ولا جدال فی الحجِّ»، ما هو الجدال المَنهی عنه فی الحجِّ؟

ألف- ما هو المقصود من هذا الجدال؟

۱- آراء المفسرین وعلماء الشیعة فی هذا المجال:

ذکر المفسرون وفقهاء الشیعة أن الجدال فی الحج هو قول: «لا واللَّه» و «بلی واللَّه» جدیر بالذکر أن هذا القول هو الحدّ الأدنی من الجدال، حیث یروم الفرد بذلک القسم أن یصرّ علی قوله ورأیه، أو ینقض رأی مخاطبه لیرجّح علیه رأیه.

من هذا یتبیّن أن «الجدال فی الحجّ»- بهذا المفهوم- مقرون بالقسم، أی مقرون بالتشدید والتأکید، وهذا المعنی یرتبط بما ذکرناه بشأن الأصل اللغوی لکلمة الجدال.

۱- ۱ انظر التفسیر الکبیر للرازی، ط دار احیاء التراث العربی، ۱۹۸۱ م، ۵: ۱۶۲- وتفسیر القرآن العظیم لابن کثیر، ط دار المعرفة، بیروت، ۱۴۰۳ ه. ق، ۱: ۲۳۶.

۲- ۲ التوبة: ۳۷. معنی النسیء: تأخیر الأشهر الحرم عمّا رتّبها اللَّه تعالی علیه.

وکانت العرب تحرّم الشهور الأربعة وهی ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ورجب وذلک مما تمسّکت به من ملّة إبراهیم وإسماعیل. وهم کانوا أصحاب غارات وحروب، فربما یشقّ علیهم أن یمکثوا ثلاثة أشهر متوالیة لا یغزون ویقولون: إنّ مهنتنا هی الحرب والغارة، ولو أمسکنا عن الحرب والغارة فی مدّة طویلة- یعنی ذی القعدة وذی الحجة، والمحرّم- لتعبنا. فکانوا یؤخرون تحریم المحرّم إلیصفر،

فیحرّمونه ویستحلّون المحرّم، فیمکثون بذلک زماناً ثم یؤول التحریم إلی المحرّم، ولا یفعلون ذلک إلا فی ذی الحجهٔ. ولمّا أحلّوا المحرّم سمّوه أحد الصفرین.

قال مجاهد: کان المشرکون یحجون فی کل شهر عامین، فحجّوا فی ذی الحجهٔ عامین، ثمّ حجّوا فی المحرّم عامین، ثمّ حجّوا فیصفر عامین، وکذلک فی الشّهور حتّی وافقت الحجّهٔ التی قبل حجّهٔ الوداع فی ذی القعدهٔ. ثمّ حجّ النّبیصلی الله علیه و آله و سلم فی العام القابل حجّهٔ الوداع، فوافقت فی ذی الحجهٔ، فذلک حین قال النّبیصلی الله علیه و آله و سلم وذکر فی خطبته:

«ألا وإن الزمان قد استدار کهیئهٔ یوم خلق السموات والأرض، السنهٔ اثنا عشر شهراً منها أربعهٔ حرم، ثلاثهٔ متوالیات: ذو القعدهٔ وذو الحجّهٔ ومحرّم. ورجب الذی بین جمادی وشعبان».

أرادصلی الله علیه و آله و سلم: الأشهر الحرم رجعت إلی مواضعها، وعاد الحجّ إلی ذی الحجّهٔ وبطل النسیء. قال العلّامهٔ المیرزا أبو الحسن الشعرانی: قول مجاهد من الأقوال التی لیس فیها إبهام، بل هو أوضح من القول الأوّل، ولکن أوضح ما ذکر فی شرح النسیء هو ما قاله أبو ریحان البیرونی فی «الآثار الباقیهٔ عن القرون الخالیهٔ». وحاصله:

أن السنهٔ القمریّهٔ تتقدّم علی الشّمسیهٔ عشرهٔ أیام تقریباً فی کل عام، فإذا مضی ثلاثهٔ أعوامصار المتأخر بمقدار شهر. وکانوا یزیدون علی السنهٔ الثالثهٔ شهراً، ویجعلون أول السّنهٔ الرّابعهٔ منصفر ویسمونه «محرماً» فکان یقع حجهم فی تلک السّنهٔ من محرّم، ثم بعد سنتین فیصفر، وهکذا. وغرضهم من ذلک التشبه بالیهود فی تطبیق الشهور علی الفصول. وفی تفسیر الرازی والنیشابوری ما یعین علی فهم ذلک. راجع: مجمع البیان، ۵: ۲۹ وهامشه- وکشف الأسرار وعدّهٔ الأبرار، ط ۲، طهران، ۱۳۵۷ ه. ش، ۴: ۱۳۸- روض الجنان وروح الجنان لأبی الفتوح الرّازی، ط ۲، شرکت تضامنی علمی، طهران، ۱۳۶۱ ه. ق، ۵: ۱۷۸. وهذان التفسیران من التفاسیر الّتی کتبت باللّغهٔ الفارسیّهٔ.

۳- ۲ التوبهٔ: ۳۷. معنی النسیء: تأخیر الأشهر الحرم عمّا رتّبها اللّه تعالی علیه.

وکانت العرب تحرّم الشهور الأربعهٔ وهی ذو القعدهٔ وذو الحجهٔ والمحرّم ورجب وذلک مما تمسّکت به من ملّهٔ إبراهیم وإسماعیل. وهم کانوا أصحاب غارات وحروب، فربما یشقّ علیهم أن یمکثوا ثلاثهٔ أشهر متوالیهٔ لا یغزون ویقولون: إنّ مهنتنا هی الحرب والغارهٔ، ولو أمسکنا عن الحرب والغارهٔ فی مدّهٔ طویلهٔ- یعنی ذی القعدهٔ وذی الحجهٔ، والمحرّم- لتعبنا. فکانوا یؤخرون تحریم المحرّم إلیصفر،

فیحرّمونه ویستحلّون المحرّم، فیمکثون بذلک زماناً ثم یؤول التحریم إلی المحرّم، ولا یفعلون ذلک إلا فی ذی الحجهٔ. ولمّا أحلّوا المحرّم سمّوه أحد الصفرین.

قال مجاهد: کان المشرکون یحجون فی کل شهر عامین، فحجّوا فی ذی الحجهٔ عامین، ثمّ حجّوا فی المحرّم عامین، ثمّ حجّوا فیصفر عامین، وکذلک فی الشّهور حتّی وافقت الحجّهٔ التی قبل حجّهٔ الوداع فی ذی القعدهٔ. ثمّ حجّ النّبیصلی الله علیه و آله و سلم فی العام القابل حجّهٔ الوداع، فوافقت فی ذی الحجهٔ، فذلک حین قال النّبیصلی الله علیه و آله و سلم وذکر فی خطبته:

«ألا وإن الزمان قد استدار کهیئهٔ یوم خلق السموات والأرض، السنهٔ اثنا عشر شهراً منها أربعهٔ حرم، ثلاثهٔ متوالیات: ذو القعدهٔ وذو الحجّهٔ ومحرّم. ورجب الذی بین جمادی وشعبان».

أرادصلی الله علیه و آله و سلم: الأشهر الحرم رجعت إلی مواضعها، وعاد الحجّ إلی ذی الحجّهٔ وبطل النسیء. قال العلّامهٔ المیرزا أبو الحسن الشعرانی: قول مجاهد من الأقوال التی لیس فیها إبهام، بل هو أوضح من القول الأوّل، ولکن أوضح ما ذکر فی شرح النسیء هو ما قاله أبو ریحان البیرونی فی «الآثار الباقیهٔ عن القرون الخالیهٔ». وحاصله:

أن السنهٔ القمریّهٔ تتقدّم علی الشّمسیهٔ عشرهٔ أیام تقریباً فی کل عام، فإذا مضی ثلاثهٔ أعوامصار المتأخر بمقدار شهر. وکانوا یزیدون علی السنهٔ الثالثهٔ شهراً، ویجعلون أول السّنهٔ الرّابعهٔ منصفر ویسمونه «محرماً» فکان یقع حجهم فی تلک السّنهٔ من محرّم، ثم بعد سنتین فیصفر، وهکذا. وغرضهم من ذلک التشبه بالیهود فی تطبیق الشهور علی الفصول. وفی تفسیر الرازی والنیشابوری ما یعین علی فهم

ذلك. راجع: مجمع البيان، ۵: ۲۹ وهامشه- وكشف الأسرار وعدّة الأبرار، ط ۲، طهران، ۱۳۵۷ ه. ش، ۴: ۱۳۸- روض الجنان وروح الجنان لأبى الفتوح الرّازى، ط ۲، شركت تضامنى علمى، طهران، ۱۳۶۱ ه. ق، ۵: ۱۷۸. وهذان التفسيران من التفاسير الّتى كتبت باللّغة الفارسيّة.

۴ – ۳ مجمع البيان، ۲: ۲۹۴- تفسير القرآن العظيم، ۱: ۲۳۷- والكافى أصول ...، ط كتابفروشى اسلامية، طهران، ۴: ۶۴ ترى فى المصدر الأخير عبارة أضيفت إلى هذا الحديث، وهى «... وأكل لحمه معصية، وحرمة ماله كحرمة دمه»، وانظر أيضاً جامع البيان للطبرى، ط دار المعارف مصر، ۴: ۱۵۰- ومسند أحمد، ۳۶۴۷.

۵- ۴ مجمع البيان، ۲: ۲۹۴- روض الجنان، ۱: ۵۰۳- كشف الأسرار، ۱: ۵۳۱- المنار، ۲: ۲۲۷- جواهر الكلام، ۱۸: ۳۵۵.

ص: ۲۵

حسب هذه النّظریة، لو أراد شخص أن یؤکّد أقواله أو ینقض أقوال الآخرین، ولم یمزج ذلک بقسم، ولم یشدّد علی قوله بیمین، فلیس ذلک من الجدال فی الحجّ ولم یصدر بشأنه نهی (۱). ولکی نعطیصورة أکمل عن نظریة الشّیعة فی هذا الصدد، نذکر خلاصة لما ذکره المرحوم الشیخ محمّد النجفی الإصفهانی حول الجدال فی الحج:

«والجدال کتاباً وسنّة وإجماعاً بقسمیه (۲) هو علی ما فی أکثر کتب الأصحاب أو جمیعها وأکثر النصوص، قول «لا واللَّه» و «بلی واللَّه» (۳).

ونحن نذکر بعض النصوص علی سبیل المثال:

صحیح معاویة بن عمّار، قال: سألت أبا عبد اللَّه (جعفر بن محمّد الصّادق) علیه السلام عن رجل یقول: «لا لعمری» وهو محرم؟ فقال: لیس بالجدال، وإنما الجدال قول الرّجل «لا واللَّه وبلی واللَّه»، وأما قوله «لا ها» فإنما طلب الاسم، وقوله «یا هناه» فلا بأس به، وأما قوله «لا بل شانیک» فإنه من قول الجاهلیة (۴).

وفی خبر أبان بن عثمان عن أبی بصیر- علی ما فی التهذیب (۵)- قال أبو عبد اللَّه علیه السلام: «إذا حلف الرّجل ثلاث أیمان (۶)- وهوصادق، وهو محرم- فعلیه دم یهرقه، وإذا حلف یمیناً واحدة کاذباً فقد جادل، فعلیه دم یهرقه» (۷).

لکن روی عن أبی بصیر فی خبر آخر أنه قال: سألته عن المحرم یرید أن یعمل العمل فیقولصاحبه: «واللَّه لا- تعمله»، فیقول: «واللَّه لأعملنّه» فیخالفه مراراً، أیلزمه ما یلزمصاحب الجدال؟ قال: إنما أراد بهذا إکرام أخیه، إنما ذلک ما کان فیه معصیة» (۸).

الجدال عند الإمامیة قول «لا واللَّه وبلی واللَّه» بدلیل إجماع الطائفة وطریقة الاحتیاط، وأما قول المخالف: «لیس فی لغة العرب أنّ الجدال هو الیمین» لیس بشیء؛ لأنه لیس بممتنع أن یقتضی العرف الشّرعی ما لیس فی الوضع اللغوی ...، بل ظاهر الروایات اعتبار الکذب أو کونه معصیة مع ذلک، فلو جادلصادقاً لم یکن علیه شیء، مؤید ذلک بأصل البراءة، وبنَفْی الضرر والحرج فی الدین، وبأنه ربما وجب عقلًا وشرعاً، إلا أن عموم النص والفتوی، وخصوص نص الکفارة علی الصّادق بخلافه، ولعل هذا ما دعا الجبعی [العاملی] إلی القول فی الدّروس (۹):

«الجدال فاحشة إذا کان کاذباً أو فی معصیة، فاذا قاله مرّتین فعلیه شاة» (۱۰).

ویقولصاحب الجواهر:

«ثمّ إن الظاهر عدم اعتبار وقوع الأمرین (یعنی «لا واللَّه» و «بلی واللَّه») فی تحقق الجدال، فیکفی أحدهما ...

فتلخص مما ذکرنا کون الجدال الحلف باللَّه بالصیغة المخصوصة یعنی «لا واللَّه» أو «بلی واللَّه»، لا مطلق الحلف باللَّه وإن لم یکن بالصیغة المزبورة» (۱۱).

۲- الجدال فی الحجّ فی رأی المفسرین وفقهاء أهل السّنة:

ولکبار المفسرین والفقهاء من أهل السنة آراؤهم المتعددة فی تفسیر «الجدال فی الحجّ» ونحن نلقی علیها الضوء باختصار:

* یعقد الطبری وغیره فی تفاسیرهم بحثاً مفصلًا بشأن الجدال فی الحجّ، ملخصه ما یلی:

۱- ۱ راجع: تفسیر البرهان للسید هاشم البحرانی، ط مؤسسة الرسالة، بیروت ۱۴۰۳ ه. ق: ۱۹۹- ۲۰۱- مجمع البیان وهامشه، ۲: ۲۹۴- المیزان فی تفسیرالقرآن للعلّامة الطباطبائی، ط ۳، مؤسسة الأعلمی، بیروت ۱۳۹۳ ه. ق، ۲: ۷۹- جواهر الکلام، ۱۸: ۳۵۵ و ۳۵۹- ۳۶۱.

۲- ۲ یعنی الإجماع المنقول والإجماع المحصل.

۳- ۳ جواهر الكلام، ۱۸: ۳۵۹.

۴- ۴ نفس المصدر.

۵- ۵ وهو كتاب تهذيب الأحكام للشيخ الطّوسى، ويعدّ من الكتب الأربعة عند الإمامية.

۶- ۶ بصيغة «لا واللّه أو بلى واللّه».

۷- ۷ جواهر الكلام، ۱۸: ۳۶۰.

۸- ۸ نفس المصدر، ۱۸: ۳۶۰- ۳۶۱.

۹- ۹ هو كتاب «الدروس الشرعية فى فقه الإمامية» للشهيد الأول.

۱۰- ۱۰ جواهر الكلام، ۱۸: ۳۶۱.

۱۱- ۱۱ نفس المصدر، ۱۸: ۳۶۴.

ص: ۲۶

* قال بعضـهم: معنی ذلک النهی هو المنع عن أن یجادل الُمحْرِم أحـداً، وهو أن تماریصاحبک حتی تغضبه، وأورد الطبری أحادیث کثیرة بهذا التعبیر فی کتابه (۱).

* الجدال فی الحجّ: السباب والمراء والخصومات (۲).

* عن محمد بن کعب القرظی قال: الجدال، کانت قریش إذا اجتمعت بمنی قال هؤلاء: حجّنا أتمّ من حجّکم (۳).

* عن القاسم بن محمّد أنه قال: الجدال فی الحج أن یقول بعضهم: الحجّ الیوم، ویقول بعضهم: الحجّ غداً.

* قـال ابن زیـد فی قوله: «ولاـ جـدال فی الحـجّ» قـال: کانوا یقفون مواقف مختلفـة یتجادلون، کلّهم یـدّعی أن موقفه موقف إبراهیم، فقطعه اللَّه حین أعلم نبیّهصلی الله علیه و آله و سلم بمناسکهم (۴).

* ولا جـدال فی الحـج، خبر من اللَّه تعالی عن اسـتقامة وقت الحـج علی میقات واحد لا یتقدّمه ولا یتأخره، وبطلان فعل النسـیء (۵) (ونحن أسهبنا القول فی تفسیر معنی النسیء کما سبق فی هذا المقال).

واختار الطبری هـذا القول من بین سائر الأقوال لبیان مـدلول «الجـدال فی الحـج». ثم یقول: وإنما اخترنا هـذا التأویل فی ذلک ورأیناه بالصواب مما خالفه، لما قدّمناه من البیان آنفاً فی تأویل قوله: «ولا فسوق»: انه غیر جائز أن یکون اللَّه خصّ بالنهی عنه فی تلک الحال مطلق مبـاح فی الحـال التی یخالفهـا، وهی حـال الإحلال، وذلک أن حکم ما خصّ به من ذلک حال الإحرام، وان کان سواء فیه حال الإـحرام وحـال الإحلال فلا وجه لخصوصه به حالًا دون حال، وقـد عمّ به جمیع الأحوال. وإذ کان ذلک کـذلک وکان لا معنی لقول القائل فی تأویل قوله: «ولا جدال فی الحج»، ان تأویله: «لا تمارصاحبک حتی تغضبه» إلا أحد المعنیین:

- إمّا أن یکون أراد: لا تماره بباطل حتی تغضبه، فـذلک ما لا وجه له، لأن اللَّه- عزّ وجلّ- قـد نهی عن المراء بالباطل فی کل حال، محرماً کان المماری أو محلًّا، فلا وجه لخصوص حال الإحرام بالنهی عنه، لاستواء حال الإحرام والإحلال فی نهی اللَّه عنه.

- أو یکون أراد: لاـ تمـاره بـالحق، وذلک- أیضاً- لا وجه له؛ لأن الُمحرم لو رأی رجلًا یروم فاحشـة کان الواجب علیه مراءه فی دفعه عنها، أو رآه یحاول ظلمه والذهاب منه بحق له قد غصَبَهَ علیه، کان علیه مراءه فیه وجداله حتی یتخلّصه منه (۶).

* ویقول محمّد رشید رضا:

«وقیل: هو المراء بالقول، وهو یکثر عادة بین الرّفقة والخدم فی السّفر، لأنّ مشقّته تضیّق الأخلاق، هذا هو المشهور» (۷).

کما قال البروسوی: «ولا جدال» أی لا مراء مع الخدم والمُکارین؛ لأنه یُفْضی إلی التّضاغن وزوال التألیف.

فأما الجدال علی وجه النظر فی أمر من أمور الدین فلا بأس به (۸).

یقول محمّد رشید رضا:

«قال الأسـتاذ الإمام (محمـد عبـده): إن تفسـیر الکلمات الثلاث (أی الرفث والفسوق والجـدال) ینبغی أن یکون متناسـباً وبحسب حال القوم فی زمن التشریع.

۱- ۱ جـامع البیان، ط دار المعرفـة، بیروت، ۱۴۰۰ ه. ق، ۲: ۱۵۸ و ۱۵۹- وانظر أیضـاً: تفسـیر القرآن العظیم، دار المعارف، بیروت، ۱۴۰۲ ه. ق: ۲۳۸.

۲- ۲ نفس المصدر، ۲: ۱۵۹- وانظر أیضاً: کشف الأسرار، ۱: ۵۳۱- التفسیر الکبیر، ۵: ۱۶۵.

۳- ۳ نفس المصدر، ۲: ۱۵۹. قال مالک فی الموطأ: الجـدال فی الحـجّ أن قریشاً کانوا یقفون عنـد المشعر الحرام فی المزدلفة بقزح،

وكـان غيرهم يقفون بعرفـات، وكـانوا يتجـادلون، ويقول هؤلاء: نحن أصوب، قال اللَّه تعالى: «لكل أمّـة جعلنا منسـكاً هم ناسـكوه فلا ينازِعُنّك فى الأمر وادع إلى ربّك إنك لعلى هدى مستقيم وإن جادلوك فقل اللَّه أعلم بما تعملون». قال مالك: هذا هو الجدال فيما يُرْوى واللَّه أعلم. راجع التفسير الكبير، ۵: ۱۶۵- تفسير القرآن العظيم، ۱: ۲۳۸.

۴- ۴ جامع البيان، ۲: ۱۵۹.

۵- ۵ نفس المصدر، ۲: ۱۵۹- ۱۶۰- والتفسير الكبير، ۵: ۱۶۵.

۶- ۶ جامع البيان، ۲: ۱۶۰.

۷- ۷ تفسير المنار، ۲: ۲۷۷.

۸- ۸ روح البيان، ۱: ۳۱۴.

ص: ۲۷

– فأما الرفث: فهو کما قیل: الجماع.

– وأما الفسوق: فهو الخروج عمّا یجب علی الُمحْرم إلی الأشیاء التی کانت مباحهٔ فی الحل، کالصید والطیب والزینهٔ باللباس الَمخیط.

– والجدال: هو ما کان یجری بین القبائل من التنازع والتفاخر فی الموسم.

فبهـذا یکون التناسب بین الکلمات، وإلّا حمّلت کلها علی مـدلولها اللغوی، فجعل الرّفث: قول الفحش، والفسوق: التنابز بالألقاب علی حدّ «ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق» والجدال: المراء والخصام. فتکون هذه المناهی کلّها آداباً لسانیهٔ (۱).

بعـد هـذه الجولـهٔ فی آراء الفریقین بشأن «ولا جـدال فی الحـجّ» نطرح هذا السؤال: هل الجدال ضد شـیاطین الجنّ والإنس ممنوع فی حال الإحرام؟

یقول الإمام فخر الدین الرّازی فی ثنایا تفسیر الآیهٔ الّتی نحن بصددها:

«وأمـا جمهـور المتکلمین فـإنهم قـالوا: الجـدال فی الـدین طاعـهٔ عظیمـهٔ، واحتجّوا علیه بقوله تعـالی: «ادع الی سبیـل ربـک بـالحکمهٔ والموعظهٔ الحسنهٔ وجادلهم بالتی هی أحسن ...» (۲)، وبقوله– تعالی– حکایهٔ عن الکفار، إنّهم قالوا لنوح علیه السلام: «قالوا یا نوح قد جادلتنا فأکثرت جدالنا ...» (۳). ومعلوم أنّ ذلک الجدال ما کان إلّالتقریر أصول الدّین.

إذا ثبت هذا فنقول: «لا بد من التوفیق بین هذه النصوص (یعنی النصوص التی ذکرها الرّازی)، فنحمل الجدال المذموم علی الجدل فی تقریر الباطل وطلب المال والجاه، والجـدال الممـدوح علی الجـدل فی تقریر الحق، ودعوهٔ الخلق إلی سبیل اللَّه، والـذبّ عن دین اللَّه» (۴).

إن مناسک الحجِّ بأسرها طافحهٔ بمظاهر الجدال، الجدال فی تقریر الحق، ودعوهٔ الخلق إلی سبیل اللَّه، والذبّ عن دین اللَّه، الجدال مع الشـیطان ومخاصمته وتحدّیه. هذه المناسک العظیمهٔ تبتدئ بهذا الموقف المتصلّب إزاء الشیطان وتنتهی به: رمی الجمار الذی یتم فی المراحل الأخیرهٔ من المناسک هو تجسـید معنی الاسـتعداد الـدّاخلی، وللتأهّب نحو مواجههٔ العدو الأصـلی المتمثّل بالشـیطان، ومن ثمّ رمیه.

الرّمْی یُبْـدأ بدعاء: «اللهمّ ادْحَر عنّی الشّـیطان»، وهو تعبیر عن إدانهٔ العامل الأساسـی فی ارتکاب المعاصـی، والوقوع فی أنواع الشـقاوهٔ والتهلکهٔ، والحاج بهذا یعلن عن عزمه علی مواجههٔ ومجابههٔ ومجادلهٔ خطط الشیطان الماکرهٔ بکل ألوانها.

الحـاج فی مثـل هـذه الحالـهٔ یُعرب عن ذروهٔ رفضه لکل فساد ولکل عامل فساد، ویسـتثمر فرصـهٔ وجوده مع سائر أبناء أمته الإسـلامیهٔ لیوطّد عری تلاحمه، ولیوحّد خطاه معهم، ثمّ یرمی أعداءه (من شیاطین الإنس) کما رمی رموز الشیاطین المتمثّلهٔ بالجمرات.

وهذه الظاهرهٔ توعیهٔ للمسلمین وشحذ لهممهم ودفعهم إلی أن لا یُرْهبوا من قوی الشرق والغرب المعادیهٔ

۱– ۱ تفسیر المنار، ۲: ۲۲۷.

۲– ۲ النّحل: ۱۲۵.

۳– ۳ هود: ۳۲.

۴– ۴ التفسیر الکبیر، ۵: ۱۶۵.

ص: ۲۸

للإسلام، ولا يخافوا شياطين الجنّ والإنس؛ لأنهم قادرون بتلاحمهم أن يهزموا أعداءهم مهما تزايدت قدرة الأعداء.

رمى الجمار يصعّد روح المقاومة والجهاد فى نفوس المسلمين ليواجهوا الأعداء ويجادلوهم ويمنعوهم من كل تطاول على مقدسات المسلمين، ويكفوا أيديهم عن نهب ثروات المسلمين الماديّة والمعنويّة.

هل الحجّ الذى ينطوى على هذه المفاهيم الثائرة الملحميّة يجب أن يمرّ بهدوء دون أن يحرّك ساكناً؟

ألا ـ ينبغى أن يكون الحج أبرز مظاهر إلقاء الرّعب فى قلوب أعداء اللّٰه؟ ألا يجب أن ترتفع فيه أصوات المسلمين منددة بالشياطين الكبرى والوسطى والصغرى؟ وهل مثل هذا العمل من الجدال منهيٌّ عنه فى الحج؟

لو كانت كل ألوان المقاومة والصمود والمجادلة محظورة فى موسم الحجّ لانتفى رمى الجمار؛ لأنه لون من ألوان المقاومة ومقارعة الشيطان، ولانتفى بعد ذلك كل موقف يتّخذه المسلمون فى هذا الموسم بوجه من يذلّونهم وينتهكون حرماتهم ويسرقون ما عندهم.

هؤلاء الذين يريدون أن يُبْعدوا الحج عن كل ما يزعج طواغيت الأرض، عليهم أن يمنعوا التكبير والتهليل أيضاً، لأنّ فى كلمة «اللّٰه أكبر» تصغيراً لشأنهم ولشأن كل ما سوى اللّٰه، وكلمة «لا إله إلّااللّٰه» تُنزّل هؤلاء الطّغاة من عرش ألوهيّتهم، وتبعد الناس عن عبادتهم؛ لأنها دعوة إلى إخلاص العبوديّة للّٰهدون سواه.

أىّ مفسّر وأىّ فقيه من مفسّرى وفقهاء المذاهب الإسلاميّة قال: إن مجادلة شياطين الأرض، وإعلان الوقوف بوجه الظالمين والطّغاة هى الجدال المنهىّ عنه فى الحجّ؟ كل مظاهر ومناسك الحجّ تنبئ بأنّ هذه المناسك ينبغى أن تتحول إليصرخة تصمّ آذان الطغاة، وإلى وهج يعمى عيون الظّالمين، وإلى حشد قوى متماسك يلقى الرّعب فى قلوب أعداء اللّٰه. ولعلّ ذلك هو السبب فى ضرورة التلبية الجماعية وضرورة رفع الصوت بالتلبية فى موسم الحجّ.

قال رسول اللّٰهصلى الله عليه و آله و سلم:

«أتانى جبريل فقال لى: إن اللّٰه يأمرك أن تأمر أصحابك أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية فإنها من شعار الحجِّ» (۱).

وقال أيضاً: «أتانى جبريل فأمرنى أن آمر أصحابى ومن معى أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية» (۲).

وليس ذلك منحصراً فى التلبية فقط، بل فى كل شعارات الحجِّ، قال (عليه أفضل الصلاة والسلام): «أمرنى جبريل برفع الصوت فى الإهلال، فإنه من شعائر الحجِّ» (۳).

لا أدرى كيف تبلغ الجرأة بالمدافعين عن مصالح القوى الكبرى لأن يعلنوا أن رفع الصّوت بكل شعار إسلامى مناف لأهداف الحج؟ ولعلّ الجرأة تبلغ بهم إلى منع الهرولة فى السعى بين الصّفا والمروة لأنها نوع من التّحرّك الشديد.

كيف يريد هؤلاء سلب الحجّ من مظاهر الحركة، وكلّه حركة تتبلور فى طواف وسعى وإفاضة آناءَ الليل وأطراف النّهار؟

إنّ الحجَّ انقطاع عن الانشداد بالأرض والاتجاه نحو بيت اللّٰه الحرام «رجالًا» وعلى كل «ضامر» لإعلان الالتفاف حول محور دين اللّٰه، ولمقارعة كل أعداء اللّٰه من شياطين الإنس والجن.

ألم يصرّح المفسرون عند تفسير قوله تعالى: «ولا جدال فى الحجّ» أن الجدال فى الدّين طاعة عظيمة (۴)؟ ألم

۱- ۱ كنز العمّال، ط أوفست عن نسخة حيدر آباد، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ۱۳۹۹ ه. ق، ۵: ۳۱.

۲- ۲ نفس المصدر.

۳- ۳ نفس المصدر.

۴- ۴ التفسیر الکبیر، ۵: ۱۶۷.

ص: ۲۹

يقل سبحانه وتعالى: «ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالّتى هى أحسن»؟

وهل استثنى موسم الحجّ من مجادلة الكفر المتحكّم فى رقاب المسلمين، والفساد المستشرى فى بلادهم، وشياطين الإنس والجنّ بمقدّراتهم؟

هل الأمر بالدعوة إلى سبيل اللّه لا يشمل موسم الحجّ الذى تطفح مناسكه بالحركة والمقاومة والمنافع؟ لم يقل بذلك مفسر وفقيه.

لم يجرؤ عالم حتى اليوم أن يقول: إنّ على المسلمين أن يتّخذوا فى موسم الحجّ موقف السّكوت والسّكينة واللامبالاة تجاه ما يجرى على المسلمين من مصائب، وما يحلّ بهم من تقتيل وتشريد ونهب وانتهاك.

الحجُّ أصلًا والاحتجاج من أصل لغوى واحد، «وتَحاجّوا» تعنى تجادَلوا، والِمحجاج: الذى يكثر الجدل (۱)، فكيف- والحالة هذه- يمرّ الحجّاج- وهم قادمون (من كلّ فجّ عميق) ليتجمّعوا على أرض الطواف حول بيت اللّه، وأرض رمى الشّيطان عدو اللّه- مرّ الكرام تجاه ما ينزل بالمسلمين من قبل قوى الشّرق والغرب، ومن دون أن ينبسوا ببنت شفة، ومن دون أن يدينوا- على الأقلّ- الغرب والشرق على جرائمهما فى فلسطين المحتلّة ولبنان والبوسنة والهرسك.

كيف بمقدور أمّة- فيها ولو ذرّة من وعى وغيرة- أن تتجمّع فى موسم الحجّ، ثمّ تغمض عيونها عمّا يفعله اليهود والصهاينة فى أرض فلسطين المحتلّة، وعمّا ينوون أن يفعلوه؟

كيف يمكنهم أن يسكتوا أمام مخططاتهم الرّامية إلى السيطرة على عالمنا الإسلامى من النّيل إلى الفرات؟

إنّ ما يشهده موسم الحجّ خلال الأعوام الأخيرة إنّما هو تعبير طبيعى عن الصّحوة الّتى تصاعدت فى إيران، وعمّ نورها بقاعاً مختلفة من عالمنا الإسلامى، ولا يمكن أبداً إخماد هذه الصّحوة باسم «... ولا جدال فى الحج ...» لأن الحجّ من مناهج الدّين، والدّين قال لنا: «مَن أصبح ولم يهتمّ بأمور المسلمين فليس بمسلم». نعم لا يمكن للمسلم أن ينسى كل أصول دينه وفروعه لإرضاء فئة تريد أن تحوّل الحجَّ إلى مقبرة والحجيجَ إلى أموات. لا يمكنهم؛ لأنّ مناسك الحجّ حركة وكفاح، ولأنّ الدّين كلّه حركة توحيديّة ترفض الآلهة المزيّفة، وتقارع شياطين الجنّ والإنس.

الحجُّ نفسه جهاد، والجدال مع الكفر فى موسم الحجّ جهاد مضاعف وطاعة أخرى.

يقول الإمام فخر الدّين الرّازى فى تفسير «فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحجّ»: «ولو كان الجدال فى الدّين طاعة وسبيلًا إلى معرفة اللّه تعالى لما نُهى عنه فى الحجّ، بل على ذلك التّقدير كان الاشتغال بالجدال فى الحجّ ضمّ طاعة الى طاعة، فكان أولى بالترغيب فيه ...

فَتُحْمل الجدل المذموم على الجدل فى تقرير الباطل وطلب المال والجاه، والجدال الممدوح على الجدل فى تقرير الحق ودعوة الخلق إلى سبيل اللّه والذبّ عن دين اللّه تعالى» (۲).

شرّع اللّه سبحانه وتعالى الحجَّ لتحقيق منافع سامية للأمة الإسلامية منها:

۱- ۱ المعجم الوسيط، ۱: ۱۵۶ و ۱۵۷.

۲- ۲ التفسير الكبير، ۵: ۱۶۵.

ص: ۳۰

إن المسلمين المتّجهين إلى بيت اللَّه ينقطعون عن بيئتهم، ويهجرون الأهل والأحباب، ويتركون ما كانوا يألفونه كل يوم من سكن وعمل رتيب، ويهاجرون أوطانهم نحو بيت اللَّه الحرام، وقبل أن يدخلوه، عليهم أن يتجرّدوا من ثيابهم وينزعوا من نفوسهم وأبدانهم كل مفاخرهم ورواسبهم وامتيازاتهم، ويتّجهوا بشكل واحد وبخطىً متّحدة نحو مكّة المكرّمة ليكونوا عليصعيد بيت اللَّه الحرام أشبه بالمبعوثين فى عالم المحشر.

وفى هذا الجو المتحرّر من الذّات والذّاتية، ومن الأنا والأنانية يعيش الإنسان- بطبيعة الحال- هموم أمّته أكثر من ذى قبل، ويفكّر بشؤون المسلمين وما يحيط بهم من مشاكل، ويزداد اهتمامه بالأمور العامّة بعد أن كانت الهموم الخاصّة تشغله وهو بين أهله ومتاعه.

ثمّ إن أرض مكّة طافحة بالذكريات التى تستحث المسلم أن يراجع أحداثها، ويدرس وضعه ووضع المسلمين على ضوئها، فهى أرض التوحيد وإخلاص العبوديّة للَّه، وأرض تحطيم الأصنام ومقارعة الوثنيّة والشّرك. وكل هذه الظواهر القائمة على أرض مكّة المقدّسة تدفع بالحاج لأن يفكّر فى الأصنام البشرية وغير البشريّة المنتصبة على ظهر الأرض، وفى الآلهة المزيّفة التى تحثّ الناس على أن يعبدوها من دون اللَّه. ذكريات هذه الأرض تعيد إلى الأذهان ذلّ الكفر حين ظهر الإسلام وعلّم أبناءه قائلًا:

«... ولن يجعل اللَّه للكافرين على المؤمنين سبيلًا» (۱). وحين علّمهم أنّ العبادة- وخاصة عبادة الحجّ- لا تنفصل عن الجهاد: قالصلى الله عليه و آله و سلم: «الحجّ جهاد، والعمرة تطوّع» (۲). وقال أيضاً: «نعم الجهاد الحجّ» (۳). أين هذه التعاليم السّامية الحركية من وضعنا الرّاهن اليوم، حيث الجمود والخمود والذّل والاستكانة، وحيث الأعداء يفترسون أشلاء جسد أمتنا الإسلامية من كل حدب وصوب، وحيث أفرغت العبادات من كل محتوى وتحوّلت إلى طقوس خالية من كل روح؟

أين هذه التعاليم من هذه الفتاوى التى يصدرها بعض الفقهاء داعية المسلمين إلى الكفّ عن إدانة أعداء اللَّه فى موسم الحجِّ ومعلنة حرمة هذا العمل؟

وعلى هذا لا نجد مبرراً أن تصدر فتاوى لا تنسجم إطلاقاً مع روح الحجّ، ولا يستفيد منها إلا منتهكو أعراض المسلمين ومقدساتهم.

وعلى المسلمين اليوم أن ينصاعوا لقوله تعالى: «ولا تَتبعوا أهواء قوم قد ضلّوا من قبل وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواء السّبيل» (۴).

وعليهم أن يصيغوا السّمع لنداء اللَّه سبحانه ويحوّلوا الحج كما كان فى عهد رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم منطلق البراءة من المشركين: «وأذان من اللَّه ورسوله إلى النّاس يوم الحجّ الأكبر أنّ اللَّه برىء من المشركين ورسولُه ...» (۵).

عليهم أن يفهموا أن منطلق البراءة من المشركين لا يجوز تحويله إلى خمود وخنوع، ولا يجوز إفراغه من محتواه الحركى النّاهض، بل يجب أن يكون فى عصرنا هذا منطلق الصّيرخة الّتى ترهب أعداء اللَّه، ومنطلق العزّة التى تعيد الرّفعة لدين اللَّه، ومنطلق الحركة نحو استعادة العزّة التى شاءها اللَّه- تعالى- لنا.

نسأل اللَّه- سبحانه وتعالى- أن يمنّ على أمّتنا الإسلاميّة باليقظة والصحوة، وبالعودة إلى إسلامنا الحقيقى لنعود أمّة واحدة «شاهدة» على ساحة التأريخ و «وسطاً» بين شعوب العالم.

الهوامش:

۱- ۱ النساء: ۱۴۱.

۲- ۲ سنن ابن ماجة المناسك، ۴۴. راجع: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث.

۳- ۳ الجامع الصحيح، البخارى، ۶۲.

۴- ۴ المائدة: ۷۷.

۵- ۵ التوبة: ۳.

ص: ۳۱

أدنى الحِلِّ «مواقيت العمرة المفردة لمن كان بمكّة»

ص: ۳۲

أدنى الحِلِّ «مواقيت العمرة المفردة لمن كان بمكّة»

حسن الجواهری

إن المقصود بأدنى الحِلِّ: هو أقرب الأماكن الى حدود الحرم من خارج الحدود؛ ولهذا تعرف المنطقة التی تقع داخل حدود الحرم ب (الحرم)، لما لها من أحكام خاصة تقديساً لمكّة.

وتعرف المنطقة التی تقع خارج الحدود ب (الحِل) لأن اللّه تعالی حلّل فيها ممارسة ما حرم داخل الحدود.

وقد انعكس ذكر (الحل والحرم) فی الشعر العربی، كما ورد فی قول الفرزدق مادحاً الإمام علی بن الحسين (زين العابدين) عليه السلام فقال:

هذا الذی تعرفُ البطحاء وطأته والبيتُ يعرفه والحلّ والحرمُ وقد جعل الشارع المقدّس أدنی الحِلِّ ميقاتاً للعمرة المفردة علی نحو الرخصة بالتفصيل الآتی:

لقد ذكر الفقهاء (رضوان اللّه عليهم) أن القارن أو المفرِد أو المتمتع بعد إتمام حجّة التمتع، أو مَنْ كان بمكّة ليس بحاجٍ أو مَنْ تعدَّی المواقيت (التی وقَّتها رسول اللّهصلی الله عليه و آله و سلم للإحرام وأراد الدخول الی مكّة) إذا أراد اتيان العمرة المفردة فميقاته أدنی الحِل بلا خلاف فی ذلك، ومعنی ذلك هو أن يخرج المعتمر مثلًا الی خارج حدود الحرم المحدّد فی الروايات بأنه: «بريد فی بريد» فيحرم منه. وقد ذكر الفقهاء استحباب أن يحرم المعتمر من الجعرانة أو الحديبيّة أو التنعيم، للتصريح بها فی الروايات، وللتأسی، فمن الروايات:

۱- ما عن معاوية بن عمار فی الصحيح عن الإمام الصّادق عليه السلام قال:

«اعتمر رسول اللّهصلی الله عليه و آله و سلم ثلاث عمر متفرقات: عمرة ذی القعدة، أهلّ من عسفان وهی عمرة الحديبية، وعمرة أهلّ من الجحفة وهی عمرة القضاء، وعمرة من الجعرانة بعدما رجع من الطائف من غزوة حنين» (۱).

وقد نقل عن طريق أبناء السنة عن ابن عباس: «أن النبیّصلی الله عليه و آله و سلم اعتمر أربع عمر: عمرة الحديبية وعمرة القضاء من قابل، والثالثة من الجعرانة والرابعة التی مع حجته» (۲).

أقول: وظاهر الروايتين جواز الإحرام من عسفان، وهو يبعد عن مكة مرحلتين (۴۸ كيلومتراً) تقريباً، وهو ليس ميقاتاً، وليس من أدنی الحِل.

ولكن الإمام الخوئی رحمه الله ذكر ما يلی: «إن الذی يظهر من الروايات الصحيحة والتواريخ المعتبرة أن رسول اللّهصلی الله عليه و آله و سلم إنما اعتمر بعد الهجرة عمرتين، وإنما عبّر فی الصحيحة

۱- ۱ وسائل الشيعة، ۱۰: باب ۲ من أبواب العمرة ح ۲.

۲- ۲ وسائل الشيعة، ۱۰: باب ۲ من أبواب العمرة ح ۶.

ص: ۳۳

المتقدمة بثلاث عمر باعتبار شروعه فی العمرة والإحرام لها، ولکن المشرکین منعوه من الدخول الی مکّة، فرجعصلی الله علیه و آله و سلم بعد ماصالحهم فی الحدیبیة، واعتمر فی السنة اللاحقة قضاءً عما فات عنهصلی الله علیه و آله و سلم وعن أصحابه فسُمیت بعمرة القضاء، کماصرح بذلک فیصحیحة أبان عن الإمام الصادق علیه السلام قال: «اعتمر رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم عمرة الحدیبیة وقضی الحدیبیة من قابل، ومن الجعرانة حین أقبل من الطائف ثلاث عمر کلهن فی ذی القعدة» (۱).

وفیصحیحةصفوان أنهصلی الله علیه و آله و سلم أحرم من الجعرانة (۲).

فالذی یستفاد منصحیحة معاویة بن عمار: أن رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم أحرم من مسجد الشجرة للعمرة، ورفعصوته بالتلبیة من عسفان (وهو معنی أهلّ) وهی العمرة التی منعه المشرکون من الدخول الی مکة وصالحهم فی الحدیبیّة، ورجع من دون إتیان مناسک العمرة، ثم فی السنة اللاحقة اعتمر وأحرم من مسجد الشجرة، وأهلّ ورفعصوته بالتلبیة من الجحفة فسُمیت بعمرة القضاء، وأما الجعرانة فالظاهر من الصحیحة أنهصلی الله علیه و آله و سلم أحرم منها لظهور قوله «وعمرة الجعرانة» فی أن ابتداء العمرة کان من الجعرانة، لا أنه أحرم قبل ذلک، ورفعصوته بالتلبیة من الجعرانة، کماصرح بذلک فیصحیحة أبان المتقدمة. فالمستفاد من الصحیحة جواز الإحرام للعمرة المفردة من الجعرانة اختیاراً وإن لم یکن من أهل مکّة کالنبیصلی الله علیه و آله و سلم وأصحابه، کما یجوز الإحرام من أدنی الحِلّ، ولکن یختص ذلک بمن بدی له العمرة فی الأثناء (۳).

أقول: وعلی هذا الذی تقدم، فستکون هذه الروایة دلیلًا علی جواز الإحرام من الجعرانة، التی هی أقرب الحلِّ الی الحرم فقط.

۲- ما عن جمیل بن دراج فی الصحیح قال: «سألت الإمام الصادق علیه السلام عن المرأة الحائض إذا قدمت مکّة یوم الترویة؟ قال علیه السلام: تمضی کما هی الی عرفات فتجعلها حجة، ثم تقیم حتی تطهر فتخرج الی التنعیم فتحرم فتجعلها عمرة، قال ابن أبی عمیر: کماصنعت عائشة» (۴).

وکانصنع عائشة کما ذکره ابن ادریس فی آخر السرائر نقلًا من کتاب معاویة بن عمار فقال:

«... إن رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم نزلها (البطحاء) حین بعث عائشة مع أخیها

۱- ۱ وسائل الشیعة، ۱۰: باب ۲ من أبواب العمرة ح ۳.

۲- ۲ وسائل الشیعة، ۸: باب ۹ من أقسام الحجّ ح ۶.

۳- ۳ مستند العروة الوثقی، کتاب الحج، ۲: تقریرات الإمام الخوئی، بقلم السید رضا الخلخالی: ۳۹۱- ۳۹۲.

۴- ۴ وسائل الشیعة، ۸: باب ۲۱ من أقسام الحجّ، ح ۲.

ص: ۳۴

عبد الرحمن إلى التنعيم فاعتمرت لمكان العلّة التى أصابتها؛ لأنها قالت لرسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم ترجع نساؤك بحجّة وعمرة معاً، وأرجع بحجّة؟

فأرسل بها عند ذلك ...» (۱).

۳- روى ابن بابويه فى الصحيح عن عمر بن يزيد عن الإمام الصّادق عليه السلام: «مَنْ أراد أن يخرج من مكّة ليعتمر فليعتمر من الجعرانة أو الحديبية أو ما أشبههما» (۲).

وهذه الرواية تشمل جميع مواضع الحرم لقوله عليه السلام: أو ما أشبههما، كما أنها مطلقة من حيث كون العمرة مسبوقة بالحجّ أم لا فحينئذٍ لا ينبغى الريب فى هذا الحكم.

أقول: تبين من هذه الروايات:

أن ثلاثة مواقيت قد فضِّلت فى إحرام العمرة المفردة على بقية نقاط أدنى الحِل وهى:

۱- الحديبية.

۲- الجعرانة.

۳- التنعيم.

أما الجحفة فهى ميقات أبعد من أدنى الحِلّ بكثير، يمرّ بها- الآن- حجاج البحر القادمون عن طريق ميناء ينبع من مصر وغيرها، وحجاج البرّ القادمون من الأردن عن طريق العقبة. وقد رأينا أن النبيصلى الله عليه و آله و سلم أهلَّ منها، وكذا عسفان التى تبعد عن مكة مرحلتين.

ولا بأس بالإشارة الى أن هذه المواقيت الثلاثة هى رخصة لا عزيمة كما ذكر ذلكصريحاً شيخ الطائفة وصاحب الجواهر . (۳).

وبهذا يكون من الجائز الخروج الى أحد المواقيت كالجحفة ويلملم والعقيق وغيرها للإحرام منها، وذلك للروايات الدالة على أن هذه المواقيت لأهلها ولمن أتى عليها من غير أهلها، فقد رويصفوان بن يحيى فى الصحيح عن الإمام أبى الحسن الرضا عليه السلام فكتب: «... إن رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم وقّت المواقيت لأهلها، ومن أتى عليها من غير أهلها، وفيها رخصة لمن كانت به علة، فلا تجاوز الميقات إلا من علّة» (۴).

والذى نريد أن نبحثه الآن هو تفصيل المواقيت الثلاثة:

وهى: (الحديبية، الجعرانة، التنعيم)، وما أشكل على موضع التنعيم من كونه أبعد من موضعه الحالى والجواب عنه، فنقول:

۱- الحديبية:

«بضم الحاء المهملة، ففتح الدال المهملة ثم ياء مثناة تحتانية ساكنة، ثم باء موحدة، ثم ياء مثناة تحتانية ثم تاء التأنيث: وهى فى الأصل اسم بئر خارج الحرم على طريق جدّة عند مسجد الشجرة، التى كانت عندها

۱- ۱ نفس المصدر، باب ۳ من أقسام الحج، ح ۴.

۲- ۲ نفس المصدر، باب ۲۲ من المواقيت، ح ۱.

۳- ۳ جواهر الكلام، ۱۸: ۱۱۹.

۴- ۴ وسائل الشيعة، ۸: باب ۱۵ من ابواب المواقيت، ح ۱.

ص: ۳۵

بيعة الرضوان» التى نزل فيها القرآن:

«لقد رضى اللّه عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ...» (۱).

وقال الخطابى فى أماليه: سُميت بالحديبية لشجرة حدباء كانت فى ذلك الموضع، وبين الحديبية ومكة مرحلة:

«وفى الحديث: إنها بئر» وبعض الحديبية فى الحِل وبعضها فى الحرم وهو أبعد الحلّ من البيت ... وعند مالك بن أنس انها جميعها من الحرم (۲).

ضبط الكلمة:

فقد استعملت الياء المثناة المفتوحة بالتخفيف والتشديد، وفى كشف اللثام، قال السهيلى:

«والتخفيف أعرف عند أهل العربية، وقال أحمد بن يحيى: لا يجوز فيها غيرُه وكذا عن الشافعى». وقال أبو جعفر النحاس: «سألت كل من لقيت ممن أثق بعلميته من أهل العربية عن الحديبية فلم يختلفوا على أنها مخففة.

وقيل: إن التثقيل لم يُسمع من فصيح» (۳).

وقال فى الحدائق الناضرة:

«قال ابن ادريس فى السرائر:

الحديبية اسم بئر خارج الحرم يقال:

الحديبية بالتخفيف والتثقيل، وسألت ابن العطار النوهى، فقال: أهل اللغة يقولونها بالتخفيف وأصحاب الحديث يقولونها بالتشديد، وخطّه عندى بذلك، وكان إمام اللغة ببغداد» (۴).

وفى تهذيب الأسماء عن مطالع الأنوار: «ضبطناها بالتخفيف عن المتقنين وأما عامة الفقهاء والمحدثين فيشددونها» (۵).

وتعرف منطقة الحديبية- اليوم ب «الشميسى» بالتصغير، وتقع غربى مكة المكرمة فى الحِل على طريق مكة- جدة القديم، بينها وبين علمى الحرم المكى مسافة قليلة، وبين العلمين ومكة حوالى اثنين وعشرين كيلو متراً.

۲- الجعرانة:

ضبطها «بكسر الجيم وإسكان العين المهملة وتشديد الراء المهملة المفتوحة» كما عن الجمهرة. وعن الأصمعى والشافعى: «بكسر الجيم وإسكان العين وتخفيف الراء. قيل العراقيون يثقلونه والحجازيون يخففونه» وحكى عن ابن ادريس:

بفتح الجيم وكسر العين وتشديد الراء أيضاً، فالراء فيها تخفف وتشدّد لاستعمالين موثقين.

وهى موضع بين مكّة والطائف

۱- ۱ الفتح: ۱۸.

۲- ۲ معجم معالم الحجاز لعاتق بن غيث البلادى، ۲: ۲۴۶- ۲۴۷.

۳- ۳ كشف اللّثام.

۴- ۴ الحدائق الناضرة للشيخ يوسف البحرانى، ۱۴: ۴۵۵- ۴۵۶.

۵- ۵ عن كتاب الحج، تقريرات آية اللّه العظمى السيد الشاهرودى، ۲: ۲۹۴.

ص: ۳۶

من الحِلِّ، بينها وبين مكّة ثمانية عشر ميلًا على ما ذكره الباجى، وتقع شمال شرقى مكة المكرمة، وفيها علما الحدّ، ومنها أحرم رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم لعمرته الثالثة على ما نصت عليه الروايات، وفيها مسجده الذيصلّى فيه وأحرم منه، عند مرجعه من الطائف بعد فتح مكة، ويقع هذا المسجد وراء الوادى بالعدوة القصوى ويعرف بالمسجد الأقصى لذلك، ولوجود مسجد آخر بُنى من قبل أحد المحسنين يعرف بالمسجد الأدنى. وبالقرب من مسجد الرسولصلى الله عليه و آله و سلم بئر واسعة عذب ماؤها. وهى اليوم قريةصغيرة تبعد عن مكة فى الشمال الشرقى لها بحوالى أربعة وعشرين كيلو متراً، وفيها المسجد الذى أقامته الحكومة السعودية محرماً، شرقى أرض المسجد القديم دونما فصل بينهما .. (۱) ولكن مؤلف معجم معالم الحجاز ذكر عن الجعرانة: «ومن قال: إنها (الجعرانة) بين مكة والطائف فقد أخطأ، فهى شمال مكة، مع ميل إلى الشرق ولا لزوم فى ذكر الطائف فى تحديدها أبداً، إذ هى لا تبعد عن مكة بأزيد من (۲۹) كيلو متراً» (۲).

الجعرانة وموقعها الجغرافى:

ذكر مؤلف مختصر معجم معالم مكّة التاريخية أن «جبل الستار يقع قُرب الجعرانة من الجنوب، وهو الجبل الذى يُشرف على علمى طريق نجد من الشمال، والذاهب من مكة الى نخلة يجعل الستار على يساره عن قرب، والجعرانة- اليوم- قريةصغيرة فيصدر وادى سَرِف» (۳).

۳- التنعيم:

بفتح التاء الفوقانية المثناة «بلفظ المصدر، سُمى به موضع على ثلاثة أميال من مكة أو أربعة ... به مسجد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ومسجد الإمام زين العابدين عليه السلام ومسجد أم المؤمنين عائشة، وسمى بالتنعيم؛ لأن جبلًا اسمه نعيم يقع عن يمينه، وعن شماله يقع جبل آخر اسمه ناعم، واسم الوادى نعمان، وهو أقرب أطراف الحِلّ الى مكة كما هو واضح الآن» (۴).

والتنعيم يقع فى الشمال الغربى لمكّة المكرّمة، بينها وبين سَرِف (الذى فيه قبر أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث زوجة رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم) على طريق مكة- المدينة المارِّ بوادى فاطمة (المعروف قديماً بمرِّ الظهران).

وقد ذكر مؤلف مختصر معجم معالم مكة التاريخيّة موقع التنعيم فقال:

«وادٍ ينحدر شمالًا بين جبال بشم شرقاً، وجبل الشهيد جنوباً، فيصب فى وادى ياج وهو ميقات لمن أراد

۱- ۱ هداية الناسكين، تحقيق الدكتور عبد الهادى الفضلى: ۸۹.

۲- ۲ معجم معالم الحجاز عاتق بن غيث البلادى، ۲: ۱۴۸- ۱۴۹.

۳- ۳ مختصر معجم معالم مكة التاريخية عاتق بن غيث البلادى: ۱۵.

۴- ۴ كتاب الحج للسيد آية اللَّه العظمى الشاهرودى، ۲: ۲۹۵ بتصرّف. أقول: سيأتى ان جبل نعيم جنوب شرق التنعيم مسجد العمرة وجبل ناعم يكون من ناحية الشرق.

ص: ٣٧

العمرة من المكيين، وتسمى عمرته:

عمرة التنعيم، أى مكان الاعتمار وذلك تمييزاً لها عن عمرة الجعرانة، وكان يسمى نعمان، قال محمد بن عبد اللَّه النميرى:

فلم تر عينى مثل سرب رأيتهُ خرجنَ من التنعيم معتمرات

مررنَ بفخٍّ ثمّ رحْنَ عشية يلبين للرحمن مؤتجرات

تضوَّع مسكاً بطنُ نعمان إذ مشت به زينبٌ فى نسوةٍ عطرات (١) وقد ذكر فى المختصر المتقدّم «وقد توهم البعض أن نعمان الوارد هنا هو نعمان الأراك وهذا خطأ، إذ إن من يعتمر قاصداً المسجد الحرام ليس قريباً من نعمان الأراك» (٢).

أقول: لا- ينبغى الريب فى أن نعمان الذى يكون بعد الاعتمار من مسجد التنعيم لا- ارتباط له بنعمان الأراك الذى يكون جنوب عرفات، وذلك: لأن التنعيم يقع شمال غربى مكّة، فالمعتمر منه الذى يريد مكة لا يمرّ بنعمان الأراك الذى يكون جنوب عرفات (٣)، والذى حدده البلادى بأنه «واد فحل من أودية الحجاز التهامية ... ينحدر غرباً، فيمرّ جنوب عرفات عن قرب، ثم يجتمع بعُرنة فيطلق عليه اسم عُرَنة، يمرّ بين جبلى كُساب وحَبَشى جنوب مكة على أحد عشر كيلو متراً، ويكون هناك حدود الحرم الشريف، ويتسع الوادى بين كبكب والقرضة فيسمى خبت نعمان لفياحه وسعته» (۴).

ثم إنه يُعرف موضع الإحرام من التنعيم اليوم ب «العمرة»، وفيه مسجد يعرف ب «مسجد عائشة» نسبة الى أمّ المؤمنين عائشة زوجة رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم، لأن أخاها عبد الرحمن أحرم بها للعمرة من التنعيم امتثالًا لأمر رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم عندما أمره بذلك، كما ذكرت ذلك الرواية المتقدّمة، وقد شيدت الحكومة السعودية مسجداً جنوبى علمى الحرم المكّى، الماثلين حالياً وقريباً من موقع المسجد، الذى كان قبله فى هذا الموضع، وقد أصبح المكان اليوم حيّاً من أحياء مكّة السكنيّة يُعرف بحىّ العمرة، يبعد عن المسجد الحرام أو مكّة القديمة (۶) كيلومترات.

التشكيك فى ميقات التنعيم الحالى:

هذا وقد وجدت كلمات لبعض المؤرخين الجغرافيين تلمح الى أن التنعيم الذى هو موضع الإحرام هو فى غير الموضع المعروف حاليّاً بالعمرة،

١- ١ مختصر معجم معالم مكة التاريخية عاتق بن غيث البلادى: ٩- ١٠.

٢- ٢ نفس المصدر.

٣- ٣ ومعلوم أن عرفات تقع شرقى مكّة.

۴- ۴ معجم معالم الحجاز، ٩: ۶٩.

ص: ۳۸

واليك بعض الكلمات فى ذلك:

۱- قال أبو إسحاق الحربى الخراسانى (ت ۲۸۵) فى كتابه المناسكص ۴۶۷: «والتنعيم وراء القبر (قبر ميمونة) بثلاثة أميال، قبل مسجد عائشة، وهو موضع الشجرة، وفيه مسجد وأبيات، ومنه يحرم مَنْ أراد أن يحرم».

والشجرة التى أشار اليها هى شجرة هليلجة كانت فى المسجد المعروف بمسجد الهليلجة ثمّ سقطت.

وهذا الكلام يتنافى مع ما هو واقع اليوم، من أن التنعيم بين مكة وسَرِف الذى فيه قبر ميمونة، ويتنافى مع كون التنعيم هو مسجد عائشة، التى أحرمت منه بأمر الرسول الكريم حيث يقول المؤرخ: «بأن التنعيم وراء قبر ميمونة بثلاثة أميال، وقبل مسجد عائشة».

ثم قال أبو اسحاق الحربى الخراسانى: «عن مالك بن دينار عن القاسم عن عائشة: أن النبيصلى الله عليه و آله و سلم أعمرها من التنعيم، ثم مسجد عائشة بعده بنحو ميلين دون مكة بأربعة أميال».

وهذا الكلام- أيضاً- يغاير ما هو المعروف- اليوم- من أن المسافة الى علمى التنعيم القائمين حالياً لا يزيد على ستة كيلومترات أى أربعة أميال.

۲- وجاء فى كتاب «وفاء الوفاء» للسمهودى (ت ۹۱۱ ه):

«قال الأسدى: والتنعيم وراء قبر ميمونة بثلاثة أميال، وهو موضع الشجرة وفيه مسجدٌ لرسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم وفيه آبار، ومن هذا الموضع يحرم من أراد أن يعتمر، ثمّ قال: ميقات أهل مكّة بالإحرام مسجد عائشة، وهو بعد الشجرة بميلين، وهو دون مكة بأربعة أميال، وبينه وبين أنصاب الحرم غلوة».

وهذا النص- أيضاً- يصرِّح بأن التنعيم الذى يحرم منه للعمرة ليس هو ما يكون ماثلًا اليوم، إذ يكون التنعيم بعد قبر ميمونة بثلاثة أميال، وبينه وبين أنصاب الحرم غلوة.

۳- وقال أحمد بن عبد الحميد العباسى من مؤرخى القرن العاشر الهجرى فى كتابه «عمدة الأخبار»ص ۱۴۴: «والتنعيم وراء قبر ميمونة بثلاثة أميال».

۴- وقال المقدم عاتق بن غيث البلادى (مؤرخ الحجاز المعاصر) فى كتابه (على طريق الهجرة:ص ۱۰):

«ويقال: إن العمرة كانت فى هذا المكان (يعنى عند قبر ميمونة) وإن المكيين يعتقدون أنه حدود الحرم، ثمّ غيّرت العمرة عندما اختل الأمن خوفاً على الحجاج والمعتمرين».

أقول: إن هذه النصوص

ص: ۳۹

المتقدمة كلها قد اتفقت على أن التنعيم الذى أجيز للمعتمر أن يحرم منه هو:

إمّا أن يكون عند قبر ميمونة كما فى النص الأخير وإمّا أن يكون أبعد منه بثلاثة أميال أو ميلين، وبهذا تكون هذه النصوص قد خالفت موقع مسجد التنعيم اليوم من كونه بين مكة وسَرِف (الذى فيه قبر ميمونة) الذى يبعد عن المسجد أو مكة القديمة ستة كيلومترات تقريباً.

وهناك نصوص اخريصرحت بأنّ التنعيم هو أبعد من أدنى الحلِّ الى مكة بقليل، منها:

١- ما ذكره المحب الطبرى المكى (ت ۶۹۴ ه) فيما حكاه عنه محقق أخبار مكة للأزرقى رشدى ملحِسى بهامش الكتاب المذكور، ٢: ١٣٠:

والتنعيم «أبعد من أدنى الحلِّ بقليل وليس بطرف الحلِّ».

٢- وقال أبو الطيب الفاسى المكى فى شفاء الغرام، ١: ٢٨٩:

«الثّانى التنعيم المذكور فى حدِّ الحرم من جهة المدينة المنوّرة وهو أمام أدنى الحلِّ كما ذكره المحب الطبرى، قال:

«وليس بطرف الحلِّ» ومَنْ فسّره بذلك تجوَّز وأطلق اسم الشىء على ما قرب منه، وأدنى الحلِّ إنما هو من جهته، وليس موضع فى الحلِّ أقرب إلى الحرم منه، وهو على ثلاثة أميال من مكّة، والتنعيم أمامه قليلًا».

وهناك نص ثالث يقول: بأنَّ التنعيم يبعد عن مكّة فرسخين فقد قال الفاسى: «وقالصاحب المطالع:

والتنعيم من الحلّ بين مكة وسَرِف على فرسخين من مكّة، وقيل على أربعة أميال».

موقع فخ:

ومما يزيد فى التشكيك: «موقع فخ» الذى يقع غربى مكة، على طريق مكة- التنعيم- المدينة وبينه وبين مكة ثلاثة أميال أى حوالى ستة كيلومترات.

وفخ بفتح الفاء الموحدة فتشديد الخاء المعجمة بئر معروف على نحو فرسخ من مكة كما قيل، وفى القاموس: «موضع بمكّة دفن فيه ابن عمر» وفى نهاية ابن الأثير: «موضع عند مكة، وقيل وادٍ دفن فيه عبد اللَّه بن عمر». وفى السرائر لابن إدريس الحلّى: «إنّه موضع على رأس فرسخ من مكّة، قتل فيه الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن على أمير المؤمنين عليه السلام على ما حكاهصاحب كشف اللثام.

وعلى كلّ حال: فإن الموقع

ص: ۴۰

واضح، وهذه المعرِّفات قد تکون کلهاصحیحة، فهو واد دفن فیه ابن عمر وفیه بئر، وقد وقعت فیه معرکة فخ التی ذکروا بأنها من الشدّة بحیث لم تکن مصیبة بعد کربلاء أشد وأفجعَ من فخٍّ (۱).

وفخ قد اختلف فقهاء الإمامیّة فی کونها میقاتاً للصبیان علی قولین:

الأوّل: ذهب جمع من فقهاء الإمامیّة (رضوان اللَّه علیهم) الی کون فخ میقاتاً للصبیان، بمعنی جواز تأخیر إحرامهم الی هذا المکان من دون تعیّن ذلک علیهم، واستدلوا لذلک بصحیح أیوب بن الحر قال: «سُئِل الإمام الصادق علیه السلام عن الصبیان: من أین یجرّد الصبیان؟ قال علیه السلام: کان أبی یجرّدهم من فخ» (۲) هذا إذا مرّوا من طریق المدینة، أمّا إذا مرّوا من طریق آخر فیحرمون من المیقات الذی مرّوا علیه.

فقد ذکر جماعة: أن فی الروایة کنایة عن جواز إحرامهم من فخ (بل ربما نسب الی الأکثر، بل فی الروضة یظهر من آخر عدم الخلاف فیه).

الثّانی: ذهب آخرون الی أن إحرام الصبیان من المیقات، ولکن رُخص لهم فی لبس المخیط الی فخ، فإذا وصلوا الی فخ جرّدوا منه، استناداً الی ظاهر الصحیح المتقدم فی حمله علی الحقیقة، وظاهر الروایات المقتضیة لزوم الإحرام من المیقات.

وإذا کان إحرام الصبیان من المیقات مطلقاً فی حجّ أو عمرة، وکان مطلقا حتی لمن کان من أهل مکة وأراد العمرة المفردة، کما هو ظاهر إطلاقهم ذلک، فحینئذٍ علی القول الثانی یکون إحرام المعتمر من التنعیم الحالی البالغ بعده ستة کیلومترات، مع أن الصبی یحرم من المیقات، ولکن یجرّد من فخّ الذی یبعد ستة کیلومترات أیضاً، وهذا فیه بعد عرفی واضح؛ یکون الصبی فی هذا الحکم أشد حالًا من البالغ، أمّا بالنسبة إلی القول الأول فإنّ الصبی والبالغ فی هذا الحکم سیّان، مع أن العرف یری لابدیّة أن یکون إحرام الصبی أسهلَ من البالغ إذا أردنا الإرفاق به (۳).

جواب التشکیک:

ولنا فی الجواب علی هذا التشکیک عدّة مسالک نستعرضها إن شاء اللَّه تعالی:

۱- جواب التشکیک من الناحیة الفقهیة:

نقول: إن الأقوال المتقدمة فی تقدیر المسافة الی موضع الإحرام فی التنعیم وإن کانت مختلفة اختلافاً غیر یسیر، إلا أن هذا الاختلاف بین المؤرخین والجغرافیین لا یجیز لنا رفع

۱- ۱ ومنطقة فخ الآن فیها حیّان من أحیاء مکة هما: «حیّ الزاهر» و «حیّ الشهداء» نسبة الی شهداء فخ الحسین بن علی بن الحسن المثلث بن الحسن المثنی بن الحسن السبط بن علی بن أبی طالب وأنصاره- رضوان اللَّه علیهم-. وفی فخ مقبرة معروفة تُعرف بمقبرة المهاجرین، کان یدفن فیها کلّ مَنْ جاور مکة منهم، ولا تزال موجودة معروفة حتی الآن. أما موضع شهداء فخ فلا أثر له الآن، یقول السباعی فی تاریخ مکة: ۸۹: «فی هذا المکان یعنی فخّاً تقرر مصیر العلویین حیث قتل الحسین بن علی وهو محرم، بعد أن أبلی بلاءً شدیداً، وقتل معه أکثر من مائة من أصحابه، وکانت قبورهم معروفة هناک، ویُشرف قبر زعیمهم الحسین علی ربوة فی الوادی. وجاء فی معجم معالم الحجاز، ۷: ۱۹ للمقدم عاتق بن غیث البلادی ما نصه: «حکی شاهد عیان أنه کان فی أواخر الستینات من هذا القرن الرابع عشر الهجری حدث أثناء حفر أساس قصر بالشهداء، أن بدت یدُ إنسانٍ طریّة عاریة من تحت الأرض، فحفروا عنها فإذا هی مطبقة علیصدر إنسان فجذبوها، فإذا الدم یندفع من موضعها، فترکوها، فاذا هی ترتدّ بسرعة الی مکان النزیف فتوقفه».

۲- ۲ وسائل الشيعة، ۸: باب ۱۸ من المواقيت، ح ۱.

۳- ۳ قد يقال: إن الرواية فى تجريد الصبيان من فخّ ناظرة لمن أحرم من طريق المدينة فقط، فلا اطلاق فيها لما نحن فيه.

ص: ۴۱

اليد عن موضع الإحرام فى التنعيم الحالى وذلك لعدم حجيّة هذه الأقوال فى أنفسها، إذ هى إما أخبار آحاد غير معتبرة وإمّا متعارضة، وحتى إذا كانت أقوال ذوى الخبرة فهى ساقطة بالتعارض، فتبقى السيرة المتلقاة من المسلمين فى الإحرام من مسجد التنعيم الحالى الذى يبعد ۶ كيلومترات عن المسجد أو حدود مكة القديمة، وهذا خير دليل على بطلان التشكيك المتقدم، فإن هذه السيرة المتلقاة يداً بيد ممن يلتزم الشريعة الغراء نهجاً فى حياته، وفى زمن المعصومين عليهم السلام تفيد العلم فى معرفة ميقات التنعيم، الذى وقّته رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم، ولو كان هناك أىّ تغيير فى الميقات فى أى زمان لنقل الينا بصورة واضحة، إذ إن التغيير فى العبادات وأماكنها التى شرعها وسنّها رسولُ اللّهصلى الله عليه و آله و سلم، مما يوجب اعتراض المسلمين قاطبة، ونقل ذلك التغيير والاعتراض لغيرهم، مع إننا لم نجد فى الروايات التى بين أيدينا أىّ تغيير فى ميقات التنعيم، نعم نقل عن بعض المؤرخين المعاصرين «تغير موضع العمرة عندما اختل الأمنُ خوفاً على الحجّاج والمعتمرين» بقوله ويقال، وهذا الكلام لا يعتدّ به لأنه لم يعتقد به حتى هذا المؤرخ المعاصر كما تقدم، فهو عبارة عن كلام غير معتبر تردّه السيرةُ القائمة على تعيين موضع الإحرام للعمرة من مسجد التنعيم الحالى من قبل كلّ المسلمين.

هذا وقد ذكر غيرُ واحد من الأصحاب (۱) هنا الاكتفاء فى معرفة هذه المواقيت بالشياع المفيد للظن الغالب، ولعلّه لصحيح معاوية بن عمار عن الإمام الصادق عليه السلام: «يجزيك إذا لم تعرف العقيق أن تسأل الناس والأعراب عن ذلك» (۲). ومعنى ذلك أن الشياع الموجود عند المسلمين هو المرجع فى تحديد الميقات، لا قول المؤرخ أو الجغرافى، خصوصاً مع التعارض والاختلاف.

۲- جواب التشكيك من الناحية الرياضية:

إن الأقوال المتقدمة فى تقدير المسافة الى موضع الإحرام فى التنعيم تتمثل فى المسافة التالية: «۳ ميل/ ۴ ميل/ ۶ ميل/ ۱ فرسخ/ ۲ فرسخ/ ۶ كم/ ۱۲ كم» تقريباً. فهل يمكن أن نرجع هذا الاختلاف فى المسافة الى اختلاف أسباب العدّ مع كون الموضع الذى يحرم منه هو الموضع الحالى؟

الجواب: نعم يمكننا ذلك؛ لأن تقدير المسافة يختلف لأسباب متعددة

۱- ۱ راجع جواهر الكلام، ۱۸: ۱۰۷.

۲- ۲ وسائل الشيعة، ۸: باب ۵ من المواقيت، ح ۱.

ص: ۴۲

منها:

(أ) الاختلاف فی تقدیر الذراع المستعمل فی العدّ، فإنّه علی ثلاثة أوجه:

الأوّل: ذراع الیـد الـذی هو مختلف بین عدّه (۵۲ سـم) أو (۵۰ سـم) أو (۴۸ سم) وذلک: لأن الـذراع- کما ذکر أهل اللغـة (کمجمع البحرین)- «من المرفق الی أطراف الأصابع، والذراع ست قبضات، والقبضة أربع أصابع» وبما أن الأصـبع یختلف قدره من شخص الی شخص فی الإنسان المتعارف، فبذلک یختلف العدّ بین الأرقام الثلاثة المتقدّمة.

الثّانی: الذراع الحدیدی یساوی (۵۸ سم تقریباً).

الثّالث: الذراع المعماری الذی یساوی (۷۵ سم تقریباً).

(ب) الاختلاف فی تقدیر المیل بالذراع، فقد قُدر المیل بالنسبة لذراع الید بتقدیرات مختلفة.

الأوّل: ۲۰۰۰ ذراع ید.

۳۵۰۰ ذراع ید.

۴۰۰۰ ذراع ید.

۶۰۰۰ ذراع ید (۱).

ولهـذا الاختلاف فی تقـدیر المیل بالـذراع یفهم الاختلاف فی تقـدیر المسافة بالأمیال، ومنه یفهم اختلاف تقدیر المسافة بالفرسخ أو الکیلومتر.

(ج) أضف الی ذلک الاختلاف فی مبدإ العدّ، فإن مبدأ العدِّ قد یکون باب المسجد، کما قد یکون سور مکة.

(د) الاختلاف فی تقـدیر الطریق المعـدود الـذی یختلف باختلاف الانحناءات فی أزمان مختلفـة، فقـد یکون طریق فیه تعرجات کثیرة یستوجب کثرة المسافة المطویة فی زمان، وفی زمان آخر یتبدل الطریق بإزالة هذه التعرجات أو اختصارها بما یستوجب قلة المسافة.

۳- جواب التشکیک من ناحیة تعیین موضع التنعیم بالوصف:

فان الموضع الحالی للتنعیم هو بین مکة وسَرِف (الذی فیه قبر أم المؤمنین میمونة بنت الحارث زوجة رسول اللَّهصـلی الله علیه و آله و سلم، وحینئذٍ یمکن أن تکون العبارات القائلة: بأن التنعیم وراء قبر میمونة بثلاثة أمیال متفقة مع الوصف الأولی، إلا أن الوصف الأولی یکون للموضع لمن کـان فی مکـة وأراد السیر إلی الموضع، أمّـا الوصف الثانی فهو ناظر إلی الموضع لمن کان خارج مکّـة أو بعیـداً عنهـا، فالموضع هو نفسه بین مکـة والقبر لمن أراد الإتیان إلیه من مکـة، وهو بعـد القبر لمن أراد الوصول إلیه، وهو خارج مکـة، واللَّه تعالی هو العالم بحقائق الأمور.

ولعلّ مما یحسم الخلاف والتشکیک ما وجدته فی خریطة مکة

۱- ۱ استندنا فی ذکر هذه التقدیرات الی کتاب هدایة الناسکین للدکتور الفضلی:ص ۹۳.

ص: ۴۳

المكرمـة (المرفقـة بكتاب مكّـة المكرمـة فى شـذرات الذهب للغزاوى، وهو دراسة وتحقيق لبعض المعالم الجغرافية) من وجود ثلاث مناطق للتنعيم:

الأولى: منطقة العمرة التى هى شمال غربى جبل نعيم وغربى جبل ناعم، وهو مكان العمرة الحالى.

الثانية: التنعيم التى تقع شمال منطقة العمرة.

الثالثة: منطقة التنعيم التى تقع شمال جبل الواتد وجنوب منطقة الغزالة وجبل الغبير.

وحينئـذٍ فإن الخلاف فى بُعـد التنعيم عن المسـجد الحرام أو مكـة قـد يكون منشؤه هـذه المناطق الثلاث فالـذى يصـح منه الإحرام هو منطقة العمرة التى هى أقرب مناطق التنعيم للحرم.

هل يشكِّل الجمع بين حدود الحرم الحالية ومواقيت أدنى الحلّ مشكلة؟

إن الشارع المقدّس قد حدّد الحرم المكّى كما فى موثق زرارة قال:

سمعتُ الإمام الباقر عليه السلام يقول: حرّم اللَّه حرمه بريداً فى بريد ...» (۱) «الذى هو عبارة عما يقارب ثلاثة وعشرين كيلومتراً».

فهـل بإمكاننـا أن نوفـق بين هـذا التحديـد الإجمـالى ومـا هو متلقى من تعيين الحـدود ومعرفتهـا بالعلامـات والنصب الموجودة الآـن، المـأخوذة يـداً بيـد من زمن المعصومين عليهم السـلام بحيث يكون التنعيم الحـالى خـارج حـدود الحرم، والى جنبه النصب الموجودة حاليّاً؟

نقول: إننـا إذا نظرنـا الى الأدلـة القائلـة بـأن المزدلفـة هى من الحرم؛ بقرينـة جواز التقـاط حصـى الجمـار منها، وبأن الجعرانـة والتنعيم والحديبيـة هى خارجـة عن حـدود الحرم؛ لجواز الإحرام للعمرة المفردة منها، للنصوص المتقدمة، بل جواز الإحرام من أشـباه الجعرانة والحديبية كما فى الصحيح المتقدم الذى يدلّ على جواز الإحرام من كلّ مكان خارج الحرم، فيلزمنا أن نفسر حدود الحرم الواردة فى الموثق بما يكون بين هذه المواقيت، بحيث تدخل المزدلفة فيه، وبهذا فسوف يكون الحرم مختلفة أبعاده بالنسـبة الى مكة، فمن ناحية التنعيم (الشـمال الغربى) يكون الحرم قبل مسـجد التنعيم الحالى كما هى علامات الحرم بالنصب الموجودة حاليّاً، وهى لا تبعد إلا ستة كيلومترات وأما من ناحية الجنوب فقد ذكروا أن اضاءة لبين (لبن) هى حدود الحرم من

۱- ۱ وسائل الشيعة، ۹: باب ۸۷ من تروك الإحرام، ح ۴.

ص: ۴۴

الناحیة الجنوبیة، وهی لا تبعد أکثر من (۱۸) کم وبهذا فسوف یکون البرید ما بین علمی التنعیم وعلمی اضاءة لبین (لبن) متحققاً.

أمّا الجعرانة: (التی هی میقات للإحرام من ناحیة الشمال الشرقی).

وعرنة: (وهی حدود الحرم من الناحیة الشرقیة).

والحدیبیة: (وهی میقات من ناحیة الغرب).

فهی خارجة عن الحرم وهی تبعد ما بین ۲۰- ۲۳ کم.

وحینئذٍ لا یمکن تطبیق البرید فی البرید ما بین هذه الأماکن الثلاثة، ولکن لنا أن نقول: إن الفقهاء قد ذکروا استحباب الإحرام من الجعرانة والحدیبیة، وجوّزوا الإحرام من أدنی الحلّ، فإذا عرفنا أدنی الحلّ بصورة قطعیة کما فیما بعد المزدلفة، جاز لنا الإحرام منه، وإذا شککنا فی حدود الحرم من جهة من الجهات، فالاحتیاط یقتضی أن نحرم من منطقة تبعد عن الحرم کما فی الجعرانة والحدیبیة وأمثالهما.

وبهذا فسوف تکون حدود الحرم، التی هی برید فی برید، لیس علی نسق واحد فی جمیع الأطراف، کما توجد اشارة الی ذلک فی بعض الأخبار.

وعلی کلّ حال فإن تحدید الحرم بکونه بریداً فی برید غیر مثیر للإشکال فی موضع التنعیم الحالی، فإن ما ذکر من کونه میقاتاً بفعل الرسولصلی الله علیه و آله و سلم کالحدیبیة والجعرانة، إنما هو علی نحو الاستحباب؛ للتأسی بفعل النبیصلی الله علیه و آله و سلم، ولما فیه من البعد عن مکة، ولیست هی أقرب الأماکن إلی الحرم، وحینئذٍ ما قطعنا من کونه من الحرم تطبق علیه أحکام الحرم، وما لم نقطع فیه أنه من الحرم لا نطبق فیه أحکام الحرم، ولکن یلزمنا- أیضاً- الإحرام من المکان الذی نقطع فیه بأنه خارج عن حدود الحرم، واللَّه سبحانه هو الموفق.

نیّات الحجّ والعمرة

ص: ۴۵

الهوامش:

نیّات الحجّ والعمرة

تألیف الشیخ الشهید السعید زین الدین العاملی «الشهید الثانی» تحقیق: فارس حسّون کریم

قال اللَّه- عزّ ذکره-: «وأتمّوا الحجَّ والعمرةَ للَّه ..» (۱).

الحجُّ: القصد فی اللغة، وخصّ فی الشرع بالقصد الی بیت اللَّه الحرام؛ لأداء مناسک مخصوصة عنده، علی وجهٍ مخصوصٍ، فی وقتٍ مخصوصٍ. وقد أوجبه اللَّهُ فی طول العمر مرّة واحدة، ووعد علیها من الثواب الجنّة، والعفو عن الذنوب، وسمّی تارکه کافراً، ووُعِد بالنار- نعوذ باللَّه-.

والعمرة: الزیارة فی اللغة، وخصّت فی الشریعة بزیارة البیت الحرام؛ لأداء مناسک مخصوصة عنده، علی وجهٍ مخصوصٍ. وکلاهما- الحجّ والعمرة- ضربان؛ مقضی لنفسه أو لغیره (۲).

وأوجب اللَّه- تعالی- بالآیة المذکورة، حجّة الإسلام، وعمرة الإسلام؛ لأنّه تعالی أمر جمیعَ من توجّه إلیه وجوبُ الحجّ أن یتمّ الحجّ والعمرة- من المکلّفین-. ووجوبُ الإتمام یدلّ علی أنّهما واجبان، بل هذا آکد فی الإیجاب من «حجّوا» أو «اعتمِروا».

ولمّا قرن- تعالی- العمرةَ بالحجّ، وأمر- بإتمامهما وفعلهما- أمراً واحداً، فهی فی الوجوب مرّة واحدة کالحجّ (۳).

وأمّا ما روی فی علّة تسمیة الحجّ حجّاً: ما رواه الصدوق بإسناده عن أبی جعفر علیه السلام، قیل له: لِمَ سمّی الحجّ حجّاً؟ قال: حجّ فلان أی أفلح فلان (۴).

۱- ۱ البقرة: ۱۹۶.

۲- ۲ انظر الفقه المنسوب للإمام الرضا علیه السلام: ۲۱۴- الوسیلة إلی نیل الفضیلة: ۱۵۵.

۳- ۳ انظر فقه القرآن، ۱: ۲۶۳.

۴- ۴ علل الشرائع: ۴۱۱ ح ۱- معانی الأخبار: ۱۷۰ ح ۱- عنهما البحار، ۹۹: ۲ ح ۱ و ۲.

ص: ۴۶

وقد خصّصهما الشارع- عزّ وجلّ- بالفضل والثواب، ووعد الحاجّ- عنهما- عظيم الشفاعة، وحسنات لا تحصى، ولِمَ لا؟ فإنّ المتبادر الى الفهم عند أهل الشرع: أنّ الحجّ عبادة مركّبة من جملة عبادات؛ كالصلاة المؤلّفة من الأفعال، والأذكار المخصوصة. وجاءت الروايات عن أهل بيت العصمة عليهم السلام متواترةً متكاثرة موضحةً فضله وأهميته، وقد أورد جملة منها الشيخ المفيد فی مقنعته (۱).

وأنواع الحجّ ثلاثة:

۱- التمتّع بالعمرة الى الحجّ: وهو فرضُ اللّه على كل ناءٍ عن المسجد الحرام فلا يجوز منه سواه (۲).

۲- الإقران فی الحجّ: وهو أن يهلّ من الميقات بالحجّ، ويقرن الى إحرامه سياق الهدی، وإنّما سمّی إقراناً لاقتران سياق الهدی بما يأتی به، وعليه طوافان بالبيت، وسعی واحد بين الصفا والمروة، ويجدّد التلبية عند كلّ طواف (۳).

۳- الإفراد للحجّ: وهو أن يحرم بالحجّ من الميقات مفرداً ذلک من سياق الهدی وليس عليه هدی، ولا تجديد التلبية عند كلّ طوافٍ، ومناسک المفرد والقارن متساوية (۴).

وحال الحجّ كحال سائر الفرائض الأُخری، فقد خالفت الإماميّة غيرها من الفرق الإسلاميّة فی أحكامه وأفعاله، وأشار لمعظمها الشريف المرتضی «علم الهدی» فی كتابه الموسوم ب «الانتصار» (۵).

ترجمة المؤلّف (۶) اسمه ونسبه:

ذكر اسم ونسب الشهيد السعيد فی الكتب التی تناولت ترجمته، باختلاف من كتابٍ لآخر، فقد أورده ابن العودی (۷) فی رسالته هكذا: زين الدين بن نور الدين علی بن أحمد بن جمال الدين بن تقیّ الدينصالح بن مشرف العاملی. وكذا ورد فی إجازة الشهيد قدس سره للشيخ حسين بن عبد الصمد الجبعی العاملی- والد الشيخ البهائی- علی ما ورد فی البحار (۸)، إلّاأنّ فيها «شرف» بدل «مشرف». وذكر فی آخر الإجازة (۹): «وكتب هذه الأحرف بيده الفانية زين الدين بن علی بن أحمد شُهر بابن الحاجة ...».

مولده قدس سره:

ولد لثلاث عشرة خلون من شوّال سنة إحدی عشرة وتسعمائة من الهجرة النبويّة.

قبس من خِصاله:

ذكر ابن العودی: أنّه لم يصرف لحظة من عمره إلّافی اكتساب فضيلة، ووزّع أوقاته علی ما يعود نفعه فی اليوم والليلة. أمّا النهار ففی تدريس ومطالعة وتصنيف ومراجعة، وأمّا الليل فله فيه استعداد كامل لتحصيل ما يبتغيه من الفضائل، هذا مع غاية اجتهاده فی التوجّه الی مولاه، وقيامه بأوراد العبادة حتی تكلّ قدماه، وهو مع ذلک قائم بالنظر

۱- ۱ المقنعة: ۳۸۶- ۳۸۹.

۲- ۲ جمل العلم والعمل: ۱۰۴.

۳- ۳ نفس المصدر.

۴- ۴ نفس المصدر.

۵- ۵ الانتصار: ۸۹- ۱۰۶.

۶- ۶ تجد ترجمته مفصّلة فی: الدرّ المنثور، ۲: ۱۴۹- بغية المريد فی الكشف عن أحوال الشهيد- أمل الآمل، ۱: ۸۵- رياض العلماء، ۲: ۳۶۵- لؤلؤة البحرين: ۲۸- نقد الرجال: ۱۴۵- منتهی المقال: ۱۴۱- بهجة الآمال، ۴: ۲۵۴- روضات الجنّات، ۳: ۳۵۲- تنقيح المقال،

۱: ۴۷۲- سفينة البحار، ۱: ۷۲۳- الكنى والألقاب، ۲: ۳۴۴- هديّة الأحباب: ۱۶۷- الفوائد الرضويّة: ۱۸۶- أعيان الشيعة، ۷: ۱۴۳- الأعلام للزركلى، ۳: ۶۴- معجم رجال الحديث، ۷: ۳۷۲- معجم المؤلّفين، ۴: ۱۹۳.

۷- ۷ هو الشيخ الفاضل محمد بن على بن الحسن العودى الجزينى، كان تلميذ الشهيد الثانى، وأقرب الناس إليه، ترجم أستاذه فى رسالة مستقلّة سمّاها «بغيةالمريد فى الكشف عن أحوال الشهيد»، ولكنها فقدت- ككثير من عيون تراثنا- ولم يبق منها إلّاما وقع فى يد الفاضل حفيد شيخنا الشهيد: على بن محمد بن الحسن بن زين الدين «الشهيد الثانى» فأودعه فى كتابه «الدرّ المنثور».

۸- ۸ بحار الأنوار، ۱۰۸: ۱۴۷.

۹- ۹ بحار الأنوار، ۱۰۸: ۱۷۱.

ص: ۴۷

فی أحوال معیشته علی أحسن نظام، وقضاء حوائج المحتاجین بأتمّ قیام ....

وبالجملة فهو عالم الأوان ومصنّفه، ومقرّظ البیان ومشنّفه بتآلیف کأنّها الخرائد، وتصانیف أبهی من القلائد، وضعها فی فنون مختلفة وأنواع، وأقطعها ما شاء من الإتقان والإبداع، وسلک فیها مسلک المدقّقین، وهجر طریق المتشدّقین (۱).

شهادته:

لم یکن شیخنا بمنأی عن أعین حاسدیه مع أنّه کان یخفی حتی آثاره القیّمة، ولعلّ أشدّهم عداوة القاضی معروف. وکان سبب قتل شیخنا أنّه ترافع إلیه رجلان فحکم لأحدهما علی الآخر، فغضب المحکوم علیه وذهب إلی القاضی معروف، الذی ما إن سمع حتی غضب وأرسل من یطلبه، فسافر الشیخ فی محمل مغطّیً، وکتب القاضی إلی سلطان الروم: أنّه وجد ببلاد الشام رجلٌ مبدع خارج عن المذاهب الأربعة، فأرسل السلطان رجلًا فی طلب الشیخ وقال له: ائتنی به حیّاً، فلحقه فی طریق مکّة، فقال له الشیخ: تکون معی حتی نحجّ، ثم افعل ما ترید. فلمّا فرغ سافر معه إلی بلاد الروم، فلمّا وصلها رآه رجل فسأله عن الشیخ، فقال: رجل من علماء الامامیّة أراده السلطان، فقال:

أَوما تخاف أن یخبر السلطان بأنّک قد آذیته؟ بل الرأی أن تقتله وتأخذ برأسه، فقتله فی مکانه. ودفن من قبل جماعة من الترکمان وبنیت علیه قبّة. وأخذ الرجل رأسه إلی السلطان فأنکر علیه، وقال: أمرتک أن تأتینی به حیّاً فقتلته! ثم قتل ذلک الرجل (۲).

استشهد قدس سره سنة ۹۶۵ ه. ق عن عمرٍ یناهز ۵۵ سنة.

نسخة الکتاب:

لقد وفِّقت لنیلصورة لنسخة مخطوطة من کتاب الرجعة للمیرزا محمد مؤمن بن دوست الاسترابادی من خزانة مکتبة آیة اللَّه العظمی المرعشی النجفی قدس سره مذکورة فی فهرس مخطوطات المکتبة: ۴/ ۲۸۲ رقم ۱۴۸۵، ومن ثمّ وفِّقت لإتمام تحقیقها، غیر أنّی وجدت ملحقاً بالنسخة المذکورة، نسخة مکتوبة بخطّ نسخ جیّد تقع فی ۸صفحات، کلّصفحة احتوت ۱۲ سطراً، والظاهر أنّ کاتبها هو کاتب نسخة الرجعة نفسه، وهو السیّد حسن بن علوان بن علی الشاعر الشاخوری الغریفی فی سنة ۱۲۲۴ ه.

ومن خلال متابعتی لمعرفة مؤلّف النسخة، ومراجعتی لکتاب الذریعة، وجدت أنّ الشیخ آقا بزرگ ذکر فی المجلّد ۲۴صفحة ۴۴۱ تحت الرقم ۲۳۱۱ ما هذا نصّه:

نیّة الحجّ والعمرة: أیضاً للشهید الثانی وهی غیر مناسکه، أوّلها: [الحمد للَّهربّ العالمین، وصلواته علی محمّد وآله الطاهرین، إذا عزمت علی سبیل الحجّ، وقطعت العلائق (۳) فقف علی باب بیتک، وانو الحجّ والعمرة ...].

مختصرة تزید علی مائة بیت، رأیتها فی مکتبة (سیّدنا الشیرازی)، ونسخة مع مناسکه فی مکتبة (الشریعة). انتهی.

۱- ۱ الدرّ المنثور، ۲: ۱۵۳- ۱۵۴.

۲- ۲ أمل الآمل، ۱: ۹۰- ۹۱ بتصرّف.

۳- ۳ العوائق، هکذا وردت کتابتها فی الذریعة لآقا بزرگ الطهرانی.

ص: ۴۸

وکما یلاحظ فإنّ مطلع النسخة هو عین ما ذکره الشیخ الطهرانی رحمه الله.

وکان عملی بعد استنساخ النسخة الخطیّة، وتقویم النصّ، أن عمدتُ إلی مطابقة النیّات المذکورة فی هذه الرسالة؛ مع النیّات المذکورة فی (الرسالة الفخریّة فی معرفة النیّة) تألیف فخر المحقّقین محمد بن الحسن بن المطهّر الحلّی المولود سنة ۶۸۲ ه. ق، والمتوفّی سنة ۷۷۱ ه. ق مثبتاً ذلک فی الهامش.

وآخر دعوانا أن الحمد للّٰهربّ العالمین.

-* محل الصورة*-

صورة الصفحة الاولی من النسخة الخطیّة

الحمد للّٰهربّ العالمین، والصّلاة والسّلام علی سیّد المرسلین محمّدٍ وآله الطاهرین.

وبعد:

إذا عزمتَ- أیّها الأخ- إلی الحجّ، وقطعتَ العلائق، فقف علیصورة الصفحة الأخیرة من النسخة الخطیّة

باب بیتک، وانو الحجَّ، والعمرة، وقل:

ص: ۴۹

أتوجّه إلی البيت الحرام، والمشاعر العظام؛ لَاعتمر عُمرة الإسلام، عمرةَ التمتّع، وأَحجّ حجّ الإسلام، حجّ التمتّع، لوجوبه قربةً إلی اللّه (۱).

فإذا وصلت إلی الميقات (۲)، يستحبّ أن تغتسل غسل الإحرام، والنيّة:

أغتسلُ غسل الإحرام لندبه قربةً إلی اللّه.

فإذا فرغت من الغسل، فالبس ثوبی الإحرام (۳)، تأتزرُ بأحدهما، وترتدی بالآخر (۴)، ثمّ تصلّی سنّة الإحرام استحباباً، وهی ستّ ركعات، وأقلّها ركعتان، والنيّة:

أُصلّی ركعتی سنّة الإحرام لندبه قربة إلی اللّه.

ثمّ إن كان الإحرام من ميقات المدينة فليدخل مسجد الشجرة، ويحرم بعمرة التمتّع من داخله، ونيّته:

أُحرم بالعمرة المتمتّع بها إلی الحجّ حجّ الإسلام حجّ التمتّع، وأُلبّی التلبيات الأربع لعقد هذا الإحرام؛ لوجوب الجميع قربة إلی اللّه (۵).

ويقارن بالنيّة التلبية، فيقول:

لبّيك اللّهمّ لبّيك لبّيك، إنّ الحمد والنعمة والملك لک، لا شريک لک لبّيك.

ثمّ يتوجّه إلی مكّة ويكرّر التلبية استحباباً، فإذا وصل إلی مكّة بدأ بالطواف حول الكعبة سبعة أشواطٍ، يبدأ بالحجر الأسود ويختم به.

والنيّة مقارنة لأوّل الطواف، عند محاذاة أوّل جزء منه لأوّل جزء من الحجر الأسود، علماً أو ظنّاً، مستقبلًا بوجهه الكعبة، أو جاعلها علی اليسار، ونيّته:

أطوف بالبيت سبعة أشواطٍ فی عمرة الإسلام، عمرة التمتّع؛ لوجوبه قربة إلی اللّه (۶). ويقارن بالنيّة الحركة، ويختم الشوط السابع كما بدأ أوّلًا بمحاذاة الحجر.

وإذا فرغ من الطواف، مضی إلی مقام إبراهيم عليه السلام فصلّی ركعتی الطواف خلفه، أو إلی أحد جانبيه، ونيّتها:

أُصلّی ركعتی الطواف؛ طواف عمرة الإسلام، عمرة التمتّع أداءً؛ لوجوبه قربة إلی اللّه (۷).

فإذا فرغ منها مضی إلی السعی بين الصفا والمروة سبعة أشواطٍ، يحسب من الصفا حتی يرجع إليه شوطين، حتی يكمل سبعة أشواط خاتماً بالمروة، ونيّته وهو علی الصفا:

أسعی سبعة أشواطٍ بين الصفا

۱- ۱ أورد هذه النيّة فخر المحقّقين فی الرسالة الفخريّة: ۷۳ هكذا: «أتوجّه إلی بيت اللّه الحرام، والمشاعر العظام؛ لأداء الحجّ والعمرة، وأفعالهما؛ لوجوبهما إلی اللّه، وإن كانا مستحبّين قال ... لندبهما قربة إلی اللّه».

۲- ۲ إنّ رسول اللّهصلی الله عليه و آله و سلم وقّت لكلّ قومٍ ميقاتاً يحرمون منه، لا يجوز لهم التقدّم فی الإحرام من قبل بلوغه، ولا التأخّر عنه، فوقّت لأهل المدينة مسجدَ الشجرةوهو ذو الحليفة ...، ووقّت لأهل العراق بطن العقيق، وأوّله المسلح، ووسطه غمرة، وآخره ذات عرق ...، ووقّت لأهل الشام الجحفة ...، ووقّت لأهل اليمن يَلمْلَمْ ...، ووقّت لأهل الطائف قرن المنازل ... «المقنعة: ۳۹۴-۳۹۵».

۳- ۳ قال فی الرسالة الفخريّة: ۷۴: ويلبس ثوبی الإحرام، فيقول: «ألبس ثوبی الإحرام؛ لوجوبه قربة إلی اللّه».

۴- ۴ فی النسخة: بالأُخری.

۵- ۵ ذكر النيّة فی الرسالة الفخريّة: ۷۴ هكذا: «أُلبّی التلبيات الأربع؛ لأعقد بها إحرام العمرة المتمتّع بها إلی الحجّ، حجّ الإسلام؛

لوجوبه عليّ قربة إلى اللَّه».

۶- ۶ أورد هـذه النيّة في الرسالة الفخريّة: ۷۴ هكذا: «أطوف سبعة أشواط طواف العمرة المتمتّع بها إلى الحجّ عمرة الإسـلام؛ لوجوبه عليَّ قربة الى اللَّه».

۷- ۷ أورد هـذه النيّـة في الرسالة الفخريّة: ۷۴ هكـذا: «أُصـلّي ركعتي طواف العمرة المتمتّع بها عمرة الإسـلام؛ لوجوبها عليَّ قربة إلى اللَّه».

ص: ۵۰

والمروة فی عمرة الإسلام، عمرة التمتّع؛ لوجوبه قربة الی اللّه (۱).

فإذا فرغ من السعی قصّر من شعره، أو ظفره بالمروة، ونیّته:

أُقصّر للإحلال من إحرام عمرة الإسلام، عمرة التمتّع؛ لوجوبه قربة إلی اللَّه (۲).

والتقصیرُ آخر أفعال العمرة، فإذا فعله بقی علی الإحلال من کلّ ما حرّمه اللَّهُ إلی أن یحرم بالحجّ یوم الثامن.

ویستحبّ کونه بعد أن یصلّی الظهرین ذلک الیوم، فیحرم له من مکّة، وأفضلها المسجد الحرام، وخلاصته الحجر، والمقام. فینوی بعد الغسل، ولبس ثوبی الإحرام، وصلاة السنّة المتقدّمة، ونیّته:

أُحرم بحجّ الإسلام، حجّ التمتّع، وأُلبّی التلبیات الأربع لعقد هذا الإحرام؛ لوجوب الجمیع قربةً إلی اللَّه (۳). ثمّ یلبّی مقارناً بها النیّة:

لبّیک اللهمّ لبّیک لبّیک، إنّ الحمد والنعمة والملک لک، لا شریک لک لبّیک.

ثمّ یمضی إلی عرفات، فیقف بها یوم التاسع من الزوال إلی غروب الشمس بمعنی الکون بها، والنیّة عند تحقّق الزوال بلا فصلٍ:

أقِف بعرفات من وقتی هذا إلی غروب الشمس فی حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربة إلی اللَّه (۴).

فإذا غرَبت الشمس أفاض إلی المشعر، فإذا وصل إلیه وجب علیه المبیت ناویاً عند وصوله:

أبیت هذه اللیلة بالمشعر فی حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربةً إلی اللَّه.

فإذا أصبح وجب علیه الوقوف به إلی طلوع الشمس بمعنی الکون به، وتجب النیّة عند تحقّق الفجر، والنیّة:

أقف بالمشعر إلی طلوع الشمس فی حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربة إلی اللَّه (۵).

فإذا طلعت الشمس أفاض إلی منی، فإذا وصل إلیها وجب علیه فیها ثلاثة أفعال: رمی جمرة العقبة بسبع حصیات، ثمّ ذبح الهدی، ثمّ حلق الرأس، أو التقصیر. ونیّة الرمی:

أرمی جمرة هذه العقبة بسبع حصیات فی حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربة إلی اللَّه (۶)، مقارناً بالرمی لجمرة العقبة. ونیّة الذبح:

أذبحُ هذا الهدی فی حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربة إلی اللَّه (۷).

ویجب أن یأکل منه شیئاً، وأن یهدی ثلثه لإخوانه المؤمنین، ویتصدّق بثلثه علی فقرائهم، والنیّة مقارنة للأکل:

آکل من لحم هدیی هذا فی حجّ

۱- ۱ أورد هذه النیّة فی الرسالة الفخریّة: ۷۴- ۷۵ هکذا: «أسعی سبعة أشواط سعیَ العمرة المتمتّع بها، عمرة الإسلام؛ لوجوبه علیَّ قربة إلی اللَّه».

۲- ۲ أورد هذه النیّة فی الرسالة الفخریّة: ۷۵ هکذا: «أُقصّر للإحلال من عمرة المتمتّع بها عمرة الإسلام؛ لوجوبه علیَّ قربة إلی اللَّه».

۳- ۳ فی الرسالة الفخریّة: ۷۵ هکذا: ثمّ یحرم بالحجّ من مکّة، وأفضلها تحت المیزاب، فیقول: «أُحرم بالحجّ حجّ الإسلام حجّ التمتّع؛ لوجوبه علیَّ قربة إلی اللَّه».

۴- ۴ أورد هذه النیّة فی الرسالة الفخریّة: ۷۵ هکذا: «أقف بعرفات لحجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه علیَّ قربة الی اللَّه».

۵- ۵ أورد هذه النیّة فی الرسالة الفخریّة: ۷۵ هکذا: «أقف بالمشعر لحجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربة إلی اللَّه».

۶- ۶ أورد هذه النیّة فی الرسالة الفخریّة: ۷۵ هکذا: «أرمی جمرة العقبة لحجّ التمتّع، حجّ الإسلام؛ لوجوبه علیَّ قربة إلی اللَّه».

۷- ۷ أورد هذه النیّة فی الرسالة الفخریّة: ۷۵ هکذا: «أذبح هذا الهدی لحجّ التمتّع، حجّ الإسلام؛ لوجوبه علیَّ قربة إلی اللَّه».

ص: ۵۱

الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربة إلى اللّه.

ونیّة الإهداء:

أهدیتک یا فلان ثلث هدیی هذا فی حجّ الإسلام، حجّ التمتع؛ لوجوبه قربةً إلى اللَّه.

ونیّة التصدّق:

أتصدّق بثلث هدیی هذا فی حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربة إلى اللّه.

ثمّ یحلق رأسه، أو یقصّر من شعره، أو ظفره، ونیّته کما مرّ مقارنة للفعل:

أحلق رأسی، أو أُقصر فی حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربة إلى اللّه (۱).

فإذا فرغ من ذلک، مضى إلى مکّة للطواف والسعی. فإذا وصل إلیها، بدأ بطواف الحجّ، وصفتُه کما مرّ، ونیّته:

أطوف بالبیت سبعة أشواطٍ فی حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربة إلى اللَّه (۲).

ثمّ یصلّی رکعتیه خلف المقام، ونیّتها:

أُصلّی رکعتی طواف حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربة إلى اللَّه (۳).

ثمّ یسعى کما مرّ، ونیّته:

أسعى بین الصفا والمروة سبعة أشواطٍ فی حجّ الإسلام، حجّ التمتّع، لوجوبه قربة إلى اللَّه (۴).

ثمّ یطوف طواف النساء سبعة أشواطٍ، ونیّته:

أطوف طواف النساء سبعة أشواطٍ فی حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربة إلى اللَّه (۵).

ثمّ یصلّی رکعتیه (۶)، ونیّتها:

أُصلّی رکعتی طواف النساء فی حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربة إلى اللّه (۷).

فإذا فرغ من هذه الأفعال رجع إلى منى للمبیت بها لیالی التشریق الثلاث وهی: لیلة الحادی عشر، والثانی عشر، والثالث عشر، ویجوز لمن اتّقى الصید والنساء، ولم تغرب علیه الشمس لیلة الثالث عشر الاقتصار على مبیت اللیلتین، وتجب النیّة عند الغروب:

أبیت هذه اللیلة بمنى فی حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربة إلى اللَّه (۸).

ویجب رمی الجمار الثلاث فی کلّ یومٍ، بحسب مبیت لیلته، یبدأ بالأُولى، ثمّ الوسطى، ثم جمرة العقبة، ونیّة الرمی:

۱- ۱ أورد هذه النیّة فی الرسالة الفخریّة: ۷۵ هکذا: «أحلق رأسی، أو أُقصّر لحجّ التمتّع، حجّ الإسلام؛ للإحلال؛ لوجوبه علیَّ قربة إلى اللَّه».

۲- ۲ أورد هذه النیّة فی الرسالة الفخریّة: ۷۵ هکذا: «أطوف بالبیت سبعة أشواط طواف الحجّ حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه علیَّ قربة إلى اللّه».

۳- ۳ أورد هذه النیّة فی الرسالة الفخریّة: ۷۶ هکذا: «أُصلّی رکعتی طواف الحجّ حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه علیّ قربة إلى اللَّه».

۴- ۴ أورد هذه النیّة فی الرسالة الفخریّة: ۷۶ هکذا: «أسعى بین الصفا والمروة سبعة أشواطٍ سعی الحجّ حجّ التمتع حجّ الإسلام؛ لوجوبه علیَّ قربة إلى اللَّه».

۵- ۵ أورد هذه النیّة فی الرسالة الفخریّة: ۷۶ هکذا: «أطوف طواف النساء سبعة أشواط لحجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه علیَّ قربة إلى اللَّه».

۶- ۶ وذلك بالمقام.

۷- ۷ أورد هذه النيّة فی الرسالة الفخريّة: ۷۶ هكذا: «أُصلّی ركعتی طواف النساء لحجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبهما قربة إلی اللَّه».

۸- ۸ أورد هذه النيّة فی الرسالة الفخريّة: ۷۶ هكذا: «أبيت هذه الليلة فی منی لحجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه علیَّ قربة إلی اللَّه».

ص: ۵۲

أرمی هذه الجمرة بسبع حصیاتٍ فی حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربةً إلی اللّه (۱).

فإذا فرغ من أفعاله، ورجع إلی مکّة استحبّ له الإکثارُ من الطواف المندوب، ونیّته:

أطوف بالبیت سبعة أشواطٍ؛ لندبه قربة إلی اللّه.

ثمّ یصلّی رکعتی الطواف، ونیّتها:

أُصلّی رکعتی الطواف لندبه قربة إلی اللّه.

فإذا أراد الخروج من مکّة، استحبّ له طواف الوداع، ونیّته:

أطوف بالبیت سبعة أشواطٍ طواف الوداع؛ لندبه قربة إلی اللّه.

ویصلّی رکعتیه، ونیّتها:

أُصلّی رکعتی طواف الوداع؛ لندبه قربة إلی اللّه.

وإن کان الحاجّ نائباً عن غیره، فلیضف إلی هذه النیّات النیابةَ عن فلان فی جمیع الأعمال والأفعال علیه بالأصالة، وعلیّ بالنیابة؛ لوجوبه قربة إلی اللّه.

وکفی باللّه حسیباً، وحسبی اللّه ونعم الوکیل ونعم النصیر، وصلّی اللّه علی سیّدنا محمّدٍ وآله الطاهرین، والحمد للّهربّ العالمین.

***- محل الصورة-

مصادر التحقیق:

۱- ۱ أورد هذه النیّة فی الرسالة الفخریّة: ۷۶ هکذا: «أرمی هذه الجمرة لحجّ الإسلام حجّ التمتّع لوجوبه علیَّ قربة إلی اللّه».

ص: ۵۳

۱- القرآن الكريم.

۲- الأعلام لخير الدين الزركلى، نشر دار العلم للملايين، بيروت ۱۹۸۴ م.

۳- أعيان الشيعة للسيّد محسن الأمين، نشر دار التعارف للمطبوعات، بيروت ۱۴۰۳ ه. ق.

۴- أمل الآمل للشيخ الحرّ العاملى، تحقيق السيّد أحمد الحسينى، مطبعة الآداب فى النجف الأشرف.

۵- الانتصار للشريف المرتضى علم الهدى، نشر منشورات الشريف الرضى، قم.

۶- بحار الأنوار للشيخ محمد باقر المجلسى، نشر مؤسّسة الوفاء، بيروت ۱۴۰۳ ه. ق.

۷- بهجة الآمال فى شرح زبدة المقال للعلّامة ملّا على العليارى التبريزى، تحقيق جعفر الحائرى، نشر مؤسّسة الثقافة الإسلاميّة ۱۴۰۸ ه. ق.

۸- تنقيح المقال فى أحوال الرجال للشيخ عبد اللَّه المامقانى، نشر مكتبة جهان (الطبعة الحجريّة).

۹- جمل العلم والعمل للشريف المرتضى علم الهدى، تحقيق السيّد أحمد الحسينى، مطبعة الآداب فى النجف الأشرف ۱۳۸۷ ه. ق.

۱۰- الدرّ المنثور للفقيه على بن محمد بن الحسن بن زين الدين العاملى، نشر مكتبة آية اللَّه العظمى المرعشى النجفى قدس سره، قم ۱۳۹۸ ه. ق.

۱۱- الذريعة إلى تصانيف الشيعة للعلّامة الشيخ آقا بزرگ الطهرانى، نشر دار الأضواء، بيروت ۱۴۰۳ ه.

۱۲- الرسالة الفخريّة فى معرفة النيّة لفخر المحقّقين محمد بن الحسن بن المطهّر الحلّى، تحقيقصفاء الدين البصرى، نشر مجمع البحوث الإسلاميّة، مشهد ۱۴۱۱ ه. ق.

۱۳- روضات الجنّات فى أحوال العلماء والسادات للميرزا محمد باقر الموسوى الخوانسارى، نشر مكتبة اسماعيليان ۱۳۹۰ ه. ق.

۱۴- رياض العلماء وحياض الفضلاء للميرزا عبد اللَّه افندى الاصفهانى، تحقيق السيّد أحمد الحسينى، نشر مكتبة آية اللَّه العظمى المرعشى النجفى قدس سره، قم ۱۴۰۱ ه. ق.

۱۵- سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار للشيخ عبّاس القمّى، مطبعة المهارة ۱۳۶۳ ه. ش (الطبعة الحجريّة).

۱۶- علل الشرائع للشيخ أبى جعفر الصدوق، نشر مكتبة الداورى، قم.

۱۷- فقه القرآن لقطب الدين أبى الحسين سعيد بن هبة اللَّه الراوندى، تحقيق السيّد أحمد الحسينى، نشر مكتبة آية اللَّه العظمى المرعشى النجفى قدس سره، قم ۱۳۹۷ ه. ق.

۱۸- الفقه المنسوب للإمام الرضا عليه السلام، تحقيق مؤسّسة آل البيت عليهم السلام

ص: ۵۴

لإحياء التراث فی قم، نشر المؤتمر العالمی للإمام الرضا عليه السلام، مشهد ۱۴۰۶ ه. ق.
۱۹- الفوائد الرضويّة فی أحوال علماء المذهب الجعفريّة للشيخ عبّاس القمّی (الطبعة الفارسيّة).
۲۰- الکنی والألقاب للشيخ عبّاس القمّی، نشر مکتبة بيدار، قم.
۲۱- لؤلؤة البحرين للشيخ يوسف البحرانی، تحقيق السيّد محمدصادق بحر العلوم، نشر مؤسّسة آل البيت للطباعة والنشر، قم.
۲۲- معانی الأخبار للشيخ أبی جعفر الصدوق، تحقيق علی أکبر الغفّاری، نشر جماعة المدرّسين، قم ۱۳۶۱ ه. ش.
۲۳- معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة للسيّد أبی القاسم الموسوی الخوئی قدس سره، نشر مدينة العلم فی قم ۱۴۰۳ ه. ق.
۲۴- معجم المؤلّفين لعمر رضا کحّالة، نشر دار إحياء التراث العربی، بيروت.
۲۵- المقنعة للشيخ محمد بن محمد المفيد، تحقيق ونشر جماعة المدرّسين، قم ۱۴۱۰ ه. ق.
۲۶- منتهی المقال فی أحوال الرجال للشيخ أبی علی محمد بن إسماعيل (الطبعة الحجريّة).
۲۷- نقد الرجال للسيّد مير مصطفی التفريشی، نشر مکتبة الرسول المصطفیصلی الله عليه و آله و سلم، قم.
۲۸- هديّة الأحباب فی ذکر المعروفين بالکنی والألقاب والأنساب، للشيخ عبّاس القمّی، نشر مکتبة الصدوق، طهران ۱۳۶۲ ه. ش.
۲۹- الوسيلة إلی نيل الفضيلة للفقيه أبی جعفر الطوسی المعروف بابن حمزة، تحقيق الشيخ محمد الحسّون، نشر مکتبة آية اللّه العظمی المرعشی النجفی قدس سره، قم ۱۴۰۸ ه. ق.

الهوامش:

المنازل الثلاثة للرحمة فی السعی

ص: ۵۵

المنازل الثلاثة للرحمة فى السعى

محمد مهدى الآصفى

فى حياة الإنسان ثلاثة منازل لرحمة اللَّه تعالى:

۱- الفقر والحاجة.

۲- الدعاء والسؤال.

۳- السعى والعمل.

وفيما يلى شرح موجز لهذه المنازل:

المنزل الأول: الفقر والحاجة:

وهما أولا منازل رحمة اللَّه- تعالى- فالفقر يستنزل رحمة اللَّه حتى من غير أن يعيصاحب الفقر فقره إلى اللَّه.

وبين (الفقر إلى اللَّه) و (رحمة اللَّه) علاقة تكوينية، كلّ منهما يطلب الآخر، فالفقر إلى اللَّه يستنزل رحمة اللَّه، ورحمة اللَّه تطلب مواقعَ الحاجة والفقر. وهى سنة عامة فى الكون، فى كلّ موضع للفقر والغنى، والضعف والقوة. فإنّ الضعف يطلب القوة، والقوة تطلب الضعف، والفقر يطلب الغنى، والغنى يطلب الفقر، والجهل يطلب العلم، والعلم يطلب الجهل، والمريض يطلب الطب، كما أن الطب يطلب المرض.

وليست حاجة العالِم إلى الجاهل ليعلّمه بأقل من حاجة الجاهل إلى العالم، ولا حاجة الطبيب إلى المريض ليداويه بأقل من حاجة المريض إلى الطبيب، ولا حاجة الأمّ إلى الطفل لتسبغ عليه حنانها وعطفها بأقل من حاجة الطفل إلى الأُمّ لتتولّاه برعايتها وعطفها.

إنّها سنة اللَّه فى كل موضع للفقر والغنى، والضعف والقوة، وهى سنة اللَّه- تعالى- فى علاقته بفقر عباده

ص: ۵۶

وعجزهم وضعفهم وحاجتهم حتی من غیر سؤال وطلب ودعاء، ومن غیر وعی منهم لحاجتهم وفقرهم.

إن هـذه العلاقـة من أسـرار هـذا الـدین، وهی من أسـرار هـذا الکون وقوانینه، وما لم یفهم الإنسان هذا القانون فی الکون، وفی علاقة الإنسان باللَّه- تعالی- لا یستطیع أن یدرک طائفة واسعة من معارف هذا الدین وأسراره.

وکم من مریض تماثل للشـفاء برحمة اللَّه من غیر سؤال «وإذا مرضت فهو یشفین» (۱) وکم من فقیر جـائع رزقه اللَّه- تعالی-، وأطعمه من جوع من غیر سؤال ولاـ دعـاء. وکم من مضـطر فی لجـج البحـار، أو تحت الانقـاض، أو تحت طائل السـیوف أو فی وسط الحریق أدرکته رحمـهٔ اللَّه- تعـالی- وانقـذته من غیر سؤال ولا دعاء. وکم من ظمآن بلغ به الظماء مبلغاً اسـتنفد مقاومته، فأدرکته رحمـهٔ اللَّه- تعـالی- وأروته من غیر سؤال ولاـ طلب. وکم من إنسـان واجه الأخطـار، وکان قاب قوسـین منها وهو یعلم أولا یعلم، فجاءه (ستر اللَّه) فانقـذه منهـا. وکم من إنسان وصل إلی طریق مسـدود فی حیاته ففتـح اللَّه- تعالی- علیه ألف طریق وطریق، وکل ذلک من غیر سؤال ولاـ طلب ولاـ دعاء، بل دون أن یعرفصاحبُه اللَّه کثیراً، فضـلًا من أن یعرفه فلا یطلب منه، وکم من رضـیع تـدرکه رحمـهٔ اللَّه- تعالی- دون أن یطلب من اللَّه، ودون أن یسأل اللَّه- تعالی- (۲).

وقـد ورد فی دعاء الافتتاح: «فکم یا إلهی من کربة قد فرجتها، وهموم قد کشـفتها، وعثرة قد أقلتها، ورحمة قد نشـرتها، وحلقة بلاء قد فککتها».

وورد فی دعاء أیام رجب: «یا من یعطی من سأله، یا من یعطی من لم یسأله، ومن لم یعرفه تحنّناً منه ورحمة».

وفی المناجاة الرّجبیّة: «ولکن عفوک قبل علمنا».

إذن الفقر والحاجة من منازل رحمة اللَّه- تعالی-، وحیث یکون الفقر وتکون الحاجة، تجد رحمته تعالی.

وللعارف الرومیّ الشهیر بیتٌ من الشعر فی هذا الباب، أذکر ترجمته هذه:

لا تطلب الماء واطلب الظماء حتّی یتفجّر الماء من کلّ أطرافک وجوانبک.

وقـد وردت الإشارة إلی هـذه العلاقة بین رحمة اللَّه- تعالی- وحاجة عباده وفقرهم فی مناجاة بلیغة ومؤثرة لأمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السلام، نورد فیما یلی طرفاً منها:

مولای یا مولای أنت المولی، وأنا العبد، وهل یرحم العبد إلا المولی.

مولای یا مولای، أنت المالک، وأنا المملوک، وهل یرحم المملوک إلا المالک؟

مولای یا مولای، أنت العزیز، وأنا الذلیل، وهل یرحم الذلیل إلا العزیز؟

مولای یا مولای، أنت الخالق، وأنا المخلوق، وهل یرحم المخلوق إلا الخالق؟

مولای یا مولای، أنت القوی، وأنا الضعیف، وهل یرحم الضعیف إلا القوی؟

مولای یا مولای، أنت الغنی، وأنا الفقیر، وهل یرحم الفقیر إلا الغنی؟

مولای یا مولای، أنت المعطی، وأنا السائل، وهل یرحم السائل إلا المعطی؟

مولای یا مولای، أنت الحی، وأنا المیت، وهل یرحم المیت إلا الحی؟

الفقر الواعی والفقر المضلّل:

۱- ۱ الشعراء: ۸۰.

۲- ۲ وهـذا لا يعنى أن الناس لا يموتون تحت الانقاض فى الزلازل، ولا يحترقون فى الحرايق، ولا يهلكون فى لجج البحار، ولا يموت إنسان من المرض والألم ولا يموت طفل رضـيع. فقدصمّم اللّه تعالى هذا الكون بموجب (الرحمهٔ) و (الحكمهٔ)، فاذا كانت حكمهٔ اللّه تقتضـى وقوع كارثـهٔ فى إنسان أو حيوان أو نبات، فلا يعنى ذلك أن ننفى البعـد الآخر من فضل اللّه- تعالى- وصـفاته الحسـنى، وهو الرحمهٔ.

ص: ۵۷

ولكن علينا أن نشير هنا: أن هناك نوعين من الفقر؛ أحدهما يستنزل رحمة اللّه، والآخر يحجبصاحبه عن رحمة اللّه. أمّا الذى يستنزل رحمة اللّه فهو «الفقر الواعى» الذى يشعرصاحبه بحاجته وفقره الى اللّه تعالى، ويربطه بمسبب الأسباب مباشرة عبر الأسباب، دون أن يكون معنى ذلك اسقاط الأسباب عن الحساب.

والفقر المضلّل هو الفقر الذى يحبسصاحبه عند الأسباب، وتحجبه الأسباب عن الإحساس بفقره وحاجته الى مسبب الأسباب.

وليس معنى وعى الحاجة والفقر إلى اللّه- تعالى- الغاء الأسباب، والإعراض والانصراف عنها، فهذا ما لا يصح، ولا يجوز، ولا يقول به أحد، حتّى الأشاعرة لا يذهبون هذا المذهب المتطرف من الأسباب.

ومع تثبيت هذه الحقيقة نقول: إنّ الفقر الواعى هو الفقر الذى يشعرصاحبه بفقره إلى اللّه، ويثبّت ويركّز الإحساس بالفقر إلى اللّه فى نفسه، ولا تعيقه الأسباب عن مسبّب الأسباب.

أما الفقر المضلّل فهو الفقر الذى يحبسصاحبه عند الأسباب، وتحجبه الأسباب عن الإحساس بالحاجة والفقر الى اللّه تعالى، مبدإ الأسباب، ومسبّب الأسباب.

والفقر الأوّل هو المقصود من الرواية النبويّة الشريفة (الفقر مخزى) والفقر الثانى هو الذى (كاد أن يكون كفراً).

والفقر الأوّل هو الذى يستنزل رحمة اللّه، والثانى يحجبصاحبه عن رحمة اللّه.

وهذا الفقر هو الذى نجده فى كلمات أبى الأنبياءِ إبراهيم عليه السلام، كما يتلو علينا القرآن نبأه: «واتلُ عليهم نبأَ ابراهيم ... الذى خَلَقنى فهو يَهدين والذى هو يُطعمنى ويَسقين وإذا مَرِضتُ فهو يَشفين والذى يُميتنى ثم يُحيين والذى أَطمعُ أن يغفرَ لى خَطيئتى يومَ الدين» (۱).

فلا يريد إبراهيم عليه السلام فى هذا الخطاب أن يلغى الأسباب الطبيعية فى الإطعام والسقى والشفاء والموت والحياة من الحساب، وقد كان عليه السلام يتعامل مع كل ذلك إلّاأن هذه الأسباب لن تحجبه عن اللّه- تعالى- مسبّب الأسباب ومبدإ الأسباب، وهذا هو الفرق بين الرؤية التوحيدية إلى الأسباب وبين الرؤية الأخرى المشوبة بالشرك.

المنزل الثانى: الدعاء والسؤال:

يستنزل الدعاء والسؤال من رحمة اللّه ما لا يستنزله الفقر وذلك أنّ الدعاء فقر وطلب، وكل منهما عامل مستقل فى استنزال رحمة اللّه- تعالى- فإنّ الطلب والسؤال يستنزل رحمة اللّه، كما أنّ الفقر يستنزل رحمة اللّه، والدعاء:

«فقر وطلب» ولذلك فهو يستنزل من رحمة اللّه ما لا يستنزله الفقر وحده.

وكلما يكونصاحب الدعاء أكثر اضطراراً وفقراً يكون دعاؤه أقرب إلى الاستجابة، فإنّ الفقر يركّز الطلب، والطلب يعمق حالة الفقر ويدخله إلى دائرة الوعى.

ولكل (دعوة) (اجابة).

يقول تعالى: «... ادعونى استجب لكم، إنّ الذين يستكبرونَ عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين» (۲).

وهذا قانون عام لا يتخلف، والقرآن الكريم يقرّر هذه الحقيقة بكل وضوح (ادعونى أستجب لكم).

۱- ۱ الشعراء: ۶۹- ...- ۸۱.

۲- ۲ المؤمن: ۶۰.

ص: ۵۸

وإن (المانع) عن استجابة الدعاء إمّا أن یکون من ناحیة المسؤول، أو من ناحیة السائل، ولیس من ثالث، ولا یمکن أن یکون هناک مانع من ناحیة المسؤول فإن اللَّه- تعالی- مقتدر کریم، لا تنقص خزائنه، ولا ینفد ملکه.

«... وإذا قضی أمراً فانما یقول له کن فیکون» (۱).

«... والأرضُ جمیعاً قبضته یوم القیامة والسموات مطویاتٌ بیمینه» (۲).

«إنّ اللَّه علی کل شیء قدیر» (۳).

«وللَّه خزائنُ السموات والأرض» (۴).

ولا بخل ولا شحّ فی ساحته، ولا حدّ لجوده وکرمه.

«... ربنا وسِعتَ کلّ شیء رحمة وعلماً ...» (۵).

«فإن کذّبوک فقل ربُّکم ذو رحمة واسعة ...» (۶).

«... وما کان عطاءُ ربک محظوراً» (۷).

«ما یفتحِ اللَّهُ للناس من رحمة فلا ممسک لها، وما یُمسک فلا مرسلَ له من بعده ...» (۸).

فلا نفاد لملک اللَّه ورحمته وسلطانه حتی یعیق رحمته، ولا بخل ولا شحّ فی ساحته حتی یمنعه من الجود والعطاء.

فلیس فی المسؤول- سبحانه وتعالی- ما یمنع من الاستجابة لدعاء عباده کلما دعوه وطلبوا منه شیئاً، وهو معنی قوله تعالی (ادعونی أستجب لکم) من دون قید ولا شرط، هذا من ناحیة المسؤول.

وأمّا من ناحیة السائل فقد تضرّ الاستجابة بحال السائل، وهو لا یعلم، واللَّه- تعالی- یعلم، فلا یستجیب لدعائه، ولکن یعوضه عن ذلک بغیره من قضاء حاجاته الأخری وغفران ذنوبه.

وقد یضرّه التعجیل بقضاء حاجته والاستجابة لدعائه، ویعلم اللَّه- تعالی- أن تأجیل الاستجابة أصلح لحاله.

التبدیل والتأجیل:

فی الحالة الأولی یبدل اللَّه- تعالی- قضاء حاجة عبده بغیرها من حاجاته.

وفی الثانیة یؤجل اللَّه- تعالی- الاستجابة لدعاء عبده إلی الوقت الصالح له.

ففی دعاء الافتتاح:

«فصرت أدعوک آمنا، وأسالک مستأنساً، لا خائفاً ولا وجلّا، مدلّا علیک فیما قصدتُ فیه الیک، فإن أبطأ عنی عتبت بجهلی علیک، ولعلّ الذی أبطأ عنی هو خیر لی لعلمک بعاقبة الأمور».

وقد یؤخر اللَّه- تعالی- اجابة دعاء عبده، کی یطول قیامه وتضرعه بین یدیه- تعالی- واللَّه یحب أن یطول وقوف عبده وتضرعه بین یدیه، ففی الحدیث القدسی:

«یا موسی! إنی لست بغافل عن خلقی، ولکنی أحبّ أن تسمع ملائکتی ضجیج الدعاء من عبادی» (۹).

وعن الصادق علیه السلام:

«إن العبد لیدعو فیقول اللَّه- عزّ وجلّ- للملکین قد استجبت له، ولکن احبسوه بحاجته، فإنی أُحبّ أن أسمعصوته، وإن العبد لیدعو، فیقول اللَّه- تبارک وتعالی- عجّلوا له حاجته فإنی أبغضصوته» (۱۰).

۱- ۱ البقرة: ۱۱۷.

۲- ۲ الزمر: ۶۷.

۳- ۳ آل عمران: ۱۶۵.

۴- ۴ المنافقون: ۷.

۵- ۵ غافر: ۷.

۶- ۶ الأنعام: ۱۴۷.

۷- ۷ الإسراء: ۲۰.

۸- ۸ فاطر: ۲.

۹- ۹ عدة الداعی.

۱۰- ۱۰ وسائل الشیعة، کتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ۲۱، ح ۳.

ص: ۵۹

ولكن حتى لو كانت الإجابة تضرّه فإن اللّه- تعالى- لا يلغى الإجابة، بشكل مطلق، وإنما (يبدله) إلى كفارة لذنوبه، وغفران لها، أو إلى رزق يرزقه إياه فى الدنيا عاجلًا أو درجات رفيعة له فى الجنة.

وفى غير هاتين الحالتين (حالة التبديل وحالة التأجيل) لابد من الإجابة.

وهذه الحتمية نابعة من حكم الفطرة القطعى إذا كان السائل محتاجاً وفقيراً ومضطراً إلى المسؤول، والمسؤول قادر على إجابة طلبه، ولا بخل ولا شحّ فى خلقه.

والقرآن الكريم يؤكد هذه العلاقة الحتمية (۱) يقول تعالى:

۱- «أمّن يُجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ...» (۲).

فلا يحتاج المضطر فى الإجابة لاضطراره، وكشف السوء عنه إلّاإلى الدعاء (إذا دعاه)، فإذا دعاه سبحانه، استجاب لدعائه، وكشف عنه السوء.

۲- «وقال ربّكم ادعونى أَستجب لكم إنَّ الذين يَستكبرون عن عبادتى سَيدخُلون جهنمَ داخِرين» (۳).

والآية الكريمة واضحة وصريحة فى الربط بين الدعاء والاستجابة (ادعونى استجب لكم).

۳- «... أُجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دَعانِ ...» (۴).

والعلاقة القطعية بين الدعاء والإجابة واضحة وصريحة فى هذه الطائفة من آيات كتاب اللّه، وهى تدفع كلّ شك وريب من النفس فى قطعية الإجابة من اللّه لكل دعاء، ما لم تكن الإجابة مضرة بالداعى أو بالنظام العام الذى يعتبر الداعى جزءاً منه، والاستجابة فى هذه الآيات غير مشروطة ولا معلّقة بشىء.

وأمّا الشروط التى سوف نتحدث عنها؛ ففى الحقيقة ترجع الى تحقيق الدعاء وتثبيته لمصلحة الداعى نفسه، ومن دونها يضعف الدعاء أو ينتفى.

إذن فإنّ العلاقة بين الدعاء والاستجابة علاقةٌ حتمية لا يمكن أن تتخلف، وعلاقة مطلقة لا يمكن أن تتعلق بشرط، إلّاأن يكون الشرط مما يؤكد ويثبت حالة الدعاء نحو قوله تعالى: «... إذا دعاه ويكشف السوء ...».

وفى أحاديث رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم وأهل بيته ما يؤكد ويعمق هذه العلاقة بين الدعاء والإجابة.

ففى الحديث القدسى:

«يا عيسى ... إنى أسمع السامعين، أستجيب للداعين إذا دعونى» (۵).

وعن رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم: «ما من عبد يسلك وادياً فيبسط كفّيه، فيذكر اللّه ويدعو إلّاملأ اللّه ذلك الوادى حسنات فليعظم ذلك الوادى أو ليصغر» (۶).

وعن أبى عبد اللّه الصادق عليه السلام فى حديث: «لو أن عبداً سدّ فاه، ولم يسأل لم يعط شيئاً، فسل تعط» (۷).

وعن ميسر بن عبد العزيز عن أبى عبد اللّه الصادق عليه السلام: «يا ميسر! إنّه ليس من باب يقرع إلّا يوشك أن يفتح لصاحبه» (۸)

۱- ۱ ليس معنى القول بتحتيم هذه العلاقة فرض أمر على اللّه- تعالى- فهو- سبحانه- قد كتب على نفسه الرحمة «فقل سلامٌ عليكم كَتَبَ ربُكم على نفسِهِ الرحمةَ ...». الأنعام: ۵۴

۲- ۲ النمل: ۶۲.

۳- ۳ المؤمن: ۶۰.

۴- ۴ البقرة: ۱۸۶.

۵- ۵ أصول الكافی.

۶- ۶ ثواب الأعمال: ۱۳۷.

۷- ۷ وسائل الشیعة، ۴: ۱۰۸۴، ح ۸۶۰۶.

۸- ۸ وسائل الشیعة، ۴: ۱۰۸۵، ح ۸۶۱۱.

ص: ۶۰

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «متى تكثر قرع الباب يفتح لك» (۱).

وفی وصايا رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم لعلیّ عليه السلام:

«يا علیّ! .. أوصيک بالدعاء فإن معه الإجابة» (۲).

وعن الصادق عليه السلام:

«إذا ألهم أحدکم الدعاء عند البلاء فاعلموا أن البلاء قصير» (۳).

وعن الصادق عليه السلام:

«لا واللَّه، لا يلح عبد على اللَّه- عزّ وجلّ- إلا استجاب له» (۴).

والنصوصُ الإسلاميّة تؤكد هذه الحتمية، والإطلاق فی العلاقة بين الدعاء والإجابة، وتبين بشکل واضح وصريح، أنّ اللَّه- تعالى- يستحيی أن يرد دعاء عبده إذا دعاه.

ففی الحديث القدسی:

«ما انصفنی عبدی يدعونی فاستحيی أن أرده، ويعصينی ولا يستحيی منی» (۵).

وعن الصادق عليه السلام:

«ما أبرز عبد يده إلى اللَّه العزيز الجبار إلّااستحيی اللَّه- عزّ وجلّ- أن يردها» (۶).

وفی الحديث القدسی:

«مَن توضأ وصلّى ودعانی فلم أجبه فيما يسأل عن أمر دينه ودنياه فقد جفوته، ولستُ برب جاف» (۷).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام:

«ما کان اللَّه ليفتح باب الدعاء، ويغلق عليه باب الإجابة» (۸).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً:

«مَن أعطى الدعاء لم يحرم الإجابة» (۹).

وفی النصّين الأخيرين التفاتة ذات مغزى ونکهة علوية. فإن اللَّه- تعالى- کريم ووفی، فإذا فتح باب الدعاء، فلا يمکن أن يغلق على العبد باب الإجابة، وإذا رزق العبد توفيق الدعاء، فلا يمکن أن يحرمه الإجابة ..

عن رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم:

«ما فتح لأحد باب دعاء إلّا فتح اللَّه له فيه باب اجابة، فإذا فتح لأحدکم باب دعاء فليجهد فإنّ اللَّه لا يمل» (۱۰).

وهذا هو المنزل الثانی من منازل رحمة اللَّه. اللهمّ سمعنا، وشهدنا، وآمنا.

۱- ۱ وسائل الشيعة، ۴: ۱۰۸۵، ح ۸۶۱۳.

۲- ۲ وسائل الشيعة، کتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ۲، ح ۱۸.

۳- ۳ اصول الکافی، کتاب الدعاء، باب الإلحاح بالدعاء، ح ۵.

۴- ۴ ارشاد القلوب للديلمی.

۵- ۵ عدة الداعی، وسائل الشيعة، کتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ۱۴، ح ۱.

۶- ۶ ارشاد القلوب للديلمى.

۷- ۷ وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ۲، ح ۱۲- وسائل الشيعة، ۴: ۱۰۸۶، ح ۸۶۲۱.

۸- ۸ وسائل الشيعة، ۴: ۱۰۸۶، أبواب الدعاء، باب ۲، ح ۸۶۲۲.

۹- ۹ نفس المصدر.

۱۰- ۱۰ وسائل الشيعة، ۴: ۱۰۸۷.

ص: ۶۱

المنزل الثالث: السعی والعمل:

قد جعل اللَّه- تعالی- (السعی) و (العمل) من منازل رحمته للدنیا والآخرة.

یقول تعالی: «من عملصالحاً من ذکر أو أنثی وهو مؤمن فلنُحیینّه حیاة طیبة ...» (۱).

ویقول تعالی: «فأمّا من تاب وآمن وعملصالحاً فعسی أن یکون من المفلحین» (۲).

فمن عملصالحاً آتاه اللَّه حیاةً طیبةً، وأفلحه.

فإذا کان الإنسان یبتغی دنیا أو آخرة فعلیه أن یسعی الیها ویعمل لها.

وقد کان علی علیه السلام یقول: «لا تکن ممن یرجو الآخرة بغیر العمل» (۳).

ولا یبلغ الإنسان منازل المؤمنین فی الجنة إلّا بالعمل.

«ومَن یعمل مِن الصالحات مِن ذکرٍ أو أنثی وهو مؤمنٌ فأولئک یَدخلون الجنّة ...» (۴).

ومهما کان العمل قلیلًا فانّ اللَّه- تعالی- یحصیه ویثیبه علیه «فمَن یعمل مثقالَ ذرّةٍ خیراً یره» (۵).

«یومَ تجدُ کلُّ نفسٍ ما عمِلت مِن خیرٍ محضراً ...» (۶).

فالعمل إذن، أحد أعظم منازل الرحمة، ولا ینال الإنسان کثیراً من الخیر والرحمة والتوفیق والرزق إلّا بالعمل.

ولا یبلغ الإنسان ما یطلبه من الخیر بالتمنی والترجی. وقد روی عن الإمام الصادق علیه السلام انّه کان یقول: «أبلغ شیعتنا، أنه لا ینال ما عند اللَّه إلّا بالعمل».

وهذه ثالث منازل رحمة اللَّه- تعالی-.

المنازل الثلاثة للرحمة، فی قصة إبراهیم وهاجر وإسماعیل علیهم السلام:

وفی قصة أبی الأنبیاء إبراهیم علیه السلام نلتقی مشهداً فریداً أو نادراً من نوعه، فی اجتماع المنازل الثلاثة للرحمة فی

۱- ۱ النحل: ۹۷.

۲- ۲ القصص: ۶۷.

۳- ۳ نهج البلاغة: حکمة ۱۵.

۴- ۴ النساء: ۱۲۴.

۵- ۵ الزلزلة: ۷.

۶- ۶ آل عمران: ۳۰.

ص: ۶۲

موضع واحد، فى قصهٔ واحدهٔ، وذلک عندما أودع أبو الأنبیاء ابراهیم علیه السلام زوجتَه هاجر فی واد غیر ذی زرع، وترک معها ابنهما إسماعیل علیه السلام وهو یومئذ طفل رضیع.

وقال: «ربنا إنی أَسکنتُ من ذُریتی بواد غیر ذی زرعٍ عند بیتکَ الُمحرّمِ، ربنا لِیُقیموا الصلاهٔ. فاجعل أفئدهً من الناس تهوِی إلیهم؛ وارزقهم منَ الثمراتِ لعلهم یَشکرون» (۱).

وذهب إبراهیم خلیل اللّه بعد ذلک إلی شأنه کما أمره اللّه- تعالی-. وترک هذه المرأهٔ والطفل الرضیع لوحدهما فی هذا الوادی القفر بأمر اللّه- تعالی- فنفد ما کان لدیهما من الماء وعطش الطفل وغلب علیه الظمأ وأخذت المرأهٔ تبحث عن الماء فلم تجد له أثراً، وأخذ الطفل یصرخ ویضرب بیدیه ورجلیه، والأم تهرول من هنا وهناک فتصعد علی الصفا تارهً تنظر إلی الأفق البعید بحثاً عن الماء ثم تهبط، وتهرول باحثهٔ عن الماء إلی جانب جبل المروهٔ، وتدعو اللّه تعالی أن یرزقهما الماء فی هذا الوادی القفر، والطفل یصرخ ویبکی ویضرب بیدیه ورجلیه عند البیت الحرام.

ففجر اللّه- تعالی- الأرض ماءً تحت قدمی الطفل، فأسرعت الأم إلی الماءِ، لتروی طفلها الرضیع، ولتلملم الماء لئلا یذهب هدراً، فتقول للماء وهی تصنع له حوضاً یجمعه زم .. زم ...

الروایهٔ التاریخیهٔ لقصهٔ السعی الأول:

تقول الروایهٔ التاریخیهٔ: «إنّ اللّه- تعالی- أمر عبده وخلیله إبراهیم أن یخرج بزوجته هاجر (أمّ إسماعیل) من الشام إلیصحراء الجزیرهٔ، حیث یقع الحرم، فلما وافی إبراهیم منطقهٔ الحرم، حیث تقع مکهٔ الیوم نزل فیها فوجد شجراً، فألقت هاجر کساءً کان معها تستظل تحته فلما سرّحهم إبراهیم ووضعهم، وأراد الانصراف عنهم إلی سارهٔ، قالت له هاجر: یا إبراهیم لِمَ تدعنا فی موضع لیس فیه أنیس ولا ماء ولا زرع؟ فقال إبراهیم: الّذی أمرنی أن أضعکم فی هذا المکان هو یکفیکم، ثمّ انصرف عنهم، فلمّا بلغ کدًی وهو جبل بذی طوی، التفت إلیهم إبراهیم فقال:

«ربّنا إنّی أسکنتُ من ذریّتی بوادٍ غیرِ ذی زرعٍ عند بیتک المحرّمِ ربّنا لِیقیموا الصلاهَ واجعل أفئدهً منَ النّاس تهوِی إلیهم وارزقهم منَ الثّمراتِ لعلّهم یشکرون».

ثمّ مضی وبقیت هاجر، فلمّا ارتفع النهار عطش اسماعیل وطلب الماء، فقامت هاجر فی الوادی فی موضع المسعی فنادت: هل فی الوادی من أنیس؟ فغاب إسماعیل عنها فصعدت علی الصفا، ولمع لها السراب فی الوادی وظنّت أنّه ماء، فنزلت فی بطن الوادی وسعت فلمّا بلغت المسعی غاب عنها إسماعیل، ثمّ لمع لها السراب فی ناحیهٔ الصفا فهبطت إلی الوادی تطلب الماء، فلمّا غاب عنها إسماعیل عادت حتّی بلغت الصفا فنظرت حتّی فعلت ذلک سبع مرّات، فلمّا کان فی الشوط السابع وهی علی المروهٔ نظرت إلی اسماعیل وقد ظهر الماء من تحت رجلیه، فعدت حتّی جمعت حوله رملًا فإنّه کان سائلًا فزّمته بما جعلته حوله فلذلک سمّیت زمزم».

اسرار الموقف:

إن هذا المشهد العجیب استنزل یومذاک رحمهٔ اللّه تعالی، ففجر اللّه لهما زمزم فی واد غیر ذی زرع، وجعلها مصدراً ومبدأً لکثیر من البرکات علی هذه الأرض المبارکهٔ، وجعل هذا المشهد جزءاً من أعمال الحجّ، وثبّته فی

۱- ۱ ابراهیم: ۳۷.

ص: ۶۳

واحد من أشرف فرائضه. فما هو السرّ الكامن فی هذا المشهد؟ ولماذا هذا الاهتمام به فی أصل الدین، وتثبیته فی الحج؟

وما هو السبب المؤثر والقوی الذی استنزل رحمة اللَّه- تعالی- بقوة فی هذا المشهد، وجعلها مبدءاً لبرکات کثیرة فی تاریخ أجیال الموحّدین؟

فلابد من أن یکون هذا المشهد ینطوی علی سرّ خاص استدعی نزول رحمته- تعالی- فی ذاک الوادی القفر، واستدعی دوام هذه الرحمة وثباتها، وجعل منها مصدراً ومبدأً لکثیر من البرکات، واستدعی أن یثبتها اللَّه تعالی فی حج أجیال الموحدین عند بیته الحرام.

اننی اعتقد، واللَّه- تعالی- أعلم بأسرار هذا المشهد- أن هذا المشهد النادر کان یجمع یومئذ بین ثلاثة منازل من منازل رحمة اللَّه- تعالی- کلّ منها یستنزل رحمته تعالی.

وأول هذه المنازل الحاجة التی کان یمثلها الظمأ الذی أضرَّ بالطفل الرضیع، والذی جعله أقرب من غیره إلی رحمة اللَّه تعالی.

ولذلک نری أن الأطفال الرضّع إذا أضرّ بهم ألم أو جوع أو ظمأ أو برد أو حرّ کانوا أقرب إلی رحمة اللَّه- تعالی- من الکبار الذین یطیقون ذلک کلّه، ولأن الحاجة تضرّ بهم أکثر من الکبار.

وقد ورد فی الدعاء (اللهمّ أعطنی لفقری)، والفقر إلی اللَّه لوحده یستنزل رحمته- تعالی-، وکلما کان الفقر إلی اللَّه أعظم کان أدعی لنزول رحمة اللَّه، فان الفقر إلی اللَّه یجعل الإنسان عند رحمة اللَّه، ویقرب الإنسان منه، سواء کان الإنسان یعی فقره إلی اللَّه أم لا یعی، وإن کان وعی الفقر إلی اللَّه یضاعف من قیمته وقدرته فی استنزال رحمته- تعالی-. ولکن بشرط ألّا یحرّف الإنسان الفقر عن موضعه، فیتصوّره أنّه من الفقر إلی المال أو إلی حطام الدنیا، أو إلی بعض عباد اللَّه بدل أن یعیه علی واقعه من الفقر إلی اللَّه. وشتّان بین هذا الفقر وذاک الفقر. والذی یستنزل رحمة اللَّه- تعالی- هو الفقر إلی اللَّه، فإذا حرّف الانسان هذا الفقر من الفقر إلی اللَّه إلی الفقر إلی عباد اللَّه فقد الفقرُ قیمتَه فی استنزال رحمته- تعالی-، وأکثر فقر الناس من هذا النوع.

وفی هذا المشهد کانصراخ الطفل وضجیجه وبکاؤه من شدّة العطش مشهداً نافذاً مؤثراً فی استنزال رحمة اللَّه تعالی.

کما أنه لیس فی مشاهد الحاجة والفاقة إلی اللَّه مشهد مؤثر ورقیق یستنزل رحمته- تعالی- أکثر من مشهد طفل یتلظی من العطش، ولا تجد له أُمّه إلی الماء سبیلًا.

والمنزل الثانی لرحمة اللَّه فی هذا المشهد هو (السعی) وهو شرط للرزق، ولا رزق من دون سعی، وقد جعل اللَّه- تعالی- السعی والحرکة فی حیاة الإنسان مفتاحاً للرزق.

وإذا کان عامل الفقر یُکْسِب الإنسان حالة الاضطرار والفاقة والحاجة. فإنّ عامل السعی یُکْسِب الإنسان العزم والقوّة والإرادة، والحرکة والنشاط، وعلی قدر حرکة الإنسان وسعیه وعزمه یرزقه اللَّه- تعالی- من رحمته.

وقد تحرکت أمّ إسماعیل- عندما نفد عندهما الماء، وغلب الظمأ علی إسماعیل- للبحث عن الماء، وسعت تطلبه

ص: ۶۴

، تصعد إلى الصفا مرّة، تنظر فى الأفق البعيد باحثةً عن الماء، وتنزل من الصفا وتتّجه إلى المروة، تارةً أُخرى، لتصعد عليه وتنظر إلى الأفق البعيد تبحث عن الماء، ورغم أنها استعرضت فى هذه الحركة كلّ الأفق من على الصفا والمروة فلم تجد ماءً لم تيأس، وكرّرت هذه الحركة، والصعود والنزول، والهرولة من الصفا إلى المروة وبالعكس سبع مرات، ولولا ـ هذا الأمل والرجاء لانقطع سعيها فى الشوط الأوّل، ولكن الأمل والرجاء الذين كانا يعمران قلبها كانا يدعوانها كلّ مرة إلى إعادة السعى مرة أخرى، حتى فرّج اللَّه عنهما وفجّر زمزم تحت قدمى إسماعيل، ولكن الأمل هنا فى اللَّه وليس فى الماء ولو كان أملها فى الماء لانقطع أملها فى المرة الأولى أو الثانية.

وقد جعل اللَّه- تعالى- هذا السعى وهذه الحركة شرطاً للرزق، ونزول رحمته على الإنسان، واللَّه تعالى يرزق عباده، وينزل عليهم رحمته، ولكنه- تعالى- شاء أن يكون السعى والحركة مفتاحاً لرزقه ورحمته.

والمنزل الثالث لرحمة اللَّه- تعالى- فى هذا المشهد: هو دعاء أمّ اسماعيل، وانقطاعها إلى اللَّه واضطرارها إليه- عزّ شأنه- فى طلب الماء فى هذا الوادى القفر غير ذى زرع، وكلّما انقطع الإنسان فى دعائه إلى اللَّه أكثر كان أقرب إلى رحمة اللَّه.

ولست أدرى فى أية حالة من حالات الانقطاع إلى اللَّه، كانت هذه المرأة الصالحة فى تلك اللحظات فى الوادى غير ذى زرع، وليس من انسان أو حيوان حولها، ووحيدها الرضيع يتلظى عطشاً، ويكاد أن يلفظ آخر أنفاسه.

لقد انقطعت المرأة إلى اللَّه فى تلك اللحظة انقطاعاً ضجّت له ملائكةُ اللَّه بالدعاء، وضموا أصواتهم إليصوتها، ودعاءهم الى دعائها.

ولو أن الناس كلهم انقطعوا إلى اللَّه بمثل هذا الانقطاع لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم وعمّتهم رحمة اللَّه تعالى.

عليكِ سلام اللَّه يا أُمنا أمّ اسماعيل! من أبنائك الذين آتاهم اللَّه النور والهدى والإيمان والنبوة، ومن المهتدين بهداهم ونورهم ...

ولولا ـ ذلك الانفراد فى ذلك الواد القفر غير ذى زرع فى هجير الحجاز، ولولا تلك المعاناة والمحنة لم تنقطعى إلى اللَّه- عزّ وجلّ- بمثل هذا الانقطاع، فى ذلك الموقف العسير على جبلى الصفا والمروة، ولولا ـ ذلك الانقطاع إلى اللَّه، لم تنزل رحمة اللَّه تعالى عليكما، ولولا تلك الرحمة لم يكن انقطاعك إلى اللَّه وسعيك بين الصفا والمروة من شعائر اللَّه فى الحجّ.

«انّ الصفا والمروةَ من شعائر اللَّه فمَن حجّ البيت أوِ اعتمرَ فلا جُناح عليه أن يطوّف بهما، ومَن تطوع خيراً فإن اللَّه شاكر عليم» (۱).

لقد ثبّت اللَّه- تعالى- يا أُمّنا؛ انقطاعك إليه فى ذلك الهجير، وسعيك إلى الماء، وصراخصغيرك إسماعيل فى ذاكرة التاريخ، ليعرف الأجيال من بعدك كيف يستنزلون رحمة اللَّه، وكيف يتعرضون لرحمة اللَّه.

إن رحمة اللَّه- تعالى- واسعة لا ـ شحّ فيها ولا نقص، ولا عجز، ولكن الناس لا يعرفون مواضع هذه الرحمة ومنازلها، ولا يحسنون التعرّض لها والاستفادة منها.

ومنك تعلمنا يا أمّنا! كيف نطلب منازل رحمة اللَّه، وكيف نتعرض لرحمة اللَّه، ومنك يا أمنا أخذنا مفاتيح الرحمة.

۱- ۱ البقرة: ۱۵۸.

ص: ۶۵

وعـذراً يـا أمنا! إذا كنّا- نحن أبناؤك- لم نحفظ هـذه المفاتيـح التى سـلّمتيها إلى إسـماعيل من بعـدك، وتوارثها أبناء إسـماعيل من إسـماعيل، وتوارثناها- نحن- من ابنك محمد المصـطفى رسول اللَّهصـلى الله عليه و آله و سـلم فضيعناها فيما ضيعنا من تراث الأنبياء ومواريثهم.

لقد تعلمنا من أبينا إبراهيم كيف نوحّد اللَّه، وتعلمنا من أمّنا هاجر كيف نسأل اللَّه، وفى متاهات الهوى والطاغوت ضيعنا هذا وذاك.

فأعنّا اللهمّ! على تحصيل ما ضيعناه من تراث أبينا وأمنا (إبراهيم وهاجر) عليهما السلام واجعلنا من أسرتهم، ولا تطردنا ربنا! من هذا البيت من آل إبراهيم وآل عمران.

«إن اللَّهَ اصطفى آدم ونوحاً وآلَ إبراهيم وآلَ عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض واللَّهُ سميعٌ عليم» (۱).

«ربّنا واجعلنا مسلمين لكَ ومن ذريتنا أُمّةً مسلمة لكَ وأرِنا مناسكنا وتُب علينا إنك أنت التوّاب الرحيم» (۲).

لقـد أخذت أمُّنا (أمّ إسـماعيل)- يومذاك فى ذلك الوادى القفر، وفى رمضاء هجيز ذلك الوادى- بأسـباب الخير كلّها ... وذلك هو السعى والدعاء والفقر.

لقد كانت أُمّنا تسعى إلى الماء، وتشرف على الوادى تارة من على الصفا وأُخرى من على المروة باحثة عن الماء، واللَّه- تعالى- يحبّ من عباده الحركـة والسـعى والعمل، وجعل ذلك من أهم شـروط الرزق. ولكنها فى سـعيها كانت منقطعـة إلى اللَّه، وتدعوه- تعالى-، وتسأله فى حالـة من الانقطـاع، يقـلّ نظيرهـا فى تاريـخ الإنسـان، فلا السـعى والتحرك، كانـا يحجبانهـا، ويقطعانها عنه- تعالى-، ولا الانقطاع إلى اللَّه كان يعطل فيها حالة الحركة، والسـعى إلى الماء بأقصـى ما تستطيعه امرأة فى ذلك الوادى، وفى ذلك الهجير ... فى أشواط سبعة من الصفا إلى المروة ومن المروة إلى الصفا.

وإننا اليوم فى شـعائر حجّنا، نسعى هذه الأشواط بين هذين الجبلين، من غير معاناة، ولا عذاب ولا همّ، ولا قلق، فنكدح ونتعب ويرهقنا هذا السعى.

وقـد قـامت أمُّنـا هاجر بهـذا السـعى كلّه فى ذلك الوادى القفر، وفى رمضاء ذلك الهجير، وهى ظمأى قـد اسـتنفذ العطش كلّ حولها وقوتها، ورضيعها الصغير يكاد يلفظ آخر أنفاسه ... ولكنها مع ذلك قامت بهذا السعى إلى الماء بقوّة وهمّة وعزم وإرادة.

ولم يمنعها هذا السـعى- ولو للحظة واحدة- عن الانقطاع إلى اللَّه، ولم يحجبها ولو للحظة واحدة عنه تعالى. لقد كانت فى هذا السعى المرير كلّه على اتصال باللَّه، وانقطاع إليه لا يشـغلها هـذا عن ذاك ولا يحجبها ذاك عن هـذا، فقرنت السـعى إلى الماء بالانقطاع إلى اللَّه، وقرنت الانقطاع إلى اللَّه بالسعى إلى الماء، ومَن منّا يقدر على ذلك؟

والملائكـة يومئذ ينظرون إليها، ويتعجبون منها، كيف اسـتطاعت أن تنقطع إلى اللَّه هذا الانقطاع؟ وكيف تمكنت أن تسـعى إلى الماء وهى مثقلة بالمتاعب والمحن هذا السعى؟ وكيف استطاعت أن تجمع بين السعى والانقطاع إلى اللَّه

۱- ۱ آل عمران: ۳۳- ۳۴.

۲- ۲ البقرة: ۱۲۸.

ص: ۶۶

بمثل هذا الجمع؟

فیضجون إلی اللَّه- تعالی- أن یستجیب لدعائها وسعیها، وأن یستنزل سعیها ودعاؤها رحمةَ اللَّه- تعالی-، وتقرب رحمة اللَّه حتی تکاد أن تنطبق السماء علی الأرض.

لقدصعد یومئذ عمود من الدعاء، والعمل الصالح من الأرض إلی السماء، ونزل عمود من الرحمة من السماء إلی الأرض واتّصلت الأرض بالسماء، والسماء بالأرض، وحشود الملائکة یشهدون هذا المشهد الفرید، ویضجون إلی اللَّه تعالی، ویتضرعون، فیحدث ما لیس بالبال ولا الخیال، وتنفجر الأرض تحت أقدام الرضیع ماءً بارداً زلالًا شفافاً هنیاً.

وسبحان اللَّه، والحمد للَّه، لقد استجاب اللَّه لسعیها ودعائها، ولکن لا حیث سعت، وإنّما تحت أقدام الرضیع، الذی کان یضرب بیدیه ورجلیه ظمأً یومذاک، لیعلمها اللَّه أنه تعالی هو وحده الذی رزقها هذا البارد العذب فی هذه الرمضاء وفی هذا الهجیر، ولیست هی التی حققت ذلک بسعیها وحرکتها ... وإن کان لابد لها من أن تسعی وتتحرک لیرزقها اللَّه تعالی زمزم.

ففجر اللَّه (زمزم) تحت أقدام الرضیع، وأقام اللَّه- تعالی- فی ذلک الوادی بیته المحرم، وبارک فی زمزم، وجعل منها سقایة الحاج مدی الأجیال، وثبت اللَّه هذا السعی والدعاء فی ذاکرة التاریخ، وجعل منه شعیرة من شعائر الحج، یحذو فیها حشود الحجاج کلّ عام حذوها، ویحیّون فیها من بُعد أمّهم هاجر وأباهم إبراهیم وإسماعیل.

لقد اجتمعت فی هذا الوادی- یومذاک- ثلاثة أسباب من أسباب نزول رحمة اللَّه تعالی: الفقر والسعی والدعاء ...

فقر فی أقصی درجات الضعف والفاقة، وسعی فی قوة وحزم وعزم، ودعاء فی تضرع وانقطاع واضطرار.

وفی الحجّ نحیی نحن کلّ عام هذا المشهد؛ لنتعلم من أمّنا أمّ اسماعیل علیها السلام کیف نطلب رحمة اللَّه- تعالی- وکیف نستنزل فضله ورحمته، وکیف نغرف من رحمته ونتعرض لها.

الهوامش:

ص: ۶۷

تحقیق حول شعب أبی طالب

علی قاضی عسکر

فی بدایة شارع الحجون شعب یُسمّی فی الجاهلیة وبعد الاسلام ب «شعب أبی دب» ویسمّیه أهل مکة الیوم ب «مقبرة المعلّاة» أو «جنة المعلّاة» (۱) ومعروف بین الایرانیین ب «مقبرة ابی طالب» وکان أهل الجاهلیة وفیصدر الاسلام یدفنون موتاهم فی شعب أبی دب (۲)من الحجون الی شعب الصفی،صفی السباب، وفی الشعب اللاصق بثنیة المدنیین الذی هو مقبرة أهل مکة الیوم (۳). ویسمّی هذا الشعب ایضاً، ب «شعب العفاریت» ویعرف الیوم بشعبة الجن وهو یتصل بالحجون الجاهلی (۴) وهذا مکان، یقصده الکثیر من حجاج بیت اللَّه الحرام فی کل عام، بعد اتمام العمرة أو الحج لزیارة المدفونین فیه، منهم خدیجة بنت خویلد زوجة رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم امّ المؤمنین، وأبو طالب عمّ رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم و ....

یسمّی بعض الناس هذا الشعب باسم «شعب أبی طالب» ویریدون بذلک المکان الذی حوصر فیه رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم وخدیجة وأبو طالب ومن کان معهم، لمدّة ثلاث سنوات من قبل المشرکین، وهی تسمیة غیرصحیحة من الوجهة التاریخیّة، لأنّ شعب أبی طالب مکان آخر بقرب المسجد الحرام.

نورد فیما یلی الأدلّة الواضحة، والقطعیّة علی هذا الادّعاء:

الشعب فی اللّغة:

قال الجوهری (م ۳۹۳ ه) فی الصحاح:

و «الشعب» بالکسر، الطریق فی الجبل والجمع «الشعاب» (۵).

قال ابن منظور (م ۷۱۱ ه) فی لسان العرب:

والشِّعْبُ: ما انْفَرَج بین جَبَلَین. والشِّعْب: مسیل الماء فی بطنٍ من الارض (۶)

وقال فخر الدین الطریحی (م ۱۰۸۵) فی مجمع البحرین:

... «الشِّعب» بالکسر، هو الطریق فی الجبل، والجمع «شِعاب» ککتاب (۷).

مکان شعب أبی طالب:

تقع مدینة مکة فی ارض جبلیة وبین شعاب کثیرة، ولهذا فهی فی موقع منیع من مخاطر السیول، وتبدو کأنّها تحتضن الدور الّتی فیها، بما یشبه الحصن الطبیعی، وقد کانت موطناً لسُکنی مختلف القبائل.

وفی جوار المسجد الحرام ثلاث شعاب متقاربة وهی:

۱- شعب أبی طالب.

۱- ۱ فقه العبادات الحج:ص ۲۰۵.

۲- ۲ ابو دب کنیة رجل من بنی سواءة بن عامر، سکنه فسمّی به، اخبار مکة للأزرقی، ۲: ۲۱۰- معجم معالم الحجاز:ص ۵۶.

۳- ۳ اخبار مکة للازرقی، ۲: ۲۰۹.

۴- ۴ نفس المصدر، ۲: ۲۷۲ فی هامشه.

۵- ۵ الصحاح، ۱: ۱۵۶.

۶- ۶ لسان العرب، ۷: ۱۲۶.

۷- ۷ مجمع البحرين، ۳: ۵۱۳.

ص: ۶۸

۲- شعب بنی هاشم.

۳- شعب بنی عامر.

وكان اجداد النبيصلى الله عليه و آله و سلم وقومه سكنوا فی هذه الشعاب الثلاثة.

- محلّ الخريطة-

(موضع هذه الشعاب الثلاثة موضّح فی الخارطة بشكل دقيق)

قال الطريحی بعد تعريفه لمعنی الشعب:

وشِعبُ أبی طالب بمكة، مكان مولد النبيصلى الله عليه و آله و سلم وشعب أبی دب أيضاً بمكة وأنت خارج إلی منی (۱).

وجاء فی معجم البلدان فی ذيل كلمة «شعب أبی يوسف»:

وهو الشعب الذی أوی إليه رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم، وبنو هاشم لما تحالفت قريش علی بنی هاشم وكتبوا الصحيفة، وكان لعبد المطلب فقسّمه بين بنيه حين ضعف بصره، وكان النبيصلى الله عليه و آله و سلم أخذ حَظَّ أَبيه، وهو كان منزل بنی هاشم ومساكنهم فقال أبو طالب:

جَزى اللّه عنّا عبد شمس ونَوْفِلًا وتَيْماً ومخزوماً عقوقاً ومأثما

۱- ۱ مجمع البحرين، ۲: ۵۱۳.

ص: ۶۹

بتفريقهم من بعد وُدّ والْفَةٍ جماعتنا كيما يَنالوا المحارما

كذبتم وبيتِ اللّه نبزى محمداً ولَمّا تَرَوْا يَوْماً لدى الشِّعب قائماً (۱) وقال العلامة المجلسى قدس سره:

والشعب بالكسر: ما انفرج بين جبلين، وشعب أبى طالب معروف بمكّة وهو الموضع الذى كان فيه رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم وأبو طالب وساير بنى هاشم عند اخراج قريش اياهم من بينهم. وكتب الكتاب بينهم فى مهاجرتهم ومعاندتهم.

ثم يقول فى ذيل كلمة الكلينى رحمه الله: «فى دار محمد بن يوسف»: المشهور فى السّير ان هذه الدار كانت للنّبيصلى الله عليه و آله و سلم بالميراث، ووهبها عقيل بن أبى طالب، ثم باعها أولاد عقيل بعد أبيهم محمد بن يوسف أخا الحجاج فاشتهرت بدار محمد بن يوسف فأدخلها محمد فى قصره الذى يسمونه بالبيضاء ثم بعد انقضاء دولة بنى امية حجّت خيزران امّ الهادى والرّشيد من خلفاء بنى العباس فأفرزها عن القصر وجعلها مسجداً.- والقصوى مؤنث أقصى أى الأبعد- والمكان بهذا الوصف موجود الآن يزوره الناس (۲).

الدّار التى ولد فيها النبيصلى الله عليه و آله و سلم:

معرفة الموضع الذى ولد فيه النبيصلى الله عليه و آله و سلم والديار التى كان يسكنها بنو هاشم فى مكة يساعدنا على أن نعرف شعب أبى طالب.

قال الازرقى:

مولد النبيصلى الله عليه و آله و سلم أى البيت الذى ولد فيه النبيصلى الله عليه و آله و سلم وهو فى دار محمد بن يوسف أخى الحجاج بن يوسف، كان عقيل بن أبى طالب أخذه حين هاجر النبيصلى الله عليه و آله و سلم وفيه وفى غيره يقول رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم عام حجة الوداع حين قيل له أين ننزل يا رسول اللّه؟ وهل ترك لنا عقيل من ظل؟ فلم يزل بيده وبيد ولده حتى باعه ولده من محمد بن يوسف فأدخله فى داره التى يقال لها البيضاء وتعرف اليوم بابن يوسف، فلم يزل ذلك البيت فى الدار حتّى حجّت الخيزران امّ الخليفتين موسى وهارون فجعلته مسجداً يصلى فيه وأخرجته من الدار وأشرعته فى الزقاق الذى فى اصل تلك الدّار يقال له: زقاق المولد (۳)، وهذا الشعب يُعرف اليوم بشعب بنى هاشم وشعب على ويتّصل بالسّوق المسمّى بسوق الليل (۴).

وذكر الفاكهى (م ۲۷۲، ۲۷۹ ه. ق):

ودار ابن يوسف لأبى طالب، والحق الذى يليه بعضُ دارِ ابن يوسف من مولد النبيصلى الله عليه و آله و سلم وهو الشعب الذى حاصرت فيه قُرَيشٌ بنى هاشم، ورسول اللّه مَعَهُم فى الشِّعب (۵).

۱- ۱ معجم البلدان، ۳: ۳۹۳.

۲- ۲ مرآة العقول، ۵:صص ۱۷۳ و ۱۷۴.

۳- ۳ اخبار مكة للازرقى، ۲: ۱۹۸.

۴- ۴ نفس المصدر فى هامشه.

۵- ۵ اخبار مكة للفاكهى، ۳: ۲۶۴.

ص: ۷۰

ثم اشار محقق هذا الکتاب فی هامشه بانّ هذا الشعب یعرف الیوم ب «شِعْب علی» (۱).

ثم قال الفاکهی بشأن دار أبی یوسف ما یلی:

وقال بعضُ الناس: انّ دارَ ابن یوسفَ کانت لعبدِ المطلب، فأمر الحجاجُ أخاه محمد بن یوسف فاشتراها بمائة درهم، فدفعها الحجاجُ إلیه، وأمر أخاه محمداً أن یبنیها، فبناها وکلاءُ محمد، فقال الناس: الدار لمحمد بن یوسف، فلما ولی الولید بن عبد الملک (۲) استعملَ خالداً، بن یوسف بن محمد بن یوسف علی مکة، فادّعی أنها لأبیه، فخاصمه الحجاج بن عبد الملک بن الحجاج بن یوسف، فنظروا فی الدواوین فوجدوا النفقةَ والثمَنَ من الحجاج، وکان الحجاج قد جعل الدارَ الخارجةَ وقفاً علی وُلْدِ الحکم بن أبی عقیل، والوُسْطی علی ولد محمد بن یوسف، والداخلةَ عَلی وَلَدِ الحجّاج. وذکر بعض أهل مکة أن محمد بن یوسف کان أودع عطاء بن أبی رباح المالَ الذی بناها به ثلاثین ألف دینار، فلمّا أراد وکلاؤه قبضَها، دعا النّاسَ لیشهدوا علی قبضها منه، فقال سفیان بن عیینة: قال عمرو بن دینار: فکنت فیمن دُعی لیَشْهد، فکانت رؤیتُها أحبَّ الَیَّ مِنْ دِرْهَمَین. ثمصارت هذه الدّارُ بعد ذلک لولد عبد الملک بنصالح. ثمصارت الیوم لأبی سهل محمد بن أحمد بن سهل.

الشاعر یذکر دار ابن یوسف هذه:

وموعِدُها دارُ ابن یوسفَ غُدْوةً کذا الْخَوخَةُ القُصْوی المُغَلَّقُ بابُها ویقال: انّ النبیصلی الله علیه و آله و سلم وهب حقّه من هذه الدار، والشِّعْبَ لعقیل بن أبی طالب وکان رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم سَخیّاً حَلیماً سَمْحاً کریماً (۳).

وقال الفاکهی فی موضع آخر:

وفی دار ابن یوسف بئرٌ جاهلیةٌ، حفرها عقیلُ ابن أبی طالب فلم تزل هذه الدار حتی باعها ولدُه من محمد بن یوسف، وفی هذه الدار (۴) البیتُ الذی وُلِد رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم وقد اتُّخِذَ مصلّیً یُصَلّی فیه، والذی یلیه حق العباس بن عبد المطلب رضی الله عنه حتی دار خالصة مولاة الخَیْزَران، ثم حق المقوّم بن عبد المطلب، وهی دارُ طلوب مولاة زبیدة، ثم حق أبی لهب بن عبد المطلب وهی دار أبی یزید اللهبی وفیها کان یسکُن الفضلُ بن العباس (۵).

قال الکلینی البغدادی (م ۳۲۹ ه) قدس سره فی ذکر مولد النبیصلی الله علیه و آله و سلم:

ولد النبیصلی الله علیه و آله و سلم لاثنتی عشرة لیلة مضت من شهر ربیع الاوّل فی عام الفیل یوم الجمعة مع الزّوال وروی ایضاً عند طلوع الفجر قبل أن یبعث، باربعین سنة وحملت به امّه فی ایّام التشریق عند الجمرة الوسطی (۶) وکانت فی منزل عبد اللّه بن عبد المطلب وولدته فی شعب أبی طالب فی دار محمد بن یوسف (۷) فی الزاویة القصوی عن یسارک وأنت داخل الدار، وقد أخرجت الخیزران ذلک البیت فصیّرته مسجداً، یصلّی الناس فیه (۸).

وذکر أیضاً فی مکان آخر من انّه: وماتت خدیجة علیها السلام حین خرج رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم من الشِّعب.

وجاء فی اتحاف الوری باخبار امّ القری:

وکان الحَمْلُ برسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم فی شِعب أبی طالب فی لیلة الجمعة من شهر رجب وقیل فی ایّام التشریق (۹).

وذکر السید الأمین فی اعیان الشیعة:

۱- ۱ نفس المصدر.

۲- ۲ کذا فی الأصل وهو غریب، لأن الولید بن عبد الملک توفی سنة ۹۶ والحجاج توفی سنة ۹۵ وقد استعمل الولید خلال حکمه

رجلين على مكة، أولهما خالدالقسرى، والثانى عمر بن عبد العزيز، ولم يستعمل على مكة سواهما. انظر شفاء الغرام، ۲: ۱۷۲.

۳- ۳ اخبار مكة للفاكهى، ۳: ۲۶۶.

۴- ۴ وكان الدار تقع على يسار الداخل الى شعب على، وبها مكتبة مكة المكرمة التابعة لوزارة الحج والأوقاف.

۵- ۵ نفس المصدر:ص ۲۶۹.

۶- ۶ أى فى بيت كان قريباً منها وكان البيت لعبد اللّه أو موضع نزوله إذ كانت لأهل مكة فى منى منازل وبيوت ينزلونها فى الموسم ويحتمل أن يكون المرادبالمنزل الخيمة المضروبة له هناك- مرآة العقول، ۵: ۱۷۳.

۷- ۷ كان محمد بن يوسف والياً على اليمن ومعروفاً بعدائه لآل على عليه السلام توفّى فى اليمن فى سنة مائة للهجرة أو قبلها بقليل- الوافى بالوفيات، ۵: ۲۴۲.

۸- ۸ الكافى، ۱: ۴۳۹.

۹- ۹ اتحاف الورى باخبار ام القرى، ۱: ۱۵.

ص: ۷۱

ولدصلی الله علیه و آله و سلم بمکة یوم الجمعة أو یوم الاثنین ... وکانت ولادته فی الدار المعروفة بدار ابن یوسف وهو محمد بن یوسف أخو الحجاج وکانصلی الله علیه و آله و سلم وهبها لعقیل بن أبی طالب فلمّا توفی عقیل باعها ولده من محمد بن یوسف أخی الحجاج، فلمّا بنی داره المعروفة بدار ابن یوسف ادخل ذلک البیت فی الدار ثم أخذته الخیزران امّ الرشید فأخرجته وجعلته مسجداً یصلی فیه وهو معروف الی الآن یزار ویصلی فیه ویتبرک به ولما أخذ الوهابیون مکة فی عصرنا هذا هدموه ومنعوا من زیارته علی عادتهم فی المنع من التبرک بآثار الأنبیاء والصالحین وجعلوه مربطاً للدواب (۱).

وقال تقی الدین الفاسی المکی (م ۸۳۲ ه):

ولدصلی الله علیه و آله و سلم بمکة فی الدار التی کانت لمحمد بن یوسف أخی الحجاج بن یوسف. ویقال: بالشعب. ویقال بالرَدْم (۲). ویقال: بعسفان، قلت: قال السهیلی: ولد بالشعب. وقیل: بالدار التی عند الصفا. وکانت بعد: لمحمد بن یوسف أخی الحجاج. ثم بنتها زبیدة مسجداً حین حجت. انتهی. والدار التی عند الصفا: هی دار الخیزران، ودار ابن یوسف بسوق اللیل، وهی الموضع المعروف بمولده علیه الصلوة والسلام. وهذا الذی قاله السهیلی فی ولادته بالدار التی عند باب الصفا غریب واللّٰه أعلم. انتهی (۳).

وجاء فی السیرة الحلبیة ما یلی:

وکان مولدهصلی الله علیه و آله و سلم بمکة فی الدّار التیصارت تدعی لمحمد بن یوسف أخی الحجاج أی وکانت قبل ذلک لعقیل بن أبی طالب ولم تزل بید أولاده بعد وفاته إلی أن باعوها لمحمد بن یوسف أخی الحجاج بمائة ألف دینار قاله الفاکهی أی فأدخلها فی داره وسماها البیضاء أی لأنها بنیت بالجصّ ثم طلیت به فکانت کلها بیضاء وصارت تعرف بدار ابن یوسف لکن سیأتی فی فتح مکة أنه قیل لهصلی الله علیه و آله و سلم: یا رسول اللّٰه تنزل فی الدور؟ قال: هل ترک لنا عقیل من رباع أو دور. فان هذا السیاق یدل علی أن عقیلًا باع تلک الدار فلم یبق بیده ولا بید أولاده بعده الّا أن یقال المراد باع ما عدا هذه الدار التی هی مولدهصلی الله علیه و آله و سلم ... وأن عقیلًا باع دار رسول اللّٰهصلی الله علیه و آله و سلم التی هی دار خدیجة أی التی یقال لها مولد فاطمة وهی الآن مسجد یصلی فیه بناه معاویة أیام خلافته، قیل وهو أفضل موضع بمکة بعد المسجد الحرام أی واشتهر بمولد فاطمة، لشرفها والّا فهو مولد بقیة اخواتها من خدیجة ولعل معاویة اشتری تلک الدار ممن اشتراها من عقیل ویدل لما قلناه قول بعضهم لم یتعرّضصلی الله علیه و آله و سلم عند فتح مکة لتلک الدار الّتی أبقاها فی ید عقیل أی التی هی دار خدیجة فانّه لم یزل بهاصلی الله علیه و آله و سلم حتی هاجر فأخذها عقیل. وفی کلام بعضهم لما فتح النبیصلی الله علیه و آله و سلم مکة ضرب مخیمة بالحجون فقیل له: ألا تنزل منزلک من الشعب؟ فقال: وهل ترک لنا عقیل منزلًا ... وهی أی تلک الدار التی ولد بهاصلی الله علیه و آله و سلم عند الصفا قد بنتها زبیدة زوجة الرشید أم الأمین مسجداً لما حجت. وفی کلام ابن دحیة أن الخیزران أم هارون الرشید لما حجت أخرجت تلک الدار من دار ابن یوسف وجعلتها مسجداً ویجوز أن تکون زبیة جددت ذلک المسجد الذی بنته الخیزران فنسب لکل منهما وأن الخیزران بنت دار الأرقم مسجده وهی عند الصفا ایضاً ولعلّ الأمر التبس علی بعض الرواة لأن کلا منهما عند الصفا وقیل ولدصلی الله علیه و آله و سلم فی شعب بنی هاشم.

ثم الحلبی یقول: قد یقال لا مخالفة لأنّه یجوز أن تکون تلک الدار من شعب بنی هاشم، ثم رأیت التصریح بذلک،

۱- ۱ اعیان الشیعة، ۱: ۲۱۹.

۲- ۲ قال البکری: ردم بنی جُمَح بمکة، کانت فیه حرب بینهم وبین بنی محارب بن فهر، فقتلت بنو محارب من بنی جمح أشدّ القتل.

فسُمّی ذلک الموضع بما رُدِمعلیه من القتلی- شفاء الغرام، ۱: ۴۳۲.

۳- ۳ العقد الثمین، ۱۸:صص ۲۱۹ و ۲۲۰.

ص: ۷۲

ولا ینافیه ما تقدم فی الکلام علی الحمل من أن شعب أبی طالب وهو من جملة بنی هاشم کان عند الحجون لانه یجوز أن یکون أبو طالب انفرد عنهم بذلک الشعب واللّه أعلم (۱). انتهی.

یتّضح من هذه الروایة التاریخیة أن «شعب أبی طالب» لم یکن فی منطقة الحجون، بل قرب المسجد الحرام وإلی جانب جبل الصفا وفی مکان فیه دار محمد بن یوسف ... ولا ـ یوجد هنالک دلیل یثبت هذا الاحتمال بأن شعب أبی طالب کان فی منطقة الحجون، وربما یفهم من کلمة «واللّه أعلم» التی أوردها الحلبی أنه لم یکن متأکداً منصحة ما نقله.

وذکر المسعودی (م ۳۴۵ ه):

وکان مولده علیه الصلوة والسلام لثمان خلون من ربیع الأول من هذه السنة بمکة، فی دار ابن یوسف، ثم بعد ذلک بنتها الخیزران أم الهادی والرشید مسجداً (۲).

وذکر فی موضع آخر:

وفی سنة ست وأربعین کان حصار قریش للنبیصلی الله علیه و آله و سلم وبنی هاشم وبنی عبد المطلب فی الشعب (۳).

ونقل ابن الأثیر (م ۶۳۰ ه) عن ابن اسحاق بأن رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم وُلد یوم الاثنین لاثنتی عشرة لیلة مضت من ربیع الاوّل، وکان مولده بالدار التی تُعرف بدار ابن یوسف، قیل: ان رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم وهبها عَقِیل بن أبی طالب، فلم تزل فی یده حتی توفی، فباعها ولده من محمد بن یوسف أخی الحجاج، فبنی داره التی یقال لها: دار ابن یوسف وأدخل ذلک البیت فی الدار حتی أخرجته الخیزران فجعلته مسجداً یصلّی فیه (۴).

وذکر الطبری (م ۳۱۰ ه) فی تاریخه نحوه (۵).

وقال الفاسی المکی فی ذکر المواضع المبارکة بمکة المشرَّفة المعروفة بالموالید: فمنها المولد الذی یقال له، مولد النبیصلی الله علیه و آله و سلم بالموضع الذی یقال له سوق اللیل، وهو مشهورٌ عند اهل مکة. وذکر الازرقی أنّ عقیل بن أبی طالب أخذها لما هاجر النبیصلی الله علیه و آله و سلم الی المدینة، ولم یزل بیده وید أولاده حتی باعه بعضهم من محمد بن یوسف أخی الحجاج بن یوسف الثقفی، فأدخله فی داره التی یقال لها دار البیضاء، ولم یزل هذا البیت فی هذه الدار حتی حجّت الخیزران أم الخلیفتین موسی وهارون، فجعلته مسجداً یصلّی فیه، وأخرجته من الدار وشرعته الی الزقاق الذی فی أصل تلک الدار، انتهی (۶).

وجاء فی کتاب التاریخ القویم لمکة وبیت اللّه الکریم:

کانت ولادة النبیصلی الله علیه و آله و سلم لمکة فی دار أبی طالب، بشعب بنی هاشم بقرب المسجد الحرام ویسمّی الآن بشعب علی أی علی بن أبی طالب ولا زال محل ولادتهصلی الله علیه و آله و سلم معروفاً الی الیوم (۷).

وقد ذکر اکثر المؤرّخین ان ولادة النبیصلی الله علیه و آله و سلم کانت فی شعب أبی طالب، أو فی دار قرب الصفا، أو فی الدار المعروفة بدار ابن یوسف وهی ثلاثة اسماء لمکان واحد (۸).

وورد فی کتاب سیرة ساکن الحجاز:

وکان مولدهصلی الله علیه و آله و سلم بالشِّعب وهو شعب بنی هاشم (مکان معروف عند أهل مکة یخرجون إلیه فی کل عام یحتفلون بذلک أکثر من احتفالهم یوم العید إلی یومنا هذا، فی الدار التی کانت لمحمد بن یوسف أخی الحجاج) (۹).

۱- ۱ السیرة الحلبیة، ۱:صص ۶۲ و ۶۳.

۲- ۲ مروج الذهب، ۲: ۲۷۴.

۳- ۳ نفس المصدر:ص ۲۸۷.

۴- ۴ الکامل فی التاریخ، ۱: ۲۹۴.

۵- ۵ تاریخ الأمم والملوک، ۲: ۱۲۴.

۶- ۶ شفاء الغرام، ۱: ۴۳۱.

۷- ۷ التاریخ القویم لمکة وبیت اللّه الکریم، ۱: ۶۷.

۸- ۸ السیرة النبویة، ۱: ۱۶۷.

۹- ۹ نهایة الایجاز فی سیرة ساکن الحجاز، ۱: ۶.

ص: ۷۳

وذكر محبّ الدين الطبرى المكى فى كتابه «القرى لقاصد أم القرى»:

كان عقيل بن أبى طالب قد استولى عليه (بيت النبيصلى الله عليه و آله و سلم) زمن الهجرة، فلم يزل بيده ويد ولده حتى باعوه لمحمد بن يوسف (أخى الحجاج) فأدخله فى داره التى يقال لها البيضاء، ثم عُرفت بدار ابن يوسف، ولم يزل ذلك، كذلك حتى حجّت الخيزران (جارية المهدى) فجعلته مسجداً يصلّى فيه، وأخرجته من الدار إلى الزقاق الذى يقال له «زقاق المولد» ... وهو الآن مكتبة عامة (۱).

وقالصلاحُ الدّين الصَفَدى بعد بحث موسّع حول مكان ولادة النبيصلى الله عليه و آله و سلم: القول الأرجح هو ان رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم قد وُلد فى عام الفيل فى دار تقع فى الزقاق المعروف بزقاق المولد الذى كان بيد عقيل بن أبى طالب (۲).

وذكر عاتق بن غيث البلادى:

مولد رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم من الناحية التاريخية ثابت أنه ولد عام الفيل ۵۳ ق. ه تقريباً، فى شعب أبى طالب المعروف اليوم بشعب على وقد حول إلى مكتبة مكة، إبعاداً له عن زحام الناس وولعهم بالتبرك به (۳).

وقد كان موضع ولادة رسول اللّه، قبل تسلط الوهابيين على الحرمين الشريفين موضعاً يزوره المؤمنون والمسلمون الذين يفدون الى مكة من كل ارجاء العالم (۴).

قال محمد بن علوى المالكى فى كتابه باسم «فى رحاب البيت الحرام»:

مولد النبيصلى الله عليه و آله و سلم وهو مكان معروف الى الآن بمكة فى سوق الليل ... ولما هاجر رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم الى المدينة استولى على هذا البيت عقيل بن أبى طالب ولم يزل بيده وبيد أولاده حتى باعه بعضهم من محمد بن يوسف الثقفى، ثم لما حجّت الخيزران أم الخليفتين أخرجته وجعلته مسجداً يصلّى فيه، قال ابن ظهيرة ما معناه: وجرت العادة بمكة فى ليلة مولد الرسول أن يتهيأ الكبار والعلماء وأعيان البلاد بالفوانس والشموع فيخرجون الى بيت مولد الرسول لزيارته واحياء ذكر مولده ... قال: والمعروف المشهور فى مولده عليه الصلوة والسلام هو الذى بسوق الليل ولا اختلاف فيه عند أهل مكة ثم قال: وكون هذا مولد الرسولصلى الله عليه و آله و سلم مشهور متوارث يأثر الخلف عن السلف (۵).

قال الفاسى المكى فيصفة مولد النبيصلى الله عليه و آله و سلم:

أما الصفة التى أدركناه عليها، فإنه بيت مربع وفيه اسطوانة عليها عقدان، وفى ركنه الغربى مما يلى الجنوب زواية كبيرة قبالة بابه الذى يلى الجبل، وله باب آخر فى جانبه الشرقى ايضاً، وفيه عشرة شبابيك، أربعة فى حائطه الشرقى، وهو الذى فيه باباه المتقدم ذكرهما، وفى حائطه الشمالى ثلاثة، وفى الغربى واحد، وفى الزاوية اثنان، واحد فى جانبها الشمالى وواحد فى جانبها اليمانى، وفيه محراب، وبقرب المحراب حُفرة عليها درابزين من خشب، وذرْع تربيع الحُفْرة من كل ناحية ذراع وسُدس، الجميع بذراع الحديد، وفى وسط الحُفرة رخامة خضراء، وكانت هذه الرخامة مطوَّقة بالفضّ ة على ما ذكره ابن جبير، وذكر انّ سعتها مع الفضة ثلثا شبر (۶). وهذا الموضعُ جُعل علامة للموضع الذى وُلد فيه النبيصلى الله عليه و آله و سلم من هذا المكان (۷)، وذرع هذا المكان طولًا أربعة وعشرون ذراعاً وربع ذراع. وذلك من الجدار الشمالى إلى الجدار المقابل له، وهو الجنوبى الذى يلى الجبل، وذرْعه عرضاً أحد عشر ذراعاً وثمن ذراع. وذلك

۱- ۱ القرى لقاصد امّ القرى:ص ۶۶۴.

٢- ٢ الوافى بالوفيات، ۵: ٢۴٢.

٣- ٣ فضائل مكة:ص ٢٣٢.

۴- ۴ السيرة الحلبية، ١: ۵٧.

۵- ۵ فى رحاب البيت الحرام:ص ٢۶٢.

۶- ۶ كذا فى الأصل، ولكن الذى عند ابن جبير-ص ١۴١-: «فتكون سعتها مع الفضّة المتصلة بها شبراً».

٧- ٧ شفاء الغرام، ١: ۴٣٣.

ص: ۷۴

من الشرقی الذی فیه بابه الی جداره الغربی المقابل له، وطولًا الزاویة المشار إلیها ثلاثة عشر ذراعاً ونصف ذراع وعرضها ثمانیة ونصف، الجمیع بذراع الحدید. وکان تحزیر ذلک بحضوری، ولم یذکر الازرقیصفة هذا المکان ولا ذرْعه، وقد خفی علینا کثیراً من خبر عمارته. والذی علمته من ذلک أن الناصر العباسی عمّره فی سنة ستَّ وسبعین وخمسمائة. ثم الملک المظفرصاحب الیمن فی سنة ستّ وستین وستمائة، ثم حفیده المجاهد فی سنة أربعین وسبعمائة، وفی سنة ثمانٍ وخمسین وسبعمائة من قِبَل الأمیر شیخون أحد کبار الدولة بمصر (۱)، وفی دولة الملک الأشرف شعبانصاحب مصر بإشارة مدیر دولته «یلبغا الخاصکی» (۲) سنة ستّ وستین وسبعمائة، وفی آخر سنة إحدی وثمانمائة، أو فی التی بعدها، من المال الذی أنفذه الملک الظاهر برقوقصاحب مصر لعمارة المسجد الحرام وغیره بمکة. وکانت عمارة هذا المولد بعد موته (۳).

هذا وقد وصفه ابن جبیر فی رحلته بوصف غیر هذا مما یدلّ علی أنه لم یدم علیصفة واحدة بل کان یتغیرصفة وبناء بتغیر الزمن.

وأعاد بناء هذا البیت بعد أن تهدم وصار خرباً مهجوراً، الشیخ عباس قطان أمین العاصمة، ووضعت فیه مکتبة عامة عظیمة فَخمة، تسمّی بمکتبة مکة المکرمة مفتوحة للمطالعة والمراجعة.

وفی الأعوام الأخیرة هدم البنایات الّتی حول المکتبة لتوسیع أطراف المسجد الحرام، ویمکن ملاحظته الأبنیة التی شیّدت فی موضع ولادة النبیصلی الله علیه و آله و سلم من خلال التصاویر.

وجاء فی بحار الأنوار:

... ولد النبیصلی الله علیه و آله و سلم لاثنتی عشرة لیلة مضت من شهر ربیع الأوّل فی عام الفیل یوم الجمعة مع الزوال وروی ایضاً عند طلوع الفجر قبل أن یبعث بأربعین

سنة وحملت به أمّه فی أیام التشریق عند الجمرة الوسطی وکانت فی منزل عبد اللَّه بن عبد المطلب وولدته فی شعب أبی

۱- ۱ توفی سنة ۷۵۸ ه. الدرر الکامنة، ۲: ۱۹۶ و ۱۹۷، رقم ۱۹۵۰.

۲- ۲ هو یلبغا بن عبد اللَّه الخاصکی الناصری الأمیر الکبیر المشهور. قتل سنة ۷۶۸ ه. قال ابن حجر: کانت لیلبغاصدقات کثیرة علی طلبة العلم ومعروف کثیرفی بلاد الحجاز. الدرر الکامنة، ۴: ۴۳۸- ۴۴۰، رقم ۱۲۱۸.

۳- ۳ شفاء الغرام، ۱: ۴۳۲.

ص: ۷۵

طالب فی دار محمد بن یوسف فی الزاویة القصوی عن یسارک وأنت داخل وقد أخرجت الخیزران ذلک البیت فصیرته مسجداً یصلّی الناس فیه (۱).

وروی الزهرة عن ابی عبد اللَّه الطرابلسی، البیت الذی ولد فیه رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم فی دار محمد بن یوسف (۲).

وقال الکلینی: [ولد] فی شعب أبی طالب فی دار محمد بن یوسف فی الزاویة القصوی عن یسارک وأنت داخل الدار (۳).

یظهر ممّا ذکرناه أوّلًا: انّ النبیصلی الله علیه و آله و سلم قد وُلد فی شعب أبی طالب. وثانیاً: انّ شعب أبی طالب موضع فی مکة، قرب المسجد الحرام، وبعیداً عن المکان الذی فی الحجون الذی یعرفه بعضٌ باسم هذا الشعب.

مقاطعة النبیصلی الله علیه و آله و سلم وأصحابه فی شعب أبی طالب:

فلما رأت قریشٌ أنّ اصحاب رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً، وأنّ النجاشی قد منع مَن لجأ إلیه منهم، وأنّ عمر قد أسْلم، فکان هو وحمزة مع رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم وجعل الإسلامُ یَفشو فی القبائل، اجتمعوا وائتمروا [بینهم] أن یکتبوا کتاباً یتعاقدون فیه علی بنی هاشم، وبنی المطّلب، علی أن لا- یُنْکحوا إلیهم ولا- یُنکحوهم، ولا- یبیعوهم شیئاً، ولا یبتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلک کتبوه فیصحیفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا علی ذلک، ثم عَلَّقُوا الصحیفةَ فی جَوف الکعبة توکیداً علی أنفسهم، وکان کاتبَ الصحیفة منصورُ بن عِکرمة بن عامر بن هاشم بن عَبْد مناف بن عبد الدار بن قُصَیّ ....

فلما فعلت ذلک قریش انحازت بنو هاشم وبنو المطّلب الی أبی طالب بن عبد المطلب فدخلوا معه فی شِعْبه واجتمعوا إلیه، وخرج من بنی هاشم أبو لَهب، عبد العُزّی بن عبد المطّلب، إلی قریش فظاهرهم (۴).

وقال السید الأمین فی اعیان الشیعة:

... وحصروهم فی شعب أبی طالب أول المحرم سنة سبعة من البعثة فدخل بنو هاشم الشعب، مسلمهم وکافرهم عدا أبی لهب وأبی سفیان بن الحارث بن عبد المطلب لشدة عداوتهما للرسولصلی الله علیه و آله و سلم ... وانحاز الیهم بنو المطلب بن عبد مناف فکانوا أربعین رجلًا وحصن أبو طالب الشعب وکان یحرسه لیلًا ونهاراً ... وسمع اصواتصبیانهم من وراء الشعب وذلک اشدّ ما لقی رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم وأهل بیته بمکة، وکان هشام بن عمرو احد بنی عامر بن لؤی یأتی بالبعیر بعد البعیر قد أوقره طعاماً أو تمراً إلی فم الشِّعب فینزع عنه خطامه ویضربه علی جنبیه فیدخل الشعب فبقوا فی الشعب سنتین أو ثلاث سنین ... وخرج بنو هاشم من حصار الشعب فی السنة العاشرة أو التاسعة من النبوة الی مساکنهم ... (۵).

قال الکازرونی فی المنتقی وغیره:

... فعمد أبو طالب فأدخل الشعب ابن أخیه وبنی أبیه ومن اتبعهم، فدخلوا شعب أبی طالب وآذوا النبی والمؤمنین أذیً شدیداً وضربوهم فی کل طریق وحصروهم فی شعبهم وقطعوا عنهم المارّة من الأسواق ونادی منادی

۱- ۱ بحار الأنوار، ۱۵: ۲۵۱، روایة ۵ باب ۳.

۲- ۲ بحار الأنوار، ۱۵: ۲۷۶ روایة ۲۳.

۳- ۳ نفس المصدر.

۴- ۴ السیرة النبویة، ۱: ۳۷۵.

۵- ۵ اعیان الشیعة، ۱: ۳۳۵.

ص: ۷۶

الولید بن المغیرة فی قریش: أیّما رجل منهم وجدتموه عند طعام یشتریه فزیدوا علیه، فبقوا علی ذلک ثلاث سنین حتی بلغ القوم الجهد الشدید حتّی سمعوا أصواتصبیانهم یتضاغون- أی یصیحون من الجوع من وراء الشعب- ...

ویصبح قریش وقد سمعوا أصواتصبیان بنی هاشم من اللیل یتضاغون من الجوع ... (۱).

وجاء فی اتحاف الوری باخبار امّ القری:

دعا رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم علی کاتب الصحیفة فشُلَّت یده، ثم غدت قریش علی مَنْ اسْلَم فأوثقوهم وآذوهم، واشتد البلاءُ علیهم ... ولما فعلت قریش ذلک انحاز رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم وسائر بنی هاشم وبنی المُطَّلب،- خلا أبا لهب- وبنو المطلب وولده فی الشِّعْب، وخرج اللعین ابو لهب وولدُه الی قریش، فظاهرهم علی بنی هاشم وبنی المُطَّلب، وقطعوا عنهم المِیَرة والمادة، فکانوا لا یقدرون علی ذلک الّا من الموسم الی الموسم ولا یخرجون الّا من موسم الی موسم، حتی بلغ بهم الجهد، وسمع أصواتصبیانهم من وراء الشِّعب یَتَضاغَوْن من الجوع. فمن قریش من سَرَّهُ ذلک ومنهم من ساءَه، ولم یکن یصل الیهم شیء الّا سِرّاً، حتی ان المُطْعِمَ بن عَدِیّ أدخل علیهم فی بعض الأیام ثلاثة أوقار من الطعام وکان النبیصلی الله علیه و آله و سلم یَشکُرُ له ذلک، وکانت العیر تأتی من الشام وعلیها الحِنْطَة الی حکیم بن حِزَام بن خُوَیْلد فیوجهها نحو الشِّعب، ثم یَضرب أدبارها فتدخل علیهم، فیأخذون ما علیها من الحنطة، وکان هشام بن عمرو بن ربیعة أوْصَلَ قریش لبنی هاشم حین حُصِرُوا فی الشِّعْب، أدخل علیهم فی لیلة ثلاثة أحمال طعام، فعلمت بذلک قریش، فمشوا إلیه فکلَّمُوه فی ذلک فقال: انی غیر عائد لشیء تحالفتم علیه. ثم عاد الثانیة وادخل حِملًا أو حِمْلین، فغالظته قریش وهمّوا به، فقال ابو سفیان بن حرب: دَعُوه؛ رجلٌ وصَلَ رحمه، أما إنی أحلُفُ باللَّه لو فعلنا مثل ما فعل کان أجمل (۲).

وقال فی موضع آخر: ... فلما رأی أبو طالب عملَ القوم جمع بنی عبد المطلب وأمرهم أن یُدخِلوا رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم شِعْبَهم، ویمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا علی ذلک مسلمهم وکافرهم ... (۳).

فلبث بنو هاشم فی شعبهم ثلاث سنین، واشتدّ علیهم البلاء والجَهْدُ، وقطعوا عنهم الأسواق، فلا یترکوا طعاماً یَقْدُم مکة ولا بیعاً إلا بادروهم فاشتروه، یریدون بذلک أن یُدْرِکُوا سَفْکَ دم رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم وکان أبو طالب اذا أخذ النّاسُ مضاجعهم أمر رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم فاضطجع علی فراشه، حتی یری ذلک من أراد مکراً به واغتیاله، فاذا نَوَّمَ الناس أمر واحداً مِنْ بنیه، أو اخوته، أو بنی عمّه فاضطجع علی فراش رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم وأمر رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم أن یأتی بعض فرشهم فینام علیه (۴).

وقال ابن کثیر فی السیرة النبویة:

... فلما رأی أبو طالب عملَ القوم جمع بنی عبد المطلب، وأمرهم أن یُدْخلوا رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم شِعْبَهم وأمرهم أن یمنعوه ممن أرادوا قتله ... وحَصْرهم إیّاهم فی شِعب أبی طالب مدّة طویلة (۵).

وجاء فی کتاب التاریخ القویم لمکة وبیت اللَّه الکریم:

فانحاز بنو هاشم بسبب ذلک فی شعب أبی طالب، وهو المعروف الیوم «بشعب علی» ودخل معهم بنو المطلب سواء فی ذلک مسلمهم وکافرهم ما عدا أبی لهب فانه کان مع قریش، فلما انفصلوا عن قریش بالشعب المذکور، جهد القوم، جهداً عظیماً وتعبوا تعباً شدیداً حتی أکلوا أوراق الأشجار، لأن قریشاً شددوا الحصار علیهم، وکان ذلک فی

۱- ۱ بحار الأنوار، ۱۹:صص ۱۸ و ۱۹.

۲- ۲ اتحاف الوری باخبار امّ القری، الجزء الأول:ص ۲۸۳.

۳- ۳ نفس المصدر:ص ۲۸۴.

۴- ۴ اتحاف الوری باخبار ام القری، الجزء الأول:ص ۲۸۴- دلائل النبوة، ۲: ۸۱- ۲: ۴۳- ۴۴- شرح المواهب، ۱: ۲۷۸- ۲۷۹.

۵- ۵ السیرة النبویة، ۲: ۴۳.

ص: ۷۷

السنة السابعة من البعثة، ومكثوا على هذا الحال من الضيق والتعب الشديد ثلاث سنوات (۱).

وقال ايضاً فی موضع آخر:

قال هذه القصيدة أبو طالب عم النبیصلی الله علیه و آله و سلم فی الشِّعب وهو شِعْبُ أبی طالب الّذی آوی إليه بنو المطلب وبنو هاشم مع رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم ثم يذكر ما قاله فی الشعب:

وأبيض يستسقی الغمام بوجهه ثمال اليتامی عصمة للأرامل

يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده فی رحمة وفواضل

جزی اللَّه عنّا عبد شمس ونوفلا عقوبة شر عاجلًا غير آجل

بميزان قسط لا يخس شعيرة له شاهد من نفسه غير عائل

ونحن الصميم من ذؤابة هاشم وآل قصیٍّ فی الخطوب الأوائل (۲) وجاء فی بحار الأنوار:

من معجزاتهصلی الله علیه و آله و سلم ان قريشاً كلهم اجتمعوا واخرجوا بنی هاشم الی شعب أبی طالب ومكثوا فيه ثلاث سنين الّا شهراً ثم انفق ابو طالب وخديجة جميع مالهما ولا يقدرون علی الطعام الّا من موسم الی موسم فلقوا من الجوع والعری ما اللَّه أعلم به ... (۳).

وقال ابن سعد فی «الطبقات الكبری»:

... وحصروا بنی هاشم فی شعب أبی طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من حين تنبّی رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم وانحاز بنو المطلب بن عبد مناف إلی أبی طالب فی شعبه مع بنی هاشم ... (۴).

وجاء فی الكامل لابن اثير:

فلما فعلت قريش ذلك انحازت بنو هاشم وبنو المطّلب الی أبی طالب فدخلوا معه فی شعبه واجتمعوا ... وذكروا أن أبا جهل لقی حكيماً بن حِزام بن خُوَيْلد ومعه قمحٌ يريد به عمّته خديجة، وهی عند رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم فی الشِّعب متعلّق به وقال: واللَّه لا تبرح حتی أفضحك، فجاء أبو البختری بن هشام فقال: ما لك وله؟

عنده طعام لعمّته أفتمنعه أن يحمله إليها؟ خلّ سبيله، فأبی أبو جهل، فنال منه. فضربه ابو البختری بلَحی جمل فشجّه ووطأه وطأً شديداً، وحمزة ينظر اليهم، وهم يكرهون أن يبلغ النبیصلی الله علیه و آله و سلم ذلك فيشمت بهم هو والمسلمون.

ورسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم يدعو الناس سراً وجهراً، والوحی متتابع إليه، فبقوا كذلك ثلاث سنين (۵).

۱- ۱ التاريخ القويم لمكة وبيت اللَّه الكريم، ۱:صص ۹۴- ۹۵.

۲- ۲ نفس المصدر:ص ۹۶.

۳- ۳ بحار الانوار، ۱۹: ۱۶.

۴- ۴ طبقات ابن سعد، ۱: ۲۰۹.

۵- ۵ الكامل فی التاريخ، ۱: ۵۰۴.

ص: ۷۸

وفی السیرة للذهبی:

فلبث بنو هاشم فی شعبهم ثلاث سنین ... وقال محققه فی هامشه: قال الحافظ أبو الحسن أحمد بن یحیی البلاذری، عن المدائنی، عن أبی زید الأنصاری، عن أبی عمرو بن العلاء عن مجاهد عن ابن عباس قال: حصرنا فی الشعب ثلاث سنین، وقطعوا عنّا المیرة حتی إن الرجل لیخرج بالنفقة فلا یبتاع شیئاً حتی مات منّا قوم» (۱).

وجاء فی الصحیح من سیرة النبی الأعظمصلی الله علیه و آله و سلم:

ودخل بنو هاشم الشعب- شعب أبی طالب- ومعهم بنو المطلب بن عبد مناف، باستثناء أبی لهب لعنه اللَّه وأخزاه، واستمروا فیه الی السنة العاشرة ... ووضعت قریش علیهم الرقباء حتی لا یأتیهم أحد بالطعام. وکانوا ینفقون من أموال خدیجة وأبی طالب حتی نفدت، حتی لقد اضطروا الی أن یقتاتوا بورق الشجر. وکانصبیتهم یتضاغون جوعاً ویسمعهم المشرکون من وراء الشعب، ویتذاکرون ذلک فیما بینهم ... ولم یکونوا یجسرون علی الخروج من شعب أبی طالب إلّا فی موسم العمرة فی رجب، وموسم الحج فی ذی الحجة، فکانوا یشترون حینئذٍ ویبیعون ضمن ظروفصعبة جداً ... وقد استمرّت هذه المحنة سنتین أو ثلاثاً ... وکان علی امیر المؤمنین علیه السلام اثناءها یأتیهم بالطعام سراً من مکة، من حیث یمکن، ولو أنهم ظفروا به لم یبقوا علیه کما یقول الاسکافی وغیره (۲).

وجاء فی أعلام الوری:

... فلما بلغ ذلک أبا طالب جمع بنی هاشم ودخل الشعب وکانوا أربعین رجلًا، فحلف لهم أبو طالب بالکعبة والحرم والرکن والمقام لئن شاکت محمّداً شوکة لأثبنَّ علیکم یا بنی هاشم وحصّن الشعب وکان یحرسه باللیل والنهار ... وکانت خدیجة لها مالٌ کثیرٌ فانفقته علی رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم فی الشِّعب (۳).

وکتب الیعقوبی (م ۲۹۳ ه) فی هذا الصدد:

ثم حصرت قریش رسول اللَّه وأهل بیته من بنی هاشم وبنی المطلب ابن عبد مناف فی الشعب الذی یقال له شعب بنی هاشم بعد ستّ سنین من مبعثه فأقام ومعه جمیع بنی هاشم وبنی المطلب فی الشعب ثلاث سنین حتی أنفق رسول اللَّه ماله وأنفق أبو طالب ماله وأنفقت خدیجة بنت خویلد مالها، ثم نزل جبرئیل علی رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم فقال:

انّ اللَّه بعث الأرضة علیصحیفة قریش فأکلت کل ما فیها من قطیعة وظلم الّا المواضع التی فیها ذکر اللَّه (۴).

إن الوضع المهلک الذی آل إلیه النبیصلی الله علیه و آله و سلم وأصحابه، حرّک نفراً من قریش لنقض الصحیفة التی کتبتها قریش علی بنی هاشم، فنهض هشام بن عمرو مع زهیر بن أبی امیّة، ومطعم بن عدی، وابو البختری، وزمعة بن أسود بن المطلب، فاتعدوا له خَطمَ الحجون الّتی بأعلی مکة فاجتمعوا هنالک وأجمعوا أمرهم وتعاهدوا علی القیام فی الصحیفة حتی ینقضوها (۵).

أقول: یقع شعب الحجون فی نفس الموضع الذی فیه الآن مقبرة أبیطالب، وکان قبل الاسلام مقبرة أیضاً، وبالنتیجة فلو کان الشعب هنا، وفیه تعرض النبیصلی الله علیه و آله و سلم وأتباعه للمقاطعة، فلا معنی لأن یجعله الأشخاص المذکورون موضعاً خفیّاً لاجتماعهم أو لیجتمعوا فی مکان معرّض للخطر الدائم فی أیّة لحظة!! إنّ الاستفادة من هذا المکان کموضع خفی تدل علی أن الحجون کان خارج مکة أو الی جوارها علی الأقل، بل إن بعض الروایات تصرّح بأن الحجون کان خارج مکة فیصدر الاسلام، ولهذا لا یمکن القول بأن النبیصلی الله علیه و آله و سلم واتباعه وقومه خرجوا کلّهم

۱- ۱ السیرة للذهبی:ص ۲۲۱.

۲- ۲ الصحيح من سيرة النبى الأعظم، ۲: ۱۰۸- شرح النهج للمعتزلى، ۱۳: ۲۵۶.

۳- ۳ اعلام الورى:صص ۵۹ و ۶۰.

۴- ۴ تاريخ اليعقوبى، ۱: ۳۸۹.

۵- ۵ تاريخ الأمم والملوك، ۲: ۲۲۸.

ص: ۷۹

من مكة واقاموا خارجها!!

وروى فى اصول الكافى عن أبى عبد اللَّه عليه السلام قال: لمّا توفى أبو طالب نزل جبرئيل على رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم فقال:

يا محمد، أخرج من مكة، فليس لك فيها ناصرٌ وثارت قريش بالنبيصلى الله عليه و آله و سلم فخرج هارباً حتى جاء الى جبل بمكّة يقال له الحجون فصار اليه (۱)

نقض الصحيفة:

بعد ثلاث سنين تقريباً: أخبر النبيصلى الله عليه و آله و سلم عمّه أبا طالب بأنّ الأرضة قد أكلت كل ما فيصحيفتهم من ظلم وقطيعة رحم، ولم يبق فيها إلاـ ما كان اسماً للَّه، فخرج أبو طالب من شعبه ومعه بنو هاشم إلى قريش، فقال المشركون: الجوع أخرجهم ... وقالوا له: يا أبا طالب، قد آن لك أن تصالح قومك. قال: قد جئتكم بخير، ابعثوا ليصحيفتكم، لعله أن يكون بيننا وبينكمصلح فيها. فبعثوا، فأتوا بها، فلما وضعت وعليها أختامهم. قال لهم أبو طالب: هل تنكرون منها شيئاً؟ قالوا: لا. قال: ان ابن أخى حدّثنى ولم يكذبنى قط: أن اللَّه قد بعث على هذه الصحيفة الأرضة، فأكلت كل قطيعة وإثم، وتركت كل اسم هو للَّه، فإن كانصادقاً اقلعتم عن ظلمنا، وإن يكن كاذباً ندفعه اليكم فقتلتموه. فصاح الناس: أنصفتنا يا أبا طالب ... ففتحت، ثم أخرجت فإذا هى كما قالصلى الله عليه و آله و سلم فكبّر المسلمون، وامتقعت وجوه المشركين ... فقال أبو طالب:

أتبين لكم: أينا أولى بالسحر والكهانة؟ ...

فأسلم يومئذٍ عالم من الناس ... ولكن المشركين لم يقنعوا بذلك بل استمروا على العمل بمضمون الصحيفة، حتى قام جماعة منهم بالعمل على نقضها، وخرج الهاشميون حينئذٍ من شعب أبى طالب (۲).

وقال ابن أبى الحديد: ... انهم منعوا ايام الحصار فى شعب بنى هاشم من الماء العذب (۳).

أسماء بعض بنى هاشم الذين كانوا مع النبيصلى الله عليه و آله و سلم فى الشعب خلال مدّة المقاطعة:

۱- أبو طالب بن عبد المطلب.

۲- على بن أبى طالب.

۳- حمزة بن عبد المطلب.

۴- عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف.

(ورغم ان عبيدة لم يكن من بنى هاشم، الّا ان اتحاد بنى المطلب وبنى هاشم ومواقفهما المشتركة فى الجاهلية والاسلام، يتيح لنا اعتباره من بنى هاشم).

۵- العباس بن عبد المطلب.

۶- عقيل بن أبى طالب.

۷- طالب بن أبى طالب.

۱- ۱ اصول الكافى، ۱: ۴۴۹.

۲- ۲ الصحيح من سيرة النبى الاعظم، ۲:صص ۱۲۰ و ۱۲۱.

۳- ۳ البحار، ۳۳: ۱۱۴ روایة ۴۰۸.

ص: ۸۰

۸- نوفل بن الحارث بن عبد المطلب.

۹- ابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.

۱۰- الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب.

وكان شديداً على رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم يبغضه ويهجوه بالأشعار، الّا انه كان لا يرضى بقتله (۱).

۱۱- خديجة بنت خويلد (۲).

قد ذكر المؤرخون وكتّاب السّيرة انَّ الموضع الّذى حُصر فيه رسول اللّه وأصحابه على يد قريش، هو شعب أبى طالب، أشرنا الى بعضهم ونُشير الى بعض آخر:

قال الطبرسى: فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب فدخلوا معه فى شِعْبه واجتمعوا إليه فى شعبه ... (۳).

وقال الفاسى المكى (م ۸۳۲ ه):

فانحاز الهاشميون غير أبى لهب، والمطلبيون الى أبى طالب، فدخلوا معه فى شعبه، فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً (۴).

وجاء فى بحار الانوار: وحاصروا بنى هاشم فى الشعب، شعب عبد المطلب اربع سنين، فاصبح النبيصلى الله عليه و آله و سلم يوماً وقال لعمه ابى طالب انّ الصحيفة التى كتبتها قريش فى قطيعتها قد بعث اللّه عليها دابة فلحست كل ما فيها غير اسم اللّه (۵).

وروى الواقدى:

دخل بنو هاشم فى ليلة الاول من المحرم من السنة السابعة للبعثة فى شعب أبى طالب، واجتمع اليهم بنو المطلب فى ذلك الشعب (۶).

وقال محمد ابراهيم آيتى رحمه الله:

ولما عزمت قريش على فعلها اجتمع بنو هاشم وبنو المطلب بن عبد مناف الى أبى طالب وصاروا كلهم الى الشعب، سوى ابى لهب بن عبد المطلب الذى ناصر قريشاً (۷).

وقال رفاعة رافع الطهطاوى:

شعب أبى طالب هو الموضع الذيصارت فيه المقاطعة ثم يقول: فانحاز الهاشميون الى أبى طالب ... فدخلوا معه فى شعبه وخرج من بنى هاشم أبو لهب ... وأقام بنو هاشم فى الشعب ومعهم رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم نحو ثلاث سنين، وكان بنو هاشم محصورين فى الشعب لا يخرجون الّا من موسم الى موسم ... واخرجوا بنى هاشم وبنى المطلب من الشعب وذلك فى السنة العاشرة من مبعثه (۸).

وكتب ابراهيم رفعت باشا فى مرآة الحرمين:

القشاشية، فى شرق المسجد الحرام ويطل عليها جبل أبى قبيس، وفى الجهة الشرقية منها شعب على أو شعب بنى هاشم (۹).

وقال ياقوت الحموى:

۱- ۱ شرح نهج البلاغة لابن ابى الحديد، ۱۴: ۶۵.

۲- ۲ نفس المصدر:ص ۵۹.

۳- ۳ تاريخ الأمم والملوك، ۲: ۲۲۵.

۴- ۴ العقد الثمين، ۱: ۲۳۰.

۵- ۵ بحار الانوار، ۱۸: ۱۲۰ روایهٔ ۱۶.

۶- ۶ الطبقات الكبرى، ۱: ۲۰۹.

۷- ۷ تاريخ پيامبر اسلام تاريخ حياهٔ نبى الاسلام:ص ۱۵۴.

۸- ۸ سيرهٔ ساكن الحجاز، الجزء الاول:ص ۱۱۵.

۹- ۹ مرآهٔ الحرمين، ۱: ۱۸۰.

ص: ۸۱

شعب أبي يوسف، هو الشعب الذى أوى إليه رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم وبنو هاشم لما تحالفت عليهم قريش على بنى هاشم ...، وكان لعبد المطلب فقسمه بين بنيه حين ضعف بصره، وكان النبيصلى الله عليه و آله و سلم أخذ حظّ أبيه وهو كان منزل بنى هاشم ومساكنهم (۱). قال عاتق بن غيث البلادى بعد نقل هذا الموضوع فى كتابه معجم معالم الحجاز:

ثم عرف هذا الشعب فيما بعد بشعب أبيصالب (۲)، ثم شعب بنى هاشم ويُعرف اليوم بشعب عليّ، وهو الشعب الذى يسيل بطرف أبى قُبَيْس من الشمال بينه وبين الخندمة، فيه مولد رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم وهو اليوم مكتبة مكة أى المولد، يصب سيله على سوق الليل فوق المسجد الحرام بحوالي ثلاثمائة متر. كانت عند مصبّة بَّذر فهدمت سنة ۱۳۹۹ ه فى توسعة شارع الغزّة (۳).

وجبل أبى قبيس، هو أحد أشهر جبال مكة، ومنه يبدأ شعب على أو شعب أبى طالب ويمتد الى خندمة وقد استودع فيه الحجر الأسود ايّام الطوفان وموضعه فى شعب على، أى المكان الذى ولد فيه الرسولصلى الله عليه و آله و سلم وذكر عبد الملك بن هشام أنه سمّى بأبى قبيس بن شامخ، وهو رجل من جُرْهُم، كان قد وَشى بين عمرو بن مُضاض وبين ابنة عمّه مَيّة، فنذَرَتْ أن لا تكلّمه، وكان شديد الكَلَف بِها فحَلَف لأقْتُلنَّ أبا قبيس، فهرب منه فى الجبل المعروف به، وانقطع خَبَرُه، فإما مات وإما تردّى منه، فسُمّى الجبل أبا قبيس لذلك، فى خبر طويل ذكره ابن هشامصاحب السيرة فى غير كتاب السيرة، وقال ابو المنذر هشام: أبو قبيس، الجبل الذى بمكة، كَناه آدم عليه السلام بذلك حين اقتبس منه هذه النار التى بأيدى الناس الى اليوم، من مَرْخَتَين نزَلَتا من السّماء على أبى قبيس فاحتَكَّتا، فَاوْرَتا ناراً، فاقتبَسَ منها آدم، فلذلك المَرْخُ إذا حُكَّ احَدُها بالآخر، خرجتْ منه النار (۴).

بعض شعاب مكة:

كما ذكرنا سابقاً، يوجد فى الشّمال الشرقى للمسجد الحرام ثلاث شعاب، وهى:

۱- شعب على أو شعب أبى طالب ويسمّى اليوم بالقشاشية (۵) أيضاً.

۲- شعب بنى هاشم ويُسَمّى ايضاً ب «غزّة».

۳- شعب بنى عامر.

كان يسكن فى هذه الأماكن الثلاثة، منذ العصر الجاهلى فما تلاه، اجداد النبيصلى الله عليه و آله و سلم وابناء عبد المطلب وأبو طالب وبنى هاشم (۶).

وكذلك بعض البيوت فى شعب على، وبعض دار ابن يوسف كانت لأبى طالب، وبعض دار ابن يوسف (مولد النبيصلى الله عليه و آله و سلم) وما حوله لأبى النبيصلى الله عليه و آله و سلم عبد اللّه بن عبد المطلب، وكذلك دار خالصة مولاة الخيزران، لعباس بن عبد المطلب ودار الطلوب مولاة زبيدة، حقّ المقوم بن عبد المطلب. وذكر غير واحد من المكيين انّ الشعب الذى يقال له: شعب ابن يوسف- وهو شعب على وبجانبه سوق الليل، كان لهاشم بن عبد مناف دون الناس وكان عبد المطلب قد قسم حقه بين ولده ودفع اليهم ذلك فى حياته فمن ثمّصار للنبيصلى الله عليه و آله و سلم حق أبيه عبداللّه بن عبد المطلب، وللعباس

۱- ۱ معجم البلدان، ۳: ۳۹۳.

۲- ۲ كذا فى المتن ويمكن أن يكون المراد شعب أبى طالب.

۳- ۳ معجم معالم الحجاز، ۵: ۵۶.

۴- ۴ معجم البلدان، ۱: ۱۰۳.

۵- ۵ لعل القشاشـية منسوبة الى الشـيخ القشاشـى وقد كان يسـكن مكة حوالى القرن الحادى عشر «انظر الجزء الثانى من كتاب تاريخ مكة للسباعى، حوادث الشريف احمد بن عبد المطلب» من عهد الترك العثمانيين.

۶- ۶ مرآة الحرمين، ۱:صص ۱۸۰ و ۱۸۱.

ص: ۸۲

بن عبد المطلب أیضاً الدار التی بین الصـفا والمروة التی بید ولد موسـی بن عیسی التی الی جنب الدار التی بید جعفر بن سلیمان ودار العباس هی الدار المنقوشة التی عندها العلم الذی یسـعی منه من جاء من المروة الی الصـفا بأصلها ویزعمون أنها كانت لهاشم بن عبد مناف، ولهم أیضاً دار أم هانی بنت أبی طالب- كان بجانب الباب المعروف باسـمها- التی كانت عنـد الحناطین عنـد المنارة فـدخلت فی المسجد الحرام حین وسعه المهدی فی الهدم الآخر سنة سبع وسبعین ومائة (۱).

وقال احمد السباعی:

... عنـد سوق اللیـل تصافحنا الـدار التی كانوا یسـمونها دار مال اللّه وكانوا ینفقون فیها علی المرضـی ویطعمونهم، وبالقرب من الـدار یلتوی شـعب ابن یوسف وهو مـا نسـمیه شـعب علی وفیه دور عبـد المطلب بن هـاشم ودور أخری لأبی طالب وأخری للعباس بن عبد المطلب وإذا عـدنا الی اسـتقامتنا فی شارعنـا العام یصافحنا دار العاص فی فوهـة شـعب بنی عامر ثم یلتوی شـعب بنی عامر فی دروب متعـددة تقوم علیهـا دور لبنی بكر وأخری لبنی عبـد المطلب بن عبـد مناف ... ونمضـی قلیلًا الی المعلاة لنجـد الجزارین عن یمیننا فی شعب أبی دب، ثم مكان المقابر وهی بعد حدود شعب عامر ... (۲).

صفوة القول:

بالاضافة الی ما مرّ ذكره، فإن شـعب علی وشـعب بنی هاشم وشـعب بنی عامر، قرب المسجد الحرام محددة بشكل دقیق علی الخرائط الموجودة عن الحجاز- قـدیماً وحـدیثاً- ولم یطلق احـدٌ اسم شـعب أبی طالب علی مقبرة أبی طالب الواقعة فی شـعب أبی دب، ولهذا فإن وجود الشعب فی ذلك المكان رغم كل هذه الأدلّة والشواهد، یمكن تبریره بالنقاط التالیة:

اوّلًا: إنّ المنطقة كانت موضع سكن تلك العائلة.

وثانیاً: توفّر امكانیة الحیاة، والاسـتفادة من مخزون الطعام والاشـیاء الأخری الموجودة فی الدور، والّا كیف یمكن البقاء علی قید الحیاة لمدّة ثلاث سـنوات ومقاومة الظروف القاسـیة فی تلك المنطقة القاحلة الخالیة من أی ظل یظلهم من الشمس المحرقة، أو یقیهم لهب الرمضاء القاتلة؟!

ثالثاً: انّ المنطقة المسـماة الیوم بمقبرة أبی طالب، كانت فی العصـر الجاهلی مقبرة ایضاً. ولیس من المعقول لرسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم ان یترك جمیع المناطق الموجودة فی مكة ویلتجئ الی مقبرة هو وأبو طالب ومجموعة من النساء والأطفال!

رابعـاً: ان الحجون- كمـا أوضـحنا سابقـاً- تقع خـارج مكّـة، وهـذا لا یتّسق والروایات القائلـة بأنّ بكاء الاطفال كان یُسـمع من خارج الشعب.

خامساً: جاء فی بعض النصوص التاریخیـة ان الاوضاع كانت علی درجة شدیدة من القساوة، اضـطر معها المحاصـرون الی أكل أوراق الاشجار والخَبَطْ (۳) (۴) بینما لم تكن هناك أیّة اشجار أو نباتات فی المقبرة آنذاك حتی یتناولها المحاصرون.

سادساً: یتضح مما نقله الازرقی ان الحجون لم یسكنها أحد حتی العام العاشر للهجرة، وظلت هذه المنطقة

۱- ۱ اخبار مكة للازرقی، ج ۲:ص ۲۳۳.

۲- ۲ اخبار مكة للسباعی:ص ۳۱.

۳- ۳ الخَبَطْ: اسم الورق السّاقط. لسان العرب، ۴: ۱۶.

۴- ۴ الغدیر، ۷: ۳۶۳.

ص: ۸۳

خارج مدينة مكة لعدة قرون.

سابعاً: لم تكن هذه المنطقة من مكة مسكونة أساساً، وما كان فيها زرع أو دور، حتى ان رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم كان يضرب الخيام عند النزول فيها لعدّة أيام.

قال ابو الوليد:

ان النبيصلى الله عليه و آله و سلم بعدما سكن المدينة كان لا يدخل بيوت مكة، وكان اذا طاف بالبيت انطلق الى أعلى مكة فاضطرب به الابنية، قال عطاء: فى حجته فعل ذلك أيضاً، ونزل أعلى مكة قبل التعريف وليلة النفر نزل أعلى الوادى (۱)، ثم يضيف الازرقى: قيل للنبيصلى الله عليه و آله و سلم يوم الفتح: ألا تنزل منزلك بالشعب؟ قال: وهل ترك لنا عقيل منزلًا؟ فقيل لهصلى الله عليه و آله و سلم: فانزل فى بعض بيوت مكة فى غير منزلك، فأبى وقال: لا أدخل البيوت، فلم يزل مضطرباً بالحجون لم يدخل بيتاً وكان يأتى المسجد من الحجون.

ونقل سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال: رأيت رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم مضطرباً بالحجون فى الفتح يأتى لكلصلوة (۲).

يتضح مما سبق ان شعب أبى طالب كان فى غير موضع مقبرة أبى طالب ولا يعرف متى حصل هذا الخلط وما سببه!!

والمورخ الوحيد الذى احتمل أن يكون موضع شعب ابى طالب فى منطقة الحجون هو الحلبى الذى قال بعد بيانه لموضع ولادة رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم:

أقول: قد يقال لا مخالفة لانه يجوز أن تكون تلك الدار من شعب بنى هاشم، ثم رأيت التصريح بذلك، ولا ينافيه ما تقدم فى الكلام على الحمل من أن شعب أبى طالب وهو من جملة بنى هاشم كان عند الحجون لأنه يجوز أن يكون أبو طالب انفرد عنهم بذلك الشعب واللَّه أعلم (۳).

ولكن لا يوجد هنالك دليل يثبتصحة هذا النقل. وربما يفهم من كلمة «واللَّه اعلم» التى أوردها الحلبى أنه لم يكن متأكداً منصحة ما نقله.

وعلى هذا فقد كان المسار الطبيعى للأحداث بالشكل التالى انه حينما تعرّض أبو طالب وبنو هاشم وبنو المطلب للخطر الداهم من العدو التقوا حول أبى طالب لكونه شخصية معروفة ومهاب الجانب، واجتمعوا فى موضع يعرف بشعب أبى طالب وتولوا حراسته دفاعاً عن أنفسهم وعن النبيصلى الله عليه و آله و سلم ولما انتهت المقاطعة، خرج بنو هاشم وبنو المطلب من الشعب وعادوا الى منازلهم ولم يرجعوا الى الشعب مرة أخرى، والنصوص التاريخية تثبت هذا المعنى، إلا انّ البعض لم يلتفت إليها.

الهوامش:

عثمان بن مظعون

۱- ۱ اخبار مكة للازرقى، ۲: ۱۶۱.

۲- ۲ نفس المصدر.

۳- ۳ السيرة الحلبية، ۱: ۶۳.

ص: ۸۴

رجال من الحرمين الشريفين

(۱)

عثمان بن مظعون

فارس تبريزيان الحسّون

إنّ الذى حرّضنى على انتخاب هذا الموضوع والكتابة عنه جهات عديدة، أهمّها شُبهةٌ وُجّهت- ولا تزال توجّه- إلى الشيعة: بأنّهم لا يحترمونصحابة رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم، ويقعون فيهم سبّاً وطعناً. وهذه الشبهة لا أساس لها من الصحة، فإنّ الشيعة تضع وافر احترامها فيصحابة رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم وتعظّمهم، وتقتدى بهم، وتجعلهم مناراً تستنير به، أولئك الذين لم يرتدّوا ولم يبدّلوا ولم يبدعوا فى الدين وبقوا على منهج النبيّصلى الله عليه و آله و سلم.

فالشيعة تجرى قواعد الجرح والتعديل على الجميع حتّى الصحابة، فمن كان منهم على دين محمّدصلى الله عليه و آله و سلم ومات وهو على يقينٍ من أمره، ولم يشك فى دينه، فتجعله فى أعلى القمم، وتقتدى به، ومن أبدع وشكّ فى نبيّه ودينه وبدّل وغيّر، فالشيعة وكلّ حرّ جعل العقل إمامه يرفضه وينبذه ولا يقتدى به، لأنه إذا اقتدى به اقتدى ببدعته وضلاله وشكّه.

وأمّا ما روى من أحاديث عن النبيصلى الله عليه و آله و سلم أصحابى كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم، واحفظونى فى أصحابى، ولا تسبّوا أصحابى. و ...

فهى أحاديث ضعيفة السند، غير قابلة للاعتماد عليها، ومع فرضصحّة سندها، فإنّها محمولة على الأصحاب الذين بقوا على الدين، والتزموا بشرائط الصحبة، لا أولئك الذين بدّلوا وغيّروا وأبدعوا ...، وحاشا لرسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم أن يأمر أمّته باتباع مَن أبدع وغيّر، وشكّ فى دينه، لمجرّد أنهصحابى.

والقرآن والحديث شاهدان

ص: ۸۵

على هذا المطلب، وهو ليس كلّصحابى وكلّ من لهصحبة مع الرسولصلى الله عليه و آله و سلم يجب الاقتداء به واحترامه:

قال تعالى: «إنّ الـذين يبايعونك إنّما يُبايعون اللّه يـدُ اللّه فوق أيـديهم فمَن نكث فإنّما ينكث على نفسه ومَن أوفى بما عاهد عليهُ اللّه فسيؤتيه أجراً عظيماً» (۱).

وقال تعالى: «.. ومن أهل المدينة مَردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرّتين ثم يُردون إلى عذاب عظيم» (۲).

وقـال تعـالى: «إذا جـاءك المنافقون قالوا نشـهدُ إنك لرسول اللّه واللّهُ يعلم إنك لرسولهُ واللّه يشـهد إنّ المنافقين لكاذبون* اتخـذوا أيمانهم جُنّة فصدوا عن سبيل اللّه إنهم ساء ما كانوا يعملون* ذلك بأنهم آمنوا ثمّ كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون» (۳).

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة، الدالة على أنّ فى الأصحاب منافقين وغير مؤمنين باللّه ولا برسوله.

وأما الأحاديث فكثيرة جدّاً، منها:

قولهصلى الله عليه و آله و سلم فى خطبة حجّة الوداع: فلا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض (۴).

وقولهصـلى الله عليه و آله و سـلم: أنـا فرطكم على الحوض، ليرفعن إلىّ رجال منكم، حتّى إذا أهويتُ لأناولهم اختلجوا دونى، فأقول: أى ربى أصحابى! يقول: لا تدرى ما أحدثوا بعدك (۵).

وقولهصـلى الله عليه و آله و سـلم: إنّى أيّهـا النـاس فرطكم على الحوض، فإذا جئت قام رجال، فقال هـذا: يا رسول اللّه أنا فلان، وقال هذا: يا رسول اللّه أنا فلان، وقال هذا: يا رسول اللّه أنا فلان، فأقول: قد عرفتكم، ولكنّكم أحدثتم بعدى ورجعتم القهقرى (۶).

وقولهصلى الله عليه و آله و سلم لشهداء أحد:

هؤلاء أشهد عليهم، فقال أبو بكر:

ألسـنا يا رسول اللّه إخوانهم، أسـلمنا كما أسـلموا وجاهـدنا كما جاهـدوا؟! فقال رسول اللّهصـلى الله عليه و آله و سـلم: بلى، ولكن لا أدرى ما تحدثون بعدى!!! (۷)

فالشـيعة تقتـدى بالصـحابة الصـلحاء المتّقين، الـذين آمنوا بـاللّه ورسوله وماتوا وهم على يقين مما هم عليه، كعثمان بن مظعون الـذى عقدنا لأجله هذه الرسالة الوجيزة، حتّى نتعرّف على جوانب من حياته، ونجعلها قدوة نقتدى بها.

فإنّ الشيعة مطبقة على عدالته ووثاقته، وجعله فى أعلى مرتبة الصالحين والمتقين، ومن الذين أبلوا

۱- ۱ الفتح ۴۸: ۱۰.

۲- ۲ التوبة ۹: ۱۰۱.

۳- ۳ المنافقون ۶۳: ۱- ۳.

۴- ۴صحيح البخارى، ۹: ۹۱، كتاب الفتن، وذكر أحاديث كثيرة بهذا المعنى.

۵- ۵صحيح البخارى، ۹: ۸۷، كتاب الفتن، وذكر أحاديث كثيرة بهذا المعنى.

۶- ۶ المستدرك، ۴: ۷۴- ۷۵، وقال بعد ذكره للحديث: هذا حديثصحيح الإسناد ولم يخرجاه.

۷- ۷ الموطّأ، ۲: ۴۶۲، كتاب الجهاد، الحديث ۳۲.

ص: ۸۶

بلاءً حسنـاً فيصدر الإسـلام، وجاهدوا بكلّ ما لديهم من قوّة لأجل إعلاء كلمة الإسـلام، حتى قال الشيخ المامقانى: فالرجل فوق مرتبة الوثاقة والعدالة (۱).

وحاولت فى هذه الرسالة أن أعتمد على مصادر الفريقين، ليخرج البحث متكاملًا.

اسمه ونسبه وصفته:

عثمـان بـن مظعـون- بالظـاء المعجمـة- بـن حـبيب بن وهب بن حذافـة بن جمـح بن عمرو بن هصـيص بن كعب بن لـؤى بن غـالب، الجُمحى القرشى، ويكنّى أبا السائب (۲).

وكان شديد الأدمة، ليس بالقصير ولا بالطويل، كبير اللحية، عريضها (۳).

وقيل: كان عثمان بن مظعون أخا النبيصلى الله عليه و آله و سلم من الرضاعة (۴).

ولادته:

ولـد فى عصـر ملؤه الجهل وانحطاط القيم الإنسانيّـة، فى عصـرٍ كان يسوده الظلم والجور، وعدم مراعاة حقوق الإنسان، لكنه- رضوان اللَّه عليه- لم ينخرط فى سلك أهل عصره، بل جعل عقله قائده وراشده، وسلك فى حياته مسلك العقلاء والحكماء، حتّى قيل: إنه كان من حكماء العرب فى الجاهلية (۵).

تحريمه الخمر فى الجاهليّة:

وممّا يدلّ على حكمته قبل الإسلام، وسموّ عقله، ما اتفق عليه أصحاب السير والتاريخ من أنه حرّم الخمر على نفسه فى الجاهلية وقال: لا أشرب شراباً يذهب عقلى، ويضحك بى مَن هو أدنى منّى، ويحملنى على أن أنكح كريمتى، أو: ويحملنى على أن أُنكح كريمتى مَن لا أريد.

وقيل: إنه لمّا حرّمت الخمر، أتى وهو بالعوالى، فقيل له: يا عثمان قد حرّمت الخمر، فقال: تبّاً لها، قد كان بصرى فيها ثاقباً (۶).

وتنظّر البعض فى ذيـل الكلاـم، وهو: وقيـل إنه لمّـا حرّمت الخمر أتى وهو بـالعوالى ...، وذكروا وجه النظر بأنّ آيـة التحريم نزلت بعد وفاة عثمان.

وأقول: عنـد أكثر أهل السـنة أن الآيـة الثالثـة فى تحريم الخمر تدلّ على التحريم، والآية الأولى والثانية لا يسـتفاد منهما التحريم، وعند الشيعة أن الآيـة الأولى تدل على التحريم، والثانية والثالثة مؤكدتان للحكم، فلعلّ القول بأنه لما حرّمت الخمر قيل لعثمان: يا عثمان قد حرّمت الخمر فقال: ...، ناظر إلى الآية الأولى، واللَّه العالم.

۱- ۱ تنقيح المقال، ۲: ۲۴۹.

۲- ۲ أسد الغابة، ۳: ۵۹۸- الإصابة، ۲: ۴۶۴- الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۳- العقد الثمين، ۶: ۴۹- تهذيب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- معجم الشعراء: ۲۵۴- المعرفة والتاريخ، ۱: ۲۷۲- التاريخ الكبير، ۶: ۲۱۰- سير أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۳- المنتظم، ۳: ۱۹۰.

۳- ۳ سير أعلام النبلاء، ۱: ۱۶۰- الطبقات، ۳: ۴۰۰.

۴- ۴ تنقيح المقال، ۲: ۲۴۹، نقلًا عن المولى الوحيد.

۵- ۵ الأعلام، ۴: ۲۱۴.

۶- ۶ أسد الغابة، ۳: ۵۹۹- العقد الثمين، ۶: ۴۹- تهذيب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- سير أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۵- الطبقات، ۳: ۳۹۳- ۳۹۴- غربال الزمان: ۱۳- شذرات الذهب، ۱: ۹- الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۴- المنتظم، ۳: ۱۹۰.

ص: ۸۷

ومع اتفاق کلّ المصادر علی أنّ عثمان بن مظعون حرّم علی نفسه الخمر فی الجاهلیهٔ، فقد أخرج ابن المنذر، عن سعید ابن جبیر قال: لمّا نزلت:

«یسألونک عن الخمر والمیسر قل فیهما إثم کبیر ومنافع للناس ...» شربها قوم لقوله: «منافع للناس»، وترکها قوم لقوله: «إثم کبیر»، منهم: عثمان بن مظعون ... وهذا افتراءصریح علی هذا الصحابی الجلیل، فإنه متی شربها حتّی ترکها (۱)؟.

وهذا- أیضاً- یدلّ علی أنّ أول آیهٔ فی الخمر- وهی:

«یسألونک عن الخمر والمیسر ...»- نزلت فی حیاهٔ عثمان، وهی دالّهٔ علی التحریم فی نظر الشیعهٔ.

التسمیهٔ بعثمان:

ولسموّ مرتبهٔ عثمان بن مظعون وقربه من اللَّه- تعالی- ونبیّهصلی الله علیه و آله و سلم، ومکانته العالیهٔ فی قلوب المؤمنین، سمّی الکثیر من الأولیاء والصلحاء أولادهم ب (عثمان)؛ لشدّهٔ تعلّقهم بعثمان بن مظعون ومحبتهم له وإحیاءً لذکراه.

ذکر الثقفی فی تاریخه، عن هبیرهٔ بن مریم، قال: کنّا جلوساً عند علی علیه السلام، فدعا ابنه عثمان، فقال له:

یا عثمان، ثمّ قال: إنی لم اسمّه باسم عثمان ...، إنّما سمّیته باسم عثمان بن مظعون (۲).

وفی زیارهٔ الناحیهٔ المقدسهٔ:

السلام علی عثمان ابن أمیر المؤمنین سمیّ عثمان بن مظعون (۳).

وروی- أیضاً- عن علیّ علیه السلام أنّه قال: إنّما سمّیته باسم أخی عثمان بن مظعون (۴).

اسرته:

أمّه: سُخیلهٔ بنت العنبس بن وهبان- أهبان- بن وهب بن حذافهٔ بن جمح.

وإخوته: عبد اللَّه بن مظعون، توفی سنهٔ ۳۰ ه، وقدامهٔ بن مظعون، مات سنهٔ ۳۶ ه.

وأولاده: السائب، وعبد الرحمن، أمّهما خولهٔ بنت حکیم.

وزوجته: خولهٔ بنت حکیم بن أمیهٔ بن حارثهٔ الأوقص السُّلمیّهٔ، ویقال لها: خُوَیلَهٔ.

وهی الّتی قالت لرسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم بعد وفاهٔ خدیجهٔ: یا رسول اللَّه، ألا تتزوّج؟ قال: مَن؟ قالت:

إن شئت بکراً، وإن شئت ثیباً، قال:

فمن البکر؟ قالت: بنت أبی بکر، قال:

ومَن الثیب؟ قالت: سودهٔ بنت زمعهٔ،

۱- ۱ راجع: الغدیر، ۶: ۲۵۳.

۲- ۲ تقریب المعارف: ۵۲، نقلًا عن تاریخ الثقفی.

۳- ۳ البحار، ۱۰۱: ۲۷۰، نقلًا عن الاقبال ومزار المفید والسیّد.

۴- ۴ مقاتل الطالبیین: ۵۸- وعنه فی البحار، ۴۵: ۳۸.

ص: ۸۸

قد آمنت بک واتبعتک علی ما تقول ...

قال: فاذهبی فاذکریهما علیّ، فذهبت إلی أبویهما وخطبتهما، فقبلا وتزوّجهما (۱).

وروت خولهٔ عدّهٔ أحادیث عن رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم (۲)». وذکر أنها إحدی خالات النبیصلی الله علیه و آله و سلم (۳).

إسلامه:

وأسلم عثمان بن مظعون بعد ثلاثهٔ عشر رجلًا، انطلق هو وجماعهٔ حتّی أتوا رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم، فعرض علیهم الإسلام وأنبأهم بشرائعه، فأسلموا جمیعاً، وذلک قبل دخول رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم دار الأرقم وقبل أن یدعو فیها (۴).

وروی أنّ عثمان بن مظعون قال:

نزلت آیهٔ: «إنّ اللَّه یأمر بالعدل والإحسان ...» علی النبیّصلی الله علیه و آله و سلم وأنا عنده، وذکر أنّه شاهد رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم علی غیر حالته الطبیعیهٔ، فلمّا سأله: یا رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم ما رأیتک فعلت الّذی فعلت الیوم، ما حالک؟

قال رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم: ولقد رأیتَه؟

فأجابه عثمان: نعم، قال رسول اللَّه:

ذاک جبرئیل لم یکن لی همّهٔ غیره، ثم تلا علیه رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم ما أنزل علیه.

قال عثمان: فقمت من عند رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم معجباً بالّذی رأیت، فأتیت أبا طالب وقرأتُ ما أوحی إلی النبیّ، فعجب أبو طالب، وقال: یا آل غالب اتبعوه ترشدوا وتفلحوا، فو اللَّه ما یدعو إلّاإلی مکارم الأخلاق ...

وروی أیضاً: أن عثمان قال:

کان أول إسلامی حبّاً من رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم، ثمّ تحقق ذلک الیوم لمّا شاهدت الوحی إلیه، واستقرّ الإیمان فی قلبی (۵).

الآیات النازلهٔ فی عثمان:

۱- «واستعینوا بالصبر والصلاهٔ وإنها لکبیرهٔ إلّاعلی الخاشعین الذین یظنون أنهم ملاقوا ربّهم وأنّهم إلیه راجعون» (۶).

قوله تعالی: «الذین یظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إلیه راجعون» نزلت فی علی علیه السلام وعثمان بن مظعون وعمار بن یاسر وأصحاب لهم رضی اللَّه عنهم (۷).

۲- «یا أیّها الذین آمنوا لا تحرّموا طیّبات ما أحل اللَّه لکم ...» (۸).

نزلت فی عدّهٔ من الصحابهٔ، منهم: عثمان بن مظعون وعمّار بن یاسر وسلمان، حرّموا علی أنفسهم الشهوات وهمّوا بالإخصاء (۹).

وروی: أنّ علیاً علیه السلام وعثمان بن مظعون ونفراً من أصحاب رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم تعاقدوا أن یصوموا النهار،

۱- ۱ الطبقات، ۳: ۳۹۳ و ۴۰۰- ۴۰۲- الاستیعاب، ۳: ۱۰۵۳- اسد الغابهٔ، ۳: ۵۹۸- المنتقی فی مولود المصطفی للکازرونی: ۶۵- وعنه فی البحار، ۱۹: ۲۳- مسند أحمد، ۶: ۲۱۰- ۲۱۱.

۲- ۲ مسند احمد، ۶: ۴۰۹- ۴۱۰.

۳- ۳ مسند أحمد، ۶: ۴۰۹.

۴- ۴ أسد الغابة، ۳: ۵۹۸- الإصابة، ۲: ۴۶۴- الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۳- سير أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۵- الطبقات، ۳: ۳۹۳- تهذيب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- العقد الثمين، ۶: ۴۹.

۵- ۵ مسند أحمد، ۱: ۳۱۸- سعد السعود: ۱۲۲- ۱۳۳- وعنه فى البحار، ۱۸: ۲۶۸- ۲۷۰- ونقله فى البحار أيضاً، ۲۲: ۱۱۲ عن قصص الأنبياء- المنتظم، ۳: ۱۹۰.

۶- ۶ البقرة، ۲: ۴۵- ۴۶.

۷- ۷ تفسير الحبرى: ۲۳۹- شواهد التنزيل: ۱۱۵- المناقب لابن شهر آشوب، ۲: ۹، وقال فيه: رواه الفلكى فى إبانة ما فى التنزيل عن الكلبى عن أبيصالح عن ابن عباس.

۸- ۸ المائدة، ۵: ۸۷.

۹- ۹ شواهد التنزيل: ۲۳۹ و ۲۵۹- تفسير فرات الكوفى: ۱۳۱- ۱۳۲- تفسير الحبرى: ۲۶۴.

ص: ۸۹

ويقوموا الليل، ولا يأتوا النساء، ولا يأكلوا اللحم، فبلغ ذلك رسول اللّه، فأنزل اللّه تعالى: ... (۱)

وروى عن أبى عبد اللّه عليه السلام:

نزلت فى على عليه السلام وبلال وعثمان بن مظعون، فأمّا على عليه السلام فإنّه حلف أن لا ينام بالليل أبداً إلّاما شاء اللّه، وأمّا بلال فإنه حلف أن لا يفطر بالنهار أبداً، وأمّا عثمان بن مظعون فانه حلف أن لا ينكح أبداً ...

ولمّا أخبر النبيصلى الله عليه و آله و سلم نادى الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فصعد المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه ثمّ قال: ما بال أقوام يحرّمون على أنفسهم الطيبات، ألا أنّى أنام بالليل وأنكح وأفطر بالنهار، فمن رغب عن سنّتى فليس منّى، فقام هؤلاء فقالوا:

يا رسول اللّه فقد حلفنا على ذلك، فأنزل اللّه: «لا يؤاخذكم اللّه باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم» (۲). ورويت أحاديث كثيرة بهذا المعنى (۳)، نكتفى منها بهذا المقدار.

۳- «ليس على الّذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح فيما طَعِموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثمّ اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا واللّه يحبّ المحسنين» (۴).

نزلت فى عدّةٍ منهم عثمان بن مظعون، وكان عثمان قد همّ بطلاق زوجته وأن يختصى ويحرم اللحم والطيب، فردّ عليه النبى وانزل فى ذلك: ... (۵).

۴- «وضرَب اللّه مثلًا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كلّ على مولاه أينما يوجّهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومَن يأمر بالعدل وهو عليصراط مستقيم» (۶).

قال الشيخ الطبرسى: ... وقيل إنّ الأبكم أبى بن خلف، ومن يأمر بالعدل حمزة وعثمان بن مظعون، عن عطاء (۷).

وصف أمير المؤمنين لعثمان:

قال أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السلام: كان لى فيما مضى أخ فى اللّه، وكان يُعظمه فى عينيصِغرُ الدنيا فى عينه، وكان خارجاً من سلطان بطنه، فلاـ يشتهى ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان أكثر دهرهصامتاً، فإن قال بدّ القائلين ونقع غليل السائلين، وكان ضعيفاً مستضعفاً،

۱- ۱ شواهد التنزيل: ۲۶۰- كشف الغمة، ۱: ۳۱۹.

۲- ۲ المائدة، ۵: ۸۹- وانظر المناقب لابن شهر آشوب، ۲: ۱۰۰- ۱۰۱- تفسير على بن ابراهيم القمى: ۱۶۶- وعنه فى البحار، ۷۰: ۱۱۶- ۱۱۷- تفسيرمجمع البيان، ۳: ۲۳۶- وعنه فى البحار، ۶۵: ۱۱۳- وراجع البحار أيضاً، ۶۵: ۱۱۲ و ۱۱۳ و ۱۱۴.

۳- ۳ راجع: تفسير البرهان، ۱: ۴۹۴- والدرّ المنثور، ۲: ۳۰۱ و ۳۰۷ و ۳۰۸ و ۳۰۹ و ۳۱۰- وتفسير الطبرى، ۷: ۷ و ۸ و ۹- ومسند أحمد، ۶: ۱۰۶ و ۲۲۶.

۴- ۴ المائدة، ۵: ۹۳.

۵- ۵ الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۴- العقد الثمين، ۶: ۴۹.

۶- ۶ النحل، ۱۶: ۷۶.

۷- ۷ مجمع البيان، ۶: ۵۷۸، وعنه فى البحار.

ص: ۹۰

فإن جاءَ الجِدّ فهو لیثُ غابٍ وصِلُّ واد، لا یدلی بحجّة حتّی یأتی قاضیاً، وکان لا یلومُ أحداً علی ما یجد العذر فی مثله حتّی یسمع اعتذارَه، وکان لا ـ یشکو وجعاً إلّاعند برئه، وکان یفعل ما یقول ولا ـ یقول ما لا ـ یفعل، وکان اذا غلب علی الکلام لم یغلب علی السکوت، وکان علی ما یسمع أحرص منه علی أن یتکلّم، وکان إذا بدهه أمران نظر أیّهما أقرب إلی الهوی فخالفه. فعلیکم بهذه الأخلاق فالزموها وتنافسُوا فیها، فإن لم تستطیعوها فاعلموا أنّ أخذ القلیل خیرٌ من ترک الکثیر (۱).

والمشار إلیه ب (کان لی فیما مضی أخ فی اللّه) عثمان بن مظعون علی أحد الأقوال، وقیل: أبوذر، وقیل: غیرهما (۲).

ویدلّ علی أن المراد بالأخ هنا عثمان بن مظعون ما ورد من وصف أمیر المؤمنین لعثمان بالأخ، کقوله علیه السلام فی وجه تسمیة ولده بعثمان: إنّما سمّیته باسم أخی عثمان بن مظعون (۳).

وکان عثمان بن مظعون من الملازمین لأمیر المؤمنین علیه السلام، حتّی نشاهد أنّ اکثر الآیات النازلة فی حقّ عثمان هی فی حقّ علیّ علیه السلام وسائر أصحابه.

ولو کان من المقدّر أن یبقی عثمان بعد وفاة رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم لکنت تراه یقف موقف سلمان وأبی ذر وعمار والمقداد فی قِبال الأحداث، و لشاهدته من حواری أمیرالمؤمنین علیه السلام.

تعذیب قریش لعثمان وهجرته وزهده:

وبعد أن أسلم عثمان (قدّس اللّه روحه) وأعلن إسلامه، واجهته قریش بالأذی والسطوة، کما هو دیدنها مع رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم وأصحابه. وکانت بنو جُمح تؤذی عثمان وتضربه وهو فیهم ذو سطوة وقَدْر (۴).

ولمّا اشتدّ أذی المشرکین علی الذین أسلموا، وفتن منهم من فتن، أذن اللّه سبحانه لهم بالهجرة الأولی إلی أرض الحبشة، التی کانت متجراً لقریش یجدون فیها رفقاً من الرزق وأماناً. فخرجوا متسلّلین سرّاً، وأمیرهم عثمان بن مظعون، فیسّر اللّه لهم ساعة وصولهم إلی الساحل سفینتین للتجار، فحملوهم فیها إلی أرض الحبشة، وخرجت قریش فی أثرهم، ولمّا وصلوا البحر لم یدرکوا منهم أحداً.

ومکث عثمان بن مظعون وأصحابه فی الحبشة، حتّی بلغهم أنّ قریشاً قد أسلمت، فأقبلوا نحو مکة، وما إن اقتربوا منها حتّی عرفوا أنّ قریشاً لم تسلم، وأنها ما زالت علی عدائها لرسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم فثقل علیهم

۱- ۱ نهج البلاغة، شرح محمد عبدة، ۴: ۶۹- ۷۰.

۲- ۲ شرح نهج البلاغة لکمال الدین میثم بن علی بن میثم البحرانی، ۵: ۳۹۰.

۳- ۳ مقاتل الطالبیین: ۵۸- وعنه فی البحار، ۴۵: ۳۸.

۴- ۴ شرح نهج البلاغة، ۱۳: ۲۶۸.

ص: ۹۱

أن يرجعوا، وتخوّفوا أن يـدخلوا مكـة بغير جوار من بعض أهل مكـة، فمثكوا مكانهم حتّى دخل كلّ رجل منهم بجوارٍ من بعض أهل مكة، ودخل عثمان بن مظعون مكة بجوار الوليد بن المغيرة.

ولمّا رأى عثمان ما يلقى رسول اللَّهصـلى الله عليه و آله و سـلم وأصـحابه من الأذى والبلاء، وهو يغدو ويروح بأمان الوليد بن المغيرة، قال: واللَّه، إنّ غدوّى ورواحى آمناً بجوار رجلٍ من أهل الشرك، وأصحابى وأهل دينى يلقون من الأذى والبلاء فى اللَّه ما لا يصيبنى، لنقصٌ كبير فى نفسى.

فمضـى إلى الوليـد بن المغيرة، فقال له: يا أبا عبـد شـمس، وفَت ذمّتك، وقد كنتُ فى جوارك، وقد أحببت أن أخرج منه الى رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم، فلى به وأصحابه أسوة.

فقال الوليد: فلعلك يا بن أخى أوذيتَ أو انتهكتَ؟

قال عثمان: لا، ولكن أرضى بجوار اللَّه ولا أريد أن استجير بغيره.

قال: فانطلق إلى المسجد فاردد علىّ جوارى علانية كما أجرتُك علانية.

فانطلقا، حتّى أتيا المسجد.

فقال لهم الوليد: هذا عثمان قد جاء يرد علىّ جوارى، فقال عثمان:

قدصدق، قد وجدته وفياً كريم الجوار، ولكنى أحببت أن لا أستجير بغير اللَّه، فقد رددت عليه جواره (۱).

ومرّ عثمان بن مظعون بمجلسٍ من قريش، ولبيد بن ربيعة بن مالك بن كلاب القيسى ينشدهم: «ألا كلّ شىءٍ ما خلا اللَّه باطل».

فقال عثمان:صدقت.

فقال لبيد: «وكلُّ نعيم لا محالة زائلُ».

فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول أبداً.

فقال لبيد: يا معشر قريش، واللَّه ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟

فقال رجل: إنّ هذا سفيه من سفهائنا قد فارق ديننا، فلا تجدن فى نفسك من قوله.

فردّ عليه عثمان، فقام إليه ذلك الرجل، فلطم عينه فخضرها.

فقال الوليد بن المغيرة لعثمان:

إن كانت عينك لغنية عمّا أصابها، لِمَ رددت جوارى؟

فقال عثمان: بل واللَّه إن عينى الصحيحة لفقيرة لمثل ما أصاب أختها فى اللَّه، لا حاجة لى فى جوارك.

۱- ۱ معجم الشعراء: ۲۵۴- سير أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۵- الطبقات، ۳: ۳۹۳- حلية الأولياء، ۱: ۱۰۳- ۱۰۵- الإصابة، ۲: ۴۶۴- أسد الغابة، ۳: ۵۹۸- زاد المعاد، ۳: ۲۳- ۲۶- تفسير مجمع البيان، ۳: ۲۳۳- ۲۳۴ وعنه فى البحار.

ص: ۹۲

وفی بعض المصادر:

فقال الولید: هل لک فی جواری؟

فقال عثمان: لا أرَبَ لی فی جوار أحدٍ الّا فی جوار اللَّه (۱).

ثم قال عثمان بن مظعون فیما أصیب من عینه:

فان تک عینی فی رضا الربّ نالها یدا ملحدٍ فی الدین لیس بمهتد

فقد عوض الرحمن منها ثوابه ومن یرضه الرحمن یا قوم یسعد

فإنّی وإن قلتم غویّ مضلّل سفیه علی دین الرسول محمد

أرید بذاک اللَّه والحقّ دیننا علی رغم مَن یبغی علینا ویعتدی (۲) وقال أبو طالب رضی الله عنه- وقد غضب لعثمان بن مظعون حین عذّبته قریش ونالت منه-:

أمَّن تذکّر دهرَ غیر مأمون أصبحت مکتئباً تبکی کمحزون

أمَّن تذکّر أقوامَ ذوی سفهٍ یغشون بالظلم مَن یدعو إلی الدین

ألا ترون- أذلّ اللَّه جمعکم- أنّا غضبنا لعثمان بن مظعونِ ونمنع الضیمَ مَن یبغی مضامتنا بکلّ مطردٍ فی الکفّ مسنونِ

ومرهقات کأنّ الملح خالطها یشفی بها الدّاء من هام المجانین

حتّی تقرّ رجال لا حلوم لها بعد الصعوبة بالإسماح واللین

أو تؤمنوا بکتاب منزل، عجب علی نبیّ کموسی أو کذی النونِ (۳) وذکر مثل هذه الأبیات أبو نعیم الاصفهانی، منسوبة إلی أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السلام، قالها فیما أصاب من عین عثمان بن مظعون:

أمن تذکر دهر غیر مأمون أصبحت مکتئباً تبکی کمحزون

أمن تذکر أقوام ذوی سفهٍ یغشون بالظلم مَن یدعو إلی الدین

لا ینتهون عن الفحشاء ما سلموا والغدر فیهم سبیل غیر مأمون

ألا ترون- أقلّ اللَّه خیرهم- أنّا غضبنا لعثمان بن مظعونِ

إذ یلطمون ولا یخشون مقلته طعناً دراکاً وضرباً غیر مأفونِ

فسوف یجزیهم إن لم یمت عجلًا کیلًا بکیل جزاءً غیر مغبونِ (۴) واشتدّ البلاء من قریش علی من قدم من مهاجری الحبشة وغیرهم، وسطت بهم عشائرهم، ولقوا منها تعنیفاً شدیداً، وصعب علیها ما بلغها عن النجاشی من حسن جواره لهم، فأذن لهم رسول اللَّه بالخروج مرّةً ثانیة إلی أرض الحبشة.

وهل خرج معهم عثمان بن مظعون؟

صرّح بهجرته- مرّة ثانیة- إلی

۱- ۱ راجع: خزانة الأدب، ۲: ۲۵۵- ۲۵۶- الإصابة، ۲: ۴۶۴- غربال الزمان: ۱۳- شذرات الذهب، ۱: ۱۰- حلیة الأولیاء، ۱: ۱۰۳- ۱۰۴- أسد الغابة، ۳: ۵۹۸.

۲- ۲ حلیة الأولیاء، ۱: ۱۰۴.

۳- ۳ شرح نهج البلاغة، ۱۴: ۷۳.

۴- ۴ حلية الأولياء، ۱: ۱۰۴. وذكرت الأبيات مع زيادة فى الديوان المنسوب لأمير المؤمنين عليه السلامصفحة ۲۵۶ من المخطوطة.

ص: ۹۳

أرض الحبشة ابن سعد بالاعتماد علی روایة محمد بن إسحاق، ومحمد بن عمر، والنووی (۱).

وفیه نظر، لأن الـذین هاجروا الهجرة الأولی رجعوا إلی مکة قبل الهجرة النبویة، والذین هاجروا الهجرة الثانیة رجعوا عام خیبر، أی بعد وفاة عثمان بن مظعون الّذی اشترک فی حرب بدر، وهی قبل خیبر. ولعل منشأ الاشـتباه تصـریح البعض بمهاجرة عثمان الهجرتین (۲)، فحملوه علی الأولی والثانیة للحبشة، والظاهر أن الأولی إلی الحبشة، والثانیة إلی المدینة.

وصـرّح ابن الأـثیر الجزری: أنّ عثمـان بن مظعون هـاجر إلی الحبشـة هو وابنه السائب الهجرةَ الأولی مع جماعـة من المسـلمین، وذکر کیفیة رجوعه وما جری له مع لبید وقال: ثمّ هاجر عثمان إلی المدینة وشهد بدراً (۳).

وقال البعض: قد ذکر فی هذه الهجرة الثانیة جماعة ممّن شـهد بدراً، فإمّا أن یکون هذا وهماً، وإمّا أن یکون لهم قدمة أخری قبل بدر، فتکون لهم ثلاث قدمات: قدمة قبل الهجرة، وقدمة قبل بدر، وقدمة عام خیبر، ولذلک قال ابن سعد وغیره:

إنهم لمّا سـمعوا هجرة رسول اللَّهصـلی الله علیه و آله و سـلم إلی المدینة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلًا ومن النساء ثمان نسوة، فمات منهم رجلان بمکة، وحبس بمکة سبعة، وشهد بدراً منهم أربعة وعشرون رجلًا (۴).

وعلی أیّ حال، فهجرة عثمان بن مظعون من مکـة إلی المدینـة أمرٌ مقطوع به، فقـد هاجر هو وأخواه قدامة وعبد اللَّه وابنه السائب إلی المدینة، ونزلوا علی عبد اللَّه بن سلمة العجلانی، وقیل: علی خذام بن ودیعة (۵).

قال الواقدی: آل مظعون ممن أوعب فی الخروج إلی الهجرة رجالهم ونساؤهم، وغلقت بیوتهم بمکة (۶).

وروی عن أمّ العلاء، قالت:

نزل رسول اللَّهصـلی الله علیه و آله و سـلم والمهـاجرون معه المدینـة فی الهجرة، فتشاحت الأنصار فیهم أن ینزلوهم فی منازلهم، حتّی اقترعوا علیهم، فطار لنا عثمان بن مظعون علی القرعة، تعنی: وقع فی سهمنا (۷).

وأما زهـده وقناعته بالشـیء القلیل وترکه الدنیا فیدل علیه: ما روی من أنّه دخل یوماً المسـجد، وعلیه نمرة قد تخلّلت فرقّعها بقطعة من فروة، فرقّ له رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم، ورقّ أصحابه لرقته، فقال: کیف أنتم

۱- ۱ الطبقات، ۳: ۳۹۳- تهذیب الأسماء واللغات، ۱: ۳۳۶.

۲- ۲ سیر أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۵.

۳- ۳ أسد الغابة، ۳: ۵۹۸.

۴- ۴ زاد المعاد، ۳: ۲۵- ۲۶.

۵- ۵ سیر أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۸- تهذیب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- الطبقات، ۳: ۳۹۵- ۳۹۶.

۶- ۶ سیر أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۸- الطبقات، ۳: ۳۹۵- ۳۹۶.

۷- ۷ الطبقات، ۳: ۳۹۶-صحیح البخاری، ۲: ۷۱.

ص: ۹۴

یغدو أحدکم فی حلّة ویروح فی أخری، وتوضع بین یدیه قصعة وترفع أخری، وسترتم البیوت کما تستر الکعبة؟ قالوا: وددنا أنّ ذلک قد کان یا رسول اللّه فأصبنا الرخاء والعیش، قال: فإنّ ذلک لکائن، وأنتم الیوم خیر من اولئک (۱).

مؤاخاته واشتراکه فی بدر:

آخی رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم بین عثمان بن مظعون وبین أبی الهیثم بن التّیهان الأنصاری (۲).

وشهد عثمان بن مظعون بدراً باتفاق المؤرخین (۳). وأُسّر حنظلة بن قبیصة بن حذافة علی ید عثمان بن مظعون (۴). وقُتل أوس بن المغیرة بن لوذان علی ید علیّ علیه السلام وعثمان بن مظعون (۵).

عثمان والروایة:

کان عثمان بن مظعون من الأوائل الّذین أسلموا، ومن الأوائل الّذین لبّوا نداء ربّهم، وتوفی فی حیاة رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم فی بادئ الإسلام، ونال درجة عالیة بعد وفاته بصلاة رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم علیه، ولم یروِ عن رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم إلّاقلیلًا، وذلک لعدم درکه من زمان الإسلام إلّا أوائله.

فیروی عثمان بن مظعون عن رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم (۶)، وروایاته عن رسول اللّه قلیلة جدّاً.

ویروی عن عثمان بن مظعون:

عبد اللّه بن جابر (۷)، وسعد بن مسعود الکنانی (الکندی) (۸).

عبادته واجتهاده واعتزاله النساء وحیاؤه:

کان عثمان- رضوان اللّه علیه- من أشدّ الناس اجتهاداً فی العبادة، یصوم النهار ویقوم اللیل. ووصل به الحدّ فی العبادة أنه ترک وتجنّب الشهوات بالمرة، واعتزل النساء (۹). حتّی روی: أنّ زوجته دخلت علی نساء النبیصلی الله علیه و آله و سلم فرأینها سیئة الهیئة، فقلن لها: ما لکِ؟ فما فی قریش أغنی من بعلک! قالت: ما لنا منه شیء، أمّا لیله فقائم، وأمّا نهاره فصائم. فدخل النبیُّصلی الله علیه و آله و سلم، فذکرن ذلک له، فلقیه النبیّصلی الله علیه و آله و سلم، فقال: أما لک بی أسوة؟

قال: بأبی وأمّی وما ذاک؟ قال:

تصوم النهار وتقوم اللیل؟ قال: إنّی لأفعل، قال: لا تفعل، إنّ لعینیک علیک حقّاً، وإنّ لجسدک حقّاً، وإنّ لأهلک حقّاً، فصلِّ ونمْ وصم وافطر.

وفی روایة أخری: یا عثمان لم یرسلنی اللّه بالرهبانیة، ولکن بعثنی بالحنیفیة السهلة السمحة، أصوم وأصلی وألمس أهلی، فمن أحبّ

۱- ۱ حلیة الأولیاء، ۱: ۱۰۵.

۲- ۲ الطبقات، ۳: ۳۹۶- تهذیب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶.

۳- ۳ أسد الغابة، ۳: ۵۹۸- تهذیب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- الطبقات، ۳: ۳۹۶- التاریخ الصغیر، ۱: ۴۶- المنتظم، ۳: ۱۹۰- ومصادر أخری کثیرة جدّاً.

۴- ۴ شرح نهج البلاغة، ۱۴: ۲۰۴.

۵- ۵ شرح نهج البلاغة، ۱۴: ۲۱۲.

۶- ۶ ربیع الأبرار، ۲: ۲۶۵- تهذیب الأحکام، ۴: ۱۹۰، الحدیث ۵۴۱.

۷- ۷ تهذيب الأحكام، ۴: ۱۹۰، الحديث ۵۴۱.

۸- ۸ تهذيب الأحكام، ۶: ۱۲۲، الحديث ۲۱۰.

۹- ۹ الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۴- تهذيب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- أسد الغابة، ۳: ۵۹۹- العقد الثمين، ۶: ۴۹- المنتظم، ۳: ۱۹۰.

ص: ۹۵

فطرتی فلیستن بسنّتی، ومن سنّتی النکاح.

وفی روایهٔ أخری قال النبیّصلی الله علیه و آله و سلم: إنّی آتی النساء وأفطر بالنهار وأنام اللیل، فمن رغب عن سنّتی فلیس منی، وأنزل اللَّه- تعالی-: «یا أیّها الـذین آمنوا لا تحرّموا طیّبات ما أحلّ اللَّه لکم ولا تعتـدوا إنّ اللَّه لا یحبّ المعتدین وکلوا مما رزقکم اللَّه حلالًا طیّباً واتقوا اللَّه الذی أنتم به مؤمنون» (۱).

فأتتهن زوجهٔ عثمان بعد ذلک عطرهً کأنّها عروس، فقلن لها: مه؟

قالت: أصابنا ما أصاب الناس (۲).

وروی: أنّ عثمان قال: یا رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم! لا أحبّ أن تری امرأتی عورتی، قال: ولِمَ؟ قال: استحیی من ذلک، قال: إنّ اللَّه قد جعلها لک لباساً، وجعلک لباساً لها ...، فلمّا أدبر قال رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم: إنّ ابن مظعون لحییّ ستیر (۳).

الرهبانیهٔ والسیاحهٔ والتبتّل:

خلق اللَّه- سبحانه وتعالی- الإنسان لیکون نواهٔصالحهٔ، وکائناً عاملًا فی کلّ نواحی الحیاهٔ الإنسانیهٔ، ولیس من حکمهٔ خلق اللَّه للإنسان أن یترهّب ویعتزل المجتمع، ویعیش لوحده یعبد ربّه.

وفی بادئ الإسلام کانت فکرهٔ الرهبانیهٔ، وترک المجتمع والملذّات الدنیویهٔ، تدور فی خُلد بعض المتدیّنین، وذلک لشدّهٔ تدیّنهم وحرصهم علی العبادهٔ وترک الدنیا.

ومن الأوائل الـذین فکّروا بالرهبانیهٔ والسیاحهٔ عثمان بن مظعون- رضوان اللَّه علیه- فإنّه أول ما أقدم علیه من عمل هو: أنه کان یقوم اللیل ویصوم النهار، وترک زوجته بالمرّهٔ، وبعدها استأذن رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم فی الرهبانیهٔ والسیاحهٔ والتبتّل وطلاق زوجته والخصاء، فنهاه عن ذلک وردّه علیه (۴).

فعن ابن شهاب: أنّ عثمان بن مظعون أراد أن یختصی ویسیح فی الأرض، فقال له رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم: أَلیس لک فیّ أسوهٔ حسنهٔ؟ فأنا آتی النساء وآکل اللحم وأصوم وأفطر، إنّ خصاء أمّتی الصیام، ولیس من أمّتی من خصی أو اختصی (۵).

وروی أیضاً عن عثمان أنه قال:

قلت لرسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم: یا رسول اللَّه! أردت أن أسألک عن أشیاء، فقال:

وما هی یا عثمان؟ قال: قلت: إنّی أردتُ أن أترهب، قال: لا تفعل یا عثمان، فانّ ترهّب أمّتی القعود فی

۱- ۱ المائدهٔ: ۸۷- ۸۸.

۲- ۲ الطبقات، ۳: ۳۹۴- ۳۹۵- سیر أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۷- ۱۵۸- حلیهٔ الأولیاء، ۱: ۱۰۶- تهذیب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- مسند أحمد، ۶: ۱۰۶ و ۲۲۶- سنن الدارمی، ۲: ۱۷۹، الحدیث ۲۱۶۹- تفسیر علی بن إبراهیم القمی: ۱۶۶- وعنه فی البحار، ۷۰: ۱۱۶- ۱۱۷- الکافی للکلینی، ۲: ۵۶ و ۵۷- وعنه فی البحار، ۲۲: ۲۶۴- تنقیح المقال، ۲: ۲۴۹.

۳- ۳ الطبقات، ۳: ۳۹۴- سیر أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۷- تهذیب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- بحار الأنوار، ۹۳: ۷۳.

۴- ۴ أسد الغابهٔ، ۳: ۵۹۹- الاستیعاب، ۳: ۱۵۴- سیر أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۵- الاصابهٔ، ۲: ۴۶۴- الطبقات، ۳: ۳۹۴- مسند أحمد، ۱:

۱۷۵ و ۱۷۶ و ۱۸۳ -صحيح البخاری، ۶: ۱۱۸ و ۱۱۹- سنن ابن ماجۀ، ۱: ۵۹۳، الحديث ۱۸۴۸ -صحيح مسلم، ۹: ۱۷۶- ۱۷۷- سنن الترمذی، ۳: ۳۹۴، الحديث ۱۰۸۳- سنن النسائی، ۶: ۵۸- سنن الدارمی، ۲: ۱۷۸، الحديث ۲۱۶۷.

۵- ۵ الطبقات، ۳: ۳۹۴- سير اعلام النبلاء، ۱: ۱۵۷.

ص: ۹۶

المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة.

قال: فإنی أردت یا رسول اللّه! أن أختصی، قالصلی الله علیه و آله و سلم: لا تفعل یا عثمان، فإنّ اختصاء أمّتی الصیام (۱).

وروی أیضاً أنه قال لرسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم: إنّ نفسی تحدّثنی بالسیاحة وأن ألحق الجبال، قال: یا عثمان لا تفعل، فإنّ سیاحة أمّتی الغزو والجهاد (۲)

وروی: أنّه اتخذ بیتاً یتعبّد فیه، فأتاه النبیصلی الله علیه و آله و سلم، فأخذ بعضادتی البیت وقال: یا عثمان، إنّ اللّه لم یبعثنی بالرهبانیة- مرّتین أو ثلاثاً-، وإن خیر الدین عند اللّه الحنیفیة السمحة (۳).

وروی عنه- أیضاً- أنّه قال:

یا رسول اللّه! إنی رجل تشقّ علیّ العزبة فی المغازی، أفتأذن لی فی الخصاء؟ قال: لا، ولکن علیک بالصوم، فانه مَجْفَر (محصن) (۴).

وروی عنه- أیضاً-: أنه همّ بطلاق زوجته، وأن یختصی ویحرم اللحم والطیب، فردّ علیه النبیصلی الله علیه و آله و سلم، وانزل فی ذلک: «لیس علی الذین آمنوا وعملوا الصالحات جناح فیما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثمّ اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا واللّه یحبّ المحسنین» (۵).

وروی أیضاً: أنه توفی ابن لعثمان بن مظعون، فاشتدّ حزنه علیه، حتّی اتخذ داره مسجداً یتعبّد فیه، فبلغ ذلک رسول اللّه، فأتاه، فقال له: یا عثمان، إنّ اللّه تبارک وتعالی لم یکتب علینا الرهبانیّة، إنّما رهبانیة أمتی الجهاد فی سبیل اللّه، یا عثمان بن مظعون! للجنة ثمانیة أبواب، وللنار سبعة أبواب، فما یسرّک أن لا تأتی باباً منها إلّاوجدت ابنک إلی جنبک آخذاً بحجزتک یشفع لک الی ربک، قال: بلی ... (۶) شعره:

ولم یکن عثمان من الشعراء المعروفین، لکنه کان قادراً علی نظم الشعر، والذی وصل إلینا شیء منه.

وقد مرّت منه عدّة أبیات فی فصل تعذیب قریش لعثمان وهجرته.

فمن شعره حینما هاجر إلی أرض الحبشة، وبلغه أنّ أمیة ابن خلف شتمه، فقال:

أتیم بن عمرو الّذی فار ضغنه ومن دونه الشرمان والترک أجمع

أأخرجتنی من بطن مکّةَ آمناً وألحقتنی منصرح بیضاء تقذع؟

تریش نبالًا لا یؤاتیک ریشُها وتبری نبالًا ریشها لک أجمع

فکیف إذا نابتک یوماً ملمةٌ وأسلمک الأوباش ما کنت تجمع؟ (۷)

۱- ۱ تهذیب الأحکام، ۴: ۱۹۰- ۱۹۱، الحدیث ۵۴۱، وروی المقطع الأول فی مشکاة الأنوار: ۲۶۲- وعنه فی البحار، ۸۳: ۳۸۲.

۲- ۲ تهذیب الأحکام، ۶: ۱۲۲، حدیث ۲۱۰.

۳- ۳ سیر أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۸- الطبقات، ۳: ۳۹۵.

۴- ۴ شرح نهج البلاغة، ۱۹: ۱۳۲- التاریخ الکبیر، ۶: ۲۱۰- الاستیعاب، ۳: ۱۰۵۵- الطبقات، ۳: ۳۹۵- المعرفة والتاریخ، ۱: ۲۷۲- ۲۷۳.

۵- ۵ المائدة: ۹۳- وانظر الاستیعاب، ۳: ۱۰۵۴- العقد الثمین، ۶: ۴۹.

۶- ۶ أمالی الصدوق: ۴۰- وعنه فی البحار، ۸: ۱۷۰.

۷- ۷ معجم الشعراء: ۲۵۴- ربیع الأبرار، ۲: ۸۶۰.

ص: ۹۷

وفاته:

نصّ كثير من المؤرّخين: على أنّ عثمان بن مظعون أول من مات بالمدينة من المهاجرين (۱).

وأمّا تاريخ وفاته، فإنّه كان بعد أن شهد بدراً، وفى تحديد تاريخ وفاته عدّة أقوال:

(أ) فى شعبان بعد سنتين ونصف من الهجرة (۲).

(ب) فى السنة الثانية من الهجرة (۳).

(ج) بعد اثنين وعشرين شهراً من مقدم رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم إلى المدينة (۴)، وهذا يدلّ على أنه توفى فى أواخر سنة اثنتين.

(د) بعد مقدم رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم إلى المدينة بستة أشهر (۵)، وهذا إنما يكون بعد مقدمه من غزوة بدر، لأنه لم يختلف أحد فى أنه شهدها.

وذكرت أم العلاء أنّ عثمان بن مظعون اشتكى عندهم، وقالت:

مرّضناه، فلمّا توفى جعلناه فى أثوابه.

فدخل عليه رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم، فأكب عليه يقبّله ويقول: رحمك اللّه يا عثمان، ما أصبت من الدنيا ولا أصابت منك شيئاً.

وحديث تقبيل رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم لعثمان وهوميّت نقله الكل وبصور مختلفة، فبعض ذكر أنه قبله- بعد الغسل والتكفين- بين عينيه، والآخر ذكر أنه قبّله على خدّه. وبكى رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم على عثمان بن مظعون طويلًا، ودموعه تسيل على خدّ عثمان بن مظعون (۶).

وأمّا ما روى من أنه لما مات عثمان دخل عليه النبيّصلى الله عليه و آله و سلم فأكبّ عليه، فرفع رأسه، فرأوا أثر البكاء، ثم جثا الثانية، ثمّ رفع رأسه، فرأوه يبكى، ثمّ جثا الثالثة، فرفع رأسه وله شهيق، فعرفوا أنّه يبكى، فبكى القوم، فقال: مه هذا من الشيطان، ثمّ قال: أستغفر اللّه، أبا السائب لقد خرجت منها ولم تلبّس منها بشيء (۷).

فغيرصحيح، لأنه فيه جعل البكاء من الشيطان، مع أنّه ثبت من طريق الفريقين أنّ النبيصلى الله عليه و آله و سلم بكى على ابنه ابراهيم، وفاضت عيناه على بنت بنته، وأنه بكى على عثمان بن مظعون كما ذكرنا قبل قليل وذكرنا مصادره.

ويؤيّده أيضاً ما روى عن ابن عباس: لمّا ماتت ابنة لرسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم، قال رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم: ألحقى بسلفنا الخيّر عثمان بن مظعون، فبكت النساء، فجعل عمر بن الخطاب يضربهنَّ بسوطه، فأخذ

۱- ۱ الإصابة، ۲: ۴۶۴- أسد الغابة، ۳: ۵۹۹- تهذيب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۳- غربال الزمان: ۳.

۲- ۲ تهذيب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۴ وفيه على رأس ثلاثين شهراً من الهجرة- العقد الثمين، ۶: ۴۹- الطبقات، ۳: ۳۹۶- سير أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۹.

۳- ۳ الإصابة، ۲: ۴۶۴- أسد الغابة، ۳: ۵۹۹- الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۴- غربال الزمان: ۳- العبر، ۱: ۱۴- المنتظم، ۳: ۱۹۱.

۴- ۴ الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۴- العقد الثمين، ۶: ۴۹.

۵- ۵ الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۴.

۶- ۶ الکافی، ۳: ۱۶۱، الحدیث ۶- حلیة الأولیاء، ۱: ۱۰۵- ۱۰۶- الاستیعاب، ۳: ۱۰۵۳- من لا یحضره الفقیه، ۱: ۹۸، الحدیث ۴۵۳- زاد المعاد، ۱: ۱۸۳ و ۵۰۲- غربال الزمان: ۳- مجمع الزوائد، ۹: ۳۰۲- ربیع الأبرار، ۴: ۱۸۷- أسد الغابة، ۳: ۶۰۰- مسند أحمد، ۶: ۴۳ و ۵۵- ۵۶ و ۲۰۶- الطبقات، ۳: ۱۹۰- المنتظم، ۳: ۱۹۱- سنن ابن ماجة، ۱: ۴۶۸، الحدیث ۱۴۵۶- سنن الترمذی، ۳: ۳۱۴، الحدیث ۹۸۹- سنن ابی داوُد، ۳: ۲۰۱، الحدیث ۳۱۶۳- تنقیح المقال، ۲: ۲۴۹.

۷- ۷ مجمع الزوائد، ۹: ۳۰۲- سیر أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۶- الاستیعاب، ۳: ۱۰۵۵- حلیة الأولیاء، ۱: ۱۰۵.

ص: ۹۸

رسول اللَّه بيدهصلى الله عليه و آله و سلم وقال: مهلًا يا عمر، ثم قال رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم:

ابكين، وإيّاكنّ ونعيق الشيطان، ثم قال رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم: إنّه مهما كان من العين والقلب فمن اللَّه ومن الرحمة، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان (۱).

ومع ما كان عليه عثمان بن مظعون من عظيم الدرجة والسبق إلى الإيمان، فقد سمع رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم امرأة تقول: هنيئاً لك أبا السائب الجنة، أو:

أذهب عنك أبا السائب! شهادتى عليك لقد أكرمك اللَّه، أو طِبْ أبا السائب! نفساً إنّك فى الجنة.

فقال لها رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم:

وما يدريك، أو ما علمك بذلك؟

فقالت: يا رسول اللَّه! أبو السائب، أو كان يا رسول اللَّه! يصوم النهار ويصلّى الليل، أو فارسك وصاحبك، أو: لا أدرى بأبى أنت وأمى يا رسول اللَّه، فمن.

فقال رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم: واللَّه ما نعلم إلّاخيراً ثم قال: حسبك أن تقولى: كان يحب اللَّه- عزّ وجلّ- ورسوله، أو أجل ما رأينا إلّاخيراً أنا رسول اللَّه واللَّه ما أدرى ما يصنع بى، أو أمّا هو فقد جاءه اليقين. واللَّه، إنى لأرجو الخير، وإنى لرسول اللَّه، وما أدرى ما يفعل بى (۲).

واختلفت المصادر فى ذكر اسم المرأة التى قالت هذا القول لرسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم، فبعضها ذكرت أنها زوجته أم السائب، وفى بعضها أنها أم العلاء الأنصارية، وفى بعضها أنها أم خارجة بن زيد، وفى بعضها أنها عجوز.

وكذلك اختلفت المصادر فى كيفية وقوعها، ففى بعضها أنها قالت هذا القول وراء جنازته، وفى بعضها أنها قالت هذا القول لمّا وضع فى قبره، وفى بعضها لمّا قبر، وفى بعضها غير هذا.

وعلى كلّ حال فإن ما قاله رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم لم يكن نقصاً فى درجة عثمان بن مظعون، أو تشكيكاً فيه، لأنه قرنه بنفسه، ووصفه بصفات المتقين، ولكن كان قولهصلى الله عليه و آله و سلم تعليماً لنا، بأنّ الإنسان مهما كثرت عبادته واتقى لابدّ من أن يبقى بين الخوف والرجاء، ولا يجزم بأنه من أهل الجنة ومن عباد اللَّه المقرّبين، ويدلّ على كراهية جزم الإنسان بأنه من أهل الجنة.

وروى عن رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: لمّا مُرّ بجنازة عثمان بن مظعون:

ذهبت ولم تلبّس منها بشىء (۳).

وروى أنه لمّا رفع عثمان على السرير قال النبيّصلى الله عليه و آله و سلم: طوباك (طوبى لك) يا عثمان، لم تلبسك الدنيا ولم تلبسها (۴).

۱- ۱ سير أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۶- ۱۵۷- الطبقات، ۳: ۳۹۸- ۳۹۹- مجمع الزوائد، ۳: ۱۷- الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۵- ۱۰۵۶- مسند أحمد، ۱: ۲۳۷- الطبقات، ۳: ۱۹۰- مسند أبى داود الطيالسى: ۳۵۱.

۲- ۲ سير أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۶- ۱۵۷ و ۱۵۹- ۱۶۰- الطبقات، ۳: ۳۹۸- ۳۹۹- مجمع الزوائد، ۳: ۱۷ و ۹: ۳۰۲- الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۵- ۱۰۵۶- التاريخ الصغير، ۱: ۴۶- ۴۷- حلية الأولياء، ۱: ۱۰۴ و ۱۰۶- تهذيب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- أسد الغابة، ۳: ۶۰۰- الطبقات، ۳: ۳۹۹- الكافى، ۳: ۲۶۲، حديث ۴۵- مسند أحمد، ۱: ۲۳۷ و ۶: ۴۳۶- الطبقات، ۳: ۱۹۰- مسند أبى داوُد الطيالسى: ۳۵۱-

صحيح البخارى، ۲: ۷۱ و ۳: ۱۶۴.

۳- ۳ الموطّأ، ۱: ۲۴۲- الطبقات، ۳: ۳۹۶.

۴- ۴ المنتظم، ۳: ۱۹۱- ربيع الأبرار، ۴: ۱۸۷- كنز العمال، ۱۳: ۵۲۵.

ص: ۹۹

وتحدّث أم العلاء: بأنها رأت فی المنام لعثمان عیناً تجری، فأخبرت رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم، فقال: ذلک عمله (۱).

وحظی عثمان بن مظعون بصلاهٔ رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم علیه (۲)، وبمشارکته فی تشییعه ودفنه، فقد کانصلی الله علیه و آله و سلم قائماً علی شفیر القبر الذی نزل فیه کلّ من عبد اللّه بن مظعون، والسائب بن عثمان بن مظعون، ومعمر بن الحارث.

ولمّا انتهی الدفن، قال النبیصلی الله علیه و آله و سلم لرجل: هلمّ تلک الصخرهٔ فاجعلها عند قبر أخی أعرفه بها، أدفن إلیه مَن دفنت من أهلی (أهله)، فقام الرجل فلم یطقها، فاحتملها رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم حتّی شوهد بیاض ساعدیه، ووضعها عند قبره، وقال:

هذا قبر فرطنا، وکان الحجر بمثابهٔ العلامهٔ.

وکان رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم یزور قبر عثمان بن مظعون (۳).

واتفق أصحاب السیر والتاریخ أنّ أول من دفن بالبقیع عثمان بن مظعون، إلّانادراً ممّن ذکر أنّ أسعد بن زرارهٔ أول من دفن بالبقیع. ولم یکن البقیع قبل دفن عثمان مقبرهٔ، وکان یقال له: بقیع الخبخبهٔ، وکان أکثر نباته الغرقد (۴).

وروی أنهصلی الله علیه و آله و سلم أمر أن یبسط علی قبر عثمان بن مظعون ثوب، وهو أول قبر بسط علیه ثوب (۵).

وروی أیضاً أنهصلی الله علیه و آله و سلم رشّ قبر عثمان بن مظعون بالماء بعد أن سوّی علیه التراب (۶).

وقیل: إنّ أول مَن تبعه إبراهیم ابن النبیّصلی الله علیه و آله و سلم، فلمّا توفی قال رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم: الحق بسلفنا (بسلفک) الصالح عثمان بن مظعون، ودفن ابراهیم إلی جنب عثمان (۷).

ولمّا ماتت ابنهٔ لرسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم قال رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم: الحقی بسلفنا الخیّر (الصالح) عثمان بن مظعون وأصحابه (۸).

وکان إذا مات میّت قال النبیصلی الله علیه و آله و سلم: قدموه علی فرطنا، نعم الفرط لأمّتی عثمان بن مظعون، فیدفن عند عثمان بن مظعون (۹).

ولمّا توفی عثمان بن مظعون قالت زوجته:

یا عین جودی بدمعٍ غیر ممنونِ علی رزیّهٔ عثمان بن مظعونِ

علی امریءٍ بات فی رضوان خالقه طوبی له من فقید الشخص مدفونِ

طاب البقیعُ له سکنی وغرقده وأشرقت أرضُه من بعد تفتینِ

۱- ۱ أسد الغابهٔ، ۳: ۶۰۱- سیر أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۹- ۱۶۰- التاریخ الصغیر، ۱: ۴۶- ۴۷- حلیهٔ الأولیاء، ۱: ۱۰۴- تهذیب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶-صحیح البخاری، ۳: ۱۶۴ و ۸: ۷۴.

۲- ۲ تهذیب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- الطبقات، ۳: ۳۹۶- ۳۹۷ وفیه أنه کبّر علیه أربع تکبیرات- سنن ابن ماجهٔ، ۱: ۴۸۱، حدیث ۱۵۰۲ وفیه أیضاً أنهکبّر علیه أربع تکبیرات، ومصادر أخری کثیرهٔ جدّاً.

۳- ۳ الطبقات، ۳: ۳۹۹ - ۴۰۰- سیر أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۴ و ۱۵۵- العقد الثمین، ۶: ۴۹- تهذیب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- الاستیعاب، ۳: ۱۰۵۴- غربال الزمان: ۳- أسد الغابهٔ، ۳: ۶۰۰- الطبقات، ۳: ۱۹۰- دعائم الاسلام، ۱: ۲۳۸- سنن ابن ماجهٔ، ۱: ۴۹۸، الحدیث ۱۵۶۱- سنن الدارمی، ۳: ۲۱۲، الحدیث ۳۲۰۶.

۴- ۴ الإصابهٔ، ۲: ۴۶۴- أسد الغابهٔ، ۳: ۵۹۹- سیر أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۴ و ۱۵۵- معجم الشعراء: ۲۵۴- العقد الثمین، ۶: ۴۹- تهذیب

الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- الاستیعاب، ۳: ۱۰۵۴ - ۱۰۵۵- الطبقات، ۳: ۳۹۷- المستدرک، ۳: ۱۹۰- المنتقی فی مولود المصطفی، الفصل الخامس- وعنه فی البحار، ۱۹: ۱۳۲- المنتظم، ۳: ۱۹۱.

۵- ۵ دعائم الاسلام، ۱: ۲۳۸- وعنه فی البحار، ۸۲: ۲۱.

۶- ۶ دعائم الاسلام، ۱: ۲۳۹- وعنه فی البحار، ۸۲: ۲۲.

۷- ۷ الاستیعاب، ۳: ۱۰۵۳- أسد الغابة، ۳: ۶۰۰- مجمع الزوائد، ۹: ۳۰۲- الإصابة، ۲: ۴۶۴- شذرات الذهب، ۱: ۹- الکافی، ۳: ۲۶۳، الحدیث ۴۵- مسند أحمد، ۱: ۲۳۷- تنقیح المقال، ۲: ۲۴۹ وفیه: ألحقک اللّه بخلفک الصالح عثمان بن مظعون.

۸- ۸ أسد الغابة، ۳: ۶۰۰- الاستیعاب، ۳: ۱۰۵۳- مجمع الزوائد، ۹: ۳۰۲- سیر أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۶- ۱۵۷ و ۱۶۰- تهذیب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- الکافی، ۳: ۲۴۱، الحدیث ۱۸- الطبقات، ۳: ۱۹۰- تنقیح المقال، ۲: ۲۴۹.

۹- ۹ مجمع الزوائد، ۹: ۳۰۲- الطبقات، ۳: ۳۹۷- المستدرک، ۳: ۱۹۰.

ص: ۱۰۰

وأورث القلبَ حزناً لا انقطاع له حتّى الممات فما ترقى له شونى (۱) المراجع:

۱- القرآن الكريم.

۲- الاستيعاب فی معرفهٔ الأصحاب، ليوسف بن عبد اللّه بن محمّد بن عبد البرّ، نشر مكتبهٔ نهضهٔ مصر ومطبعتها.

۳- أسد الغابهٔ فی معرفهٔ الصحابهٔ، لابن الأثير علی بن محمد الجزری.

۴- الإصابهٔ فی تمييز الصحابهٔ، لأحمد بن علی بن حجر العسقلانی، دارصادر، بيروت.

۵- الأعلام، لخير الدين الزركلی، دار العلم للملايين، بيروت ۱۹۸۹ م.

۶- أعلام الغدير، مراجعهٔ وتنسيق فاضل الميلانی، دار الكتاب العربی، بيروت.

۷- بحار الأنوار، للعلامهٔ المجلسی، دار الكتب الإسلاميهٔ، طهران.

۸- التاريخ الصغير، لأبی عبد اللّه محمد بن إسماعيل البخاری، دار المعرفهٔ، بيروت ۱۴۰۶ ه.

۹- التاريخ الكبير، لإسماعيل بن إبراهيم البخاری، دار الكتب العلميهٔ، بيروت.

۱۰- تفسير الحبری، للحسين بن الحكم بن مسلم الحبری، مؤسسهٔ آل البيت لإحياء التراث، بيروت.

۱۱- تفسير فرات الكوفی، لأبی القاسم فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفی، وزارهٔ الإرشاد، طهران.

۱۲- تقريب المعارف، للشيخ أبی الصلاح الحلبی، نسخهٔ مخطوطهٔ محفوظهٔ فی المكتبهٔ العامهٔ لآيهٔ اللّه المرعشی فی قم.

۱۳- تنقيح المقال، للشيخ عبد اللّه المامقانی، نسخهٔ مطبوعهٔ علی الحجر.

۱۴- تهذيب الأحكام، للشيخ محمد بن الحسن الطوسی، دار الكتب الإسلاميهٔ، طهران.

۱۵- تهذيب الأسماء واللغات، لأبی زكريا محيی الدين بن شرف النووی، دار الكتب العلميهٔ، بيروت.

۱۶- حليهٔ الأولياء، لأحمد بن عبد اللّه الأصبهانی، دار الكتاب العربی، بيروت.

۱۷- خزانهٔ الأدب، لعبد القادر بن عمر البغدادی، مكتبهٔ الخانجی، مصر.

۱۸- الديوان المنسوب لأمير المؤمنين عليه السلام، نسخهٔ خطيهٔ بخط ياقوت المستعصمی.

۱۹- ربيع الأبرار، لمحمد بن عمر الزمخشری، منشورات الشريف الرضی قم ۱۴۱۰ ه.

۲۰- رجال حول الرسول، لخالد محمد خالد، دار الكتاب العربی، بيروت.

۲۱- زاد المعاد فی هدی خير العباد، لابن قيّم الجوزيهٔ، مكتبهٔ المنار، الكويت ۱۴۱۲ ه.

۲۲- سنن ابن ماجهٔ، للحافظ أبی عبد اللّه محمد بن يزيد القزوينی، دار إحياء التراث العربی، بيروت.

۲۳- سنن أبی داود، للحافظ سليمان بن الأشعث السجستانی، دار الفكر، بيروت.

۲۴- سنن الترمذی، لأبی عيسی محمد بن عيسی بن سورهٔ، دار إحياء التراث العربی، بيروت.

---

۱ - ۱ الإصابهٔ، ۲: ۴۶۴ وذكر البيت الأول فقط- أسد الغابهٔ، ۳: ۶۰۰- حليهٔ الأولياء، ۱: ۱۰۶- العقد الثمين، ۶: ۵۰- الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۶.

ص: ۱۰۱

۲۵- سنن الدارمی، للحافظ عبد اللّه بن عبد الرحمن السمرقندی، دار الکتاب العربی، بیروت.
۲۶- سنن النسائی بشرح الحافظ جلال الدین السیوطی، دار الفکر، بیروت.
۲۷- سیر أعلام النبلاء، لمحمد بن أحمد الذهبی، مؤسسهٔ الرسالهٔ، بیروت.
۲۸- شذرات الذهب، لعبد الحیّ بن العماد الحنبلی، مکتبهٔ القدسی، مصر.
۲۹- شرح نهج البلاغهٔ، لابن أبی الحدید المعتزلی، دار إحیاء الکتب العربیهٔ.
۳۰- شرح نهج البلاغهٔ، لمیثم بن علی بن میثم البحرانی، الطبعهٔ الثانیهٔ ۱۴۰۴ ه.
۳۱- شواهد التنزیل لقواعد التفضیل، للحافظ عبید اللّه بن عبد اللّه بن أحمد المعروف بالحاکم الحسکانی، وزارهٔ الإرشاد، طهران.
۳۲-صحیح البخاری، لأبی عبد اللّه محمد بن إسماعیل البخاری، دار الفکر، بیروت.
۳۳-صحیح مسلم بشرح النووی، دار احیاء التراث العربی، بیروت.
۳۴- الطبقات الکبری، لابن سعد، دار بیروت ودارصادر ۱۳۷۷ ه.
۳۵- العِبر فی خبر من غبر، للحافظ الذهبی، معهد المخطوطات، الکویت ۱۹۶۰ م.
۳۶- العقد الثمین فی تاریخ البلد الأمین، لمحمد بن أحمد الحسنی الفاسی، طبع القاهرهٔ ۱۳۸۶ ه.
۳۷- الغدیر فی الکتاب والسنهٔ والأدب، للعلامهٔ عبد الحسین الأمینی، دار الکتب الإسلامیهٔ، طهران.
۳۸- غربال الزمان فی وفیات الأعیان، لیحیی بن أبی بکر العامری الیمانی، دار الخیر ۱۴۰۵ ه.
۳۹- فهارس بحار الأنوار، مؤسسهٔ البلاغ بیروت ۱۴۱۲ ه.
۴۰- فهارس شرح نهج البلاغهٔ، وضعها أسداللّه اسماعیلیان، مکتبهٔ اسماعیلیان، قم.
۴۱- الکافی، لأبی جعفر محمد بن یعقوب الکلینی، دار الکتب الإسلامیهٔ، طهران.
۴۲- کنز العمال فی سنن الأقوال والأفعال، دار الکتاب الإسلامی، حلب.
۴۳- مجمع البیان فی تفسیر القرآن، للشیخ أبی علی الفضل بن الحسن الطبرسی، دار المعرفهٔ، بیروت.
۴۴- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لعلی بن أبی بکر الهیثمی، دار الکتاب، بیروت.
۴۵- المستدرک علی الصحیحین، للحافظ أبی عبد اللّه الحاکم، دار المعرفهٔ، بیروت.
۴۶- مسند أبی داود الطیالسی، للحافظ سلیمان بن داود بن الجارود، دار المعرفهٔ، بیروت.
۴۷- مسند أحمد بن حنبل، دارصادر، بیروت.
۴۸- معجم رجال الحدیث، للسید أبو القاسم الموسوی الخوئی، دار الزهراء، بیروت ۱۴۰۹ ه.
۴۹- معجم الشعراء، لمحمد بن عمران المرزبانی، دار الکتب العلمیهٔ، بیروت.
۵۰- المعجم المفهرس لألفاظ الحدیث النبوی، دار الدعوهٔ، استانبول ۱۹۸۸ م.
۵۱- المعرفهٔ والتاریخ، لیعقوب بن سفیان البسوی، مطبعهٔ الإرشاد، بغداد.

ص: ۱۰۲

۵۲- المناقب، لمحمد بن علی بن شهر آشوب، انتشارات علّامة، قم.

۵۳- المنتظم، لعبد الرحمن بن علی بن محمد بن الجوزی، دار الکتب العلمیة، بیروت.

۵۴- من لایحضره الفقیه، للشیخ محمد بن علی الصدوق، دار الکتب الإسلامیة، طهران.

۵۵- الموطّأ، لمالک بن أنس، دار احیاء التراث العربی، بیروت.

۵۶- نقد الرجال، للسید مصطفی الحسینی التفریشی، انتشارات الرسول المصطفی، قم.

۵۷- نهج البلاغة، للشریف الرضی، مع تعلیقات محمد عبده، مؤسسة الأعلمی، بیروت.

وراجع أیضاً من مصادر ترجمته ممّا لم ننقل عنها:

۱-صفة الصفوة.

۲- الشعر والشعراء.

۳- المحبر.

۴- التحفة اللطیفة.

۵- تاریخ الخمیس.

۶- طبقات خلیفة.

۷- تاریخ خلیفة.

۸- سیرة ابن هشام.

۹- نسب قریش.

۱۰- الکامل فی التاریخ.

۱۱- تاریخ الطبری.

۱۲- تفسیر الطبری.

۱۳- تفسیر ابن کثیر.

۱۴- سنن البیهقی.

۱۵- دیوان أبی طالب.

۱۶- مرآة العقول.

۱۷- التعلیقة للوحید.

وغیرها من مصادر الفریقین.

الهوامش:

ارجوزة فی فقه الحجِ

أُرجوزة فی فقه الحجِ

محمود البغدادی

المقدّمة:

فی فلسفة الحج

فى الحجِّ قد بانَتْ لنا الحقائقُ فى روضةٍ تفرِشُها الزنابقُ

مزهوة تحفل بالأثمارِ مبهجة الرّوادِ والسّمارِ الطير فيهاصادحٌ يُغنّى يبعث بالفن لأهل الفنِ

من حكمة اللّه العليم الهادى تقمعُ أهلَ الشرك والإلحادِ

ص: ۱۰۳

النفسُ فیها ترتقی وتنمو والروحُ للَّهالعلیّ یسمو

والحبُّ فیها قاطنٌ فی القلب لا خیر فی قلب بغیر حبِ

ویلتقی الإنسانُ والملائک فالحجُّ دربٌ للطهور سالک

إن کنت فی غاشیةٍ من شکِ فاقصد سریعاً للحریم المکّی

حتی تربّی فی سماءِ القلب لیس کمثل القلب من مُربّی

وتبصرُ الدنیا عیونُ الآخره لیس سواها من عیونٍ باصره

وترتوی ظامئهٔ السیاسه من منهل الفکرهٔ والکیاسه

ونلتقی الأطراف والمراکز کل علی سلم الجمیع حائز

والفقرُ فیها یخلع الثیابا قد کان شیئاً ماثلًا فقابا

من نعمهٍ للَّهلیست تُنسی فاستشهد النقلَ وقاضی الحسا (۱)

وعن علیّ بن الحسین حجّوا تصح أبدانُکُم وتَنجوا

تتسع الأرزاقُ والأموال ویغتنی المعیلُ والمعالُ

ومن یحجّ یغفرن منه الزلل مستأنفٌ له من اللَّه العملْ (۲)

من ترک الحجَّ بلا غدرٍ نقی فذاک فی إیمانه العبد الشقی

یموت کالیهود والنصرانی نعوذ باللَّه من الثوانی (۳)

ومن له مالٌ ولن یَؤْمّا یحشرُ فی یوم التنادِ أعمی (۴)

یأمن یوم الدین کلّ میّت إن مات فی الطریق نحو البیت (۵)

وقد تلقت آدمَ الملائکه فی فرحةٍ بحجّهِ مشارکه

إنّا حججنا قبل ألفی عام من نعمةٍ للَّهذی الإنعام (۶)

وقد روینا فی الحدیث المسند روایةً عن ابن عمّ أحمدِ

بنیّ! للبیت العتیق انظروا تقدموا لقصدهِ وأکثروا

إن أنتم- بنیّ!- لم تقاطرو الحجهِ هیهات أن تناظروا (۷)

وعن إمامٍ واجب تصدیقُه فی خبرصحَّ لنا طریقُه

عن آیهٔ فی الحجِّ لن تضیّعا قال: هما العمرهُ والحجُّ معا (۸)

وعن أتموا الحجَّ للعلام یعنی بهذا غایهٔ الإتمام

أداءُ حجٍّ خالصٍ وعمره ویتقی المحرمُ کلَّ عشره

وعمرهٔ للَّهحجٌّ أصغرُور میُک الجمارَ حجٌّ أکبرُ

هذا إذا أحسنَ عبدٌ موقفه مؤدیاً لحجّه فی عرفه (۹)

۱- ۱ مثل النص عن رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم: «... وحجوا تستغنوا» الوسائل، کتاب الحج، أبواب وجوب الحجِّ وشرائطه،

الباب الأول، الحدیث ۱۳. ومثل ما جاء عن علی بن الحسین علیه السلام کما سیأتی قریباً. وفی الخصال ۱: ۳۱ بسندصحیح عن الصادق علیه السلام: «من حجّ حجتین لم یزل فی خیر حتی یموت».

۲- ۲ عن أبی عبد اللَّه علیه السلام قال: قال علی بن الحسین علیه السلام: «حجوا واعتمروا تصح أبدانکم، وتتسع أرزاقکم، وتکفون مؤونات عیالاتکم. وقال: الحاجّ مغفورٌ له، وموجوب له الجنة، ومستأنفٌ له العمل، ومحفوظٌ فی أهله وماله». الوسائل، أبواب وجوب الحج وشرائطه الحدیث ۷.

۳- ۳ روی محمّد بن یعقوب، عن أبی علی الأشعری، عن محمد بن عبد الجبار، عنصفوان بن یحیی، عن ذریح المحاربی، عن أبی عبد اللَّه علیه السلام، قال: «من مات ولم یحجّ حجة الإسلام- لم تمنعه من ذلک حاجة تجحف به، أو مرض لا یطیق فیه الحجّ، أو سلطان یمنعه- فلیمت یهودیاً أو نصرانیاً». المصدر السابق، ثبوت الکفر والارتداد بترک الحج وتسویفه، الحدیث ۱.

۴- ۴ ورد ذلک فی عدّة روایات.

۵- ۵ انظر الفروع من الکافی، ۱: ۲۳۹- والمقنعة للمفیدص ۶۱.

۶- ۶ انظر الفروع من الکافی، ۱: ۲۱۸.

۷- ۷ عن أبی عبد اللَّه علیه السلام قال: «کان علیّ -صلوات اللَّه علیه- یقول لولده: یا بنیّ انظروا بیت ربکم فلا یخلون منکم فلا تناظروا» الفروع من الکافی، ۱: ۲۴۱. یُطلق الولد علی المفرد والجمع وهنا یراد به الثانی.

۸- ۸ آل عمران: ۹۷ «... وللَّه علی النّاس حجُّ البیتِ مَن استطاع إلیه سبیلًا ومن کفر فإنَّ اللَّه غنیٌّ عن العالمین».

۹- ۹ المقصود الإمام أبو عبد اللَّه جعفر بن محمد الصّادق علیه السلام، والخبر هو ما رواه محمّد بن یعقوب، عن علی بن إبراهیم، عن أبیه، عن ابن أبی عمیر، عن عمر بن أذینة، قال: کتبتُ الی أبی عبد اللَّه علیه السلام بمسائلَ بعضها مع ابن بکیر، وبعضها مع أبی العباس، فجاء الجواب بإملائه: سألتَ عن قول اللَّه عزّ وجلّ «... وللَّه علی النّاس حجُّ البیت من استطاع الیه سبیلًا ...» یعنی به الحجَّ والعمرةَ جمیعاً؛ لأنهما مفروضان. وسألتَ عن قول اللَّه عزّ وجلّ «وأتموا الحجَّ والعمرة للَّه» قال یعنی بتمامهما أداءَهما، واتقاء ما یتقی المحرم فیهما، وسألت عن قوله تعالی: «الحجّ الأکبر» ما یعنی بالحجّ الأکبر؟ فقال: الحجّ الأکبر: الوقوف بعرفة، ورمی الجمار، والحجُّ الأصغر العمرة. الوسائل کتاب الحجِّ، أبواب وجوب الحجّ وشرائطه، الباب الأول، الحدیث ۲.

ص: ۱۰۴

وإن أردتَ الخیرَ فی الدارین فالحجُّ قد ضمَّ کلا الأمرینِ (۱)

إنّ سبیلَ الحجِّ أن تطیقا سیراً له لا تختشی الطریقا

وکنتَ ذا مالٍ فقد وُفِقتالوا جبٍ فی أن تحجَّ البیتا (۲)

ومن یکن ممتلکاً للمال لکن به الحاجة للعیالِ

فذالک المعذور عند اللبّ وفی الأحادیث بغیر ریب (۳)

وقد روی محمّد بن یعقوب فی سند لیس به من مکذوب

الحجُّ قد قال الإمام الصّادق فرضٌ علی الجمیع لا تفارقوا

کبارُهم طرّاً مع الصغارِ یا قدمنا حاشا ذوی الأعذارِ (۴)

الفورُ بالحجِّ طریق مالک وبعضهم نحو التراخی سالک

الفورُ فی الحجِّ بغیر شکٍّ فیه عن الشیخ اتفاقٌ محکی (۵)

وکم به- یا سیدی!- من نصٍّ إن کنت ذا معرفةٍ فاقتصِّ (۶)

إن فاتَک الحجُّ ولم تستعجل فبادر الأمرَ بعامٍ مقبلِ

حتی تجیئنَّ بما ضیّعتا بأیِّ عذرٍ قد ترکتَ البیتا

الناسُ فی الحجِّ علی أصنافِ وکلُّصنفٍ بالعطاء وافی

یُطلق بعضٌ من جحیم النار وبعضُهم من الذنوب عاری

وبعضُهم یحفظ فی الأهلینا ومالُهُ هیهات أن یشینا (۷)

یا ربّنا فأحینا سنینا للحجِّ والعمرة ما بقینا (۸) شرائطُ الحجِ

شرائطُ الحجِّ لنا معلومه مرسومةٌ فی الصحف الموسومه

أوّلُها العقلُ وهل ذو عقل یشکُّ فی العقل وأهل النقل؟ (۹)

والثانی البلوغ لا ترتاب فی شرطه الأخبارُ والألبابُ (۱۰) وثالث الشرائط الحریه (۱۱) والرابعُ استطاعةٌ شرعیه (۱۲)

ویستحبُّ للصبی المائز حجٌّ علی اذن الولی حائز

وذلک المشهور لکن ما اشتهر أوجبه التحقیق فیبعض الصور (۱۳)

وما علی البالغ من اذن الولی فی حجّه المندوب من أمر جلی

وقد أتی المحکی عن القواعد حکماً علی لزوم إذن الوالد

وإننی لابن هلالٍ نابذ هیهات أن تکنفه المآخذ (۱۴)

من واجبات البنت والغلام بعد البلوغ حجةُ الإسلام

فلیس یغنی عنهما ما حجّا قبلُ وإن کان الثواب یُرجی (۱۵)

۱- ۱ شرح المهذب، ۷: ۳۸- ۳۹.

۲- ۲ المغنی لابن قدامة، ۳: ۲۵۲.

۳- ۳ الوسائل، أبواب وجوب الحج، الباب ۲۰، الحدیث الأول.

۴- ۴صحیح البخاری، ۱: ۳۱۹.

۵- ۵صحیح مسلم، بابصحهٔ حج الصبی وأجر من حج به، ۴: ۱۰۱.

۶- ۶ سنن ابن ماجهٔ.

۷- ۷ المغنی لابن قدامهٔ، ۳: ۲۵۲.

۸- ۸ الوسائل، أبواب وجوب الحج، الباب ۲۰، الحدیث الأول.

۹- ۹صحیح البخاری، ۱: ۳۱۹.

۱۰- ۱۰صحیح مسلم، بابصحهٔ حج الصبی وأجر من حج به، ۴: ۱۰۱.

۱۱- ۱۱ سنن ابن ماجهٔ.

۱۲- ۱۲صحیح مسلم، بابصحهٔ حج الصبی وأجر من حج به، ۴: ۱۰۱.

۱۳- ۱۳ سنن ابن ماجهٔ.

۱۴- ۱۴ المغنی لابن قدامهٔ، ۳: ۲۵۲.

۱۵- ۱۵ الوسائل، أبواب وجوب الحج، الباب ۲۰، الحدیث الأول.

ص: ۱۰۵

أَقسامُ الحج

إن لم تكن من مكّةٍ تمتّع بحجّةٍ وللكتابِ فاتبع

وإنما الإفرادُ والقران لأَهلها أوجبه القرآنُ (۱)

أربعة شرائط التمتع احضر لها القلب الزكی واسمع

فتيّة وكونه فی الأشهر اشهر حجّ طيبات الجوهرِ

والحج والعمرة إن تأتيهما فی سنةٍ واحدةٍ تنهيهما

واحرم له أحرم له بالحجّ من بطن مكه بخير نهجِ (۲) شرائط الإفراد

وإنّما شرائط الإفراد أربعةٌ قامت على السدادِ

فتيّةٌ أوّلها وأن يقعْ فی أشهر الحجِّ الكريم المتَّبعْ (۳)

وعن أبی حنيفةٍ وأحمدِ جوازها من قبل ذاک الموعدِ

ويعقد الإحرام من ميقاتهِ وكلْ مجاهداً الى زلاته (۴)

شرائط القارن والأفعالُ قويمةٌ ليس بها اختلال

شبيهةُ الإفراد قد تحققا لكنَّ سوق الهدى عنه فرّقا (۵) تكررُ الحجِّ الواجب

وربما فی غير مرةٍ وجب تكررُ الحجِّ بتكرار السبب

كالنذر والعهد وكاليمين فاصدق به إن كنتَ ذا يقينِ وإن تكن أفسدّت حجّاً أعدِ كم يُصلحُ العود فساد المفسدِ

وإن تكن نيابةً تُستأجرُ فإنما الوفاء طبعٌ خيِّرُ

وما سوى ذلک فهو مستحب تكررُ الحجّ إلى اللّهِ سببْ (۶)صور لاستحباب الحجِ

ومن تكن شروطه تختلُّ فمستحبُّ حجُّه ونفلُ

يكن له بعد الأداء (۷) حجّ تطوعاً فيه الثوابَ يرجو

وفاقد للزاد أو للراحله سفينةً أو جملًا أو ناقله

ومثل مملوک له مولاه أجاز فی الحجّ وما نهاهُ

۱- ۱ الحجُّ على أقسام: حجّ التمتع. حجّ الإفراد. حجّ القران. والحجُّ الأول لمن لم يكن من أهل مكّة وتوابعها، قال تعالى: «ذلک لمن لم يكن أهله حاضری المسجد الحرام» البقرة: ۱۹۶. وحجّ الإفراد وكذا القران لأهل مكّة وتوابعها .... والروايات التی يستفاد منها فی المقام كثيرة، منها: ما رواه الحرّ العاملی فی الوسائل، كتاب الحجّ، أبواب أقسام الحجّ، الباب الأول، باب أن الحجّ ثلاثة أقسام.

۲- ۲ أربعة شروط حجّ التمتع الواجب منه والمستحب؛ أولًا: النيّة، ثانياً: أن يقع فی أشهر الحجّ وهی شوال وذو القعدة وذو الحجة، قال تعالى: «الحجُّ اشهرٌ معلومات ...» البقرة: الآية ۱۹۷. وقال ابن ابی عقيل والمرتضى وسلار: شوال وذو القعدة وعشر من ذی الحجة. ثالثاً: أن يكون الحجُّ والعمرة فی سنة واحدة. وتدل عليه عدة نصوص. انظر الوسائل، الباب ۲۲ من أبواب أقسام الحجِّ. رابعاً: أن يحرم بالحجّ من بطن مكة مع الاختيار. وفی الجواهر، ۱۸: ۱۷ بلا خلاف أجده فيه نصاً وفتوىً- وفی الحدائق، ۱۴: ۳۶۰ لا يجزئ الإحرام بحجّ التمتع من غير مكّةَ ولو دخل مكّةَ بإحرامه، بل لابد من استئنافه منها، كما هو المعروف من مذهب الأصحاب، وبه قطع فی

المعتبر من غير نقل خلاف، وأسنده العلّامة فى التذكرة والمنتهى الى علمائنا مؤذنا بدعوى الإجماع عليه، وربما اشعرت عبارة الشرائع بوقوع الخلاف فى ذلك، إلا أن شيخنا الشهيد الثانى قدس سره فى المسالك نقل عن شارح ترددات الكتاب أنّه أنكر ذلك. ولا فرق فى الإحرام بالحجِّ من بطن مكةَ، بين أن يكون من المسجد وهو أفضل وأفضله المقام وبين أن يكون من مكان آخر. قال عمرو بن حريث: قلت لأبى عبد اللَّه: من أين أهل بالحجِّ قال: إن شئت من رحلك، وإن شئت من الكعبة، وإن شئت من الطريق. الوسائل، باب ۲۱ من المواقيت.

۳- ۳ شرائط الإفراد: ۱- النيّة ۲- أن يقع فى أشهر الحجِّ، وقد تقدّم توضيحه ۳- أن يعقد الإحرام من الميقات إن كان أقرب الى منزله وإلّا أحرم من منزله.

۴- ۴ لخلافه فى ذلك وهو مجاهد بن جبر المكى ت ۱۰۴ من مشاهير المفسرين فى العصر الأموى، وقد رأيت تفسيره ويقع فى مجلدين.

۵- ۵ الفضيل بن يسار عن أبى عبد اللَّه عليه السلام: القارن الذى يسوق الهدى، عليه طوافات بالبيت وسعى بين الصفا والمروة. وينبغى له أن يشترط مع ربه، إن لم تكن حجّة فعمرة. الوسائل، الباب ۲ من ابواب اقسام الحجّ، الحديث ۲. وفى خبر منصور عن الصادق عليه السلام: لا يكون القارن قارناً الّا بسياق الهدى، وعليه طوافان بالبيت، وسعى بين الصفا والمروة كما يفعل المفرد، وليس بأفضل من المفرد إلّا بسياق الهدى. الوسائل، الباب ۲ من أبواب أقسام الحجِّ، وللتفصيل محل.

۶- ۶ هنا حالات عدّة لوجوب الحجِّ وإن حجَّ حجّةَ الإسلام، كوجوب الحجِّ لنذر أو عهدٍ أو يمين، وعلى من أفسد حجّه أن يعيده. وكذلك الحجّ نيابةً. وما سوى ذلك فإن ثمَّ حالات لاستحباب الحجِّ. إذ إنّ الحجَّ حبلٌ يتصل برضوان اللَّه تعالى وسلّمٌ الى مغفرته ورحمته الواسعة.

۷- ۷ مَن حجَّ حجّةَ الإسلام يستحب له أن يحجَّ مرة أخرى بل مرّات.

ص: ۱۰۶

الحجُّ ندباً لظهور العجز عن حجّةِ الإسلام لیس یجزی (۱)

والحجُّ عن غیرک لیس یجدی عن حجّةِ الإسلام فاستعدِ

إن أذن المولی بحجّ العبدِ نیابة عمّا سواه تجدی

یکفیک من أدلةٍ اطلاقها کالشمس قد بان لنا اشراقها

ومن یکن فی حقه الحجّ وجب لیس له عن غیره أن ینتدب

کلا ولا من حقه التطوع عن نفسه والشیخ لا یُتَّبع (۲)

لا تجب الحجةُ غیر مرَّه واحدةٍ وهی أقل القدره

وأوجب الصدوق کلّ عام القصد للمشاعر العظامِ

علی ذوی المکنةِ والیسار مستنداً لجملة الأخبارِ

ورودها عندی علی الاستحباب قال به بالأمس جلُّ الأصحاب

من أجل أن لا یخلو بیت اللَّه من کلّ عبدٍ خاشعٍ أوّاهِ (۳) مواقیت الإحرام

إن کنتَ للفقه القویم حائزْ أحرم من المیقات لا تجاوزْ

یلملمٌ میقات أهل الیمنِ وجحفهٔ للشام عبر الزمنِ

وإنما العقیق للعراقِ نصاً وافتاءً علی الوفاقِ

ومثله میقات أهل نجدِ جاءت به الأخبار دون ردٍّ

وحکم أهل العلم والأفاضلْ میقات أهل الطائف المنازلْ

وذو حلیفةٍ لأهل یثربِ جاءت به أخبارنا عن النبی

دویرهٔ الأهل لأهل مکه حکم تغشاهم بغیر رکَّه

کذا لکم حکمُ ذوی الأبیات ما بین مکّهٔ إلی المیقات

جعرانةٌ عدت لمن یجاور بمکّةٍ حکم جمیلٌ ظاهرْ

وفخٌّ میقات لقوم قول لثلةٍ وفیه جاء النقلُ

وإن تخف علیهم الضر احرم بهم من العرج بغیر مأثم

أو إن تشأ یسراً بغیر عسرِ من جحفةٍ فاحرم وبطن مرِّ

وکل من مرّ بأرض قوم فإنه مثیلهم فی الحکمِ (۴) کیفیهٔ الإحرام:

لا خیر فی الإحرام دون نیهٔ زاکیهٔ طاهرهٔ نقیَّهٔ

وتلبیات أربعٍ فأتِ بها طیبهٔ خالصةً لربِّها ولبسک الثوبین أمرٌ قد وجبْ عن احتیاط ویقال مستحبْ الهوامش:

ما هی الاستطاعة، ومن هو المستطیع؟

۱- ۱ شرح المهذب، ۷: ۳۸- ۳۹.

۲- ۲ المغنى لابن قدامة، ۳: ۲۵۲.

۳- ۳ الوسائل، أبواب وجوب الحج، الباب ۲۰، الحديث الأول.

۴- ۴صحيح البخارى، ۱: ۳۱۹.

ص: ۱۰۷

ما هی الاستطاعة، ومن هو المستطیع؟

جعفر شهیدی

یقول تعالی: «وللَّه علی الناس حجّ البیت من استطاع إلیه سبیلًا» (۱).

یؤم مئات الآلاف من المسلمین مکّة سنویاً، استجابةً لهذه الدعوة الإلهیّة؛ فیقصدون بیت اللَّه لأداء فریضة الحج.

ومن الواضح أنَّ هؤلاء الذین ینزلون جدّة، ومدینة الحاج- بعد أن یقطعوا المسافة بمختلف وسائط النقل، من طائرة وباخرة إلی السیارة- یعدّون أنفسهم من المستطیعین، الذین وجبت علیهم هذه الفریضة الإلهیة.

لقد بلغَ من سموّ هذه الفریضة، وأهمیّتها، أن لا یقتصر توکیدها فی حدود أداء التکلیف الواجب وحسب، وإنما امتد لیشمل حالات الاستحباب والندب.

فالحجُّ أمانة إلهیة، فهو- فی ثقافة المسلمین ووعیهم- الرکن الرابع من أرکان الدین، بعد الصلاة والزکاة والصوم.

فعن الامام أبی جعفر علیه السلام قال: «بنی الإسلام علی خمس: علی الصلاة والزکاة والصوم والحج ...» (۲) لذلک ن قرأ فی توکید الحجّ: «مَن ماتَ ولم یحجّ حجة الإسلام، ولم یمنعه عن ذلک حاجة تجحف به؛ أو مرض لا یطیق الحج من أجله؛ أو سلطان یمنعه، فلیمت إن شاء یهودیاً، وإن شاء نصرانیاً» (۳).

وفی «دعائم الإسلام» عن الإمام الصادق، أنّه علیه السلام سُئل عن رجلٍ له مال لم یحج حتی مات، قال: هو ممَّن قال

۱- ۱ آل عمران: ۹۷.

۲- ۲ أصول الکافی، ۲: ۱۵، باب «دعائم الإسلام»، منشورات المکتبة الإسلامیة، طهران سنة ۱۳۸۸ ه.

۳- ۳ سفینة البحار، ۱: ۲۱۱.

ص: ۱۰۸

اللّٰه «... ونحشره یوم القیامة أعمی» (۱) فقال السائل: سبحان اللّٰه أعمی؟ قال: أعماه اللّٰه عن طریق الجنّة (۲).

ما هی الاستطاعة، ومن هو المستطیع؟

لقد أوضح فقهاء المذاهب الإسلامیّة فی رسائلهم العملیة وکُتب المناسک، الاستطاعة بما مؤدّاه: أن یکون للإنسان مالٌ یزید علی مؤونة عیاله، بحیث یکفیه للذهاب الی مکّة والإیاب، وأن تکون له ولعیاله فضلّة عند رجوعه من الحجّ.

مع مثل هذه الشروط السهلة، رأی الکثیر من المسلمین أنفسهم قادرین علی القیام بهذه الفریضة، والإتیان بهذا الواجب؛ ولهذا السبب بالذات ربّما یعود سبب کثافة المسلمین الذین یقصدون بیت اللّٰه الحرام، حیث کانَ عددهم فیما مضی یبلغ مئات الآلاف سنویاً، أمّا الیوم فهو یزید علی الملیون، یتوجهون من أرجاء الدنیا الی أحد مواقیت الحج.

ومن جهةٍ ثانیة قد تبدو أعمال الحجّ نفسها أیسر من شروط الاستطاعة؛ إذ هی لا تعدو- فی الظاهر- أن یحرم المسلم من أحد المواقیت، ثم یقصد مکّة، وحین یصلها یطوفُ بالبیت سَبعاً، ثم یصلّی رکعتین خلف مقام إبراهیم علیه السلام، فیمضی بعدهما نحو جَبَلَی «الصفا» و «المروة» لیسعی سبعة أشواط، ویقصّ بعدها شیئاً من شعره، أو من أظفاره؛ لیخرج من إحرامه، بعد أن یکون قد أنهی أعمال عمرة التمتع، انتظاراً لأداء مناسک الحج.

وحین یقترب من نهایة العشرة الأولی من ذی الحجّة الحرام، یُحرم من المسجد الحرام، أو من مکّة- عموماً- فی الیوم الثامن، أو التاسع من شهر ذی الحجّة؛ ویذهب الی عرفات لیقف فیها من الزوال حتی غروب الشمس من الیوم التاسع، ثم یفیضُ لیلًا نحو المشعر الحرام؛ لیمکث فیه حتی طلوع الشمس من الیوم العاشر، حیث یتحرکصبیحة الیوم العاشر نحو منی؛ فیرمی جمرة العقبة سبع حصیات، ثم ینحر ویحلق «أو یأخذ شیئاً من شعر رأسه بحسب الرأی الفقهی»، فیتحرک نحو البیت الحرام لیطوف طواف الزیارة، ویؤدیصلاة الطواف، ثم یسعی بین الصفا والمروة، ثم یطوف طواف النساء، ویؤدیصلاته، وبعد أن ینتهی من ذلک یعود الی منی؛ لیبیت فیها لیلة الحادی عشر، ویمضی نهارهُ فیها، ثم یبیب لیلة الثانی عشر ویمکث حتی منتصف النهار، علی أن یرمی الجمرات الثلاث کلّ واحدة سبع حصیات، فیُتم بذلک فریضة الحج المبارکة.

الذی یبدو من هذا الاستعراض الوجیز أنّ شروط الاستطاعة تتسم بالکثیر من الیسر والسهولة؛ وأیسر منها وأسهل أداءً نفس مناسک الحج. بید أنّا نسأل: إذا کانت الاستطاعة، وأعمال الحجّ بهذا المستوی من البساطة والیسر؛ فلماذا عُدّ الحجُّ کما فی روایة ابن عباس نوعاً من الجهاد؟ (۳)

فی الجواب یجب علینا أن ننتبه الی أنَّ ما تتحدَّث عنه کُتب الفقه، ومناسک الحجِّ، یقتصر علی بیان الأحکام الظاهریة للمکلّف؛ مما یجب أن یقوم به من خلال الحرکات والسکنات والألفاظ. أمّا حقیقة الحجِّ، وأبعاده المتکاملة فهو ما یجدر بنا أن نتقصّاه فی الکتب الأخلاقیّة، وفی التعالیم العملیة لأئمة أهل البیت علیهم السلام.

ونقطة البدایة هی أنّ المکلّف قبل أن یتعلق به تکلیف فریضة الحجّ، هو مسلم؛ وأنّ للمسلم فی السُنّة تعریفاً محدّداً واضحاً.

۱- ۱ طه: ۱۲۴.

۲- ۲ بحار الأنوار، ۹۹: ۹، الروایة ۶، مؤسسة الوفاء، بیروت.

۳- ۳ کنز العمال، کتاب الحج، حدیث رقم ۱۱۷۸۷، ۵: ۴ الطبعة الجدیدة.

ص: ۱۰۹

أما لماذا توکید السّنّة بالذات فیما تَرسمهُ من حدودٍ واضحة للمسلم؟

فذاک یعود الی أنَّ تعریف المسلم فی کتاب اللَّه، وسنة رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم وأخبار أهل البیت علیهم السلام یکشف عن علاقة تلازم بین الإجمال والتفصیل.

فالمسلم فی کتاب اللَّه یحملصفة المسلم لجهة مشارکته فی الحقوق السیاسیة، والاجتماعیة الثابتة لمجتمع المسلمین.

أما فی السّنّة فهو عنوانٌ یحمِله لجهةِ ما یضطلع به من أهلیة، وجدارة للارتقاء الی مستوی هذه الصفة السامیة، بحیث یکون إنساناً مؤمناً، تتسق شخصیته مع المواصفات التی یتحدّث بها الإمام الصادق علیه السلام للإنسان المسلم.

فمثل هذا المسلم إذا أراد أن یؤدی فریضة الحج، فإنّ علیه أن یؤدیها کما تتحدّث عنها، وعن فلسفتها کُتبُ الأخلاق الإسلامیّة، وهو حینئذٍ یُمارس عملًا جهادیاً، یستلزم بذل الجهد وتقدیم التضحیة والفداء فی کلّ لحظة وآن.

وحین یتمخَّض الحجُّ عن بذلٍ وعطاءٍ، وعن ممارسةٍ جهادیةٍ واعیةٍ، یکون حجّاً واقعیاً متطابقاً فی معالمه مع ما ورد فی سنة رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم، وفی أخبار أهل البیت، فعن الإمام جعفر الصادق علیه السلام: «إذا أردتَ الحجَّ فجرّد قلبک للَّه- عزّ وجلّ- من قَبل عزمک، من کلّ شاغل وحجاب حاجب، وفوّض أمورَک کُلَّها الی خالقک، وتوکّل علیه فی جمیع ما یظهر من حرکاتک وسکناتک، وسلّم لقضائه وحکمه وقدره، ودَعِ الدُنیا والراحة والخلق» (۱).

وفی الموسوعة الحدیثیة (مستدرک الوسائل) (۲) حدیثٌ علی شکل سؤال وجواب بین الإمام علی بن الحسین السّجاد علیه السلام والشبلی، تصب دلالاته فی ضرورة احراز الشروط المعنویة للمناسک، ورعایتها الی جوار أداء الظواهر.

وقد یکون هناک کلام حول شخصیة الشلبی وفیما إذا کان الشخصیة الصوفیة المعروفة التی عاشت فی الفترة بین ۲۴۷ ه. ق- ۳۳۴ ه. ق، وبالتالی لا یمکن أن یکون هذا الشخص هو المعنی؛ لتقدّم وفاة الإمام السّجاد علیه، أو أنَّ هناک شخصیة أخری عاشت فی المدینة، وعاصرت الإمام زین العابدین علیه السلام دون أن تحفل بها کتب التراجم والتأریخ ...؛ قد یکون ثمة کلام فی کلّ ذلک، بید أنَّ ما یعنینا من الخبر هو مضمونه، الذی یؤکد حقیقة الحجّ من خلال رعایة شروطهِ المعنویة فی مُوازاة الالتزام بظواهر المناسک.

مرّةً أخری: ما معنی الاستطاعة؟

تحدّثنا فی مطلع البحث عن الاستطاعة، وذکرنا أنّ معاییرها فی البحث الفقهی ترتکز علی إحراز القدرة المالیة والبدنیة اللازمتین، وضمن ما هو محدَّد فی الکتب الفقهیة. بید أنَّ ما نحتاج الی تحصیله قبل ذلک هو استطاعة من نوعٍ آخر لا تختصّ بزائری بیت اللَّه، وإنما یتوجب علی کلّ مسلم أن یحرزها فی شخصیته ووجوده.

هذه الاستطاعة التی نعنیها تتفرع الی:

۱- استطاعة علمیة: ویمکن تلخیص مؤدّاها بالسؤال التالی: ماذا علیّ أن أعمل؟

۱- ۱ سفینة البحار، ۱: ۲۱۳.

۲- ۲ المستدرک، ۱۰: ۷۲- ۱۶۶، طبعة مؤسسة آل البیت، قم.

ص: ۱۱۰

۲- استطاعة أخلاقية: ويمكن تلخيص محتواها بالقول: ما هو السبيل لتطبيق ما أعرفه؟

إنَّ شريعةً ينطوى تُراثُها المعرفى فى الأخلاق العمليـة على كُتبٍ من قبيـل: المحجـة البيضـاء، وإحيـاء علوم الـدين، ومعراج السـعادة، وكيمياء السعادة، والمقامات العليـة، وعشرات الكتب الأخلاقيـة الأخرى؛ وإنَّ ديناً أوجب على المسلمين كافة طلب العلم؛ حريٌّ أن يدفع كلّ مسلم إلى التوافر على الاستطاعة فى بُعدَيْها العلمى والأخلاقى، فى فترة تسبق مرحلة البلوغ والتكليف الشرعى، أو أن يُحرز على الأقل مقدمات تحصيلهما تدريجياً فى فترةٍ زمنية لا تطول كثيراً. بيدَ أنَّ الذى يبعث على الأسف هو أنَّ الكثير من المسلمين لم يهتم بهذين البعدين.

فالإنسان المسلم الاعتيادى يبلغ فى العادة مرحلة الاستطاعة المالية حين يتجاوز أكثر من نصف عمره، أى فى عمرٍ يتعدى فى الأغلب الأربعين. وحينئذٍ يبدأ بالتفكير فى تعلّم أحكام الحجّ، ثم لا يقدم لذلك أكثر من ساعات معينة فى أيام معدودة!

إننا نعرف جميعاً أنَّ التعلّم فى هذه السنّ المتأخرة يتّسم بصعوبة كبيرة، ومهما بذل السادة العلماء الذين يُرافقون قوافل الحجيج من جهد، فانَّ المسألة تبقى أقرب إلى المستحيل خصوصاً إذا أضفنا الى ذلك، أنَّ المهمة لا تقتصر على تعلّم مناسك الحجّ وحدها، وإنّما يتبعها- أيضاً- تعلّم القراءة والأجزاء الأخرى فى الصلاة الواجبة، وكأنَّ الصلاة أصبحت- الآن- واجبةً على أمثال هؤلاء، ولم تكن كذلك قبل إحراز الاستطاعة المالية للحج.

يجب أن نعى جيداً؛ أنَّ التجربة العملية، أثبتتصعوبة أن يتعلّم غيرِ العربى النطق بحروف العربية من مخارجها الصحيحة، حين تتصلب بشكل نهائى أوتارُ حنجرته الصوتية فى السنة الخامسة عشرة فما بعد؛ لذلك تذهب هباءً جهود العلماء الأفاضل، فى أن يتعلّم هذا المسلم- غير العربى- الذى مرَّ من عمره سبعون عاماً، على أداء معيّن للّغة، أداء الحروف بشكلها العربى الصحيح، بحيث ينطق- مثلًا- «أنَّ الحمد والنعمة» بصورة سليمة لا تستبدل الحاء بالهاء ولا تستبدل الضاد فى «ولا الضالين» بالزاء مثلًا.

أما لو كانت مهمة تعلّم القراءة الصحيحة، والأحكام الشرعية، قد بدأت مع مرحلة البلوغ الشرعى، وترافقت وإيّاها، فمن المستبعد أن تظهر نظائر هذه المصاعب فى المستقبل.

علينا أن نذعن أنَّ مدى اهتمامنا بأحكام وآداب ديننا الحنيف، هو دليل يكشف بوضوح مقدار ارتباطنا بهذا الدين، وصلتنا الحقيقية به. فما نراه من أعمال بعض الحجّاج وسلوكهم فى مكّة والمدينة، يكشف بوضوح ضآلة وعيهم الدينى، وسطحية ما يعرفونه من معارف دينهم، وأحكامه وآدابه. وهذه الحالة بدورها دالة على عدم اعتناء المجتمع الإسلامى بالإسلام، فيما ينطوى عليه نظامُه التشريعى من فقه وأحكام، بالإضافة إلى الجهل بنظامه الأخلاقى.

إنّ ما يبعث على الأسف أكثر، هو جهل الكثير من الحجاج بوضع البلد (الحجاز) وما تكتنف مجتمعه من تقاليد وآداب، وما تسوده من معايير وضوابط. بالإضافة إلى الجهل بالمواقع التى يجب أن تزار، والآداب الخاصة بهذه الأماكن.

أمّا أن يرتقى الوعى الى مستوى الإحاطة بالوضع الاقتصادى، والموقع الجغرافى للحجاز، والحرمين الشريفين، مقارنة بالبلدان الإسلاميّة الأخرى، فهذه لا تعدو أن تكون- بالنسبة لعامة الحجيج- سوى أمنية بعيدة المنال!

دو فصلنامه «ميقات الحج»،ص: ۱۱۱

إنَّ ما يفضى اليه الجهل بالآداب السائدة فى المجتمع الحجازى؛ لا يقل فى آثاره السلبية، عن النتائج المترتبة على الجهل بأحكام الحجّ ومناسكه نفسها.

فلو افترضنا أن تاجراً أراد أن يبيع سلعاً لا- يتجاوز ثمنها الكلّى قيمةَ ما يصرفه حاج واحد فى الحجاز، لقام أولًا باستطلاع السوق، والتعرف على حاجاته وأحاط بوضع السلعة وبسبيل انتاجها، وكيفية استهلاكها وهكذا! فلماذا لا يكون حال الحجّاج حال هذا التاجر؟

إنَّ سلوك الحجاج فى السنوات الأخيرة، الذى ينبغى أن يعكس مستوى وعيهم الدينى، ودرجة معرفتهم بأحكام الإسلام، ومدى

التزامهم باخلاقياته، كشف للأسف عن اهتمامٍ مميَّز بالسلع والبضائع، وبهذا افترق سلوكهم- الى حدٍ كبير- عن منهج أئمتنا وسلوكهم، وما يتوقعونه منّا خصوصاً فی سفر الحجّ!

لقد دأبت الصحف على أن تنشر أحياناً بعض مصاديق السلوكيات الخاطئة للحجاج، وتوجّه اللوم اليهم، بيد أنّی شخصياً لا أميل الى لومِ هؤلاء الحجاج، بقدر ما أميل الى تحميل نفسی وأمثالی مسؤوليّة التقصير عن تعليم هؤلاء.

وبعد، فإنَّ الصورة تبدو واسعة متعدّدة الجوانب والأبعاد، فبعض الحجّاج ذهب إلى الحجّ، وعاد دون أن يدرك شيئاً، بل إنَّ بعضهم يجهل- حقاً- الأماكن التی ذهب اليها، وبعضهم لا يستطيع أن يشير لک على مواقع مكّة والمدينة على الخريطة الجغرافية، فضلًا عن أن يحيط بأوضاع هاتين المدينتين قبل الإسلام، وما أصابهما من تغيرات بظهور الإسلام.

إن مقتضى كون الحجّ ركناً من أركان الإسلام، هو أن نبنی ممارستنا للفريضة على قواعد رؤية ثابتة مستقرة ..

وكونه عبادة، علينا فی ممارستها أن نحذر الوقوع فی المحظور، فمع المحظور يصعب التكليف. وما نلاحظه فی واقع الممارسة العملية هو أنّه لا تكاد تخلو سنة من السنين من ظهورصعوبات أمام الحجاج، وقد تتجاوز المسألة حدود الصعوبات الى ما هو أفدح من ذلک، كما حصل بالنسبة لبعض الفجائع المرعبة التی عاصرناها!

الهوامش:

ص: ۱۱۱

ص: ١١٢

دور علىّ فى فتح مكة

الشيخ عفيف النابلسى

مقدمة:

هل بإمكانك كتابة التاريخ الإسلامىّ، أو الفقه الإسلامىّ، أو أى شىء فى الإسلام دون علىّ عليه السلام؟ وهل باستطاعتك أن تسرد وقائع التاريخ دون المرور بعلى؟ وهل غنى السيف إلا فى يده، أو طرب القلم إلا من مداده؟

وهل يُحاصَر علىّ فى فتح مكة أو هوازن وحنين؟ وهل هناك شاردة أو واردة فى هذا الإسلام المديد المالئ الدنيا وشاغل الناس إلا كان على أصل وجودها أو همزة وصلها؟

فهو فى المعارك ضيغمها، وللرايات قائدها، وفى الحملات فارسها المرتجى، وهو فى الشجاعة أوحدها، وفى الكلمة مبدعها، وفى الليالى محييها وعابدها؛ فهو راهب الصومعة المتصوف بل المستغرق فى الصوفية، وهو فى المعركة الضارب بالسيفين الطاعن بالرمحين .. جمعت فيصفاتك الأضداد. وهو فى الحلبة لاعبها وأولها، وفى الفصاحة سحبانها، وأمّا فى البلاغة فهو ابن بجدتها وقطب رحاها؛ ويكفيك منه نهج بلاغته، وسماء فصاحته، وبعد أن انقطع الوحىُ وحلّق النبيّصلى الله عليه و آله و سلم إلى جنة الخلد، هطلت عليه وحده ديمُ المعرفة، وأصبح مصدرها الوحيد- فقهاً علماً أدباً فضلًا زهداً وورعاً- فهو الاستاذ فى المسجد والامام فى المحراب، والخطيب على المنبر يتكلم والحقّ فى لسانه، ويحارب والحقّ فى سنانه- كيفما مال كان الحقُّ معه وفيه- «علىٌّ مع الحقّ والحقُّ مع على يدور معه كيفما دار».

وهل يمكننى بعدُ أن أتحدث عن علىّ فى غزوه أو حربه أو يختصر على قضية أو واقعة أو سانحة أو قصة تاريخية أو قصيدة مديح يضوع منها الأدب أو مآثره يفوح منها طيب ذاك النسب.

وإذا كان على شامخاً شموخ الجبال، ومجنحاً تجنّح الصقور، وعالياً كالقمر ومشرقاً كالشمس وكريماً كالريح الهبوب، وعطوفاً كالأم ورؤوفاً كالأب وصلباً كالصخر وكبيراً كالجبل، وإذا كان على محور هذه الأمة وميزانها وصمام أمانيها، ونجمها المضىء وشمسها المشعة، وإذا كان منهجه التواضع وملبسه الاقتصاد وطعامه الجشب، وطريقته الزهاده، يتفجر العلم بين يديه وتحنو شأبيب البلاغة حواليه.

إذاً ماذا تقول فى على؟ وقد قال الكتّاب فى المتنبى: إنه مالئ الدنيا وشاغل الناس، وهل المتنبى إلا نقطة من ذلك البحر الخضم أو حصاة من ذلك الجبل الأشم؟

فيا سيدى عذراً عذراً إذا جفّ القلم، وحوصر الكلم وحَبا البيان وتلعثم اللسان، فعذرنا فيك أنك من لا يُنال

ص: ۱۱۳

کعب قداسته، ولا یلحق غبار سیاسته، یکل فرسی عن الجری فیک، ولسانی عن القول بقوافیک، غیر أنی لا أعدم القارئ ولا أحرمه لمحةً من بهاک ولفتةً من سناک.

هذه من علاه إحدی المعالی وعلی هذه فقس ما سواها البدایهٔ:

أحداث الفتوحات مرتبط بعضها بالآخر، کلما اکتشفتَ فتحاً کلما هان علیک کشف الفتوحات الأخری، حیث لا یمکنک أن تتحدث عن جانب دون التحدث عن جوانب أخری. ومن هنا لا یمکننا الحدیث عن فتح مکهٔ دون الالتفات الی الأسباب والأحداث التی تهیأت وهیأت موسم الفتح، والأحداث التی کانت قبل الفتح بسنهٔ أو سنتین. وقوهٔ قریش وأوضاعها الاقتصادیهٔ، ومکانتها بین العرب. ومکهٔ وأثرها أو البیت وأثره فی قوهٔ قریش.

والارستقراطیهٔ القرشیهٔ. وأهمیهٔ مکهٔ ومستقبل الدعوهٔ.

إنّ مکهٔ لم تغب لحظهٔ واحدهٔ عن قلب رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم، وکم تمنی لو أتیح له الظرف لیفتحها ویجعلها قاعدته الکبری، ولکن أنی له ذلک وقریش آخذهٔ بالعناد، ویزیدها شرّاً بل ولوغاً فی الشرّ أن مکهٔ بعیدهٔ عن طرق المواصلات الدولیهٔ. والآخرون من الدول العظمی لا یهمهم ما یحدث ما دام لا تضر بمصالحهم.

ویری الامتیازیون وبحسب التعبیر القرآنی المترفون فی قریش: أن هذه البلدهٔ واجتهم وتجارتهم ومزرعتهم، ولیس منصالحهم أن یتنازلوا عنها لمحمد أو غیره من المصلحین. فمن مصالحهم الدفاع عنها وعن أمجادها ومحاربهٔ أی دعوهٔ تحاول أو تفکر فی السیطرهٔ علیها.

والنبیُّصلی الله علیه و آله و سلم لا یرید لقریش أن تنکسر، ولا یرید لمکّهٔ أن تندثر، وإنما یرید مکّهَ لیعید لها اشراقتها، ویرید لقریش أن تدخل فی الإسلام وتعبد ربها؛ لتظهر عزتها بین العرب، ویرید للإنسانیهٔ أن تتجه اتجاهاً خالصاً نحو اللّه.

من هنا کان یقتنص الفرص لیلعب هذا الدور. وصبر ما بوسعه من الصبر، وتجرع المرارهٔ عقیب المرارهٔ حتی تفتح مکهٔ دون حرب، وانتظر الیوم المناسب یوم تقوی دولته، وتضعف شوکهٔ قریش لتنهزم أمامه دون قتال، وتنتهی معرکهٔ الإسلام ضد أعدائه، ویدخل الناس فی دین اللّه أفواجاً.

وظلّ رسولُ اللّهصلی الله علیه و آله و سلم مستمراً فی دعوته، جاداً بمتابعهٔ قضیته، عاملًا غیر عاطل، والإسلام یزداد رسوخاً والدین انتشاراً، وتشتد قوهٔ المسلمین، ویبدأ النبیّصلی الله علیه و آله و سلم ببعث الرسائل الی ملک الفرس (کسری) وملک الروم (قیصر) یدعوهما فیها الی الإسلام- أسلم تسلم- وتواصلت الغزوات المبارکهٔ والسرایا التی یقودها رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم بنفسه حتی خضعت لسلطانه واحاتُ الحجاز وصحاریه، والقبائل العربیهٔ التی أخذت تتری الیه لتعلن إسلامها بین یدیه إلا قریش التی لم ترجع عن عنادها وجبروتها، ولکن رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم کان یأمل أن یأتی الیوم الذی تنضم فیه قریش الیصفوف المسلمین وأن الزمن کفیل بمساعدته.

وبدأت رحی الأیام تدور دورتها، وبدأ محمد یملک العقول والقلوب وإذا بالعرب الأعداء قد ترکوا عداءهم له

ص: ۱۱۴

وتحولوا الیصفوف المسلمین، وإذا بهم من أکثر المدافعین عن سلطان الإسلام. وتسقط خیبر ویقوی رکن الإسلام ویخاف القرشیون ولکنهم ظلوا علی عنادهم.

فتح مکّة:

إن الدخول الجماعی فی الإسلام الذی شهدته قبائل العرب المتاخمة لبلاد الشام بعد غزوة مؤتة لم یهز قریشاً وحلفاءها، ولم تفکر قریش بما قد تصیر إلیه الأحوال فی قاصِ الجزیرة وأدناها، فظلت علی وهمها بأن المسلمین قد هزموا فی موقعة مؤتة هزیمةً نکراء، وأنهم باتوا فی حالةٍ یرثی لها، أقلها الضعف والهوان وهذا ما أعادها الی مراجعة حساباتها وردّها إلی التفکیر بحرب محمدصلی الله علیه و آله و سلم، ونبذ مواقفها السابقة معه، وهی المواقف التی أجبرت فیها بعد الحدیبیة علی التخلی عن السیطرة التی کانت لها. وقد أفقدتها تلک المواقف الهیبة التی کانت تتصف بها، وخسرت مکانتها الأولی بعد عمرة القضاء فما علیها إذن والحالة تلک إلا العمل لاستعادة تلک السیطرة کاملة، واسترداد الهیبة والمکانة اللتین کانتا لها غیر منقوصتین، وهذا لن یکون إلا بمقاومة محمدصلی الله علیه و آله و سلم مقاومةً ضاریةً، والشروع فی قتال من دخلوا معه بحکم عهد الحدیبیة (۱).

صلح الحدیبیّة:

کانصلح الحدیبیة بین رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم وقریش قد قضی أنّه مَن أحبَّ أن یدخلَ فی عهد محمد وعقده فلیدخل فیه، ومَن أَحب أن یدخل فی عهد قریش وعقدهم فلیدخل فیه. وکانت خزاعة قد دخلت فی عهد محمدصلی الله علیه و آله و سلم، ودخلت بنو بکر فی عهد قریش، وکانت بین خزاعة وبنی بکر ثاراتٌ قدیمةٌ سکنت بعدصلح الحدیبیة، وانحاز کلٌّ من القبیلتین الی فریق المتصالحین، فلما کانت مؤتة- وصل لقریش أن المسلمین قُضی علیهم- خُیّل الی بنی

۱- ۱ مجمع البیان الحدیث، ۲: ۶۱۱.

ص: ۱۱۵

الـدِّیل من بنی بکر بن عبد مناة أن الفرصة سـنحت لهم، لیصـیبوا من خزاعةبثاراتهم القدیمة، وحرّضـهم علی ذلک جماعة من سادات قریش منهم عکرمة بن أبی جهل، وأمدوهم بالسلاح.

وقوع الحرب:

وبینما خزاعـة ذات لیلـة علی ماء لهم یـدعی الوتیر إذ فاجأتهم بنو بکر فقتلوا منهم جماعة، ففرت خزاعة الی مکّة ولجأوا الی دار بُدَیْل بن ورقـاء الخزاعی، وشـکوا له نقض قریش، ونقض بنیبکر عهـدهم مع رسولاللّهصـلی الله علیه و آله و سـلم، وسـارع عمرو بن سالم الخزاعی فغدا متوجهاً إلی المدینة حتی وقف بین یدی محمدصلی الله علیه و آله و سلم وهو جالس فی المسجد فقال:

لا هُمَّ إنّی ناشدٌ محمدا حلفَ أبینا وأبیک الاتلدا

إن قریشاً أخلفوک الموعدا ونقضوا میثاقک المؤکّدا

هم بیتونا بالعراء هجّدا فقتلونا رکعاً وسُجّدا فقال له النبیّصلی الله علیه و آله و سلم: نُصرت یا عمرو بن سالم!

ثم خرج بُدیل بن ورقاء فی نفر من خزاعة حتی قدموا المدینة فأخبروا النبیّصلی الله علیه و آله و سلم بما أصابهم، وبمظاهرة قریش بنی بکر علیهم، عند ذلک رأی النبیّصلی الله علیه و آله و سلم أن ما قامت به قریش من نقض عهده لا مقابل له إلا فتح مکّة.

وعـاد وفـد خزاعـة فرحـاً بمـا حظی من التأییـد، وظهرت مخـاوف قریش، واجتمع حکماؤهـا وقرروا بعث أبی سـفیان لتجدیـد العهـد، وتمدیده الی عشر سنوات.

أبو سفیان فی المدینة:

تـأهب أبو سـفیان، وسـار من وقته وسـاعته حتی وصـل المدینـة علی وجل خصوصاً بعـدما رأی بُـدیلًا ورفاقه علی بعض المیاه، وجعل وجهته ابنته أمَّ حبیبة زوجة النبیّصـلی الله علیه و آله و سـلم التی تزوجها النبیُّ بعدما ترکها زوجُها وتنصر فی أرض الحبشة فخطبها إلی النجاشی. وعادت بعد فتح خیبر مع جعفر بن أبی طالب علیه السلام وجماعته الذین کانوا مهاجرین إلی الحبشة.

وأمُّ حبیبـة کـانت قـد عرفت مـا حـدث، وعرفت مـا نوی علیه النبیُّصـلی الله علیه و آله و سـلم، فلم تهتم بأبیها المشـرک. ولما أراد أن یجلس علی فراش النبیّصلی الله علیه و آله و سلم طوته عنه فسألها أبوها: أطوته رغبةً بأبیها عن الفراش أم رغبةً بالفراش عن أبیها؟

فکـان جوابهـا: هـذا فراش رسـول اللّهصـلی الله علیه و آله و سـلم، وأنت رجـل مشـرک نجس، فلم أحبّ أن تجلس علیه. وفوجئ أبو سفیان بما لم یکن یتوقعه من ابنته التی وجهت إلیهصفعةً جعلته ذلیلًا مهیناً فقال لها: لقد أصابک بعدی شرٌّ، قالت:

بل هدانی اللّه تعالی للإسلام، وأنت تعبد حجراً لا یسمع ولا یبصر، وا عجباً منک وأنت سید قریش وکبیرها! قال:

أأترک ما یعبد آبائی وأتبع دین محمد؟

وخرج أبو سفیان بعد هذه الصفعة مکلوم الفؤاد مضعضع الفکر، مهزوز الجانب مهیض الجناح، لا یدری ماذا

ص: ۱۱۶

یفعل، أیرجع قبل أن یحقق شیئاً، أو یستمر فی محاولة یائسة. فذهب إلی المسجد لعلّه یری محمداًصلی الله علیه و آله و سلم ودخل علی الفور یکلمه فی توثیق المعاهدة وزیادة المدة، إلاـ أن الرسولصلی الله علیه و آله و سلم لم یرد علیه بشیء، وألح أبو سفیان والنبیصلی الله علیه و آله و سلم لا یجیب، وأصابته الحمی من هذه الصفعة الثانیة فخرج علی بعض مَن کان یعرف من الصحابة، فلم یر من یساعده علی مهمته، أو یتکلم مع النبیّصلی الله علیه و آله و سلم حوله.

دور علیّ علیه السلام:

الدور الأول:

وکان لابدّ لأبی سفیان- الذی یعرف مواقع القوة- من أن یلجأ الی بیت علیّ حیث دخل علی أمیر المؤمنین علیه السلام فوجده مع زوجته وعندهما ولداهما الحسن والحسین علیهم السلام.

فقال: یا علی! أنت أمسُّ القوم بی رحماً، قد جئتُ فی حاجة؛ فلا أرجعنّ کما جئتُ خائباً، اشفع لنا عند محمدصلی الله علیه و آله و سلم.

فقال علی علیه السلام: ویحک یا أبا سفیان! واللّه، لقد عزم رسولُ اللّهصلی الله علیه و آله و سلم علی أمر فلا نستطیع أن نکلّمه فیه.

وأدرک أبو سفیان حراجة الموقف فالتفت الی فاطمة علیها السلام قائلًا: وأنت یا بنت محمد! هل لکِ أن تأمری ابنک هذا- یعنی الحسن- فیجیر بین الناس، فیکون سید العرب الی آخر الدهر؟

قالت فاطمة علیها السلام: واللّه، ما بلغ ابنی هذا أن یجیر بین الناس، وما یجیر أحد علی رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم.

قال: یا أبا الحسن! إنی أری الأمور قد اشتدّت علیّ فانصحنی.

فقال: واللّه، ما أعلم شیئاً یُغنی عنک، ولکنک سید بنی کنانة، فقم فأجر بین الناس، ثم الحق بأرضک.

قال: أو تری مغنیاً عنی شیئاً؟!

قال أبو الحسن: لا واللّه، ما أظنّ؛ لکنی لا أری غیر ذلک.

وقام أبو سفیان فأتی المسجد، قائلًا: أیها الناس! إنی قد أجرتُ بین الناس، ولم یلبث أن خرج برکب بعیره، وینطلق عائداً الی مکة، خالی الوفاض، یجرّ أذیال الخیبة والهزیمة، إذ لم یستطع أن یحقق شیئاً مما جاء الیه.

وقدم أبو سفیان علی قومه، فسألوه ما وراءک یا أبا سفیان؟

قال: جئت محمداً فکلمته، فو اللّه، ما ردَّ علی شیئاً، ثم جئت بعض أصحابه فوجدتهم أعدی الناس إلیّ، ثم جئت علیّ بن أبی طالب فوجتُه ألینَ القوم، وقد أشار علیّ بشیءٍصنعته، فو اللّه، ما أدری هل یغنینی شیئاً أم لا؟

قالوا: وبما أمرک؟

قال: أمرنی أن أُجیر بین الناس ففعلت.

قالوا: فهل أجاز محمدٌ ذلک؟

قال: لا.

قالوا: ما زاد الرجل علی أن لعب بک، فما یغنی عنا ما قلت (۱).

أرأیت إلی علی الشاب النابغة الذی یزن الرجال بمیزان، ویعرف کیف یضرب ضربته الذکیة؟ فهو کمن یطعن

۱- ۱ خاتم النبیین، ۲: ۶۲۰- الطبری، ۲: ۱۶۳.

ص: ۱۱۷

خصمه فى المعركة فيرديه بكلامه وموقفه ودرايته، ويجعل الخصم المجرب قائد القوم وكبيرهم ولداً وطفلًا لا ـ يدرى ماذا يفعل. أرأيت علياً كيف طعن خصمه السياسى دون أن يخرج السيف من غمده؟ أرأيت إلى العقل الموجه، كيف يفعل فعلته فيشوش على خصومه ما يجعلهم حيرى لا يدرون ما يفعلون؟

هكذا تعامل على العبقرى الشاب مع شيخ قريش وسيد كنانة، وأرجعه طفلًا. وهكذا فهم أبو سفيان، وفهم معه قومه أن علياً لعب بأبى سفيان، وضربه ضربةً موجعة بعد الضربتين اللتين تلقاهما من ابنته أمّ حبيبة ومن الرسولصلى الله عليه و آله و سلم هذا هو الدور الأول الذى لعبه على لتسفيه أبى سفيان واذلاله وجعله كالطفل الصغير.

الدور الثانى:

بدأ رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم يخطط لغزو مكة وفتحها، فأمر بشحذ السلاح وجمعه، وبعث إلى القبائل المحيطة بالمدينة أن يتأهبوا ويأتوا إلى المدينة، فكانت الوفود تأتى ولكنها لا تعرف وجهة المسير، ووضع الحرس والعيون على المدينة يراقبون كل خارج منها وداخل إليها، ويفتشون من يمرّ ليلًا ونهاراً. وبينما هو يتهيأ للمسير نحو مكة تسرّب الخبر الى أحد أصحابه وهو حاطب بن بلتعة الذى رأى أن رسول اللَّه إذا ذهب بهذا الجيش الجرّار الى مكة ربما تكون نهاية قريش وعزّ عليه ذلك، وكان له فيها أرحام وأقارب، وقد تكون العاقبة لقريش فيكون له عندها يد. هكذا أصحاب النفوس الضعيفة يفكرون فى علاقات ذاتية حتى فى أحرج الأوقات، ويتخذ لنفسه حصناً يأوى إليه عند تقلبات الأحوال، وهكذا يقوم حاطب بن بلتعة بعملية خيانية لا عهد للمسلمين بها، وهى ايصال أخبار عسكرية سرية الى الأعداء.

وفكّر حاطب فى ايصال الخبر كثيراً؛ لأنّه خاف من تفشى الأسرار، وافتضاح أمره، فعمد الى امرأة قينة مغنية أغراها بالمال، وكان هواها فى قريش، ولم تكن أسلمت بعدُ، واتفقا على كيفية وضع الكتاب فى ضفائرها لقاء أجر باهض ونسى حاطب أن اللَّه مطلعٌ على كلّ شىء، وأن الوحى يوصل الأخبار السرية بأقل من لمح البصر. وكان الكتاب يحتوى على أسرار عسكريّة بالغة الخطورة عن أهمية الجيش، وعدد الفرسان والرجالة، وكثرة السلاح والخيل والبغال والجمال. وخوفاً من التفتيش العسكرى وضعت الكتاب مطوياً فى ضفائرها، بحيث لا يمكن لأحد حتى- لو فتشها- أن يهتدى إلى الكتاب، ثم خرجت تسلك طريقاً بعيداً عن عيون الحراس، توهمهم بالحشمة والحياء، وتتستر بهذه المظاهر، لتخفى جاسوسيتها على الدين وعلى الرسول.

وما إن غادرت المدينة حتى نزل الوحى المبارك يخبر النبيصلى الله عليه و آله و سلم بالكتاب، وأين موضعه، وما فعل حاطب، فدهش النبيّصلى الله عليه و آله و سلم لهذه المفاجأة، وهذه الخيانة من أحد أصحاب بدر، فدعا علياً على الفور، قائلًا له: إن أحدَ أصحابى كتب إلى أهل مكّة يطلعهم على أخبارنا، وقد كنت سألتُ اللَّه عزّ وجلّ أن يعمى أخبارنا عنهم، وقد حملت الكتاب امرأة سوداء فهيا أدركها وانتزع منها الكتاب. ثم استدعى الزبير وقال له: اذهب مع ابن عمتك وأعنه على تخفيف مأربه، وخرج على ومعه الزبير فأدركاها فى (الخُليقة)، وتقدم منها الزبير فسألها عن الكتاب فأنكرت عليه

ص: ۱۱۸

التعرض لها من جانب، والسؤال عما لا یعنیه من جانب آخر، کما أنکرت علیه هذه التهمة الشنیعة، مما جعل الزبیر یتردّد أولًا، ثم یعود الی علیّ یُقنعه بأنه لیس عندها شیء، بعدما بکت المرأة لهذا التعرض والإهانة، وبدأت دموع التماسیح علی خدیها، وأوشک قلب الزبیر أن یرقّ لها فارتد نحو علیّ یقول: لَم أرَ معها کتاباً یا أبا الحسن، ولم یلتفت الزبیر الی لازم قوله هذا، الذی یعنی تکذیب الوحی، وتکذیب الرسولصلی الله علیه و آله و سلم وما کاد علیّ یسمع هذا القول من الزبیر حتی غضب وصاح: ویحک یا زبیرا! یخبرنی رسولُ اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم بأنها تحمل کتاباً، ویأمرنی بأخذه منها، ونأتی لذلک ثم تقول أنت: إنه لا یوجد معها کتاب!

وتظهر قدرة علی علیه السلام وفراسته، وتصدیقه المطلق الذی لا شک فیه، ویظهر ضعف الزبیر وأنه غیرصالح للقیام بهذا الدور إلا برفقة علی علیه السلام. ولم یلبث علیّ علیه السلام أن اخترط السیف، وتقدم من المرأة قائلًا وعیناه تقدحان شرراً قائلًا لها:

أَما واللَّه، لتخرجن الکتاب، أو لنکشفنک، ثم لاضربن عنقک بسیفی هذا، وحاولت المرأة أن تراوغ کما راوغت مع الزبیر، ولکنها رأت عناداً واصراراً، مما جعلها تتأکد بأن الرجل متأکد من وجود الکتاب الذی تحمله، وأنها إن لم ترضخ للطلب سوف تنال عقابها المناسب، وقد یکون هو الموت، وإزاء هذا التخوف علی حیاتها قالت له: أعرض بوجهک عنی، وأشاح علی بوجهه عن المرأة الماکرة فاذا بها تحل ضفائرها، وتخرج منها الکتاب، ثم تدفعه الی علیّ، فیأخذه علیٌّ علیه السلام دون أن یقول لها شیئاً، ثم یأتی الزبیر معه الی رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم یسلمانه الکتاب (۱).

أرأیت معی- أیها القارئ- موقف الزبیر الذی یعنی أنه لو اقتنع بکلام المرأة لکذب رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم الذی لا ینطق عن الهوی، ولکان یعنی أن تفشی الأسرار العسکریة الی الأعداء فیعرفون خطط الهجوم فیفشل.

ولکن الیقین الثابت فیصدر علی بصدق رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم هو الذی جعله یقف موقفاً ممیزاً وحاداً، وأنه غیر مستعد لسماع کلامها، وقبول أی موقف آخر منها؛ لأنه علی یقین بأن الکتاب معها. أخبره بذلک من لا ینطق إلا عن وحی یوحی به إله السماء والأرض، والمطلع علی خفایا الأمور وظواهرها.

وعلیّ هو الحریص کلّ الحرص أن یبقی للجیش الفاتح هیبته حینما یباغت الآخرین، ویغزوهم فی عقر دارهم لتنهی معرکة الفتح دون إراقة دماء. وهیهات هیهات أنی لنا بمثل علیّ وهو النسخة الفریدة والشخصیة الوحیدة فی عالم الیقین والصدق والاخلاص.

الدور الثالث:

بعدما عثر الإمام علی علیه السلام علی الکتاب مع المرأة التی لا تعرف من مضمونه شیئاً، أعمی الأمر علی قریش، فلم تعرف شیئاً عن استعداد الرسولصلی الله علیه و آله و سلم لفتح مکة، وکان النبیصلی الله علیه و آله و سلم قد دعا ربّه أن یعمی أخبار جیشه عن قریش حتی یباغتها کی لا ـ تقع معرکة طاحنة فی مکة. فالنبیصلی الله علیه و آله و سلم یرید الحفاظ علی شرف الحرم، وإن کان أهله یستحقون الذبح، لمعاداتهم الشدیدة لرسول الهدایة، ولکنه محمدٌ رسولُ الإنسانیة، المحافظ علی القیم. فقد هیأ النبیّصلی الله علیه و آله و سلم کلّ مقدمات المعرکة، وأمر الجیوش بالزحف الهادئ، واستمر حتی وصل الی مر الظهران- وقیل إنه بالجحفة- وهناک أمر الجیش بالنزول، وکان الوقت عشیاً فطلب من الناس أن یوقدوا النار، کلّ واحد یشعل ناراً، وکان

۱- ۱ خاتم النبیین، ۲: ۶۲۷- البحار، ۲۱: ۹۴ وکل من ذکرها من المؤرخین.

ص: ۱۱۹

الغرض من هذا اظهار عظمهٔ الجیش، وقوهٔ العسکر بهذه النار التی تری من بعید، حتی تأخذهم الدهشهٔ ولا یفکرون إلا بحمایهٔ أنفسهم إما بالإسلام أو بالهروب من المواجههٔ، ویکون بهذا قد حقّق الفتح الهادئ الذی یحافظ فیه علی شرف الکعبهٔ.

وهناک التحق به عمّه العباس، الذی کان بقاؤه بمکهٔ بأمر النبیّ حیث کان یقدم المعلومات عن قریش، ومظاهرها العسکریهٔ وقوتها الاقتصادیهٔ، وما کانت تکید وتدبر لحرب الرسولصلی الله علیه و آله و سلم.

ولما رأی العباس عظمهٔ هذا الجیش الفاتح وقوته تأکّد لدیه أن الجیش إذا دخل بهذه القوهٔ والعنجهیهٔ ستذهب قریش والی الأبد. فکان یحاول أن یساعد النبیصلی الله علیه و آله و سلم علی الفتح الهادئ حتی لا تراق فی هذا الفتح محجمهٔ دم.

وبینما هو غارق فی التفکیر لاح بخاطره أن یجول علی أطراف المعسکر، لعلّه یری آتیاً أو ذاهباً، یمکنه أن یوصل خبراً لقیادهٔ قریش حتی تأتی وتستأمن لدمها وأموالها، فتحفظ قریش ویحفظ الحرم.

وبینا هو کذلک إذا بأبی سفیان ومعه نفر جاءوا یستمعون الأخبار، وقد أذهلهم ما رأوا من نیران حتی أن بعضهم قال: هذه نار خزاعهٔ، قال أبو سفیان: خزاعهٔ أقل وأذل. وینادی العباس أبا حنظلهٔ! فیجیبه أبو سفیان فداک أبی وأمی بعدما عرفه، وهو مندهش من هول ما رأی عدهً وعدداً، ثم خاطبه ما تری فی أمرنا؟ قال: الإسلام- التحق بی حتی لا یقتلک الناس، وأردفه خلفه مؤمناً له مانعاً قتله حتی وصل إلی الرسول الأکرمصلی الله علیه و آله و سلم، وعرض علیه الاسلام، ولکنه کانصلب الشکیمهٔ، شدید السخیمهٔ یعزّ علیه فقدان اللّات والعزی والهبل الأعلی، وقد حاول عمر بن الخطاب قتله عن طریق إثارهٔ النبیّصلی الله علیه و آله و سلم، وأن اللَّه قد أمکن منه بلا عهد ولا عقد، ولکن العباس الحریص علی الإسلام رأی الحکمهٔ فی بقائه، لیری عزّهٔ الإسلام، وشرف النبی المطرود، وذلهٔ قریش وصغار أبی سفیان، وطلب من أبی سفیان أن یسلم فتمهل، ولکن النبیّصلی الله علیه و آله و سلم قال لعمّه العباس: أبقه عندک اللیلهَ، وآتنی بهصباحاً.

وفی الصباح أسلم بعد محاورهٔ قصیرهٔ، وقال العباس للنبی: إن أبا سفیان رجل یحب الفخر فاجعل له شیئاً، فقال النبیصلی الله علیه و آله و سلم فی معرض توصیاته لرؤساء الجند وقادهٔ الکتائب: مَن ألقی سلاحه فهو آمن، ومَن دخل بیتَه وأغلق بابه فهو آمن، ومَن دخل الکعبهٔ فهو آمن، ومن دخل دار أبی سفیان فهو آمن. وکان الغرض من ذلک أن یذهب أبو سفیان، ویخذل الناس عن الحرب ویجلس فی بیته، لأنه رجل له قوهٔ تحریضیهٔ هائلهٔ علی اثارهٔ البلابل، فاسکته النبیّ بهذه المکانهٔ المتساویهٔ مع رجل أغلق بابه، ولا شیء غیر ذلک.

وفرح أبو سفیان بهذه الرتبهٔ الجدیدهٔ والشرف، وذهب مسرعاً إلی مکهٔ یطلب إلی الناس أن یدخلوا داره، وهو لا یعنیه من الشعارات إلاـ أمان داره، وهو قادر علی تجیر الجو لصالحه، فصار یدعو الی داره فقط لیوهم الناس أنه وحده قد حظی بهذا الشرف، وهذا ما جعل الآخرین إما یلتزمون بیوتهم، أو یهربون إلی الجبال المحیطهٔ بمکهٔ.

ویزحف الجیش الإسلامی المقدام، ویدخل مکّهٔ من طرق أربعهٔ یطوقها من کلّ مکان حتی لا یفکر أحد فی إراقهٔ دم فی بیت اللَّه الحرام، وفی البلد الحرام.

وذکروا أن النبیّصلی الله علیه و آله و سلم کان داخلًا وقلبه خاشع للَّهعلی هذا التوفیق، ولسانه یردّد «إذا جاء نصر اللَّه والفتح

ص: ۱۲۰

ورأيت الناس يدخلون فى دين اللَّه أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان تواباً».

ومضت فرق الجيش تـدخل مكـة دون أدنى مقاومة، وقد أخذت الحميةُ سـعد بن عبادة الأنصارى وهو يمرّ أمام أبى سـفيان بن حرب فقال له: اليوم يوم الملحمة، اليوم تسبى أو تستحل الحرمة. وتردّد قولُه بين المسلمين فنقلوه إلى النبيصلى الله عليه و آله و سلم وقالوا: يا رسولَ اللَّه! ما نأمن أن يكون لسـعد فى قريشصولة. وقيل: إن العباس سمع ذلك فقال للنبيّصلى الله عليه و آله و سلم: يا رسول اللَّه! أما تسـمع ما يقول سـعد؟ فقال النبيصلى الله عليه و آله و سلم لأمير المؤمنين عليه السلام: يا على! أدرك سعداً، فخذ الراية منه، وكن أنت الذى تدخل بها مكة. فأدركه أمير المؤمنين عليه السلام فأخذها منه، ولم يمتنع عليه سعد بل دفعها إليه.

ولم ير رسول اللَّهصـلى الله عليه و آله و سـلم أحـداً من المهاجرين والأنصار يصـلح لأخـذ الراية من سـيد الأنصار سوى أمير المؤمنين على عليه السلام.

قال الشيـخ المفيـد رضـى الله عنه: واعلم أنه لو رام ذلك غيره، لامتنع عليه سـعد، وكان فى امتناعه فسادُ التـدبير، واختلاف الكلمة بين الأنصـار والمهـاجرين، ولم يكن وجه الرأى تولى رسول اللَّه أخـذ الرايـة بنفسه، وولى ذلـك من يقوم مقـامه، ولا يتميز عنه، ولا يُعظم أحدٌ من المقرين بالملة عن الطاعة له، ولا يراه دونه فى الرتبة، وفى هذا من المفضل الذى تخصـص به أمير المؤمنين عليه السلام ما لم يشـاركه فيه أحـد، ولاـ ساواه فى نظير له مساو، وكان علم اللَّه تعالى ورسوله فى تمام المصـلحة بانفاذ أمير المؤمنين عليه السـلام دون غيره مـا كشف به عن اصـطفائه لجسـيم الأـمور كمـا كان علم اللَّه تعالى فيمن اختاره للنبوة وكمال المصـلحة ببعثه كاشـفاً عن كونهم أفضل الخلق أجمعين (۱).

وهذا الدور لا يحتاج الى تعليق، لأن وضوح أخذ الراية من سـعد لا يتم الّا برسول اللَّهصـلى الله عليه و آله و سـلم حيث لا يتنازل سـعد زعيم الأنصار إلّاللنبيّصـلى الله عليه و آله و سـلم، ولما كان سعد يعرف أن علياً هو الرجل الثانى فى الإسلام، وأنه سيصبح الرجل الأول سلم الأمر إليه بلا تنازع.

الدور الرابع:

التفاف الجيش الإسـلامى على أطراف مكـة المكرمـة، مكّن النبيصـلى الله عليه و آله و سـلم من السـيطرة العامة على المدينة، حيث لم تحدث أية مشكلة تذكر، وطبقت أوامر النبىّ بعدم سفك الدماء فى البلد الحرام.

وأسـلم على أثر الفتح سادةُ مكة، منهم حكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، وجبير بن مطعم، وأقبل أبو سـفيان يركض فاسـتقبلته قريش، وقـالوا: ما وراءك وما هـذا الغبار؟ قال: محمـد فى خلق عظيم، ثمصاح وهو مـذعور: يا آل غالب! البيوت البيوت! مَن دخل دارى فهو آمن، فعرفت هند زوجته فجعلت تطردهم، ثم قالت: اقتلوا الشـيخ الخبيث لعنه اللَّه من وافد قوم، وطليعة قوم. قال لها: ويلك إنى رأيتُ ذات القرون، ورأيت فـارس أبنـاء الكرام، ورأيت ملوك كنـدة وفتيـان حمير يسـلمن آخر النهار، ويلك اسـكتى، فقـد واللَّه جاء الحقّ ودنت البلية.

وكان رسول اللَّهصـلى الله عليه و آله و سلم قد عهد إلى المسلمين أن لا يقتلوا بمكة إلا من قاتلهم سوى نفر كانوا يؤذون النبيّصلى الله عليه و آله و سـلم منهم مقيس بنصبابة، وعبد اللَّه بن أبى سرح، وعبد اللَّه بن خطل، وقينتين كانتا تغنيان بهجاء رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم، وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة. فأدرك ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة فاستبق

۱- ۱ الارشاد للشيخ المفيد: ۷۱.

ص: ۱۲۱

إلیه سعید بن حریث، وعمار بن یاسر، فسبق سعید عماراً فقتله وقتل مقیس بنصبابة فی السوق، وقتل علی علیه السلام إحدی القینتین وأفلتت الأخری، وقتل أیضاً الحویرث بن نفیل بن كعب.

وبلغ علیاً علیه السلام أن أُخته امَّ هانی بنت أبی طالب قد أوت ناساً من بنی مخزوم، منهم الحارث بن هاشم، وقیس بن السائب، فقصد نحو دارها مقنعاً بالحدید فنادی: أخرجوا من آویتم، فجعلوا یذرقون كما تذرق الحباری خوفاً منه، فخرجت إلیه أمُّ هانی وهی لا تعرفه فقالت: یا عبد اللَّه أنا أمُّ هانی بنت عمّ رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم وأخت علیّ بن أبی طالب، انصرف عن داری، فقال: أخرجوهم. فقالت: اللَّه! لأشكونّك الی رسول اللَّه. فنزع المغفر عن رأسه فعرفته فجاءت تشتد حتی التزمته فقالت: فدیتك، حلفت لاشكونك الی رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم، فقال لها: اذهبی فبری قسمك فإنه بأعلی الوادی. قالت أمّ هانی: فجئت إلی النبیصلی الله علیه و آله و سلم وهو فی قبة یغتسل وفاطمة علیها السلام تستره، فلما سمع رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم كلامی، قال: مرحباً بك یا أمّ هانی، قلت: بأبی وأمی ما لقیت من علی الیوم، فقالصلی الله علیه و آله و سلم وقد فهم ما ترید: قد أجرتُ من أجرتِ، فقالت فاطمة علیها السلام تشكین علیاً علیه السلام، لأنه أخاف أعداء اللَّه، واعداء رسوله، فقلت:

احتملینی فدیتك، فقال رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم: قد شكر اللَّه سعیه وأجرتُ من أجارت أم هانی لمكانتها من علی بن أبی طالب (۱).

هل قرأت معی كیف نفذ الأوامر، وقتل الأعداء، ولاحقهم ولم یتراجع، ولم یراعِ بذلك بیوت أهله وأقاربه، ولا بیت أخته الوحیدة، التی لم یرها منذ زمن؟ ولكنه علیّ المعروف بفنائه بالحقّ، ومعاداته لأهل الباطل، وهو القائل: ما ترك لی الحقّصاحباً. فبینا تری بعض الصحابة یخاف علی أهله لتصور شیطانی، أو یخاف علی مستقبل وضعه لظنه أو احتماله غلبة قریش، فإذا به یفشی الأسرار العسكریة، أو یتراجع حین البأس ویفرّ من المعركة، أما علی هو هو فی المسجد والمحراب وفی المعركة والمواقف مع الأهل والأخت والبنت والأولاد علی حدّ سواء، لا یقدم علی الحقّ أحداً.

الدور الخامس:

بعدما لوت مكة جیدها، وأذعنت لبیرق النبوة، وتحولت الی سلطة الرسولصلی الله علیه و آله و سلم، ودخل الناس فی دین اللَّه أفواجاً حیث خرجت الرجال من مخابئها، وأسلمت وخرجت النساء من خدورهن واسلمن، وانضوی الناس فی ظل الرسالة الإسلامیة، وعادت مكة الی دورتها الأولی یوم خلق اللَّه السماوات والأرض، وعاد البلد الحرام حیث یحرم فیها سفك الدماء، وأصبحت واحة الأمان والراحة والاطمئنان، دخل النبیصلی الله علیه و آله و سلم فاتحاً لا كما یدخل الفاتحون عنوةً بل كما یدخل الرسل المتواضعون ذاكراً ربّه، ناظراً الی قربوس فرسه، لم یدخل مستعلیاً ولا مستكبراً وإنما دخل ذاكراً شاكراً مسبحاً مستغفراً.

وبما أن مكةَ المكرمة كانت مجمع عبادة العرب، ومركز التجمع الصنمی أیضاً، وكان الغرض الأساس من الحرب الفكریة والنفسیة والمادیة إزالة دولة الصنمیة، وتأسیس دولة الإله الواحد الحقّ مكانها، كان لابد من تركیز

۱- ۱ البحار، ۲۱: ۱۳۲ طبعة بیروت.

ص: ۱۲۲

الألوهیة فی أذهان الناس، وتحطیم المظاهر الصنمیة وقلعها من الأذهان، وتحطیم كل المظاهر الصنمیة الموجودة فی الكعبة وفی جوارها. قال الإمام الرضا علیه السلام- كما فی البحار- وكانت ثلاثمائة وستینصنماً حول الكعبة عندما فتح النبیّصلی الله علیه و آله و سلم مكة فمر بها وجعل یطعنها بمخصرة فی یده ویقول: جاء الحقُّ وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، فجعلت تكب لوجهها (۱).

وفی روایة ابن شهر آشوب: إن الإمام علیاً علیه السلامصعد علی أكتاف النبی وكسر الأصنام الموجودة علی ظهر الكعبة.

واذكر بعض الأبیات التی أرویها من حافظتی، وكنت قد حفظتها قبل أكثر من ثلاثین عاماً، والمصدر الآن غیر موجود فی مكتبتی التی أحرقها الظالمون.

وهذه هی الأبیات:

قیلَ لی قلْ فی علی مِدَحاً ذكرها یطفئ ناراً مؤصدةْ

قلت هل أمدح مَن فی فضله حار ذو اللب الی أن عبدهْ

والنبیّ المصطفی قال لنا لیلة المعراج لماصعَّدهْ

وضع اللّه علی ظهری یداً فأحس القلب أن قد بَرَدَهْ كان هدف الإسلام محو الصنمیة من الوجود الخارجی، بل الوجود الذهنی أیضاً، والعقیدة الصنمیة حالة مستعصیة، مركوزة فی الذهن والوجدان، وبعضهم رضع عقیدة الصنم وعبادة الصنم مع الحلیب فأنّی له أن یترك هذه العبادة ولو كانت خرافة فوقها خرافة؟ والذی عشق الخرافة ورضع الخرافة، لا یراها خرافةً وإنما یراهاصحیحة، وهذا هو الجهل المركب. ومشكلة الرسالة كانت مع هذا الجهل المركب، مع التعقید النفسی والذهنی. فهل كان الرسول بإمكانه غرس العقیدة الإلهیة دون إزالة العقیدة الصنمیة من الأذهان؟ وهل یمكن محوها من الذهن قبل محوها من الواقع؟ ومَن الذی یساعده علی هذه المهمة الصعبة إلّارجل الصعاب، رجل المواقف، إلا علیّ الذیصعد علی كتف النبیّ، وحمل فأس النبوة بیده القویة وزنده المتین، حتی كسرها تكسیراً؟ وبذلك تمّ الانتصار الحقیقی للإسلام بازالة كل آثار الصنمیة ومحوها من الوجود.

الدور السادس:

سدانة البیت العتیق فی الجاهلیة والإسلام مكانة مرموقة، وكان أولاد أبی طلحة قد ثبتوا هذا الشرف، ولا ینافسهم فیه غیرهم من قریش وظلوا علی ذلك زماناً، وكان رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم قد قال لعثمان بن أبی طلحة- یوماً من الأیام-: ربما یأتی زمان یكون هذا المفتاح فی یدی أضعه حیث أشاء، فهزع عثمان بهذا الكلام.

ومن الطبیعی بعد سقوط مكّة وفتحها بهذا الجیش الجرّار، أن یركز فیها المواقع الأساسیة كالسدانة والسقایة والولایة وما إلیها، وأحسّ عثمان بأن أیامهم انتهت فأغلق الباب، وصعد بالمفتاح علی السطح، وكأنه أراد أن یختبئ وینجو بهذا العلو فوق سطح الكعبة قائلًا: لو أعلم أنه رسولُ اللّه لم أمنعه- یعنی بقی علی عناده بعد أن دخل الناس فی دین اللّه أفواجاً- وعندها أمر النبیّصلی الله علیه و آله و سلم علیّاً علیه السلام أن یصعد السطح، ویأخذ المفتاح منه، ولما وصل علیّ علیه السلام الی عثمان حاول التمنع، ولكن علیاً أمسكه فحاول الانفلات، ولكن هیهات فقد أمسكه ذو قوة لو اجتمع جیش عرمرم

۱- ۱ البحار، ۲۱: ۱۱۶.

ص: ۱۲۳

علی ازالته منه لما أمکنه ذلک، ثم لوی یده وأخذ المفتاح منه، وفتح باب الکعبة ودخل الرسولصلی الله علیه و آله و سلم إلی الکعبة فصلی رکعتین، فلما خرج سأله عمّه العباس أن یعطیه المفتاح فنزل قوله تعالی: «إن اللَّه یأمرکم أن تؤدوا الأمانات الی أهلها» فأمر النبیصلی الله علیه و آله و سلم علیاً أن یرد المفتاح الی عثمان، فقال: یا علی! أکرهت وأذیت ثم جئت برفق. قال لقد أنزل اللَّه عزّ وجلّ بشأنک قرآناً، وقرأ الآیة علیه، فأسلم عثمان فأقرّه النبیصلی الله علیه و آله و سلم فی یده (۱).

کل دعوة تحتاج- مهما کانت محقة- الی قوة تساندها، قوة المال، وقوة الزند والسیف، وقد کان رسول الهدایة محمدصلی الله علیه و آله و سلم یحتاج الی الاثنین معاً کغیره من أصحاب الدعوات الصالحة، وقد وفق اللَّه بمال خدیجة فانفقته حتی لم یبق منه شیءٌ، وبقی زند علی علیه السلام الذی رافق الدعوة حتی ثبّت أرکانه.

وفروسیة علی وقوته وشجاعته کانت لا تخفی علی أحد، وکانوا یهابونهصغیراً وکبیراً، وإذا تصدی علی علیه السلام لموقف کانوا یعرفونه لا یرجع حتی یفتح اللَّه علی یده.

من هنا لم یکن بإمکان عثمان بن طلحة ولا غیره أن یختبئ، أو یصعد علی سطح الکعبة هروباً فی وجود هذا الجیش، خصوصاً وجود الذراع التی تطوی الحدید. فهل بإمکانه مقاومة هذا الساعد الذی یحمل الفرس والفارس أو یضرب الفارس المقنع بالحدید فیقده نصفین؟

ظنَّ عثمان أنه بإمکانه أن یمتنع وهو بعد لم یعرف قدرة علی، وشدّة ساعده، کان یسمع فی علیّ وقوته، والآن تحقق له عندما أمسک علی بیده ماذا حلّ به. کیف استلم دون مقاومة کأنه کان أمام أمرین إما أن یقع بدون حرکة، أو یقدم المفتاح بدون ضجیج، فکان التسلیم للصاعقة الإلهیة لیسف علی وساعده؛ لیدخل النبی الکعبة ولیعلن موقفه واضحاً دون قتال فی هذا البیت العتیق.

الدور السابع: لا یکفی أن یفتح النبیّصلی الله علیه و آله و سلم مکة المکرمة ویترک ما حولها من جیوب، یترک المحیط بعیداً عنها عقائدیاً وأخلاقیاً، بل لابد من الدعوة الشاملة والخیر العمیم حتی تعود مکة بجوارها وقراها، لتعود أمّ القری بأولادها وأحفادها کما أراد لها ربّ العزة، تمشی فی الطریق السوی لیدخل الناس فی دین اللَّه أفواجاً.

ومن هنا عندما هدأت العاصفة، واستتبَّ الأمن فی البلد الحرام، وأمن من آمن، وقتل من قتل، وتحقق النصر الإلهی، ونصر اللَّه عبده وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده. بث السرایا إلی القری المجاورة تدعو الناس للإسلام، وکانت القری- التی سمعت بنصر اللَّه، وخذلان قریش- علی شیء من الاستعداد تنتظر هذه السرایا؛ لتعلن کلمة التوحید وتنضوی تحت لواء الدین الجدید.

وکان ممن بعث خالد بن الولید علی رأس سریة الی بنی جذیمة، وکانت بنو جذیمة قد أصابت فی زمن الجاهلیة عوف بن عوف أبا عبد الرحمن بن عوف والفاکه بن المغیرة، وکان من أقارب خالد، فلما وصل خالد إلی القبیلة حملوا السلاح فی وجهه، فطلب الیهم القاء السلاح فلم یقبلوا لخوف من أخذ الثأر منهم، قال رجل منهم یقال له جحدم:

۱- ۱ البحار، ۲۱: ۱۱۶.

ص: ۱۲۴

ویلکم یا بنی جذیمـة! إنه خالـد واللَّه، ما بعد القاء السـلاح إلا الأسـر، وما بعد الأسـر إلا القتل، فأخذه رجال من قومه، وقالوا یا جحدم ترید أن تسـفک دماءنا؛ إن القوم قد أسـلموا، ووضـعت الحرب وأمن الناس وما زالوا به حتی نزعوا منه سـلاحه، ووضع القوم السـلاح امتثالًا لطلب خالـد، فلمـا وضـعوا السـلاح أمر بهم فکتفوا، ثم عرضـهم علی السـیف فقتـل من قتـل منهم، فلمـا انتهی الخبر الی رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم رفع یدیه إلی السماء، ثم قال: اللهم انی أبرأ إلیک مماصنع خالد (۱).

ثم دعا علیاً علیه السـلام فقال: یا علی أخرج الی هؤلاء القوم فانظر فی أمرهم، واجعل أمر الجاهلیة تحت قدمیک، فخرج حتی جاءهم، ومعه مال قد بعثه رسول اللَّهصـلی الله علیه و آله و سلم فودَی لهم الدماء، وما أصیب من الأموال حتی إنه لَیدِی مِیلغَةَ الکلب، حتی إذا لم یبق شـیء من دم ولا مال إلا وداه، بقیت معه بقیـة من المال. فقال لهم علی علیه السـلام حین فرغ منهم: هل بقی لکم دمٌ أو مالٌ لم یود إلیکم؟ قالوا: لا، قال: فإنی أعطیکم هـذا المال الباقی احتیاطاً لرسول اللَّهصـلی الله علیه و آله و سـلم مما لا یعلم ولا تعلمون، ففعل ووافقوا شاکرین، ثم رجع الی رسول اللَّهصـلی الله علیه و آله و سـلم فأخبره الخبر. فقال: أصـبت وأحسـنت، ثم قام رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم فاستقبل القبلة قائماً شاهراً یدیه حتی إنه لیُری بیاض ما تحت منکبیه وهو یقول:

اللهم انی أبرأ الیک مماصنع خالد بن الولید، ثلاث مرات (۲).

إنَّ تثبیت الدولة یکون بإرخاء رواسـی العدل والمساواة بین الناس، والإسـلام جاء لیمحو أوضاع الجاهلیة وما علیها من شـنآن ویمشـی فی النـاس بالحق والعـدل ولا تزر وازرة وزر أخری. وما قام به خالـد لا علاقـة له بالإسـلام، بل هو الراسب الجاهلی المتحکم فی عقل هذا الرجل الذی أسـلم متأخراً ولا تزال رواسب الجاهلیة فی کیانه، فهو لم یسـتطع أن یترفع عنها مع أن النبی قال فی خطبته البلیغة أمام أهالی مکة: کل دم فی الجاهلیة فهو تحت قدمیَّ هاتین.

وکأن خالـد لم یسـمع أو لم یعِ ما قاله المصـلح الکبیر، ولهـذا تبرأ منه النبیصـلی الله علیه و آله و سـلم ومن أفعاله، وتأثر لهـذه الحادثة النکراء، وبعث علیاً الـذی هـو نفسه لیمثله فی رأب الصـدع واسـتنکار الجریمـة ودفع الـدیات وتعویض الخسـائر المادیـة، حتی میلغة الکلب- أی الجرن الـذی یشـرب منه الکلب، وهو وعـاء من حجر أو خشب لا ـ قیمـة له- حتی یثبت الحق ویرسـی دعائم العـدل، ومن أولی من علی الأـعلم الأقضـی بفـک الخصومـات، وحلّ المشاکل وإرضاء الناس، وإعادة الأمور إلی نصابها. علی الحکیم فی القضاء، والحکیم فی المواقف ومـداراة عواطف النـاس حـتی رجع والقوم مطمئنون کـأنه لم یصـبهم شـیء، فبورک علی وبورک هـذا اللطف الرسالی الذی یحمله بین حنایاه، عالماً وقاضیاً ومدافعاً عن الإسلام الحقّ.

وقفة عتاب خفیفة مع محمد حسین هیکل:

بلغ کتـاب هیکل مجـده، حیث وزع علی أکثر الـدول العالمیـة المهتمـة بالتراث، خصوصاً أن هیکل کتب کتابه وفق الأنظمـة الحـدیثة للکتابة، حتی یجعله مرجعاً سـهلًا للباحثین الغربیین والشـرقیین علی السواء، ولکل من أراد أن یدرس حیاة محمدصـلی الله علیه و آله و سلم. والحق أن الکتـاب اختصـر التاریـخ وأجـاد کاتبه فی کثیر من المناسـبات، بل حلق فی بعض المواقف. والکتاب موفق کماً ونوعاً ومنهجاً واسلوباً.

غیر أننا ونحن نعتز بأحد أهم کتاب العصر الحدیث، نأسف لکاتب من هذا النوع- وهو یسبر أغوار التاریخ

۱- ۱ الطبری، ۲: ۱۶۴.

۲- ۲ نفس المصدر.

ص: ۱۲۵

ويشهد الحقائق بكل نصاعتها- أن يبقى فى ذهنه شىء من رواسب الماضى العفن حيث الحزبية والطائفية المقيتة ونربأ به أن يكون فى ذهنه شىء على عليّ إمام المتقين وقائد الغر المحجلين، خصوصاً أن له موقفاً مميزاً فى كتابة الطبعة الأولى من كتابه المطبوع فى مصر عندما يتحدث عن يوم الدار، ويثبت فيه الوصية لأمير المؤمنين عليه السلام ويثور عليه المتعصبون أتباع بنى أمية، ويقولون له: هذا عين ما تقوله الشيعة، فيقول لهم: هذا عين ما يقوله التاريخ، ثم يمحو ويحذف هذا الكلام من الكتاب عندما يتفق معه على شراء ۵۰۰ خمسمائة نسخة فى الطبعة الثانية، فيهدم بهذا هيكل كل ما بناه من تحقيق علمى نزيه وبحث موضوعى مجرد.

وهنا فى هذا الموضوع عندما يتعرض لموضوع فتح مكة المكرمة يجرد علياً عن أى مكرمة بحذف مقصودٍ واهمال مقصود، وإذا اضطرته حقائق التاريخ التى يكتبها الطبرى وابن الأثير واليعقوبى وابن هشام وغيرهم ممن تعرضوا لأكثر تفاصيل الفتوحات المباركة، يختصرها اختصاراً يكاد معه يمحو ذكر الحادثة. فهو مثلًا فى مسألة الراية لا يذكر العباس ولا يذكر علياً عليه السلام، وفى مسألة أم هانى لا يذكر علياً وفى مسألة هدور دم الأعداء الألداء فى العداوة الذين أمر النبيصلى الله عليه و آله و سلم علياً بقتلهم لا يذكر علياً، وفى مسألة تكسير الأصنام يتجاهل علياً تماماً، وهكذا يبدو هيكل وكأنه فى حرب مع على عليه السلام غير معلنة بل معلنة.

من هنا نوصى القراء الكرام أن يعودوا الى قراءة على وفق ما أرسله الآخرون على الأقل إرسال المسلمات رغم الظروف الصعبة التى مرّت على المؤرخين وملاحقتهم وتفتيش دفاترهم، وعرض مؤلفاتهم على أجهزة المخابرات، حتى لا يذكر فيها على بخير. ورغم مراقبة الشاردة والواردة، ورغم المتعصبين الكثيرين ورغم هذا كله كانوا أكثر إنصافاً لعلى عليه السلام الذى وردت فيه الآيات والروايات الكثيرة. «عنوانصحيفة المرء حبّ على بن أبى طالب» (۱).

الهوامش:

حجّ الصبيان

۱- ۱ كنز العمال.

ص: ۱۲۶

فقه الحجّ فی دراسهٔ استدلالیّهٔ مقارنهٔ

حجّ الصبیان

محسن الأراکی

لا خلاف بین فقهاء الإسلام فی عدم وجوب الحجّ علی غیر البالغ؛ لرفع قلم التکلیف عن الصبی علی ما رواه أصحاب السنن- کابن داود وابن ماجهٔ والترمذی، ورواه الإمامیهٔ- مع اختلاف یسیر فی اللفظ- عن أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السلام قال:

قال رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم: «رفع القلم عن ثلاثهٔ: عن النائم حتی یستیقظ، وعن الصبیّ حتی یشب، وعن المعتوه حتی یعقل. وفی لفظ الدارمی عن عائشهٔ: وعن الصغیر حتی یحتلم، وفی روایات الامامیهٔ: عن الصبی حتی یحتلم» (۱).

ویدل علی ذلک- أیضاً- ما دلّ علی عدم إجزاء حجّ الصبی عن حجّهٔ الإسلام. روی البیهقی عن ابن عباس قال: قال رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم: «أیماصبیّ حجّ ثم بلغ فعلیه حجّهٔ أخری، وأیما عبد حجّ ثم اعتق فعلیه حجّهٔ أخری».

وقد رویت فی ذلک عن طرق الإمامیهٔ أحادیث متعددهٔ منها ما رواه الصدوق بسندصحیح عن اسحاق بن عمار قال: سألت أبا الحسن علیه السلام عن ابن عشر سنین یحج؟ قال: علیه حجّهٔ الإسلام إذا احتلم، وکذلک الجاریهٔ علیها الحجّ إذا طمثت» (۲).

فوجوب الحجّ بعد البلوغ مع کون الصبی قد أتی به قبله، وعدم احتساب ما أتی به دلیل علی اشتراط وجوب الحجّ بالبلوغ؛ لوضوح عدم

۱- ۱ سنن الدارمی، ۲: ۱۷۱- والوسائل، أبواب مقدمهٔ العبادات، الباب ۴، الحدیث ۱۱.

۲- ۲ الوسائل، الباب ۱۲ من أبواب وجوب الحج، الحدیث ۱.

ص: ۱۲۷

وجوب الحجّ أكثر من مرة واحدة.

صحّةُ حجِّ الصّبيِّ:

ذهب فقهاء المسلمين عامة- ما عدا أبا حنيفة- إليصحّة حجّ الصّبى، بل نسب إلى ابن المنذر والقاضى عياض دعوى الإجماع عليها (۱)، وذهب أبو حنيفة إلى عدمصحّته وقال: لا ينعقد إحرام الصّبى، ولا يصير محرماً بإحرام وليّه (۲).

والدليل عليصحّة حجّ الصّبيّ أُمور:

الأوّل: «ما رواه الشيخ الطوسى بسندصحيح عن عبد اللّٰه بن سنان عن الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول: مرّ رسول اللّٰهصلى الله عليه و آله و سلم برويثة وهو حاجّ إليه امرأة ومعهاصبيّ لها، فقالت: يا رسول اللّٰه أيحجّ عن مثل هذا؟ قال: نعم، ولكِ أجره» (۳).

الثانى: ما رواه البخارى فى باب حجّ الصّبيان عن السائب بن يزيد قال: «حُجّ بى مع رسول اللّٰهصلى الله عليه و آله و سلم وأنا ابن سبع سنين» (۴).

فإنّ ظاهر التّعبير أنّ ذلك قد تمّ على مرآى ومسمع من رسول اللّٰهصلى الله عليه و آله و سلم ولم ينكر، فيدلّ على تقريرهصلى الله عليه و آله و سلم لحجّ الصّبى الكاشف عنصحّته.

الثالث: ما رواه مسلم فيصحيحه عن ابن‌عباس عن النبيّصلى الله عليه و آله و سلم قال: «رفعت امرأةٌصبيّاً لها فقالت:

يا رسول اللّٰه ألهذا حجّ؟ قال: نعم، ولكِ أجر» (۵).

الرابع: ما رواه ابن ماجة عن جابر قال: «حججنا مع رسول اللّٰهصلى الله عليه و آله و سلم معنا النساء والصبيان فلبينا عن الصبيان ورمينا عنهم» (۶).

ودلالته عليصحة حجّ الصّبيّ من حيث ظهوره فى أنهم إنما فعلوا ذلك عن أمر رسول اللّٰهصلى الله عليه و آله و سلم.

الخامس: الروايات الّتى دلّت على عدم إجزاء حجّ الصّبى، وأنّ عليه حجّة الإسلام إذا بلغ، فانها ظاهرة فيصحّة أصل الحجّ؛ لأنه لو كان باطلًا من أصله لم يصل الدور إلى بيان حكم عدم إجزائه عن حجّة الإسلام، إذن فالتعرض لبيان عدم اجزائه عن حجة الإسلام يدلّ على كونصحته مفروغاً منها.

والروايات التى دلّت على عدم الإجزاء كثيرة من طرق الإماميّة وغيرها، سوف نشير اليها فى البحث الآتى.

وأمّا الذى ذهب اليه أبو حنيفة من عدمصحّة حجّ الصّبى فقد استدلّ عليه بما يلى:

الأوّل: حديث رفع القلم عن

۱- ۱ شرح المهذب، ۷: ۳۸- ۳۹.

۲- ۲ المغنى لابن قدامة، ۳: ۲۵۲.

۳- ۳ الوسائل، أبواب وجوب الحج، الباب ۲۰، الحديث الأول.

۴- ۴صحيح البخارى، ۱: ۳۱۹.

۵- ۵صحيح مسلم، بابصحة حج الصبى وأجر من حج به، ۴: ۱۰۱.

۶- ۶ سنن ابن ماجة.

ص: ۱۲۸

الصبی وقد سبق التعرض له.

والجواب عنه: أنّ الظّاهر من الروایة إرادة قلم الوجوب والتکلیف؛ لأنّ المراد بالقلم الکتابة، والکتابة تعنی الوجوب، فمعنی رفع القلم عن الصبی أنه لم یکتب فی حقه شیء، أی لم یجب علیه، وعدم الوجوب لا یلازم عدم الصحّة.

ویمکن- أیضاً- أن یکون المراد به قلم العقاب، أی: لم یکتب فی حقّه المؤاخذة والعقاب، وهو- أیضاً- یفید بالتالی معنی رفع الوجوب، فلا یدلّ علی نفی الصحّة.

الثانی: قیاس إحرام الحجّ بالنذر، فکما لا یصحّ نذر الصبیّ؛ لأنّه سبب یلزم به حکم، کذلک إحرام الصبی فإنّه سبب یلزم به حکم فلا یصح کذلک.

والجواب عنه: بناءً علیصحّة العمل بالقیاس بوجوه:

الوجه الأول: أنّ السبب لیس فعل الصبی منفرداً بل هو مع إذن الولیّ، فافترق المقیس عن المقیس علیه.

الوجه الثانی: أن هنا قیاساً معارضاً وهو قیاس إحرام الصبی بمعاملاته، فقد ذهب أبو حنیفة إلی أن الصبی العاقل المأذون له فی التجارة إذا باع أو اشتری أو آجر أو استأجر ینفذ تصرفه (۱). فنقیس علی ذلک أحرامه بالحجّ فیکونصحیحاً بإذن ولیّه کما تصحّ معاملاته.

الوجه الثالث: أنّ النذر التزام یلتزمه الصّبی علی نفسه، فقد یلتزم ما لا یوافق مصلحته فتنفیذه یوجب الإخلال بمصالحه، أمّا ما یحرم بالإحرام فإنه إلزام مشرّع من قبل اللّه- سبحانه وتعالی- وتشریع اللّه- سبحانه وتعالی- لا یکون إلّاوفق ما تقتضیه مصلحة العبد، فبین الموردین فرق لا یصحّ قیاس أحدهما بالآخر.

الوجه الرابع: أن الحکم الّذی ینشأ من إحرام الصّبی حکم علی الولیّ، فإنّ علی الولیّ أنْ یجنّب الصّبی محرمات الإحرام، فلو قصّر فارتکب الصّبی شیئاً من ذلک تحمّل الولیّ تبعات ذلک کما یعود إلیه أجر حجّه، بخلاف نذر الصّبی فإنه لا معنی لأن یتحمل الولی تبعات نذر الصّبی، فبین الموردین فرق موضوعاً وحکماً فیبطل قیاس أحدهما بالآخر.

الثالث: أن الحجّ عبادة بدنیّة فلا یصحّ أن ینوب الکبیر فیها عن الصغیر کالصّوم والصّلاة.

والجواب عنه: أن الصحیح فی حجّ الصّبی- کما سوف نبیّنه فی محلّه- أنّه فعل یتلبّس به الصّبی بسبب الولیّ، فلیس الولیّ نائباً عن الصبی فی حجّه بل الفعل فعل الصّبی، ولا ینکر أبو حنیفةصحّةصلاة الصّبی ووضوئه وصومه، فکذلک لا مانع من أن تصح

۱- ۱ طریقة الخلاف بین الأسلاف:ص ۴۸۹.

ص: ۱۲۹

منه عبادة الحجّ كغيرها من العبادات.

الرابع: أن الحجّ لوصحّ من الصبيّ لوجب عليه قضاؤه إذا أفسده.

والجواب عنه: نحن نلتزم بأن الصبى إذا أفسد حجّه فيجب عليه القضاء بعد البلوغ.

عدم إجزاء حجّ الصّبيّ عن حجّة الإسلام:

أجمع الفقهاء على أنّ الصبى إذا حجّ فيصباه لم يجزه ذلك عن حجّة الإسلام، فعليه أن يحجّ إذا بلغ عندما تتوفر فيه سائر شرايط الوجوب.

ويدلّ عليه- بعد الإجماع-:

أولًا آية الحجّ: «... وللَّه على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلًا ...» فإنها لا تشمل الصّبى، فلا يكون فعله قبل البلوغ امتثالًا للفريضة التى شرّعتها هذه الآية، حتى إذا بلغ شملَه التكليف الوارد فى الآية، فوجب عليه الخروج عن عهدته بالإتيان بحجّة أخرى، والإكتفاء بما أتى به- سابقاً- فى زمنصباه عن التكليف الّذى توجه إليه بعد البلوغ بحاجة إلى دليل خاص، وهو مفقود.

ص: ۱۳۰

ثانياً: ما رواه الصدوق بإسناده عنصفوان عن اسحاق بن عمار، قال: سألتُ أبا الحسن عليه السلام عن ابن عشر سنين، يحجّ؟ قال: «عليه حجّةُ الإسلام إذا احتلم، وكذلك الجارية عليها الحجّ إذا طمثت» (۱). وروى مثله الكلينى بإسناده عن شهاب عن أبى عبد اللّه عليه السلام.

ثالثاً: ما رواه الكلينى بإسناده عن مسمع بن عبد الملك عن أبى عبد اللّه عليه السلام- فى حديث- قال: «لو أنّ غلاماً حجّ عشر حجج ثم احتلم، كانت عليه فريضة الإسلام» (۲).

رابعاً: ما رواه البيهقى بإسناد جيد عن ابن عبّاس قال: قال رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم: «أيّماصبى حجّ ثم بلغ فعليه حجّة أخرى ...» الحديث (۳).

خامساً: ما رواه أحمد بن حنبل مرسلًا عن محمد بن كعب القرظى عن النبيّصلى الله عليه و آله و سلم قال: «أيّماصبى حجّ به أهلُه فمات أجزأت عنه فإن أدرك فعليه الحجّ ...» الحديث (۴).

استحباب حجّ الصّبىّ، وفيه مسائل:

المسألة الأولى:

فى استحباب حجّ الصّبىّ لنفسه

وتدل عليه الأدلّة كافة الدالّة عليصحة حجه ومشروعيته وخاصة ما ورد فيه التعبير ب «أجزأت عنه» كما جاء فى رواية أحمد بن حنبل الماضيةْ، أو التعبير ب «قضى حجة الإسلام» الوارد فى رواية أبان بن الحكم عن الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول:

«الصّبىّ إذا حجّ به فقد قضى حجة الإسلام حتى يكبر» (۵).

والحاصل أن لازم القول بصحّة عبادة الصّبى وشرعيتها هو استحبابها فى حقّه، بمعنى محبوبيتها شرعاً المستتبع لثبوت استحقاق الثواب على فعله.

ولهذا فالدليل على استحباب عبادة الصبى- ومنها حجّه- هو نفس الدليل الدالّ على شرعيّتها وصحّتها.

ثم إنّ استحقاق الصّبىّ للثواب فرعصدق امتثال الأمر أو الانقياد فى حقّه، وصدق الامتثال أو الانقياد فى حقّ الصّبىّ متوقف على تحقق الإرادة والاختيار، وتحقق الإرادة والاختيار لدى الصّبى يتوقف على درجة من الوعى والتمييز، وبها يصحّ استناد الفعل إلى اختيار الصّبى وإرادته، فإن الاختيار والإرادة فرع العلم برجحان الفعل، وهو يتوقف على درجة من الوعى والتمييز.

وعلى هذا فلا نتصوّر فى الطفل الصغير الفاقد للوعى والتمييز، والعديم الإرادة التى يتوقف عليهاصدق استناد الفعل الاختيارى إليه أن يترتب على فعله الثواب لنفسه، اللهم

۱- ۱ الوسائل، أبواب وجوب الحج، الباب ۱۲، الحديث الأول.

۲- ۲ الوسائل، أبواب وجوب الحج، الباب ۱۳، الحديث ۲.

۳- ۳ شرح المهذب، ۷: ۴۵ نقلًا عن البيهقى.

۴- ۴ نيل الأوطار للشوكانى، ۴: ۲۹۳.

۵- ۵ الوسائل، أبواب وجوب الحج، الباب ۱۳، الحديث الأول.

ص: ۱۳۱

إلّا فی الآثار الوضعیّهٔ، التی لا یدور ترتبها مدار الإرادهٔ والاختیار، فإنها تترتب علی فعل الصّبی من غیر تردید. نعم یستحق الولی ثواب الإحجاج به، والثواب هنا علی فعل الولی نفسه، ولیس الصبی إلا آلهٔ مجرّدهٔ.

إذن فالحقّ أن الصّبی الذی بلغ درجهٔ من الوعی تجعله متمکناً من إرادهٔ الفعل، أی قادراً علی معرفهٔ وجه رجحان الفعل، وترجیحه علی النقیض، بحیث یصحّح العرف العقلائی فی استناد الفعل إلی اختیار الصبی وإرادته- وإن کان بإیجاد الداعی فی نفس الطفل من قبل الولی أو غیره- یستحق الثواب علی فعله؛ أمّا الصبی الفاقد للوعی والتمییز نهائیاً فإنّما یستحق الولی الثواب علی فعله؛ لأنّ الفعل حینئذٍ فعل الولی ولیس الصّبی إلّامجرّد وسیلهٔ.

المسألهٔ الثّانیهٔ:

فی استحباب الحجّ بالصبی لولیّه

قال ابن عبد البر فی التمهید:

صحّح حجّ الصّبی مالک والشافعی وسائر فقهاء الحجاز، والثوری وسائر فقهاء الکوفهٔ، والأوزاعی واللیث ومَن سلک سبیلهما من أهل الشام ومصر، قال: وکلّ من ذکرناه یقول:

یستحبّ الحجّ بالصبیان. ویأمر به (۱)

وقال المحقّق النجفی فی جواهر الکلام: «یصح أن یحرم عن غیر الممیّز ولیه ندباً، وکذا المجنون، فیستحق الثواب حینئذٍ علیه، وتلزمه الکفارهٔ والأفعال والتروک علی الوجه الّذی ستعرفه بلا خلاف أجده فی أصل مشروعیّهٔ ذلک للولی، بل یمکن تحصیل الإجماع علیه» (۲).

والظّاهر أنّ استحباب الحجّ بالصبی لولیّه متفق علیه بین القائلین بصحّهٔ حجّ الصبی، وتدل علیه الروایات الکثیرهٔ التی ورد فیها أمر الولی بإعانهٔ الصبی فی إتمام عمل الحجّ، وما یلزم الولی فعله بالصبی من مناسک الحجّ وأفعاله وتروکه، ونذکر فیما یلی نبذهٔ من الروایات الدالّهٔ علی استحباب الحجّ بالصبی لولیّه، واستحقاقه بذلک الأجر والثواب:

۱- روی مسلم فیصحیحه عن ابن عباس عن النبیصلی الله علیه و آله و سلم قال:

رفعت امرأهٔصبیّاً لها فقالت: یا رسولَ اللَّه ألهذا حجّ؟ قال: «نعم ولکِ أجر» (۳).

وروی قریباً من هذا المضمون شیخنا الطوسی بسندصحیح عن عبد اللَّه بن سنان عن الصادق علیه السلام جاء

۱- ۱ شرح المهذب، ۷: ۳۹.

۲- ۲ جواهر الکلام، ۱۷: ۲۳۵.

۳- ۳صحیح مسلم، بابصحهٔ حج الصبی وأجر من حج به، ۴: ۱۰۱.

ص: ۱۳۲

فیه: قالت: یا رسول اللّه أیحجّ عن مثل هذا؟ قال: «نعم، ولکِ أجره» (۱).

۲- روی ابن ماجهٔ عن جابر قال: حججنا مع رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم، ومعنا النساء والصبیان، فلبینا عن الصبیان ورمینا عنهم (۲).

وهو یدل علی مشروعیّهٔ احجاج الولی بصبیّه، وشرعیّهٔ العمل هنا تکشف عن المحبوبیّهٔ، وهی تلازم الاستحباب واستحقاق الثواب.

۳- روی الصدوق بإسناده عن معاویهٔ بن عمّار عن أبی عبد اللّه علیه السلام، قال: «أُنظروا من کان معکم من الصبیان فقدموه إلی الجحفهٔ، أو إلی بطن مرّ، ویصنع بهم ما یصنع بالمحرم، ویطاف بهم ویرمی عنهم، ومن لا یجد الهدی منهم فلیصم ولیّه عنه» (۳).

فالأمر المتوجّه إلی الولی فی الإحجاج بصبیّه فی هذه الروایهٔ دلیل علی استحبابه علیه، بعد وضوح عدم إرادهٔ الوجوب منه للقرائن وللإجماع.

وهناک روایات أخری دالّهٔ علی استحباب الحجّ بالصبی لولیّه نکتفی منها بما ذکرناه.

المسألهٔ الثّالثهٔ:

فی عدم الفرق بین الصبی

والصبیّهٔ فی الاستحباب

القائلون باستحباب حجّ الصبی، واستحباب الإحجاج به لولیّه لم یفرّقوا بین الصّبیّ والصّبیّهٔ فی ذلک، ولم نعهد فی ذلک خلافاً إلّاما ذهب الیه النراقی فی المستند من عدم استحباب الإحجاج بالصبیّهٔ للولی؛ لعدم الدلیل علیه، وإن کان حجّ الصبیّهٔ بنفسها کحج الصّبی مستحبّاً (۴).

ولکن الحق اتحاد الصبیّهٔ مع الصّبی فی حکم استحباب الحج به، کاتحادها معه فی استحباب الحج بنفسه لأمرین:

الأول: عدم احتمال الفرق عرفاً لظهور الأدلّهٔ الدالّهٔ علی استحباب الحجّ بالصبی فی عموم الاستحباب للصبیّهٔ أیضاً.

الثانی: القرینهٔ الخارجیّهٔ المستفادهٔ من أحکام الشارع فی العبادات والمعاملات، الدالّهٔ علی اشتراک الذکر والأنثی فی أصل مشروعیهٔ الأعمال وعدمها، والاختلاف الواقع بین أحکام الذکر والانثی إنما هو فی بعض التفاصیل والکیفیّات، لا فی أصل الشرعیّهٔ وعدمها، ولعلّ ذلک یستفاد أیضاً من قوله تعالی: «فاستجاب لهم ربّهم أنی لا أضیع عمل عامل منکم من ذکر أو أُنثی ...» (۵).

اشتراط حجّ الصّبی بإذن ولیّه:

أکثر الفقهاء علی اختلاف

۱- ۱ الوسائل، أبواب وجوب الحج، الباب ۲۰، الحدیث الأول.

۲- ۲ سنن ابن ماجهٔ.

۳- ۳ الوسائل، أبواب اقسام الحج، الباب ۱۷، الحدیث ۳.

۴- ۴ المستند، ۲: ۱۵۵.

۵- ۵ آل عمران: ۱۹۵.

ص: ۱۳۳

مذاهبهم، ومشهور فقهاء الإمامیة، علی اشتراط حج الصّبی المميّز بإذن وليّه، وذهب جمع من فقهاء الإمامیة وغیرهم من فقهاء سایر المذاهب کأبی اسحاق المروزی إلی عدم اشتراطه بإذن الولی.

قال الفقیه الیزدی فی العروة الوثقی: «یستحب للصّبیّ الممیز أن یحجّ، وإن لم یکن مجزیاً عن حجّة الإسلام، ولکن هل متوقف ذلک علی اذن الولی أو لا؟ المشهور بل قیل:

لاخلاف فیه: أنّه مشروط بإذنه» (۱).

وقال النووی فی شرح المهذب:

ثم إن کان- أی الصبی- ممیزاً أحرم بنفسه بإذن وليّه ویصح بلا خلاف، فإن استقل وأحرم بنفسه بغیر إذن وليّه فوجهان مشهوران ذکر المصنف دلیلیهما، أحدهما: یصحّ وبه قال أبو اسحاق المروزی، وأصحهما لا یصح، وبه قال أکثر أصحابنا المتقدمین کما ذکره المصنف، وکذا نقله- أیضاً- ابن الصباغ والبغوی وآخرون (۲).

والحقّ أنّ حجّ الصّبیصحیح من غیر توقّف علی إذن الولی، لإطلاق الأدلّة الدّالّة علیصحّة حجّه.

ثم إن القائلین بالاشتراط استدلوا بدلیلین:

الأوّل: أن الحجّ عبادة توقیفیة متلقاة من الشرع ومخالف للأصل، فیجب الاقتصار فیه علی المتیقن وهو الحجّ بإذن الولی فیما نحن فیه.

الثانی: أنّ الحجّ یستلزم بعض التصرفات الماليّة کالهدی والکفارة فی بعض الأحیان وهو متوقف علی إذن الولی.

والجواب عن الأوّل: ما أشرنا الیه من إطلاق الأدلّة الدّالّة علیصحّة حج الصّبی، فلا تضر مخالفة الأصل أو الخروج عن القدر المتیقن.

وعن الثانی: أن الحجّ غیر متقوم بالتصرفات الماليّة وإن وجبت فی بعض الأحیان، ویمکن القول فی الصّبی بتوقف خصوص تصرفه المالی فی الحجّ علی إذن الولی، فإن أذن فهو، وإن لم یأذن ثبت له حکم العاجز، ویصحّ حجّه علی کلّ حال.

کیفیة حجّ الصّبی:

یحجّ الصّبی إذا کان ممیّزاً بنفسه، ولا تختلف کیفيّة حجّه عن حجّ البالغ إلّا فی توقّفه علی الاستیذان بناءً علی القول به، وأمّا الصّبی غیر الممیّز فلا خلاف بین الفقهاء فی أنّ طریقة الحجّ به إجمالًا: هی أن یحمله الولی علی الإتیان بأفعال الحجّ الّتی یقدر علی مباشرتها بنفسه، وأن ینوب عنه فیما

۱- ۱ العروة الوثقی، حج الصّبی، المسألة الأولی.

۲- ۲ شرح المهذب، ۷: ۲۵.

ص: ۱۳۴

لا يقدر عليه، وإنما وقع الكلام فى مواضع:

الموضع الأول: فى إحرام الصبىّ المميز، وأنّه هل يصحّ منه استقلاله بالإحرام، أو يشترط ذلك بإذن الولى؟

والكلام هنا نفس الكلام فى أصل حجّ الصّبى المميّز، فمن قال بصحّة حجّ الصّبى المميّز استقلالًا وبدون إذن الولى، قال هنا باستقلاله بالإحرام وعدم توقفه على إذن الولى، ومَن قال هناك باشتراط حجّه بإذن الولى قال هنا بتوقف إحرامه على إذنه.

وقد ذكرنا فى البحث السابق أن مقتضى الإطلاقات الدّالّة عليصحّة حجّ الصّبىّ عدم توقفه على إذن الولى، ونقول فى إحرام الصّبى الكلام نفسه، فلا دليل على توقّف إحرامه على إذن الولى بعد دلالة الإطلاقات عليصحّة أفعال الحجّ منه، ومنها الإحرام.

الموضع الثانى: فى إحرام الصبىّ غير المميّز.

يظهر من بعض الفتاوى أنّ معنى إحرام الولى عن الصّبى نيابة الولى عن الصّبى فى الإحرام، وبناءً على ذلك فقد اشترط فيمن يُحرم عن الصّبى أن لا يكون مُحرماً بنفسه، وجوّز أن يحرم الولىّ عن الصّبى وهو غائب.

والحقّ أنّ معنى الإحرام عن الصّبى عقد الإحرام للصّبى، فالصّبى هو الّذى يتلبّس بالإحرام، غير أنه باعتبار عدم تمييزه، وعدم تأتّى النيّة وقصد الإحرام منه يتولّى القائم بأمره عقد الإحرام له، بأن ينوى الإحرام به وأن يلبّى عنه إن عجز عن التلفّظ بالتلبية بنفسه.

قال ابن قدامة المقدسى:

«ومعنى إحرامه عنه: أن يعقد له الإحرام، فيصحّ للصّبىّ دون الولى كما يعقد النكاح له» (۱).

وقال المحقق النجفى: «ظاهر النّصّ والفتوى كون الإحرام بالصّبى على معنى جعله محرماً بفعله لا ـ أنّه ينوب عنه فى الإحرام، ومن هنا صرّح غير واحد بأنّه لا فرق فى الولى بين كونه محلًا أو محرماً، فما عن الشافعيّة فى وجه من كون الإحرام عنه واضح الضعف» (۲)

دليلنا على ذلك: أن مقتضى ظهور الأدلة الدّالّة عليصحّة حجّ الصّبى مباشرته لأفعال الحجّ كلّها، خرج من ذلك خصوص ما يعجز عنه الصّبى، وبقى ما سواه داخلًا فى ظهور الدّليل المقتضى للمباشرة، والصّبى غير المميّز إنما يعجز عن النيّة وليس عاجزاً عن ساير واجبات الإحرام وتروكه، فلا ينوب الولى عنه غير النيّة، وبما أنّ الإحرام فعل الصّبىّ،

۱- ۱ المغنى، ۳: ۲۵۳.

۲- ۲ جواهر الكلام، ۱۷: ۲۳۶.

ص: ۱۳۵

فعليه أن ينوى الإحرام بالصّبى.

بـل الظّاهر عرفـاً من أدلّةصـحّة الإحجـاج بالصّبىّ هو جعله محرماً، لا النيابـة عنه فى الإحرام، وكـذا فى غيره من أفعال الحـج إلّاما دلّ الدليل الخاص عليه.

ويدل على ذلك- سوى ما قلناه- الروايات الكثيرة الواردة بطرق الإمامية عن المعصومين عليهم السلام.

منها: ما رواه الكلينى بسندصـحيح عن معاويـة بن عمار عن أبى عبـد اللّه عليه السـلام، قال: «أُنظروا مَن كان معكم من الصبيان فقدّموه إلى الجحفة، أو إلى بطن مرّ، ويصنع بهم ما يصنع بالمحرم، ويطاف بهم ويرمى عنهم، ومن لا يجد الهدى منهم فليصم عنه وليّه» (۱).

ومنها: ما رواه الصدوق بإسـناده الصحيح عن زرارة عن أحدهما عليهما السلام، قال: «إذا حجّ الرجل بابنه وهوصغير فإنه يأمره أن يلبّى ويفرض الحجّ، فإن لم يحسن أن يلبّى لبّوا عنه، ويطاف به، ويصلّى عنه ...» الحديث (۲).

ومنها: ماروراه الصـدوق- أيضاً- بسندصـحيح عن على بن مهزيار، عن محمد بن الفضـيل، قال: «سألت أبا جعفر الثانى عليه السـلام عن الصّبى متى يُحرَم به؟ قال: إذا أثغر» (۳).

ودلالة هذه الروايات على أنّ الإحرام فعل يتلبّس به الصّبىّ بدلالة الولىّ أو فعله واضحة.

الموضع الثالث: فى سايرأفعاله.

لا بحث فى أنّ الصّبىّ المميّز يفعل واجبات الحجّ كما يفعلها البالغ، فيطوف بنفسه ويصلّى ويسعى ويرمى ويقف الموقفين وغير ذلك.

أمّا الصّبىّ غير المميّز فلاـ كلاـم فى أنّه إذا عجز عن الطواف والسـعى والرمى بنفسه، فإن الولى يطوف به ويسـعى به ويرمى عنه، وأمّا الصلاة فيصلّى عنه الولىّ بالنيابة.

ووقع الكلاـم فى الطهـارة الّتى لابـدّ منهـا فى الطّواف كمـا عليه علمـاء الإماميّـة والشافعى ومالك والمشـهور عن أحمـد- وخالف فى الاشتراط أبو حنيفة، وفى نقل غير مشهور عن أحمد-.

فهل يشترط طهارة الولى لطوافه بالصبى؟ وهل يشترط ايقاعصورة الوضوء بالطفل علاوة على طهارة الولى؟

ذهب بعض الفقهاء إلى ذلك.

والّذى نرجّحه عدم اشتراط طهارة الولى ولا طهارة الصّبىّ للأصل، وعدم شمول عمومات اشتراط الطهارة لهذا

۱- ۱ الوسائل، أبواب أقسام الحجّ، الباب ۱۷، الحديث ۳.

۲- ۲ الوسائل، الباب نفسه، الحديث ۵.

۳- ۳ نفس المصدر، الحديث ۸.

ص: ۱۳۶

المورد، أما الصبى فلعدم قدرته على الطهارة الصحيحة، وعدم الامر بالطهارة الصّوريّة، وأما الولى فلأنّ الطهارة شرط الطائف لا الطواف، وليس الولى طائفاً بنفسه وإنما يطوف بالصبىّ.

أمّا الرّمى فلا خلاف فى أنّ الولىّ يرمى عن الصّبىّ غير المميّز، وإنما الكلام فى أنّه هل يشترط فى الولىّ الّذى يرمى عن الصّبىّ أن يكون قد رمى لنفسه أو لا يشترط؟

ذهب الإمامية إلى أنه لا يشترط وذهب بعض الفقهاء إلى انه يشترط أن يكون قد رمى عن نفسه.

دليلنا: عدم الدليل على الاشتراط، ودلالة إطلاقات الرمى عن الصّبىّ على عدم الاشتراط.

فرع: إذا كان الصّبى غير المميّز راكباً لزم أن يكون الولى هو القائد أو السائق قال المحقق النجفى فى جواهر الكلام: «ولو أركبه دابة فيه- أى الطواف- أو فى السعى ففى التذكرة والدروس وجب كونه سايقاً أو قائداً، إذ لا قصد لغير المميّز، وهو حسن.

وفى المدارك أنه ينبغى القطع بجواز الاستنابة فى الطواف؛ لإطلاق الأمر بالطواف به، ولقول حميدة فيصحيح ابن الحجاج «مرى الجارية» إلى آخره ...» (۱).

والحقّ كما حكاه عن المدارك جواز الاستنابة فى الطواف بأن ينوب عن الولى غيره، فيطوف بالصبى نيابة عن وليّه، ويكفى ما ذكره دليلًا على ذلك.

فرع آخر:

قال المحقّق النجفى: «لا يبعد جواز الاستنابة فى غيره- أى الطواف- أيضاً كما عساه يلوح من النّصّ والفتوى، وأمّا الصلاة فقد سمعت ما فى خبر زرارة- أى الخبر السابق عن زرارة- والذى جاء فيه: ويصلّى عنه.

لكن فى الدروس: «وعلى ما قاله الأصحاب من أمر ابن ست سنين بالصلاة يشترط نقصه عنها، ولو قيل يأتى بصورة الصلاة كما يأتى بصورة الطواف أمكن» وكأنه اجتهاد فى مقابلة النص» (۲).

أقول: دلت الروايات الصحيحة على جواز الاستنابة فى الطواف بالصبى والسعى به والرمى عنه والصلاة، وكذا الهدى.

ففيصحيحة ابن الحجاج: فإذا كان يوم النحر فارموا عنه واحلقوا رأسه، ثمّ زوروا به البيت، ومرى الجارية أن تطوف به بين الصفا والمروة» (۳).

وفيصحيحة اسحاق بن عمار:

«واذبحوا عنهم كما تذبحون عن أنفسكم» (۴).

وفيصحيحة زرارة السابقة:

۱- ۱ جواهر الكلام، ۱۷: ۲۳۷.

۲- ۲ نفس المصدر.

۳- ۳ الوسائل، ۱۱: أبواب أقسام الحج، الباب ۱۷، الحديث الأول.

۴- ۴ نفس المصدر، الحديث ۲.

ص: ۱۳۷

«ویطاف به ویصلّی عنه» (۱).

فالإتیان بصیغة المجهول کما فی الأخیرة، أو بصیغة خطاب الجمع کما فی التی قبلها دلیل علی جواز أن ینوب عن الولی غیره فی الطواف بالصبی والسعی به والصلاة والرمی عنه وکذا الهدی.

بل إن مقتضیصحیحة ابن الحجاج جواز الاستنابة فی الإحرام بالصبی- أیضاً- بأن ینوب عن الولی غیره فیُحرم بالصّبی فقد جاء فیها: فقالت- أی حمیدة-: «إذا کان یوم الترویة فاحرموا عنه وجرّدوه وغسّلوه کما یجرد المحرم ...» الحدیث (۲). فإن مقتضی خطاب الجمع فی الروایة جواز أن ینوب عن الولی غیره فی الإحرام بالصّبی.

وقال ابن قدامة المقدسی: قال الإمام أحمد فی روایة حنبل: یحرم عنه أبوه أو ولیه، واختاره ابن عقیل- إلی أن قال-: وقال القاضی: ظاهر کلام أحمد أنه لا یحرم عنه إلّاولیّه؛ لأنّه لا ولایة للأمّ علی ماله، والإحرام یتعلق به إلزام مال، فلا یصحّ من غیر ذی ولایة کشراء شیءٍ له، فأما غیر الأمّ والولی من الأقارب کالأخ والعم وابنه فیخرج فیهم وجهان بناءً علی القول فی الأمّ، أما الأجانب: فلا یصحّ إحرامهم عنه وجهاً واحداً (۳).

أقول: إن کان المانع من جواز إحرام غیر الأب بالصبی أنّ الإحرام یتعلق به إلزام مال، فلا یصح من غیر ذی ولایة، فالجواب عنه أنّ الفدیة لا تلزم الصبی فی ماله بل تلزم فی مال من یحجّ بالصّبی- أو فی مال أبیه خاصة أن کان بأذنه- کما ورد فیصحیحة زرارة فی الرجل یحجّ بابنه وهوصغیر:

فإنه یأمره أن یلبّی ویفرض الحجّ- إلی أن قال- وإن قتلصیداً فعلی أبیه (۴). وإن کان المانع غیره کان علیه أن یدلّ علیه، فیما رواه أحمد والنسائی ومسلم وأبو داود عن ابن عباس دلالة علی جواز احرام الأم بالصبّی، فقد روی مسلم وغیره عن ابن عباس: قال: رفعت امرأةصبیّاً لها فقالت: یا رسول اللَّه ألهذا حجّ؟

قال: «نعم، ولکِ أجر» (۵).

فإن اثبات الأجر للمرأة ظاهر فی أن المرأة هی التی تحجّ بالصّبیّ، فتکون هی الّتی تحرم به، فیدل الحدیث علیصحّة إحرام الامّ بالصّبیّ، وبذلک یثبتصحّة إحرام غیر الأبوین أیضاً بالصّبی؛ لعدم الخصوصیّة فی الامّ، فإذا جاز فیها جاز فی غیرها.

أما غیر الإحرام من أفعال الحجّ فقد روی عن أحمد فی الرمی أنه

۱- ۱ نفس المصدر، الحدیث ۵.

۲- ۲ الوسائل، أبواب أقسام الحج، الباب ۱۷، الحدیث الأول.

۳- ۳ المغنی، ۳: ۲۵۳.

۴- ۴ الوسائل، أبواب أقسام الحج، الباب ۱۷، الحدیث ۵.

۵- ۵صحیح مسلم، ۱۴: ۱۰۱.

ص: ۱۳۸

قال: یرمی عن الصّبی أبواه أو ولیّه.

وقال ابن المنذر: کل من حفظت عنه من أهل العلم یری الرمی عن الصّبی الّذی لا یقدر علی الرّمی، وکان ابن عمر یفعل ذلک، وبه قال عطاء والزهری ومالک والشافعی واسحاق (۱).

وأما الطواف فقد ذکر ابن قدامة: «إن أمکنه المشی مشی وإلّا طیف به محمولًا أو راکباً، فإن أبا بکر طاف بابن الزبیر فی خرقة، ولأنّ الطواف بالکبیر محمولًا لعذر یجوز، فالصغیر أولی» (۲).

أقول: لا وجه لاختصاص جواز النیابة فی الرمی عن الصبی بولیه أووالدیه؛ لما ذکرنا من الدلیل علی جواز النیابة عن الصّبی مطلقاً فی کل ما لا یقدر علی مباشرته، وعدم الدلیل علی الاختصاص.

حکم مخالفات الصّبی فی عمل الحجّ:

فی ذلک مسائل ثلاث:

المسألة الأولی:

فی ارتکابه لما یوجب إفساد الحجّ

قال الشیخ الطوسی فی المبسوط: «أما الوطء فی الفرج فإن کان- أی الصبی- ناسیاً لا شیء علیه، ولا یفسد حجه مثل البالغ سواء، وان کان عامداً فعلی ما قلناه: من أنّ عمده وخطأه سواء لا یتعلق به أیضاً فسادُ الحجّ، وإن قلنا: إنّ عمده عمدٌ لعموم الأخبار فیمن وطَأَ عامداً فی الفرج من أنّه یفسد حجّه، فقد فسد حجّه ویلزمه القضاء، والأقوی الأوّل، لأن ایجاب القضاء یتوجّه إلی المکلّف وهذا لیس بمکلّف» (۳).

والصحیح أن یقال: یفسد حجّه ولا- یجب علیه القضاء، أما فساد الحج فلعموم ما دلّ علی کون الوطء عن عمد مفسداً للحجّ؛ ولا یخصّصه ما جاء من (أنّ عمد الصبی خطأ)؛ لاختصاصه بالجنایات، أو للقطع بعدم شموله للعبادات، کما هو المتفق علیه فی مثل الصلاة والوضوء إذا تعمّد ارتکاب المنافی.

وأمّا عدم وجوب القضاء علیه، فلحدیث رفع القلم عن الصّبی، وقد تقدّم البحث عنه.

وقال ابن قدامة: «وإن وطئ أفسد حجّه، ویمضی فی فاسده، وفی القضاء علیه وجهان: أحدهما: لا یجب لئلا تجب عبادة بدنیّة علی من لیس من أهل التکلیف. والثانی: یجب لأنه إفساد موجب للفدیة، فأوجب القضاء کوطء البالغ» (۴).

وقد اتضح مما ذکرناه آنفاً بطلان القول بوجوب القضاء لحدیث رفع القلم، وأمّا ما نقله من استدلال

۱- ۱ المغنی لابن قدامة، ۳: ۲۵۴.

۲- ۲ نفس المصدر.

۳- ۳ المبسوط، ۱: ۳۲۹.

۴- ۴ المغنی، ۳: ۲۵۵.

ص: ۱۳۹

القائل بوجوب القضاء؛ لأنه افساد موجب للفديـة فيرد عليه: أنّ ايجابه للفدية أوّل الكلام، فنحن لا نقبل كونه موجباً للفدية فى الصّبى؛ لحديث رفع القلم ولغيره مما دلّ على عدم جريان قلم التكليف بحق غير البالغ، فلا يمكن قياس ذلك بوطئ البالغ.

المسألة الثانية:

فى حكم ارتكابه لما يوجب الكفارة

فى حالتى العمد والخطأ وهو

الصيد

اختار مشهور الإمامية عدم وجوب كفارة الصّيد على الصّبى، قال المحقّق النجفى فى جواهر الكلام:

«إن قتلَصيداً فعلى أبيه وبه افتى الأكثر فى كل ما لا فرق فى لزومه للمكلّف فى حالتى العمد والخطأ» (۱).

وحكى عن ابن إدريس انه ذهب إلى «عدم وجوب كفارةصيد الصبى لا فى ماله ولا فى مال أبيه» (۲).

وحكى عن العلامة فى التذكرة:

أنه ذهب إلى «وجوب كفارة الصيد فى مال الصبى» (۳).

قال ابن قدامـة: قال ابن المنـذر أجمع أهلُ العلم على أنّ جنايات الصبيان لازمـة لهم فى أموالهم، وذكر أصـحابنا فى الفدية التى تجب بفعل الصّبى وجهين، أحدهما: هى فى ماله؛ لأنها وجبت بجناية أشـبهت الجناية على الآدمى، والثانى: على الولى وهو قول مالك؛ لأنه حصل بعقده أو إذنه فكان عليه كنفقة حجه (۴).

والحقّ أنّ كفارة الصيد لا تجب فى مال الصبى وتجب فى مال وليّه، فهنا دعويان:

الأولى: أنها لاـ تجب فى مال الصبى، والدليل على ذلك ما دلّ على رفع قلم التكليف عن الصبّى، وليست الكفارة حكماً وضعيّاً كالضمان؛ ليقال بثبوته فى عهدة الصّبى، وعدم شمول دليل رفع القلم له. فإنّ هناك فرقاً أساسياً بين باب الجنايات على المال أو النفس وبين ما نحن فيه، وأقل ما يوجد من الفرق بين الموردين، ورود الضرر بفعل الصّبى على مَن له حرمة فى نفسه وماله فى باب الجنايات، وبما أن حديث رفع القلم وارد مورد الامتنان والإحسان، فلا يشمل المورد الذى يخالف الامتنان والإحسان، وهو المورد الّذى يلزم من رفع القلم فيه نقصان نفس محترمة أو مال محترم، بخلاف ما نحن فيه إذ لا يلزم من رفع وجوب الكفارة نقصان نفس محترمة أو مال محترم.

الثانية: ثبوت كفارةصيد

۱- ۱ جواهر الكلام، ۱۷: ۲۳۹.

۲- ۲ المعتمد فى شرح العروة الوثقى، ۱: ۳۹.

۳- ۳ نفس المصدر.

۴- ۴ المغنى، ۳: ۲۵۵.

ص: ۱۴۰

الصبی فی مال ولیّه. هـذا الحکم خلاف القاعدهٔ الّتی دلّ علیها حدیث رفع القلم، ولو لا النصّ الخاص لم یکن وجه للقول به، لکن قد ورد به النصّ الصّریح، فقد روی الصدوق بإسناده عن زرارهٔ عن أحدهما علیهما السلام قال:

«إذا حجّ الرجل بابنه وهوصغیر فإنه یأمره أن یلبّی ویفرض الحجّ- إلی أن قال- وإن قتلصیداً فعلی أبیه» (۱).

والروایهٔصحیحهٔ السند تامهٔ الدلالهٔ، ولا یحتمل خصوصیّهٔ الأب بل الظّاهر إرادهٔ مطلق الولی، فیثبت بـذلک وجوب الکفارهٔ فی مال الولی الّذی قام بأمر حج الصبی مطلقاً وإن لم یکن أباه.

المسألهٔ الثالثهٔ:

فی حکم ارتکابه لما یوجب الکفارهٔ

فی حال العمد

(وهو سایر موجبات الکفارهٔ)

قال الفقیه الیزدی فی العروهٔ الوثقی:

«وأما الکفارات الأخر المختصهٔ بالعمد، فهل هی أیضاً علی الولی، أو فی مال الصّبی، أو لا تجب الکفارهٔ فی غیر الصید لأنّ عمد الصّبی خطأ.

والمفروض أن تلک الکفارات لا تثبت فیصورهٔ الخطأ وجوه، لا یبعد قوهٔ الأخیر إما لـذلک، وإما لانصراف أدلّتها عن الصّبی، لکن الأحوط تکفّل الولی، بل لا یترک هذا الاحتیاط، بل هو الأقوی؛ لأن قوله علیه السلام: «عمد الصّبی خطأ» مختص بالدیات، والانصراف ممنوع وإلّا فیلزم الالتزام به فی الصید أیضاً» (۲).

وقال النووی فی شرح المهذّب:

«قد سبق أنه یجب علی الولی منع الصّبی من محظورات الإحرام، فلو تطیّب أو لبس ناسیاً فلا فدیهٔ قطعاً، وإن تعمد، قال أصحابنا: فیبنی ذلک علی القولین المشهورین فی کتاب الجنایات: أنّ عمد الصبی عمد أم خطأ؟ الأصح أنه عمد، فإن قلنا خطأ فلا فدیهٔ، وإلّا وجبت. قال إمام الحرمین: وبهذا قطع المحقّقون، لأنّ عمده فی العبادات کعمد البالغ، ولهذا لو تعمّد فیصلاته کلاماً أو فیصومه أکلًا بطلا، وحکی الدارمی قولًا غریباً: أنه إن کان الصّبی ممن یلتذ بالطیب واللباس وجبت وإلّا فلا» (۳).

والصحیح کما تبین مما ذکرناه فی المسألهٔ السابقهٔ عدم وجوب سایر الکفارات علی الصّبی مطلقاً؛ لا فی ماله ولا فی مال ولیّه؛ لحدیث رفع القلم ولغیره مما دلّ علی رفع قلم التکلیف عن الصّبی، وأمّا الکلام الّذی ذکره المحقق الیزدی فیرد علیه:

أولًا: لا مانع من دعوی انصراف أدلّهٔ ثبوت الکفارهٔ عن الصّبی علی أساس أنّ الطّبع الأوّلی

۱- ۱ الوسائل، أبواب أقسام الحج، الباب ۱۷، الحدیث ۵.

۲- ۲ العروهٔ الوثقی، المسألهٔ السابعهٔ من شرائط وجوب حجّهٔ الإسلام.

۳- ۳ شرح المهذب، ۷: ۳۲.

ص: ۱۴۱

للكفارات يقتضى كونها للعقوبة والتأديب، ولا عقوبة للصبى على مخالفته، وما ذكره من لزوم الالتزام به فى الصيد أيضاً فجوابه: أنّه لو لا النصّ الصحيح الخاص الذى أشرنا اليه، لكنّا نلتزم به فى الصيد أيضاً، فالنقض بالصيد غير وارد.

وثانياً: لو غضضنا النظر عن دعوى انصراف أدلّة ثبوت الكفارة عن الصّبى، كفى فى الحكم بعدم ثبوت كفارة الصيد عليه أدلّة رفع القلم فإنها حاكمة على مطلق أدلّة التكاليف.

وأمّا ما جاء فى كلام النووى فيرد عليه:

أولّا: بأنّ جناية الصبى فى حال الإحرام تختلف فى حقيقتها عن الجناية على المال أو النفس، بأنّ الأُولى تجاوز على حقّ من حقوق اللَّه وحرمةٍ من حُرماته، أمّا الثانية فإنها تجاوز على حقوق النّاس وحرماتهم، فقد يعفى عن الأُولى ولا يُعفى عن الأخيرة، فلا يصحّ قياس أحدهما على الآخر، ولا تعميم حكم الأخيرة على الأولى.

وثانياً: ما ذكرناه سابقاً من عدم جريان الرفع الامتنانى فى مثل الجناية على نفس محترمة أو مال محترم، بخلاف غيرها من المحرّمات والتكاليف، التى لا يلزم من رفعها اعتداء على حقوق الآخرين.

وثالثاً: مبنى القول بأنّ عمد الصّبى خطأ فى باب الجنايات، ما ورد فى الحديث من أنّ عمد الصّبى خطأ، لكن هذا النصّ لا معنى لشموله لمورد المحرّمات الّتى يشترط فى ثبوت الكفارة فيهاصدورها عن عمد، ولا حكم لارتكابها خطأ، بل هى مختصة بالموارد الّتى يكون لها حكمان: حكم خاص بحال العمد، وحكم خاص بحال الخطأ كما فى الجناية على النفس مثلًا، فيكون معنى (عمد الصبى خطأ) أن حكم عمد الصبى هو الحكم الثابت لحال الخطأ فى غيره، قال المحقّق السيد الخوئى حسبما جاء فى تقرير بحثه:

«وبالجملة قوله عليه السلام (عمد الصبى خطأ) يشمل المورد الّذى له سنخان من الحكم حكم ثابت لصورة العمد، وحكم ثابت لصورة الخطأ، وهذا النحو من الأحكام إنما هو فى باب الجنايات والديات، فإذا جنى الصّبى عمداً يترتب على فعله أحكام الخطأ، وإذا ارتكب القتل عمداً، يعامل معه معاملة القاتل خطأ، وأما المورد الّذى ليس له إلّاحكم واحد مترتب عليصورة العمد خاصّة كأكثر الأحكام، فغير مشمول لهذه

ص: ۱۴۲

الجملة» (۱).

نفقات حجّ الصّبى:

وفيها مسائل ثلاث:

الأولى:

فى نفقته التى لا تزيد على

نفقة الحضر

المشهور بين الإماميّة وعليه أكثر فقهاء المـذاهب أنّ نفقـة الصبى التى لا تزيد على نفقة الحضـر تكون من مال الصّبى؛ لأنّها مصـلحة ضروريّة له فلابدّ من القيام بها والصرف عليها من ماله، ولا خلاف يعتد به فى هذه المسألة.

الثانية:

فى نفقته التى تزيد على

نفقة الحضر

المشهور بين الإماميـة بل ادعى عليه عـدم الخلاف بينهم، وعليه أكثر فقهاء المذاهب أنّ الزائد من نفقة الحجّ على نفقة الحضـر تكون من مال الولىّ، لأنّه هو السبب، ويعود نفع حجّ الصّبى إليه لما فيه من الثواب، وعدم ضرورته للصّبى. إلّاإذا توقفت مصلحة الصّبى على اصـطحابه فى سـفر الحجّ، كما إذا توقفت تربيته أو المحافظة عليه على ذلك فيصرف على سفره من ماله لكون السفر حينئذٍ حاجة من حوائج الصّبى ومصلحة من مصالحه.

وذهب بعض فقهاء الشافعيّة إلى أن نفقة حجّ الصّبى مطلقاً من مال الصّبى؛ «لأنّ فيه مصـلحة له بتحصـيل الثواب له ويتمرّن عليه فصار كأجر المعلم والطبيب» (۲).

ويرد عليه: أن هناك فرقاً بين أجر المعلم والطبيب ونفقة سفر الحج، فإن فى تعليمه فيصغره وكذا علاجه من المرض مصلحة لازمة له، تفوت بتأجيلها إلى زمان كبره، بخلاف الحـجّ فليس فيه مصـلحة لازمة له لا يمكن تداركها بعد البلوغ، فالصـحيح أن ما يزيد من نفقة حجّ الصّبى على نفقة حضره تثبت فى مال الولى، ولا يجوز أخذها من مال الصبى.

الثالثة:

فى ثمن الهدى

ذهب فقهاءُ الإماميّة إلى أن ثمن الهدى على الولى، ولا يجوز الصرف عليه من مال الصّبى؛ لعدم مصلحة للصّبىّ فى الاحجاج به، حتى إذا كـان السـفر به ذا مصـلحة له، إذ يمكن اصـطحابه من دون الإحجـاج به، فـإذا أحـجّ به الولى، وترتب عليه لزومصـرف المـال لثمن الهـدى كـان ذلـك فى مـال الولى. ولمـا ورد فيصـحيح زرارة «يذبـح عن الصـغار ويصوم الكبـار» الظّاهر فى أن القائم بأمر الصّبى هو المكلّف بالذبح عنه، فيكون فى ماله.

۱- ۱ المعتمد، فى شرح العروة الوثقى، ۱: ۴۱- ۴۲.

۲- ۲ المغنى لابن قدامة، ۳: ۲۵۵.

ص: ١٤٣

قال المحقّق النجفى فى جواهر الكلام:

«وأمّا الهـدى الّذى يترتّب عليه بسبب الحـجّ فكأنّه لاـ خلاـف بينهم فى وجوبه على الولى الّذى هو السبب فى حجّه، وقدصرح به فيصحيح زرارة» (١).

وذهب بعض فقهاء الشافعيّة إلى أنّ ثمن الهـدى فى مال الصّبى، ويرد عليه نفسما أوردناه على قولهم بثبوت نفقـة السـفر الزائدة على الحضر فى ماله، من عدم ضرورة الإحجاج به له، وعدم ثبوت مصلحة لازمة تعود إليه فى ذلك، وكون الولى هو السبب فى لزوم هذه النفقة فتكون فى ماله.

الهوامش:

اليهود فى الجزيرة العربية

اليهود فى الجزيرة العربية

أحمد الواسطى

كـان المسـلمون وما زالوا فى تعاملهم مع اليهود يبتعـدون عن إثارة النزعـة العدائيـة وروح الكراهيـة، معبّرين بـذلك عنصـدق نواياهم ومواقفهم السـليمة تجاه اليهود. بينما نجـد فى المقابل أن اليهود كانوا يعبّرون عمّا يختلج فيصدورهم من كيد وبغى وسـفك دماء إزاء المسـلمين وغيرهم وفى مختلف أدوار حياتهم القديمة والمعاصـرة. كما أعلنوا جهاراً عن نظراتهم التوسعية، يقول اليهودى اللندنى (د. أوسكار ليفى):

«نحن معشـر اليهودصـنعنا الحرب العالميـة، نحن اليهود لسـنا إلّا مضـلّلى العالم وحارقيه وقاتليه، وإنّ ثورتنا الأخيرة لم تقُمْ بعـد. ونحن وضعنا اسطورة (الشعب المختار)» (٢).

١- ١ جواهر الكلام، ١٧: ٢٣٩.

٢- ٢ شيريب سبيريد وفيتش: حكومة العالم الخفية، سلسلة اليهود والعالم: ١٠٠.

ص: ۱۴۴

هـذا فى الوقت الـذى يحـاول فيه الإعلام الاسـتكبارى إظهـار اليهود فى هـذه الأيام. يمظهر الحمْل الوديع، وكأنهم المسالمون الـذين يوفون بالعهد؛ ليخلط فى ذلك الحقائق بالأوهام.

يتضمن البحث المطالب التالية:

۱- خصائص النفسية اليهودية.

۲- علاقة اليهود بالجزيرة العربية.

۳- الأوضاع الاقتصادية لليهود.

۴- التجمع اليهودى فى عصر البعثة المحمّديّة.

۱- خصائص النفسية اليهوديّة:

ظهرت تسـمية اليهود بعـد السبى، لأنّ كلمـة (يهودى) تعنى بالأصل أفراد قبيلـة أو مملكـة (يهودا)، أُطلقت بعد ذلك على أىّ فرد من أفراد اليهود، وشملت أخيراً كل أفراد اليهود فى العالم (۱).

ولفظـة «يهود» مشـتقة من (هادوا)، أى: (تابوا، والهود: التوبـة، هاد يهود هوداً، أو تهوّد: أى تاب ورجع إلى الحق، وفى القرآن الكريم: «إنّا هُدنا اليکَ» أى: تبنا إليك، وهاد وتهوّد: إذاصار يهودياً) (۲).

وعلى أى حـال، فإنّ اليهود يـدّعون أنّ نسبهم يرقى إلى النبيِّ إبراهيم الخليل عليه السـلام، الـذى نزح من «أور» فى بلاد (الكلـدانيين) جنوبى العراق، حوالى سنة ۱۸۰۰ (ق. م)، وعبر نهر الفرات إلى أرض كنعان، حيث قومُه ونسـلُه من زوجه (سارة)، وسمّوا فيما بعد ب (العبرانيين)، وهو مشـتق- على الرأى الأرجـح- من الجـذر (عابَر) المعروف فى كلّ اللغات الساميّة بمعنى «اجتاز من جهة إلى أخرى»، ومنه اشتقاق العِبْر «بكسر العين وتسكين الباء» أى الضفة الأخرى (۳).

ولكنّ الاسـتعمال الحـديث لكلمـة «عبرى» أصبح يرتبـط بالمقـدّسات التراثيـة القديمـة، والجوانب الثقافيـة لليهود. فيقولون مثلًا «اللغة العبريّة» و «الأدب العبرىّ» و «الجامعة العبريّة» ... الخ (۴).

ومما يجدر ذكره هنا: أن اليهود عرفوا خلال تاريخهم الطويل بأسـماء أخرى منها (الإسـرائيليون) نسـبة إلى (إسرائيل)، وهو لقب للنبيِّ يعقوب بن إسـحاق بن إبراهيم الخليل عليه السـلام. وقد اختلفت الروايات فى أصل كلمة «إسـرائيل»، وهو على الأصح اسم مركب من لفظتين ساميتين قديمتين هما (أسر) بمعنى القوة والغلبة و (ايل) أى اللَّه، فيكون معنى الكلمة «قوة اللَّه» (۵).

وقـد اقترنت لفظـة (اليهود) دائمـاً بـذكر الجوانب السـيئة فى خُلُق «بنى إسـرائيل) نحو قوله تعـالى: «وقـالت اليهود يـد اللَّه مغلولـة غلّت أيديهم ولُعنوا بما قالوا ...» (۶).

ويحمل اليهود فى أعماقهم خصائص نفسية بالغة التعقيد، وتنطوى على أخلاق غاية فى العوج والالتواء؛ ولذلك تموجصدورهم بحقد طافح على النـاس جميعـاً، فيسعون فى الأرض فساداً، ولا يرون لأنفسـهم راحـةً أو سـعادةً إلّا على أنقاض الآخرين، ولا يستريحون إلا بالدّسِّ والكيد والتآمر والبغى، والتخريب والانتقام.

۱- ۱ قاموس «الكتاب المقدس»: لفظة يهود.

۲- ۲ ابن منظور، لسان العرب: مادة هود.

۳- ۳ دائرة المعارف، المعلم بطريس البستانى، ۱۱: ۶۵۹، دار المعرفة بيروت- وراجع أيضاً د. حسن ظاظا، الشخصية الإسرائيلية: ۲۵.

۴- ۴ نفس المصدر: ۲۴.

۵- ۵ نفس المصدر: ۱۶- المعجم الحديث عبرى- عربى: د. ربحى كمال.

۶- ۶ المائدة: ۶۴.

ص: ۱۴۵

ويكاد العقل ينكر- للوهلة الأولى- وجود سلسلة واحدة عبر الأزمنة والأمكنة، تتأصّل فى أجيالها جميعاً كلّ أخلاق السوء الى هذا الحدّ الرهيب! ولا يصدق استمرار هذا السُّعار النفسى فى الجيل بعد الجيل، على امتداد أكثر من ثلاثة آلاف سنة، ولكنّ هذا هو واقع اليهود وديدنهم، بل هو دينهم الذيصنعوه لأنفسهم، وأشربته قلوبهم على تعاقب القرون والأجيال. فالحقد اليهودى موجّه الى الناس جميعاً من قديم، ولم تفلت منه أمّة قط، وهذه حقيقة تأريخية معروفة ومؤكدة.

ويمكن القول: إن تعاليم «التلمود» (۱) تُعدّ أوفقصورة لنفسية اليهود، فهى ترجمةصريحة لهذه الشخصية الموغلة فى الخبث والأحقاد. بل (التلمود) تجسيد مكتوب لأخبث ما فى النفسية اليهودية من ضلال وكيد!

فقد وضعت تعاليم (التلمود) فى عصور الشتات، والقومُ سمّاعون للكذب وخاصة إذاصدر من أحبار السوء.

أضف الى ذلك أنّ هذه التعاليم جاءت بعد انقطاع النبوّة من بنى اسرائيل وتحويلها عنهم لمّا كفروا بآخر أنبيائهم، وقالوا فيه وفى أُمّه بهتاناً عظيماً.

ومن هنا نفهم كيف امتزجت هذه التعاليم بالكيان اليهودى، وسرت فيه مسرى الدماء فى العروق؛ ولذلك آمنت الجمهرة الكبرى من اليهود بهذه التعاليم الفاحشة، وقدّستها وأطاعتها عن رضا، وفضلتها على «التوراة»، والتزمت بها فوق التزامها بسائر ما لديها من وصايا وأسفار (۲). ولا تزال كذلك الى يومنا هذا، وهيصاحبة الكلمة والسلطان على اليهود جميعاً، ومن يعارض «التلمود» منهم- على قلته- تعدّه ضالًا، ولا تأثير له.

فالشخصية الصهيونية المتولّدة من تعاليم «التلمود» شخصية شيطانية بكل معنى الكلمة: منشأً، ومنزعاً، وفكراً، وسلوكاً، وإلحاداً، وعناداً، واحترافاً للتضليل والإفساد.

۲- علاقة اليهود بالجزيرة العربية:

انتشر اليهود- على إثر خراب «الهيكل»- فى البلاد الواقعة بين آسيا الصغرى ومصر، والبعض منهم كان موجوداً فى هذه المناطق قبل خراب الهيكل أيضاً (۳).

وقد توزعوا أواخر القرن الأوّل الميلادى فى أرجاء شبه الجزيرة، وفى اليمن والعراق والشام ومصر وتركيا، ويبدو أنهم لاقوا الاضطهاد فى المناطق التى كانت تخضع لحكم المسيحيين فى هذه البلدان، مثل: سوريا وتركيا ومصر.

يقول الدكتور (إسرائيل ولفنسون): «بعد حرب اليهود والرومان سنة (۷۰ م)، التى انتهت بخراب فلسطين، وتدمير (هيكل بيت المقدس)، وتشتّت اليهود فى أصقاع العالم، قصدت جموعٌ غفيرة من اليهود بلادَ العرب، كما حدّثنا عن ذلك المؤرخ اليهودى (يوسيفوس)، الذى شهد تلك الحروب، وكان قائداً لبعض وحداتها.

۱- ۱ التلمود: كتاب عقدى يفسّر ويبسّط كل معارف اليهود وتعاليمهم، وينقسم الى جزأين رئيسين: ۱- المِشْناه، وهو الأصل المتن، ويعد أول لائحة قانونية وضعها اليهود لأنفسهم بعد التوراة، جمعها يهوذا هاناسى فيما بين ۱۹۰ و ۲۰۰ م، أى بعد قرن تقريباً من تدمير تيطس الرومانى الهيكل. ۲- جِمارا، شرح للمِشناه كتاب التلمود بكامله.

۲- ۲ الكنز المرصود فى قواعد التلمود: ۴۳- ۴۴، د. يوسف نصر اللَّه.

۳- ۳.- ۱۹۷۲- ۱۶۶۰-.

ص: ۱۴۶

أما اليهود الـذين توجّهوا إلى المناطق التى تسـكنها قبائل وثنية، مثل: الحجاز، فقد تمتعوا بحريتهم الكاملة، وإن كانوا قد واجهوا معاناة فى بعض الأحيان.

وبشـكل عام فإنّ يهود الحجاز تمتعوا بحريـة دينية كاملة قبل ظهور الإسـلام؛ لأن القبائل العربية التى جاوروها فى تلك المنطقة كانت وثنيـة فى معظمهـا. لـذا فـإنّ الجزيرة العربيـة تمثّل المحطـة الأولى لهجرة اليهود بعـد فتـك الرومـانيين بهم، حيث انتشـروا جماعـاتٍ جماعـات، اسـتقرت فى مواضع الميـاه والعيون من وادى القرى، وتَيمـاء، وفـدك، وخيبر الى يثرب، وبنوا فيهـا الآطام لحمايـة أنفسـهم وأرضهم وزرعهم من اعتداء الأعراب عليهم.

كما انتشرت اليهودية فى جنوبى الجزيرة العربية حيث اعتنقها كثير من القبائل فى اليمن. ومن أشهر المتهودين (ذونواس) ملك اليمن، الذى عرف عنه اضطهاده لنصارى (نجران).

وقد عمل اليهود على نشر تعاليم «التوراة»، وتفسيراتها فى مناطق سكناهم فى شبه جزيرة العرب (۱).

وتجدر الإشارة- هنا- إلى أن هجرة المسـلمين من مكّة الى يثرب سنة ۶۲۰ م تعتبر بداية تحوّل كبير فى مسار الدعوة الإسـلاميّة، لأنّها كانت- فى الوقت نفسه- بدايةصراع من نوع آخر، غير الصراع مع مشركى قريش، أعنى بذلكصراعهم مع القبائل اليهودية، التى كانت قد توطّنت يثرب؛ وما حولها منذ زمن بعيد، ومكّنت لنفسها فى الأرض.

وكـانت (يثرب) فى أيـدى اليهود قبل هجرة (الأوس والخزرج) إليها (۲). ويبـدو أن هاتين القبيلتين قدمتا من الجنوب، إذ يرجع نسـب (الأوس والخزرج) الى قبيلة (الأزد) اليمنيّة، التى تفرّعت عن (شعب كهلان)، وهو من نسل (قحطان) أبى اليمنيين جميعاً (۳).

ولقـد وجـد اليهود أنفسـهم مضـطرين للتعايش مع (الأوس والخزرج)؛ فأنشأوا معهم علاقات سياسـيّة على قـدم المساواة (۴)، وجمعت بينهم مصالـح الجوار، مع رجحان المصالح الاقتصاديّة اليهوديّة فى المنطقة بشـكل ملحوظ، ولم يكن ذلك كافياً للهدوء والسـلام بين القبيلتين القادمتين من الجنوب، بل كان الصراع سمة دائمة بينهما اصطبغ بلون الدم، وسجّل التاريخ مواقع كثيرة سفكت فيها الدماء من الفريقين، وأدّى بهما هذا النزاع الى فتنة مستمرة قسمت يثرب الى معسكرين متنابذين.

وفيما عاش يهود (بنى النضير)، و (بنى قريظة) مع الأوس. نرى (بنى قينقاع) يحتفظون بمساكنهم المجتمعة المنعزلة (۵).

ولم يكن يهود الحجـاز بعيـدين عن مسببات الصـراع بين الأـوس والخزرج، ففى وقت من الأوقات خضع (الأوس) للخزرج، وخسـروا أرضـهم. بَيْـد أن (الأـوس) مـا لبثوا أن تحـالفوا مع يهود (بنى قريظـة) و (بنى النضـير)، ومن ثمّ تغلبوا على (الخزرج) فى معركـة كبيرة حاسمة جرت فى (بعاث)، ولم يعرف الفريقان السلام بينهما بعد هذه المعركة، بل استمرّ النزاع عنيفاً مميتاً (۶).

ويتمثل يهود الحجاز بالقبائل والعشائر والبطون التالية:

بنو النضـير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع، وبنو عكرمة، وبنو عمر، وبنو زعورا، وبنو زيد، وبنو جشم، وبنو بهدل، وبنو عوف، وبنو العصـيص، وبنو ثعلبة وغيرهم (۷).

۱- ۱ أحمد أمين، فجر الإسلام: ۲۴.

۲- ۲ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية: ۴۲.

۳- ۳ احمد أمين، فجر الاسلام: ۷.

۴- ۴ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية: ۴۳.

۵- ۵ نفس المصدر.

۶- ۶ نفس المصدر.

۷- ۷ نفس المصدر.

ص: ۱۴۷

غير أنهم لم يكونوا أعراباً، أى بدواً يتنقلون من مكان الى مكان، بل كانوا حضراً استقروا فى الأماكن التى نزلوا فيها.

والمستشرق (أوليرى) كغيره من المستشرقين يرجع أصل (بنى قريظة)، و (بنى النضير) إلى اليهود، ويرى أنهم غادروا ديارهم، وجاءوا الى هذه المنطقة فى الفترة الواقعة ما بين خراب الهيكل فى عام (۷۰ م) وتنكيل (هدريان) باليهود فى عام (۱۳۲ م).

وتتضح خارطة التوزيع الاستراتيجى لليهود فى شبه الجزيرة على النحو التالى:

۱- يثرب (المدينة):

سكن اليهود يثرب، وكان يسكن معهم من غير «بنى اسرائيل» بطون من العرب، وظل اليهود أصحاب يثرب حتى جاء (الأوس والخزرج)، فنزلوها واستغلوا الخلافات التى كانت قد وقعت بين اليهود فتغلّبوا عليهم، وسيطروا على يثرب، وقسموها فيما بينهم فلم يبق لليهود أيّ سلطان عليها (۱).

وتمركز (بنو قينقاع) وعددهم حوالى (۱۰۰۰ شخص) فى قلب يثرب، وتمركز (بنو قريظة) وعددهم حوالى (۱۵۰۰ شخص) فى ضواحى يثرب، باتجاه الجنوب الشرقى، بمنطقة مهزور على بعد بضعة أميال من يثرب، وتمركز (بنو النضير) وعددهم حوالى (۱۵۰۰ شخص) فى ضواحى يثرب، فى اتجاه الغرب، بمنطقة بُطحان بالعالية على بُعد ميلين أو ثلاثة من يثرب، وكانت عامرة بالنخيل والزروع (۲).

ومن بين اليهود الذين سكنوا يثرب وضواحيها بطونصغيرة أخرى كبنى عكرمة وبنى ثعلبة، وبنى محمر، وبنى زعورا، وبنى عوف، وغيرهم، إلّاأنّ هذه البطون الصغيرة كانت تابعة فى سياستها للبطون الكبيرة! كبنى قينقاع والنضير وقريظة.

۲- خيبر:

تمركز (بنو خيبر) وعددهم حوالى (۳۰۰۰ شخص) على بعد مئة ميل شمال المدينة، وهم أشد اليهود قوة، وأوسعهم ثراءً لخصوبة أرضهم، وكثرة مزارعهم وبساتينهم، وضخامة حصونهم ومتانتها.

وخيبر موضع غزير المياه، عرف واشتهر بزراعته، وبكثرة ما به من نخيل.

وعند إجلاء اليهود عن خيبر تفرّقوا، فذهب بعض منهم إلى العراق، وبعض آخر إلى الشام، وبعض منهم الى مصر، وقد بقوا- فى كلّ هذه المواضع- متعصبين (لخيبر) (۳).

۳- فدك وتيماء:

تمركزت فيهما تجمعاتصغيرة تقدّر بحوالى (۱۰۰۰) شخص.

وفدك موضع غلب عليه اليهود. وسكانهُ مثل أغلب يهود الحجاز، مزارعون عاشوا على الزراعة، كما اشتغلوا بالتجارة، وببعض الحرف التى تخصص فيها اليهود مثل: الصياغة والحدادة والنجارة.

أما (تيماء): فهى من المواضع القديمة، وتعتبر ملتقى طرق هامة يسلكها التجار. وقد استبدّ بها اليهود، فأقاموا

۱- ۱ أبو الفرج الاصفهانى، الأغانى، ۱۹: ۹۵- أحمد أمين، فجر الإسلام: ۷، ۲۴، ۲۵.

۲- ۲ نفس المصدر.

۳- ۳ تاريخ الطبرى، ۳: ۱۵، ۹۸.

ص: ۱۴۸

بها، وجعلوها من أهم مستوطناتهم فى الحجاز (وقد نعتت تيماء فى بعض الأشعار بتيماء اليهود) (۱).

۴- وادى القرى:

وادى القرى من المواضع التى غصّت باليهود، فكان أكثر أهله منهم، وقد حفروا به الآبار، وتحالفوا وعاشوا مع الأعراب يعملون بالزرع (۲).

والتوزيع الاستراتيجى لليهود فى شبه الجزيرة العربية حقّق لهم الأهداف التالية:

۱- السيطرة على شمال الحجاز من المدينة حتى حدود الشام (تقدر المسافة بحوالى ۴۰۰ كم)، وينطوى هذا الهدف على السيطرة الاقتصادية، وامتلاك زمام الثروة- بكل مصادرها- فى هذه المنطقة الغنية بمواردها الطبيعية، التى عمل اليهود على استغلالها واستثمارها.

۲- تأمين التجمعات اليهودية من التهديد، أو الغارات، أو الغزو، فان انتشار التجمعات الفرعية من حول منطقة التجمع الرئيسية فى المدينة وخيبر فى اتجاه الشمال والشرق والغرب، يتيح الفرصة للحصول على معلومات مبكرة عن أى تهديد، أضف الى ذلك ما يتيحه أسلوبهم- فى بناء مستعمراتهم وتحصينها، وتحصين منازلها، وتخزين السلاح والمؤن بها- من أسباب الأمن والوقاية والمقدرة الدفاعية.

۱- ۱ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ۲: ۹۳.

۲- ۲ نفس المصدر.

ص: ۱۴۹

۳- تجنب الاحتكاك بقريش التى كانت تمثل أكبر قوة اقتصاديـة وسياسـية وتجارية عربية؛ وذلك بالابتعاد عن مكّة، وتجنب التمركز فيها، وخاصة أن بها الكعبة التى يقدّسها العرب، كأثر من آثار أبيهم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

هذا فضلًا عن أن بيئة مكّة الطبيعية لم تكن تناسب اليهود، وكان اقتصادها قائماً على الرحلات والتنقل، واليهود ليسوا من الصنف الذى يجمع الثروة بمثل هذا الطريق الشاق، ولا ممن يستريحون لأولاد إسـماعيل، والمقدسات التى يقدسها العرب الأميّيون، والمسلمون فيما بعد.

ويمكن القول: إنه لو لم يكن للعرب القرشـيين فى جنوب الحجاز من المقام الأدبى، والنفوذ الاقتصادى، والقدرة العسـكرية؛ لكان من الممكن للنفوذ اليهودى أن يمتد ويتسع.

۴- استغلال ظروف المنطقة، والصراعات للإثراء وتأمين الاستيطان. فقد استغل اليهود ما كان بين الأوس والخزرج منصراعات وحروب وثارات فى الجاهلية بما يلى، على سبيل المثال:

أ- إقراض الأموال والتعامل بالربا.

ب- بيع السلاح لكلّ من الطرفين.

ج- العمل على اسـتمرار الصـراع بين الأوس والخزرج، فتنشغل القبيلتان به عن مواجهة اليهود، وفى هذا تأمين لاستيطانهم فى المنطقة، علاوة على ما فيه من استنزاف لقوى العرب باستمرار، وقد بلغ مخطط اليهود لتحقيق هذا الهدف حدّ التحالف مع طرفى الصراع، فكان بنو قينقاع يحالفون الخزرج، وبنو النضـير يحالفون الأوس، وهـذا التحالف لم يحقق لهـم ما كانوا يحرصون عليه، وهو ألّا يجتمع الأوس والخزرج على اليهود فحسب، بـل حقّق لهم جانبـاً كبيراً من الأـمن، إذ إن كـل فريق من الأـوس والخزرج كان حريصاً على حلفائه من اليهود (۱).

۳- الأوضاع الاقتصادية لليهود:

من أهم الأعمال التى اشتغل بها اليهود التجارة، حتيصار لبعضـهم فيها شهرة كبيرة ك (أبى رافع)، و (سلام بن أبى الحقيق) الذى ينعت بتاجر أهل الحجاز. ويمكن أن يقال: إن تجارة التمر والشـعير والقمح والخمر تكاد تكون وقفاً عليهم فى شمال الحجاز. كذلك اشتغل اليهود بالزراعة، التى هى المهنة الرئيسـية لسـكان القرى منهم، وعملوا بتربية الماشـية والدواجن، وفى جهات (مقنا) كانت مهنتهمصـيد الأسـماك، وأما نساؤهم فقـد اشـتغلن بنسـج الأقمشـة. ومن الصـناعات التى كان يهود الجزيرة العربية يزاولونها،صـياغة (الذهب)، وقد اشتهر بها بنو قينقاع (۲).

وكان لهم أيضاً باع فيصناعة السلاح، حتى أصبح تقليداً خاصاً بهم، توارثوه منذ أيام داود عليه السلام الذى يعزى إليه الفضل فيصناعة الأسلحة من معدن الحديد (۳).

وقد ترتب على سيطرة اليهود على الجوانب الاقتصاديّة فى المدينة وضواحيها، أن قوى نفوذهم المالى، وصاروا يتحكّمون فى الأسواق تحكّماً فاحشاً، ويحتكرونها لمصـلحتهم ومنفعتهم، فكرههم السواد الأعظم من الناس، بسـبب أنانيتهم واشـتطاطهم فى أخـذ الربا، ولأنّ معظم معاملاتهم- مع غيرهم- تقوم على المراهنات، وتعاطى الربا.

۱- ۱ نفس المصدر.

۲- ۲ غازى محمد فريج، النشاط السرى اليهودى: ۷۶، ط ۱ ۱۹۹۰.

۳- ۳ نفس المصدر.

ص: ۱۵۰

وكان لهم من طبيعة منطقة المدينة الزراعية فرصة الى ذلك، لأن الزراع- عادة- يحتاجون الى اقتراض الأموال لحين الحصاد.

وقد وبخهم القرآن الكريم على أخذهم الربا، الذى نهاهم اللّه عن أخذه، فقال تعالى: «فبظُلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلّت لهم وبصدّهم عن سبيل اللّه كثيراً وأخذِهم الربا وقد نُهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً» (۱).

ويصف الدكتور (جواد على) ما كان عليه اليهود من ضعف وذلّة، فيقول: «ولكن اليهود- مع ما كان لهم من حصون وآطام وقرى عاشوا فيها متكتلين مستقلين- لم يتمكنوا من بسط نفوذهم وسلطانهم على الأرض التى أنشأوا مستوطناتهم فيها، ولم يتمكنوا من إنشاء ممالك وحكومات يحكمها يهود، بل كانوا مستقلين فى حماية سادات القبائل ورؤسائها، يؤدّون لهم إتاوة فى كلّ عام مقابل حمايتهم لهم، ودفاعهم عنهم، ومنع الأعراب من التعدّى عليهم، وقد لجأوا الى عقد المحالفات معهم فكان لكل زعيم يهودى حليف من الأعراب ومن رؤساء العرب».

وقد أشار القرآن الكريم الى انضمام بعض اليهود الى الأوس، وبعضهم إلى الخزرج عند القتال: «وإذ أَخذنا ميثاقكم لا تَسفكون دماءكم ولا تُخرجون أنفسَكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ثم أنتم هؤلاء تَقتلون أنفسَكم وتُخرجون فريقاً منكم من ديارهم تَظاهرون عليهم بالإثم والعُدوان وإن يأتوكم أسارى تُفادوهم وهو محرم عليكم إخراجُهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاءُ من يفعل ذلك منكم إلّا خزىٌ فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردّون الى أشدّ العذاب وما اللّه بغافل عمّا تعملون» (۲).

فاللّه تعالى أخذ عهداً موثوقاً على (بنى اسرائيل) ألّا يقتل بعضهم بعضاً، وألّا يخرج بعضهم بعضاً من داره، وقد أقرّوا بذلك، واعترفوا، ولكنهم بعد أخذ الميثاق عليهم، قتل بعضهم بعضاً، وأخرج بعضهم بعضاً من داره؛ وذلك أنهم كانوا إذا حصل قتل بين (الأوس والخزرج) انضمّت طائفة منهم إلى الأوس وطائفة منهم إلى الخزرج، وقاتلوا معهم. فكان يترتب على ذلك أن يقاتل اليهودُ بعضهم بعضاً، فاذا وضعت الحرب أوزارها، بذل اليهود جميعاً أموالهم، لافتداء أسراهم، الذين وقعوا فى أيدى (الأوس والخزرج)، فكان العرب يعيّرونهم ويقولون لهم: كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم بأموالكم؟ ..

فكان اليهود يقولون: قد حرم علينا قتالهم ولكنّا نستحى أن نخذل حلفاءنا، وقد أُمرنا أن نفتدى أسرانا، فوبّخهم اللّه تعالى بقوله: «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلّا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما اللّه بغافل عمّا تعملون» (۳).

لذا يتضح أن علاقة اليهود ب (الأوس والخزرج) كانت خاضعة للمنفعة الشخصية، والمكاسب المادية، فهم يعملون على إثارة الحرب بين الفريقين متى وجدوا فى إثارتها فائدة لهم، كما حصل فى كثير من الحروب التى انهكت (الأوس والخزرج)، فكان كلّ همّهم أن تكون لهم السيطرة المالية على المدينة، وقد استمرت علاقتهم ب (الأوس والخزرج) تسير على هذا المنوال الى أن هاجر النبيّصلى الله عليه و آله و سلم إلى المدينة.

۴- التجمّع اليهودى فى عصر البعثة المحمدية:

۱- ۱ النساء: ۱۶۰- ۱۶۱.

۲- ۲ البقرة: ۸۴- ۸۵.

۳- ۳ البقرة: ۸۵.

ص: ۱۵۱

فی بـدء دعـوة الإسـلام کـانت منطقـة الحجـاز مقسّـمة قسـمة عجیبـة، بین نفوذ العرب ونفوذ الیهود وسـیطرتهم، ففی بـدء بعثـة النبیّ محمدصـلی الله علیه و آله و سـلم کانت قوة الیهود الاقتصادیة والسیاسـیة کبیرة ومزعجة فی شـمال الحجاز، حیث بلغت قوتهم فیه قوة قریش فی جنوبه، التی امتـد نفوذهـا من منطقـة یثرب (المدینـة) حتی الطـائف، فیمـا راح نفوذ الیهود یمتـدّ فی شـمال الحجاز الی حدٍّ یمکن معه القول: إنّ هذا النفوذ کان یمتد من المدینة حتی تیماء فی أقصـی حدود الحجاز الشمالیة، ملتقیاً بحدود سوریا لمسافة تقدر الآن بحوالی ۴۵۰ کم.

لذا فإن نفوذ الیهود الاقتصادی إبّان عصـر البعثة یشـکل أسـس حرکة السـیطرة الیهودیة، التی کان یمکن أن تصعد وتّتسع، فقد کانت أوضاع توزیع الوجود الیهودی فی شمال الحجاز فی منتهی الدقة، والحرص علی نیات التوسع والسیطرة.

وذلک أن یهود (بنی قینقاع) الـذین ورد ذکرهم فی روایـة ابن خلـدون کانوا یقیمون فی منطقـة یثرب (المدینـة)، وکانت معهم قبائل (بنی عوف) و (بنی النجار) وتقیم حولها قبائل (الأوس والخزرج) وتنزل فی المناطق الزراعیة التی کانت تهتم بها.

و (بنو قریظة) کانوا ینزلون فی ضاحیة یثرب (المدینة) من جهة الجنوب الشـرقی، وبنو النضـیر کانوا ینزلون فی ضاحیة یثرب (المدینة) من جهة الغرب.

أما منطقة (خیبر) ففیها أعظم مرکز لتجمع الیهود فی شـمالِ الحجاز، وتقع ما بین المدینة ومنطقة تیماء الملاصقة لأقصی حدود الشمال عن سوریا (۱).

وکـان هـذا التوزیع لمراکز القوة الیهودیـة یکفل للیهود- وقتها- القـدرة علی الانتشار، ووضع أیـدیهم علی مساحـة کبیرة من الأرض، یعملون علی اسـتغلالها واسـتثمارها، والقیام بتحصین أماکن تجمعهم، وامدادها بالقوة العسکریّة، وتخزین کمیات من السلاح، وإعداد مجموعات منهم للقتال، بغیة الحفاظ علی ما اکتسبوه، حتی یمکن لهم دوام السیطرة والبقاء.

ولکن ما إن أحسّ الیهود أنّ القرشـیّین أخذوا یباشرون أسلوب عمل فی النظام الجدید، المرتبط بعقیدة الإسلام وآدابه وتعالیمه، حتی أدرکوا تماماً أن هـذه البدایـة الدینیـة بما تقرره، وتصـنعه من إعـداد قوة بشـریة ودینیـة، تصـطدم مع واقع الوجود الیهودی فی الأرض العربیة، وآماله ومصالحه. وما لبثوا أن أعلنوها حرباً قاسیة ومریرة ضد الرسول الأکرم، والإسلام والمسلمین.

ولم تفتر حدة الردّ إلّابعد أن تمکّن المسـلمون من تصـفیة مراکز القوی وإنهاء مواقع التجمّع الیهودی فی أرض الإسـلام، وأبقوا علیهم أفراداً وجماعات دون أن یترکوهم یشکّلون خطراً یُعین الجماعات الطامعة المتوسعة.

وکان الأمل کبیراً فی قلوب المسلمین أن تسیر العلاقة بین الیهود والمسلمین سیرة حسنة، وأن یتعاون الطرفان إلا أنّ العداوة والمضایقة والتربّص من جانب الیهود لم ینته أبداً. فکانت الحرب من جانب الیهود ضد المسلمین، وإعلان هذه الحرب ومداومة القیام علیها حتی مرحلة التآمر علی النبیِّصلی الله علیه و آله و سلم، ومحاولات التخلص منه نهائیاً

۱- ۱ أمین سعید، تاریخ الإسلام السیاسی: ۹۸.

ص: ۱۵۲

باعتباره رمزاً لسيادة المسلمين فى المدينة، الموطن الجديد لهم، الموطن الذى ضايق اليهود بوجود المسلمين فيه، ومواصلتهم نشر الإسلام منه.

وأخذت الحرب الصامتة تَقْوى وتشتد من جانب اليهود ضد المسلمين وعلى مراحل، وفى كل مرحلة كان موقف اليهود فيها يكشف عن طبيعة وجودهم وعقائدهم فى أىّ موقع يسيطرون فيه، ويبرز نوع تعاملهم مع أى أمّة يعيشون معها أو بينها (۱). فلقد كان اليهود يعبّرون عمّا تنطوى عليه نفوسُهم وقلوبُهم من غِلٍّ وحقد وحسد للمسلمين، ويفصحون عن إحساسهم بالخطر مما يمكن أن يطرأ على حال المسلمين من اطّراد القوة والمنعة والسيادة.

ومع كل هذا كان المسلمون يتجنّبون تصعيد حالات العداء، إلا أنّ اليهود كانوا يدركون أن الوقت ليس فيصالحهم، فإذا لم يكسروا شوكة المسلمين من الآن- خاصة بعد بدر- فإن خطر المسلمين سيتضاعف، ومع أنّ المسلمين كانوا يعيشون انتصار بدر وصداه العظيم فى كلّ أرض الحجاز، فإنّهم كانوا يدركون أن خطر قريش لا يزال قائماً، وأنّه ربما تكون الجولة القادمة من جانب قريش طلباً للثأر من المسلمين.

ثم إنّ بداية المضايقات وتصاعدها، وبلوغها حالات الصِّدام فى الموطن الجديد، كانت تتمثل فى قطاع هائل من اليهود وهم «بنو قينقاع» الذين توجّه إليهم رسولُ اللّه بنفسه فى سوقهم، فرفضوا دعوته، ثم هدّدوه إن قامت الحرب بينه وبينهم (۲).

ثم ساروا على طريق الهُزء بالمسلمين والاستخفاف بهم وبحرماتهم، إلا أن المسلمين لم يبالوا بكل الظروف المحيطة بهم، وقاموا بمحاصرة يهود «بنى قينقاع» فى بطولة فدائية عظيمة، فقد كان عدد اليهود من (بنى قينقاع) أكثر من عدد المسلمين بكثير، فهم عند بعض المؤرخين (۷۰۰) مقاتل و (۳۰۰) دارع و (۴۰۰) حاسر؛ لذا أدرك اليهود الذين ينتشرون فى شمال الحجاز أنه لابدّ لهم من العمل ضد الإسلام والمسلمين، وهذا هو ما ساروا عليه، وخططوا له على المدى البعيد.

ومن هنا يتضح أن اليهود (ومن ورائهم الصهيونية) يدركون أن الإسلام هو العدو والخصم اللدود لهم، فعلى المسلمين والعرب أن يستبعدوا أى تفكير بقبول (الكيان الغاصب) والاعتراف به مهما كان المقابل؛ ذلك أن الصهيونية منذ البداية الأولى لها كانت قائمة على أساس التفسير التوراتى للتاريخ الإنسانى، وللميثاق الإلهى مع الإنسان ولمستقبل الإنسان فوق الأرض. كما أن نزعة العنصرية الحاقدة، ونزعة احتقار الأمم الأخرى فى العقلية الصهيونية إنما هى مستوحاة من الرؤية التوراتية المزوّرة التى تقول حكاية عن الرب: «أنا قلت: إنكم آلهة وكلكم بنو العلى» (۳).

لذا يرتكز الكيان الغاصب فى سياساته العدوانية والتوسعية والعنصرية على رؤية (دينية توراتية تلمودية)، بل إن قيام هذا الكيان على أرض شعب فلسطين مدين فى وجوده لتلك (الرؤية التوراتية) المحرّفة، التى كتبتها وأملتها أحقاد أحبار اليهود على الأمم.

ومن هنا تعتبر الصهيونية التطبيق العملى لليهودية، واليهود أنفسهم يعتبرون تاريخ اليهودية والصهيونية شيئاً واحداً، كما أن تاريخ الصهيونية يؤكد تفنن اليهود فى ابتداع وابتكار الأساليب والطرق التى تخدم أهدافهم بطرق غير مباشرة (۴). نعم يصح التفريق بين اليهودية والصهيونية إذا كان المقصود باليهودية الرسالة السماوية الصحيحة التى

۱- ۱ نفس المصدر.

۲- ۲ نفس المصدر.

۳- ۳ سفر المزامير، ۸۲: ۶- الأصل العبرى: ۱۰۱۰.

۴- ۴ فتحی یکن، العالم الإسلامی والمکائد الدولیة: ۷۲- سهیل دیب، التوراة تاریخها وغایاتها: ۵.

ص: ۱۵۳

جاء بها موسی علیه السلام.

وینبغی علی الأمّة الإسلامیّة أن تسلک طریق الجهاد فی سبیل اللّه، حتی تستعید حقوقها وأرضها وعزتها وکرامتها، وتضع حدّاً للعدوان الصهیونی الذی یهدّد السلام والأمن فی العالم، ویهدّد المکتسبات المادیة والأخلاقیة للحضارة المعاصرة. فالصراع الذی تخوضه الشعوب الإسلامیة والشعب الفلسطینی بشکل خاص ضدّ الاستکبار العالمی یشهد الیوم اختراقاً خطیراً له ولعالمنا الإسلامی من قبل الصهیونیة العالمیة والیهودیة المنحرفة لم یسبق له مثیل. فقد مهدت قوی الاستکبار لهذا الاختراق منذ وقت لیس ببعید تحت مظلة ما یسمی بالحکم الذاتی، والذی أطلق علیه اتفاق (غزة- أریحا)، حیث یشکل طوقاً یحاصر التحرک الإسلامی والفلسطینی، وقد أرید له أن یکون أداةً ناجحةً لتحجیم (ثورة الحجارة الفلسطینیة) وتدمیرها، بعد أن أربکت القوة العسکریة والأمنیة والاقتصادیة للکیان الغاصب.

ومن هنا فالمشروع الصهیونی یمثّل أخطر تحدٍّ حضاری تتعرض له الأمة الإسلامیة جمعاء عبر تاریخها الطویل؛ لأن الصهیونیة تخشی الإسلام الذی استوعب الدرس التاریخی المتمثل بسر انتصار المسلمین ووحدتهم، فلابدّ من إنهاء الوجود الصهیونی الشریر الذی یسعی للسیطرة علی العالم واستعباد البشر ونهب ثروات الشعوب وإذلال العباد.

الهوامش:

النواحی العمرانیة لمکة المکرّمة علی مرّ العصور

النواحی العمرانیة لمکة المکرّمة علی مرّ العصور

عباس المهاجر

أولًا: الناحیة العمرانیة فی عهد قریش:

إن العمران فی مکّة لم یزد عن مضارب من الشعر، کانت تتلاصق أو تتباعد فی حواشی الوادی، وبین لیات جباله، وما إن أَطلّ العهد الذی ندرسه- عهد حکومة قریش- حتی کانت المضارب من الشعر قد حلّت محلّها البیوت المرصوصة بالحجر، أو المبنیّة بالطین والحجر فیما یحاذی المسجد، أو بالطین النیء وحده علی حوافی الأباطح فی أعلی مکة، أو علی شواطئ المسیل فی أسفلها.

ص: ۱۵۴

وکان سعید بن عمرو السهمی أوّل مَن بنی بیتاً بمکّة، وقد قیل فیه:

وأوّل من بوّا بمکّة بیتَه وسوّر فیها مسکناً بأثافی (۱) وکانوا یبنونها بحیث لا تستوی علی سقوف مربعة کما نفعل الیوم.

وأول من بنی بیتاً مربعاً حمید بن زهیر، وأستهولت قریش عاقبة التربع فی هندسة البیت، فقالت:

«ربع حمید بیتاً– اما حیاة أو موتاً» (۲).

وأول مَن بوّب فی مکّة «حاطب بن أبی بلتعة» (۳).

وکانوا یجعلون بین یدیها العرصات ینزل الحجاج فیها والمعتمرون. ولما شرعوا یصنعون لبعض الدور أبواباً کانوا یقصرون ذلک علی بعض غرفها، ویترکون مداخلها شارعة علی عرصاتها دون أبواب، وقد قیل إن هند بنت سهیل عندما استأذنت عمر بن الخطاب فی أن تجعل علی دارها بابین أبی وقال لها:

إنما تریدون أن تغلقوا دورکم دون الحجاج والمعتمرین، قالت: تاللّه ما أرید إلا أن أحفظ علی الحجاج متاعهم؛ فأغلقها علیهم من اللصوص فأذن لها فبوبتها.

ویستطیع الباحث أن یستنتج: أن العمران فی مکّة– فی عهدنا الذی ندرسه– نشط نشاطاً کبیراً، بعد أن ترکنا المضارب تتباعد علی حوافی وادی إبراهیم من أعلی مکّة إلی أسفلها، ثم تعرج فی ناحیة منها إلی مداخل الشامیة الیوم نحو قعیقعان؛ نجدها الآن وقد اتصلت وتکاثفت واتخذت کلُّ قبیلة منزلها من الوادی وشعابه، ولم یزحف عمرانهم إلی مرتفعات الجبال وأکتافها کما نفعل الیوم ... بل ظل مستویاً باستواء سطح الوادی.

وقد ذکروا أن قصیاً خطّ للکعبة ساحة توازیصحن المسجد الیوم، وأباح للناس أن یبنوا دون ذلک حول مدارها من الجهات الأربع، وکانوا لا یبیحون لأنفسهم قبل «قُصیّ» السکنی، أو المبیت بجوار الکعبة. ثم أمرهم أن یجعلوا بین بیوتهم مسالک یفضون منها إلی ساحة الکعبة، وأهم هذه المسالک مسلک شیبة وهو فی مکان بنی شیبة الیوم، ولم یبوّب ساحة الکعبة أو یسورها، کما أمر بأن لا یرفعوا بیوتهم عن الکعبة لتظل مشرفة علیها؛ وکانوا یتخذون مجالسهم العامة فی أفیائها، کما بنی دار الندوة لاجتماعاتهم الخاصة (۴).

وفی استطاعتنا أن نرسم خطوطاً تقریبیة لخریطة مکّة، نبین فیها باختصار مواقع البطون فی مکّة یومها، وسیر العمران بین شعابها، اعتماداً علی ما ذکره الأزرقی فی تخطیطه مواقع القبائل فی کتابه أخبار مکّة (۵).

ولتوضیح ذلک فی الأذهان؛ نستطیع أن نجعل من باب بنی شیبة نقطة ابتداء لتخطیطاتهم، فقد کان موضع ارتکاز الحرکة العمرانیة فی أمّ القری، کما کان أهم مداخل المسجد الحرام، وکانت البیوت تتکاثف حوله متجهة فی الشرق إلی «حصوة» باب علیّ، وفی الشمال قلیلًا إلی «حصوة» باب السلام، تنزلها بطون غساسنة الشام وبعض السفیانیین، وتتخللها متاجر للعطارین، فإذا مضی بنا الخطّ مستقیماً إلی جهة باب النبیّ واجهنا بیت العباس، ودار جبیر بن مطعم، ودور لبنی عامر بن لؤی، واستقام أمامنا زقاق أصحاب الشیرق، وهو إلی جانب زقاق الحجر حیث تقوم دار لابن علقمة، ودور أخری لآل عدی من ثقیف. فإذا نفذنا من ذلک إلی شارعنا العام فی القشاشیة (۶)، متوجهین إلی أعلی مکة استقام أمامنا سوق کانوا یُسمونه سوق الفاکهة، ثم سوق الرطب، ثم رباع کانت لبعض بنی عامر، وعند سوق اللیل تصافحنا الدار التی کانوا یسمونها دار مال اللّه، وکانوا ینفقون فیها علی المرضی ویطعمونهم.

۱– ۱ شفاء الغرام للفاسی، ۱: ۳۶ ط الأولی ۱۹۸۵.

۲– ۲ الجامع اللطیف لابن ظهیرة: ۲۶.

۳- ۳ تاریخ القطبی: ۲۳.

۴- ۴ تاریخ مکة، ۱: ۳۰ ط السادسة ۱۹۸۴.

۵- ۵ الأزرقی، ۲: ۱۳۱ بتصرف.

۶- ۶ لعل القشاشیة منسوبة إلی الشیخ القشاشی، وقد کان یسکن مکّة حوالی القرن الحادی عشر «أُنظر فی الجزء الثانی من کتاب تاریخ مکّة للسباعی فی‌حوادث الشریف أحمد بن عبد المطلب فی عهد الترک العثمانیین».

ص: ۱۵۵

وبالقرب من الدار یلتوی شعب ابن یوسف، وهو ما نسمّیه الیوم شعب علیّ، وفیه دور عبد المطلب بن هاشم، ودور أخری لأبی طالب، وأخری للعباس بن عبد المطلب، وإذا عدنا إلی استقامتنا فی شارعنا العام یصافحنا دار العاص فی فوهة شعب بنی عامر، ثم یلتوی شعب بنی عامر فی دروب متعددة تقوم علیها دور لبنی بکر، وأخری لبنی عبد المطلب بن عبد المناف، ونستقیم مرة أخری فی شارعنا العام فیواجهنا ردم آل عبد اللَّه، وکانوا یعارضون به مجری السیل ویسمونه الردم، وعنده یقف الحمارون، ونمضی قلیلًا إلی المعلاة لنجد الجزّارین عن یمیننا فی شعب أبی دب، ثم مکان المقابر وهی بعد حدود شعب عامر، ثم بعض بساتین تنتهی منها إلی شعبة الجن، ثم ثنیة الحجون، ثم بساتین أخری نصل بعدها إلی شعب الصفی وهو ما نسمیه الیوم المعابدة، وفیه دور لبنی کنانة وآل عتبة بن أبی معیط، ودور لربیعة من بنی عبد شمس.

وإذا بدأنا خطّاً آخر من باب بنی شیبة، متوجّهین إلی الشمال الشرقی فی المسعیصادفتنا دورٌ لبنی عدی، قائمة بین باب بنی شیبة ورواق باب السلام، وفی المسعی یتوجّه درب إلی یمیننا کانوا یسمونه الخرامیة، وکان فیه مکان للبانین، وفیه سقیفة، ودار الحکم بن حزام، ودور تتخللها عرصات لبنی سهم، ویمضی بنا الدرب إلی بیت خدیجة، حتی یخرج إلی مکان المدعی الیوم.

وإلی یسارنا- ونحن فی المسعی- طریق الساعین إلی المروة، وفی المروة دور لآل عتبة بن فرقد، ودار کبیرة لآل یاسر، فی واجهتها الحجامون والحلاقون، وإذا مضینا فی المسعی مصعدین فی طریق المدعی انتهینا إلی رحبة واسعة، کانت تحط فیها عیر الحنطة والسمن والعسل والحبوب؛ لتباع فیها، وهی ما نسمیها الیوم المحناطة، وفیها دور لبنی عبد الشمس، ودار أبی سفیان وهی فی مکان «القبان» الیوم، وقد أشار النبیُّصلی الله علیه و آله و سلم إلیها عندما قال یوم الفتح: «مَن دخل دار أبی سفیان کان آمناً» ثم دور لأولاد العباس تصل إلی قریب من المدعی، ثم دور لأولاد الحارث، ثم طریق إلی یسارنا یمضی إلی جبل الدیلم، وهو یشرف علی القرارة الیوم. ثم نمضی فی استقامتنا إلی طریق المعلاة لنمرّ علی دور لبنی غزوان، وأخری لأولاد الحارث بن عبد المطلب.

ونبدأ خطاً ثالثاً من باب بنی شیبة متوجهین غرباً إلی دار الندوة؛ لنجد البیوت تتکاثف قبل الرواق، إلی جانبها دار لشیبة بن عثمان، ودار لخزانة الکعبة، ودار لصاحب البرید، ودار لبیت المال، ودار للخطاب بن نفیل، ثم نصعد شمالًا إلی جهة الرواق، الذی فیه باب الزیادة، إلی باب الدریبة، فتصادفنا دور لبنی خزاعة، بینها زقاق الحذائین، نسلک منه إلی سویقة، ثم ننعطف منه إلی المروة، ومن جهة أخری دور لآل زرارة من تمیم، ثم یمضی بنا الشعب إلی قعیقعان فی مداخل ما نسمیه الشامیة- الیوم- فإذا توجهت إلی یمینک توجه بک درب إلی ناحیة الدیلم، بالقرب من القرارة- الیوم-، ثم تصعد إذا شئت علی تلال فی مکان الفلق کانوا یصعدونها؛ لینزلوا منها إلی مکان سوق المعلاة- الیوم- ولم یفلق هذا الطریق إلا ابن الزبیر فی عصره.

وإذا أردنا أن ننتقل من شقّ مکة الأعلی إلی شقها الأسفل، تعیّن علینا أن نجعل نقطة ابتداء تخطیطنا ما بعدصحن المسجد أمام باب أجیاد، متوجهین إلی الشرق ثم إلی الجنوب الشرقی.

ص: ۱۵۶

كانت منازل بنى عائذ تبتدئ منصحن المسجد فيما يوازى ركن الكعبة اليمانى، ممتدة غرباً إلى ما يحاذى بئر زمزم، ثم تصعد فى الشرق نحو باب عليّ. وكانت دور بعض كبارهم شارعة على مكان المسعى، على يسار القادم من الصفا يريد المروة، أى فيما يحاذى باب على اليوم تقريباً. وكانت منازل عدى بن كعب تبتدئ منصحن المسجد متوجهة إلى الصفا من ناحية، وإلى أجياد من ناحية أخرى قبل أن ينقلوا إلى أسفل مكّة.

وفى الطريق الذى يبدأ من باب الصفا متوجهاً جنوباً إلى باب أجياد كانت سقيفة لبنى عائذة، وسوق للبزازين «القماشين» وبالقرب من ذلك كان البيت الذى اتخذه النبيّصلى الله عليه و آله و سلم لتجارته قبل البعثة مع شريكه السايب بن السايب.

وإذا انتهيت إلى باب أجياد، ووقفت حيث تكون القبلة فى ظهرك، ومداخل أجياد فى وجهك امتد أمامك شعبان:

أحدهما عن يمينك إلى ما نسميه- اليوم- بئر بليلة، وكانوا يسمونه أجياد الكبير، وامتد الشعب الثانى على يسارك إلى ما نسميه- اليوم- السد، وكانوا يسمونه أجياد الصغير، ولست أعنى بالامتداد ما يتبادر إلى ذهنك من نفاد الجادة واستقامتها بامتداد الشعوب، فقد كان العمران يتخلل الجادة ويعرقل استقامتها ... وكان بنو تميم ينزلون حوالى باب أجياد، وتمتد بيوتهم من جهة الغرب إلى قبيل حدود المسجد يومها، وهى حدودصحن الكعبة اليوم، وكان بنو مخزوم ينزلون فى فوهة أجياد الكبير مكان الرواق الجديد اليوم .... وكان جماعة من الأزد ينزلون خلف ذلك مما يتصل بمكان الصحة العامة، وخلفها كان منزل أبى جهل بن هشام لا يبعد عن ذلك كثيراً، وفى أجياد الصغير إلى الجادة المتصلة بالسد كانت منازل لآل عدى بن عبد شمس، وفى أجياد مكان للحواتين، ودار لعبد اللّه بن جدعان التى كان فيها حلف الفضول الذى تعاقدت فيه القبائل متفقة بأن لا يقرّ فى مكة ظالم. وفيها دور لآل سلمة ابن هشام، وفيها بئر يجمع بين أجيادين احتفرها آل سلمة مع جماعة من جيرانهم، وكان يردها السكان فى فوهة الشعب باجيادين، وأكاد اعتقد أنها البئر الموجودة اليوم قبيل عمارة المستشفى؛ لأنها تجمع بين طرفى أجيادين.

واذا تركت أجيادين، ماضياً فى الشارع العام إلى الجنوب نحو المسفلة، بدأت بسوق الحزورة بجوار باب الوداع، ورأيت الدروب تمضى على يمينك إلى قرب المسجد عند حدود المطاف ومن أشهرها درب الحناطين، واعتقد أنه كان سوقاً للحنطة، فالحائط فى اللغة هو كثير الحنطة، وموقع هذا الدربصالح لبيع منتجات الجنوب من الحنطة فى مكة، وفى هذه الجهة كانت تنزل بطن من آلصيفى، وفيها دور لآل عبد الدار، وأخرى لجماعة لبنى اسد بن عبد العزى.

ولعلنا إلى هذا الحد استطعنا أن نرسم خطوطاً تقريبية لمكة فى الجاهلية، ولا يفوتنا- فى أذيال هذا البحث- أن نشير الى الضواحى التى كان يحلو للمكيين أن ينتجعوها فى الأصائل من شهور القيظ، وهى عادة ترى آثارها إلى اليوم فى المتنزهين من أبناء مكة فى أطراف الضواحى، وكأنما هم يمثلون بذلك عادة عرفها أجدادهم من نحو (۱۵۰۰) سنة تقريباً. ومن أشهر متنزهات مكة فى الجاهلية (۱) الليط ... والليط فى رأى بعض المؤرخين (۲) هو أسفل مكة فيما يقرب من بركة ماجل متنزهاً فى مكة اليوم، ويقول الأستاذ رشدى الصالح ملحس فى حاشيته على تاريخ الأزرقى: إنه يرجح أن يكون خلف القشلاق العسكرى، أى فيما يلى جرول الخلفية، ولست بالذى يستبعدصحة القولين، وكأن الوادى بعد بركة ماجل يتصل بالجادة التى تنتهى خلف القشلاق، فلِمَ لا يكون الليط عبارة عن امتداد من جرول الخلفية إلى أطراف المسفلة؟ وكانت فى الليط أُقحوانة (۳) يجلس أهل مكة حولها فى العشى، يلبسون الثياب المحمرة

۱- ۱ يرى بعضهم أن الجاهلية كلمة يراد بها نقيض العلم، كما يرى بعضهم أنها تعنى الأخلاق السفيهة- أُنظر فجر الإسلام:ص ۶۹.

۲- ۲ أخبار مكة للأزرقى، ۲: ۲۷۹ أنظر حاشية رشدى الصالح ملحى- ط الرابعة ۱۹۸۳.

۳- ۳ أى عباد الشمس.

ص: ۱۵۷

والموردهٔ والمطیبهٔ وفی هذا یقول الحارث بن خالد:

مَن ذا یسایل عنّا أین منزلنا فالأقحوانهٔ منا منزل قمن

إذ نلبس العیشصفواً ما یکدره طعن الوشاهٔ ولا ینبو بنا الزمن (۱) ومن متنزهاتهم شعب خم، وهو یتصل بالمسفلهٔ الیوم، وکان مزروعاً فیه عدهٔ بساتین تتصل باللیط ثم تتصل بجرول.

وکانوا یخرجون إلی حائط الحمام بجوار المعلاهٔ، فقد کان لهم هناک نخیل وزروع، وکانت بساتین تمتد إلی الخرمانیهٔ بقرب ما نسمیه المعابدهٔ، ثم تمضی إلی المحصب فی الطریق المؤدی إلی منی.

وکان لهم فی المحصب دکهٔ یجتمع المتنزهون فیها أصیل کل یوم، وکانت تشرف علی نخیل باسق وبساتین تحتضنها شعاب الوادی الممتدهٔ إلی منی.

کما کانت لهم بساتین فی وادی فخ ونسمیه الشهداء (۲)- الیوم- وأخری بوادی طوی فی امتداده من الحجون إلی ریع الکحل وبساتین غیر هذه فی ضواحی مکهٔ العلیا إلی مزدلفهٔ فعرفهٔ، وکانت المنازل فی المناطق التی ذکرناها لا تتکاثف علی قاعدهٔ المدن الحاضرهٔ بل تتفرق، وتفصل بینها مساحات خالیهٔ علی عادهٔ العرب فی بناء قراهم ومدنهم، أما الناحیهٔ المتصلهٔ بالمسجد فکانت تضیق بنزلائها؛ لتنافسهم فی مجاورهٔ الکعبهٔ. وقد بنی القرشیون فی أواخر عهدهم ما یشبه السور فی أعلی المدعی وبوّبوه، ولم یثبت أنهم بنوا مثله من ناحیهٔ أخری منها (۳).

ثانیاً: الناحیهٔ العمرانیهٔ فی عهد الراشدین:

تتزاحم البیوت فی هذا العهد حول المسجد؛ لأن الأغلبیهٔ من مهاجری الآفاق کانوا یفضلون قربه، فأخذ وسط أمّ القری شکل المدینهٔ المکتظهٔ، وترکت الأطراف للقبائل التی تنزلها تؤدی معانی الضواحی للبلدهٔ.

ولم یزد الاکتظاظ فی طول البلدهٔ عن «المدعی» من الناحیهٔ الشمالیهٔ، وعن أوائل الهجلهٔ، وقبل الشبیکهٔ من الناحیهٔ الجنوبیهٔ. أما شرقها إلی غربها فقد کان تکاثف السکان فیها من أوائل مدخل أجیادین إلی القشاشیهٔ، إلی النواحی القریبهٔ من سوق اللیل وشعب الهواشم، ومن سویقهٔ إلی قرارهٔ المدحا إلی الجزء القریب مما نسمیه الشامیهٔ.

وبدأت الثروات فی عهد عثمان تزید أرقامها فی مکهٔ عما عهدناها فی عهد الشیخین؛ لأنه أضیف إلی نشاط مکهٔ التجاری مصدر جدید من مصادر الثراء ذلک هو عطاء عثمان، ولیس غریباً أن یکون عطاء عثمان مصدراً للثراء، فقد کان قبل خلافته من أجواد العرب الممتازین، ونوادره فی هذا معروفهٔ ومشهورهٔ (۴)، فلما انقادت إلیه الخلافهٔ، وکانت الفتوحات قد اتسعت، وغنائم الأمصار قد انهمرت علی المدینهٔ کان لابدّ لجود عثمان من أن یتسع مداه، ولابد لجلهٔ قریش وکبار أهلیها من ذویه وأقاربه من أن ینالهم جوده الواسع. فقد ذکر أنه أعطی الزبیر ستمائهٔ ألف، وأعطی طلحهٔ مائتی ألف، وأعطی غیرهم مثل ذلک، فتدفقت الأموال علی مکهٔ إلی جانب ما تدفق إلیها من غنائم الحروب، وجلب الرقیق إلیها من أطراف الأرض المفتوحهٔ شراءً أو اهداءً، فأینعت الحضارهٔ، وکثرت الأیدی العاملهٔ فی

۱- ۱ أخبار مکهٔ للأزرقی، ۲: ۲۷۹ وما بعدها- ط الرابعهٔ ۱۹۸۳.

۲- ۲ راجع أخبار مکهٔ للأزرقی، ۲: ۲۳۰ حاشیهٔ رشدیصالح؟؟؟.

۳- ۳ تاریخ مکهٔ، السباعی، ۱: ۸۲.

۴- ۴ نفس المصدر: ۷۴.

ص: ۱۵۸

المزارع المحيطة بمكة، وأنشئت الجنات فی بعض ضواحيها، وحفرت الآبار، واتخذت السدود من مياه الأمطار، ووجدت الأقطاعات الفخمة فی أراضی الطائف، وأكثرها ملك للقريشيين، وانتقل إلی هذه الأقطاعات كثير من قريش، يسهرون علی غلاتها، وقد ظل كثير من بطونهم يعيش إلی اليوم فی بعض ضواحی الطائف.

وماجت مكة علی أثر هذه الحركة بسكانها من القبائل النازحة إليها، والموالی المجلوبين من الفرس والروم، وبدأت تستقبل فی عهد عثمان كثيراً من الذين نزحوا عنها فی عهد الشيخين؛ للالتحاق بالجيوش الفاتحة ... عاد إليها البعض بما كسبه من غنائم، كما عاد البعض الآخر بما فيصدورهم من العلوم، فحفلت مكة بحلقات المعلمين، كما حفلت أسواقها بمتاجر أهل الثراء، ولم تشترك مكة فی فتنة عثمان، التی اشتركت فيها أهم أمصار الإسلام. وإذا كان بعض المهاجرين من أهلها فی المدينة اتصلوا بالفتنة من بعض أطرافها. فذلك بحكم بقائهم فيها واشتغالهم بالسياسة العليا فی حكومتها. ولعلنا لسنا بحاجة الی استقصاء الأسباب التی عصمت مكة من مزالق الفتنة، وعندما نادت عائشة بثورتها لم يتبعها من مكة إلا الأقلون، واكثرهم من أشياع بنی أمية واتباعهم، وبعض المشتغلين بالسياسة العليا، وهؤلاء لا يكونون الرأی العام فی البلاد (۱).

وكما تعاونت مكة مع ولاة عثمان مدة خلافته، وساعدت فی تنشيط الحركة العمرانية لعهده رضيت بولاة علی عليه السلام وأخلصت الود لهم. ولما أراد قثم بن العباس أن يحارب الترف الذی بدرت بوادره كنتيجة لتضخم الثروات التی أشرنا إليها، كادت أن تسلس له القياد وتستجيب إلی دعوته.

ثالثاً: الناحية العمرانية فی العهد الأموی:

ينقل القطبی فی الأعلام عن الفاكهی أن من آثار النبیّ مسجداً بأعلی مكة عند بئر جبير بن مطعم بن عدی بن نوفل، ثم يقول: وكان الناس لا يتجاوزون فی منازلهم- فی قديم الزمان- هذا البئر، وما فوق ذلك خال من الناس، وفی ذلك يقول عمر بن أبی ربيعة:

نزلت بمكةَ من قبائل نوفل ونزلت خلف البئر أبعد منزل

حذراً عليها من مقالة كاشح ذرب اللسان يقول ما لم يفعل ونستطيع أن نفهم من هذا أن قديم الزمان الذی يشير إليه الفاكهی، هو عهد بنی أمية، وفی شعر ابن أبی ربيعة وهو من معاصری الأمويين ما يؤيد ذلك، فقد نزل خلف البئر أبعد منزل. إذاً فقد كان العمران فی هذا العهد لا يتجاوز البئر والمسجد المذكورين، وقد أدركت العامة وهم يسمون المسجد الموجود الآن أمام الحلقة مسجد الراية، وكنت لا أستبعد أن يكون البئر المذكور هو بئر الكمالية الموجود اليوم علی بعض أمتار منه، ولكنی علمت أن الأستاذ عبد القدوس الأنصاری حقّق مكان البئر والمسجد، وانتهی فی ذلك إلی أن مسجد الراية هو المسجد الموجود فی الجودرية، وتقع عمارة شركة الكهرباء الآن خلفه، وبجواره مباشرة بئر جبير بن مطعم. وأجدنی اليوم أميل إلی متابعة رأيه لأسباب أذكرها، وقد يكون ذكر غيرها:

۱- بعد أن ذكر القطبی فی كتابه الأعلام أن العمران كان لا يتجاوز البئر، قال: أما فی زماننا «وزمانه أوائل العهد العثمانی» فقد تجاوز العمران كثيراًصوب المعلاة، فإشارته إلی تجاوز العمران كثيراًصوب المعلاة فيه ما يدل

۱- ۱ تاريخ مكة، السباعی، ۱: ۸۳.

ص: ۱۵۹

علی أن مسجد الرایة کان بعیداً عن المعلاة، فإذا أفترضنا أن مسجد الرایة الموجود أمام الحلقة کان المدی بینه وبین المعلاة مدًی یسیر، وأن أقل العمران یصله بالمعلاة مباشرة.

أما إذا جعلنا مسجد الرایة فی «الجودریة» (۱) فإن جملة العلامة القطبی تستقیم تماماً؛ لأن المدی بینه وبین المعلاة یحتمل قول أن العمران تجاوز کثیراًصوب المعلاة.

۲- یذکر مؤرخو مکّة أن ابن الزبیر عندما فلق الطریق الذی نسمیه الیوم «الفلق»، وکان غرضه أن تتصل بیوته فی نواحی سویقة ببساتینه من ذلک الطریق؛ فتعین لدینا أن بساتینه لا تبعد عن الفلق کثیراً، وأن المتوقع أن یکون موقعها فی الحلقة، أو بالقرب من ذلک؛ لأن الحلقة کانت موقع بساتین ولا- یزال آثار ذلک بجانبها إلی الیوم، فإذاصحّ أن بساتینه فی الحلقة، أو ما یقرب منها فإننا نستبعد أن یکون عمران مکة ینتهی إلی ما یسامت البساتین؛ لأن المعروف فی تخطیط المدن العربیة فی العادة أن تقع بساتینها فی ضواحیها، ولما کان عهد ابن الزبیر متصلًا بعهد الأمویین، وکان المظنون أن بساتینه کانت تقع فی ضاحیة مکة، وأن العمران ینتهی بعیداً عن بساتینه بنحو مائة متر، وهو ما یتفق مع موقع المسجد الموجود خلف عمارة شرکة الکهرباء الیوم، لهذا فالأوفق أن یکون مسجد الرایة وبئر مطعم هما الموجودان الیوم أمام شرکة الکهرباء فی الجودریة، حیث کان ینتهی عمران مکة فی عهد الأمویین.

ولا نعتقد أن العمران تجاوز من الجهة الأخری الشبیکة، لأن حدود حارة الباب لم تعمر إلا بعد هذا العهد، ولم یکن لمکّة فی هذا العهد سور؛ لأن المفهوم من سیاق ما ذکره التقی الفاسی: أن العمران فی هذا العهد تجاوز السور الذی عرفناه فی العهد الجاهلی بالقرب من المدعاة، فهدم السور وظلت مکة علی ذلک إلی أن سورت فی المعلاة فی عهد قتادة کما سیأتی.

علی أننا لا نعنی بتحدید العمران- فی مکّة فی هذا العهد- التحدید المتبادر إلی الذهن؛ لأن المعروف أن کثیراً من السکان کانوا یسکنون إلی مسافات تتجاوز هذه الحدود؛ فشعب عامر کان مسکوناً فی العهد الجاهلی، وکذلک کانت الحجون والمعابدة، وإذن فالمراد بالتحدید هو العمران المتصل، وهو لا یمنع وجود الساکن فی الضواحی القریبة أو البعیدة.

رابعاً: النواحی العمرانیة فی العهد العباسی:

لا یستنتج الباحث مما کتب عن مکة، أن عمرانها اتسع فی هذا العهد عما عرفناه فی عهد الأمویین، أو أن مساحة المأهول فیها توسعت عما کانت، بل یجد أن الأمر علی عکسه، وأن السکان قل تعدادهم جداً، فقد تفرق أبناء مکة فی الآفاق، واستوطنوا الأراضی الخصبة، واتخذوا لهم أملاکاً فی مصر والمغرب والشام والعراق حتی لم یبق فی مکة من أهلها إلا أقل من القلیل، مع من جاورهم من مسلمی الآفاق؛ للتشرف بالجوار، وکان من عادة حکام مکّة أن ینادی منادیهم بعد أداء الحجّ «یا غریب بلادک» تقلیداً لابن الخطاب، لئلا یستأثر المجاورون بثروات البلاد.

عنی الرشید بالعیون التی طمرت بعد عهد معاویة فأحیاها، وصرف میاهها فی عین واحدة، یقال لها

۱- ۱ الجدر بفتح الجیم وکسرها هو نبات رملی، ولعله کان ینبت بجوار ما نسمیه مسجد الرایة؛ لقلة البیوت فیه فسمیت الجودریة بالتصغیر.

ص: ۱۶۰

(الرشا) (۱)، واتخذ البرک لها فی أعلی مکهٔ وأسفلها، تصب فیها المیاه فیسقی منها الناس، وتلک کانت عادتهم قبل إنشاء موارد الماء فی القرون المتأخّرهٔ. ولما لم یف ذلک بالغرض نشطت زبیدهٔ زوجته للأمر فاشترت أرض حنین، وکان فیها نخیل وزرع فألغته، وبنت للماء قنوات یصب فیها إلی أطراف مکهٔ، ثم اشترت أرضاً أخری فی وادی نعمان فوق عرفات، وبنت قنواته؛ لیصب فی عرفهٔ، ثم أصلحت البرک الموجودهٔ فی مکهٔ، وبنت برکهٔ غیرها، لیصب الماء فیها ویستقی الناس، وقدّرت نفقات ذلک بنحو ألف وسبعمائهٔ ألف مثقال من الذهب وهو یعادل ملیون وسبعمائهٔ ألف دینار ذهبی (۲).

وأمر المأمون بانشاء خمس برک فی مکهٔ، تتسلط علیه عین زبیدهٔ فجعل احداها عند شعب ابن یوسف (شعب علیّ)، والثانیهٔ عند الصفا والثالثهٔ عند الخیاطین بجوار ما نسمیه «باب إبراهیم» عند فوهةْ سکهٔ الثنیهٔ (۳) والرابعهٔ عند سوق الحطب فی «الهجلهٔ»، والخامسهٔ فی ماجل أبیصلایهٔ (۴)، وجعل المسارب بین البرک یجری فیها الماء من برکهٔ زبیدهٔ.

وبنی الرشید له داراً بین الصفا والمروهٔ شارعهٔ علی المسعی کان یقال لها دار القواریر (۵)، وفیها بئر هاشم وکانوا یسمونها «سحلهٔ»، أو بئر جبیر بن مطعم؛ لأنه استوهبها من هاشم وهی موجودهٔ إلی الیوم فی باب قایتبای، وقیل: إن عبد المطلب وهبها لمطعم عندما استغنی عنها بحفر زمزم.

وأنشأ یاسر- خادم زبیدهٔ- بأمرها میضات علی باب أجیاد الکبیر، وأدخل فیها بئر الحفر وقد دخل کل هذا فی رواق باب أجیاد فی التوسعهٔ الجدیدهٔ.

واشترت زبیدهٔ دوراً أوقفتها فی مکهٔ، ومنها دار الأرقم، وهی الدار التی کان یختبئ النبیُّصلی الله علیه و آله و سلم فیها قبل البعثهٔ، وتقع فی زقاق علی یسار الصاعد إلی الصفا، ویسمیها بعضهم دار الخیزران، وهی غیر دار الأرقم التی بجوارها.

وأنشأ الرشید علی رؤوس الجبال منائر تشرف علی فجاج مکهٔ، ورتب المؤذنین لها؛ لأن بعضهم کان لا یبلغهصوت المسجد، فبنی علی أبی قبیس أربع منائر، وعلی رأس الأحمر المقابل منارهٔ، وعلی الجبل المشرف علی شعب عامر منارهٔ أخری تشرف علی المجزرهٔ، ومنارهٔ علی جبل کری وغیرها. وبنی مولاه (بغا) غیر ذلک علی جبال أخری فی الفلق والمعلّاهٔ والشبیکهٔ وأجیاد وبئر میمون فی أعلی الأبطح ومسجد الکبش بمنی.

وکان بعض المؤذنین یسهرون فوق المآذن التی بناها الرشید فی الجبال؛ لیؤذنوا فیها، ولعله أذان السحر الذی کان مستعملًا، وقد أهملت هذه المنائر بتقادم الأجیال وخربت ولم یبق منها أثر (۶).

وفکّر الرشید فی أن یعنی بموصلات مکّهٔ البحریهٔ فینشئ قناهٔ ما بین البحر الأحمر والأبیض، فأشیر علیه بترک ذلک مخافهٔ أن تتصل سفن الروم بأرض العرب، وتهدد الحرمین بأخطارها فعدل عن ذلک، وما عدل عنه الرشید نفذه الخذیوی سعید فی مصر بفتح قناهٔ السویس عام ۱۲۸۶ ه.

خامساً: النواحی العمرانیهٔ فی عهد الفاطمیین:

۱- ۱ راجع أخبار مکهٔ للأزرقی، ۲: ۲۳۰.

۲- ۲ نفس المصدر.

۳- ۳ ذکر الأزرقی أن درب الثنیهٔ هو درب الشبیکهٔ.

۴- ۴ الماجل فی اللغهٔ کل ماء فی أصل جبل أو واد، وبرکهٔ المسفلهٔ کانت ماجلًا لأبیصلایهٔ، ثم سمیت برکهٔ الماجل وحرفها الناس

وقالوا: برکهٔ ماجن أو ماجد.

۵- ۵ نفس المصدر، ۲: ۲۰۲.

۶- ۶ شفاء الغرام للفاسی، ۱: ۳۸۸.

ص: ۱۶۱

وعنی الفاطمیون بإصلاح کثیر من الخراب الذی کان یطرأ علی المسجد الحرام، وجددوا بعض الاسطوانات، وأصلحوا بعض المواضع من سقفه، إلا أن عنایهٔ العباسیین کانت أکثر وضوحاً، فقد قاموا بإصلاحات کثیرهٔ فی الکعبهٔ فعمروا سقفها سنهٔ ۵۴۲ وأصلحوا رخامها عام ۵۵۰ وشدّوا رکنها الیمانی عندما تضعضع عام ۵۵۹. وأهدی المطیع العباسی للکعبهٔ قندیلًا من الذهب زنته ۶۰۰ مثقال، وعدهٔ قنادیل من الفضهٔ فی العام نفسه (۱).

وأهدی الخلیفهٔ العباسی المکتفی فی عام ۵۵۱ باباً للکعبهٔ بدیع الصنع منقوشاً علیه اسمه، کما أهداها میزاباً جمیل النقش فی عام ۵۴۱، کما أمر وزیرصاحب الموصل محمد الجواد الإصفهانی بعمل إصلاحات کثیرهٔ فی المسجد، أهمها تعمیر منارهٔ الباب وقبهٔ العباس بجوار زمزم. وأنشأ مزولهٔ فیصحن المسجد لمعرفهٔ أوقات النهار، وکان مکانها علی بعد ۴۳ ذراعاً من رکن الکعبهٔ العراقی بذراع الحدید عمّا یلی المنبر، وقد أزیلت بعد ذلک ولم یبق لها أثر (۲).

وممن عنی بالمسجد فی هذا العهد أحد أعیان المسلمین المعروف بالشیخ رامشت واسمه أبو القاسم إبراهیم بن الحسین الفارسی، فقد بنی رباطاً بجوار باب إبراهیم لسکنی فقراء الصوفیهٔ من أصحاب المرقعات، وأهدی للکعبهٔ میزاباً فی سنهٔ ۵۴۱ وکساها بالحبرات فی عام ۵۳۲ کسوهٔ کلفته ۱۸ ألف دینار مغربیهٔ، وکذلک کساها أبو النصر الأسترآبادی کسوهٔ بیضاء من عمل الهند فی عام ۴۴۶.

وکان الفاطمیون یکسونها بالدیباج الأبیض کما کان بعض العباسیون یکسونها بالسواد شعار العباسیین، واستمرت تکسی بالسواد إلی الآن (۳).

ویذکر الشیخ باسلامهٔ فی کتابه عمارهٔ المسجد (۴): أنه یظن أن المقامات الأربعهٔ الموجودهٔ بالمسجد أنشئت بین القرن الرابع والخامس، أی فی هذا العهد الذی ندرسه الآن، وذلک لأن المؤرخین والرحالین الذین وصفوا المسجد قبل هذا العهد، وآخرهمصاحب العقد الفرید لم یذکروا عنها شیئاً، بینما یذکرها ابن جبیر فی رحلته عام ۵۷۸ فدل ذلک علی أنها حدثت قبیل ذلک العهد.

والذی نحسبه أن ما ذکره الشیخ باسلامهٔ لا یعدو الحقیقهٔ لأننا نعتقد أنها أحدثت فی العهد الفاطمی مع ما أحدثت من مزایا جدیدهٔ.

وکان فی جوانب حجرهٔ زمزم أحواض یصبّ فیها الماء، ویتوضأ الناس به، وأمام بئر زمزم من ناحیهٔ الشرق بناء آخر علیه قبهٔ یسمی سقایهٔ الحاج وضع به أزیار یشرب منها الحجاج، وبعد هذا البناء فی ناحیهٔ الشرق، بناء آخر مستطیل علیه ثلاث قباب یسمی خزانهٔ الزیت به الشمع والزیت والقنادیل، وحول الکعبهٔ أعمدهٔ قامت بینها عوارض من الخشب علیها زخارف ونقوش من الفضهٔ، وقد أنیطت بها المصابیح معلقهٔ فی الحلق والطلّابات ویفصلها عن الکعبهٔ ۱۵۰ ذراعاً وهی مسافهٔ المطاف (۵).

سادساً: النواحی العمرانیهٔ فی عهد الممالیک الأتراک والشراکسهٔ:

۱- ۱ تاج تواریخ البشر للشیخ سعید الحضراوی.

۲- ۲ نفس المصدر.

۳- ۳ نفس المصدر.

۴- ۴ عمارهٔ المسجد: ۱۲۵.

۵- ۵ إفادهٔ الأنام للشیخ عبد اللَّه غازی.

ص: ۱۶۲

لم یبذل الممالیک الأتراک الجهود التی بذلها ممالیک الشراکسة بعدهم فی سبیل الإصلاح، ومع هذا فقد کانت لهم اصلاحات منها: أنهم فی عام ۷۳۶ ه عمروا الأساطین التی حول المطاف وقد جعل بعضها من الحجارة المنحوتة الدقیقة، والباقی کان آجراً مجصصاً، وجعل بین کل اسطوانتین خشبة تعلق فیها القنادیل عوض الأخشاب التی کانت تعلق فیها (۱). وفی عام ۷۴۹ عنی الأمیر فارس الدین من ممالیک الأتراک بإصلاح المسجد، وجدد الأعمدة حول المطاف (۲) وفی سنة ۷۲۰ عمّر الناصر محمد بن قلاوون رخام الحجر ثم عمّره من بعده المنصور علی بن الأشرف سنة ۷۸۱ وصنع باباً للکعبة، وصنع ولده الناصر حسن باباً للکعبة سنة ۸۷۱ (۳) ووقف الصالح إسماعیل الناصر فی عام ۷۴۳ قریة من نواحی القاهرة یقال لها «بیسوس» (۴) بجوار القلیوبیة، وظل ینفق من غلتها علی الکسوة. وقد ذکر ابن بطوطة فی رحلته إلی الحجّ سنة ۷۲۸: أن الملک الناصر کان یتول کسوتها وکانت سوداء مبطنة بالکتان، وأنشأ الناصر بن قلاوون متوضّأً مقابل باب علی.

وعنی الشراکسة بالإصلاحات فی مکة والمسجد الحرام، فجدّد (برقوق) فی عام ۸۰۱ عقد المروة وأصلح درجاتها، وعمر فی عام ۸۴۲ ناظر الجیش الشرکسی ومدیر الحرم (سودون) کثیراً من المواضع المأثورة فی منی والمزدلفة وعرفات، وأزال أشجار الشوک والصخور الکبیرة فی طریق عرفات؛ لأن اللصوص کانوا یختفون وراءها (۵).

وکانت العین من نعمان إلی عرفات خربة، انقطع ماؤها من عهد الممالیک الأتراک فأصلحوا مجراها فی عام ۸۷۴ إلی أن عاد ماؤها یروی الحجیج (۶).

وأمر السلطان قایتبای بهدم المتوضأ الذی ذکرنا أن الممالیک الأتراک أنشؤه أمام باب علی، ثم بنی مکانها رباطاً للفقراء، وأدخل فی مساحة الرباط نحو ثلاثة أذرع من المسعی، وعندما عارض قاضی مکة فی إضافة الأذرع من أرض المسعی إلی الرباط ومنع البناء، أصدر قایتبای أمره إلی أمیر الحجّ بتنفیذ البناء بقوة العسکر فتم ذلک، وأنشأ إلی جانب الرباط متوضأًصغیراً وجعل له باباً یشرف علی سوق اللیل- القشاشیة- کما أُنشئ بجواره مطبخ تطبخ فیه الدشیشة وتوزع علی الفقراء، کما عمّر قایتبای مسجد الخیف فی منی ومسجد نمرة فی عرفات (۷).

وفی عهد الشراکسة شبت النار فی رباط رامشت بین باب ابراهیم وباب الوداع فی شوال سنة ۸۰۲ فاتصل لهیبها بسقف المسجد ثم التهمت النار جمیع الأروقة إلی باب الباسطیة فندب الشراکسة أمیر الحج المصری عام ۸۰۳ لإصلاح ما تهدم، وقد احتاج العمل إلی تغییر بعض الأسطوانات الرخامیة فنحتوا من الجبل المعروف بجبل مکة حجارة بشکل نصف دائرة أقاموا منها الأسطوانات الثخینة، ثم زخرف المسجد بالألوان ونیطت السلاسل بالسقف لتعلیق القنادیل کما کانت فی العهد العباسی، وعمرت المقامات الأربعة علی هیآتها القدیمة، وتمت أعمال البناء فی سنة ۸۰۷ ه وفی عهد أبی السعادات بن الطاهر برقوق ثانی ملوک الشراکسة (۸).

وفی هذا العهد عام ۸۰۷ سد باب الخلوة إلی جانب زمزم، التی کان فیها مجلس ابن عباس وجعل فی موضع الخلوة برکة مقبوبة، وفی جدارها الذی یلی باب الصفا «بزابیز» من نحاس یتوضأ الناس منها علی أحجار نصبت للجلوس، وفوق البرکة المقبوة خلوة فیها شباک إلی الکعبة، وشباک إلی الصفا وطابقصغیر إلی البرکة.

وعمرّ الشراکسة حجر إسماعیل بالرخام، وأرسلوا له کسوة من الحریر الأسود کسوا به دائرة من الداخل

۱- ۱ إتحاف الوری لابن فهد.

۲- ۲ نفس المصدر.

۳- ۳ تاریخ الکعبة للشیخ حسین باسلامة: ۱۹۹.

۴- ۴ الأعلام للقطبی علی هامش خلاصة الکلام: ۱۴۴.

۵- ۵ نفس المصدر: ۱۴۶.

۶- ۶ نفس المصدر: ۱۵۱.

۷- ۷ نفس المصدر.

۸- ۸ شفاء الغرام لتقی الدین الفاسی، ۲: ۳۸۶.

ص: ۱۶۳

والخارج، وکانت أول کسوهٔ من نوعها لحجر إسماعیل وآخرها أیضاً (۱).

وأمر (قانصوه) فی عام ۹۱۷ بنقض جدار الحجر مرهٔ أخری، وأرسل لاصلاحه رخاماً جدیداً من مصر.

وأنشأ الشراکسهٔ فوق مصلی إبراهیم قبهٔ عام ۸۸۱، کما أرسلوا منبراً من الخشب فی عام ۸۱۵، وأرسلوا غیره فی عام ۸۶۶ ثم غیره فی عام ۸۷۷.

وعنوا بکسوهٔ الکعبهٔ طوال مدهٔ حکمهم فی مصر، وفی عام ۸۱۰ احدثوا فی جانبها الشرقی جامات منقوشهٔ بالحریر. وفی سنهٔ ۸۱۹ جعلوا لبابها ستارهٔ أجمل مما کانت، وکانوا یکتبون فی طرازها اسمصاحب مصر الشرکسی (۲).

وکسی (جقمق) الجانب الشرقی والشمالی من الکعبهٔ دیباجاً أبیض بخامات سود فی عام ۸۶۵، وکساها قایتبای من الداخل فی عام ۸۸۳ (۳)، ولا تکسی الکعبهٔ من الداخل إلا إذا بلیت کسوتها، أو أراد أحد الخلفاء تجدیدها.

وفی عام ۸۱۷ عمّر (الفوری) فی زیادهٔ باب إبراهیم، وبنی فوقه قصراً مرتفعاً مع مرافقه، وجعل حول القصر- من خارج المسجد- معازل ومساکن وبنی خارج ذلک متوضَّأً تشتمل علی مراحیض وبرکهٔ ماء، ووقف القصر والمساکن علی بعض أعمال الخیر، وبنی علی یمین الداخل إلی باب إبراهیم من الداخل حاصلًا فی أرض المسجد، وعلی الیسار مثله، وقرر فیهما بعض المستحقین، وجعل فی الجانب الیمانی حاصلًا یشتمل علی سبیل ماء وصهریج.

وخربت المظلهٔ القائمهٔ فوق بئر زمزم فی عام ۸۱۸ فنقضت وبنیت مرهٔ أخری، ثم عمّر الشراکسهٔ کثیراً من الخرائب فی أماکن متعددهٔ من المسجد، وعمّروا باب النبیّ کما عمّروا ثمانیهٔ عقود من جههٔ باب الزیادهٔ، ونقضوا منارهٔ باب السلام، ثم أعادوها فی عام ۸۱۶ کما نقضوا بعد ذلک منارهٔ باب الزیادهٔ ثم أعادوها فی عام ۸۲۳، وأصلحوا فی سطح الکعبهٔ. وتراکمت فی هذا العهد طبقات من التراب فی المسجد فاستعان المسؤولون بالثیران لجرفه ثم نقلوه إلی المسفلهٔ، ثم بطح مکانه بطحاً مغربلًا نقلوه من ذی طوی ووادی الطندباوی (۴).

سابعاً: النواحی العمرانیهٔ فی العهد العثمانی الأول:

لم یتسع عمران مکهٔ فی أوائل العهد العثمانی کثیراً عمّا کان فی عهد الشراکسهٔ، فإن القطبی الذی عاش ردحاً منصدر العهد العثمانی الأول ومات فی عام ۹۸۸، قد ذکر فی کتابه الأعلام: «أن مکهٔ کان مبدؤها المعلّاهٔ ومنتهاها من جههٔ المسفلهٔ قرب مولد سیدنا حمزهٔ عند مجری العین حیث تنزل الیه من درج ویقال له «بازان» (۵). ونهایتها الشبیکهٔ من جههٔ جدهٔ وعرضها من وجه جبل یقال له الآن «فی عهده» جبل جزل بکسر الجیم وفتح الزای وتشدید اللام وقد سماه الأزرقی جبل الأحمر، وهو یشرف علی قعیقعان (۶) وقد سُمی جزلًا نسبهٔ لطائفهٔ من الجند کانت تلعب فیه بالطبل، ویظهر أن السور الذی بناه (قتادهٔ) حوالی القرن السادس لم یعد له وجود فی هذا العهد؛ لأن القطبی یذکر أن مکهٔ فی عهده لم تکن مسورهٔ، ثم یشیر إلی أنها فی عهده أصبحت عامرهٔ بالسکان بعد أن کان فیصباه یری الحرم

۱- ۱ الأعلام للقطبی علی هامش خلاصهٔ الکلام: ۱۴۷.

۲- ۲ الأرج المسکی لعلی الطبری، مخطوط.

۳- ۳ منائع الکرم.

۴- ۴ اتحاف الوری لابن فهد القرشی.

۵- ۵ لعل مورد العین سمی «بازان» نسبهً إلی مهندس الموارد أو منشئها واسمه بازان.

۶- ۶ یقول یاقوت: إنّ جبل الأحمر هو جبل قعیقعان یعنی الجبل الذی بنیت علیه قلعهٔ الهندی.

ص: ۱۶۴

الشریف والمطاف خالیاً من الناس، ولابـدّ من أنصباه کان فی عهد سلیم الفاتح، ثم یقول: إن شیخاً معمراً من أهل مکةصدوقاً عنده أخبره بأنه «شـهد الظبـاء تنزل من جبل أبی قبیس إلی الصـفا وتـدخل إلی المسـجد، ثم تعود لخلو المسجد من الناس، وأنه کان یری سوق المسعی وقت الضحی خالیاً من الباعة، ویری أهل القوافل یأتون باجمالهم من بجیلة فلا یجدون من یشتری منهم جمیع ما جلبوه، وأن الأسـعار کانت رخیصة جداً لقلة الناس وعزة الدراهم» انتهی ما یقوله القطبی عن شیخه المعمر، ولا أستبعد أن یکون المعمر عاش فی أواخر عهد الشراکسة، ثم یقول القطبی:

أما الآن فالناس کثیرون والرزق واسع.

ثامناً: النواحی العمرانیة فی العهد العثمانی الثانی:

واتسع العمران فی مکـة فی هـذا العهـد، وتأسـس أول مجلس للبلدیـة فی عام ۱۳۲۶؛ لیقوم مقـام المحتسب الـذی کان یحکم السوق ویشرف علی تنظیم العمران.

واطرد بازدیـاد عـدد السـکان کنتیجـة لمجـاورة موظفی الأـتراک وعائلاتهم، ومجاورة موظفی المصـریین الـذین تخلفوا فی مکـة بعد ترحیل جیش محمد علی منها، والذی نحسبه أن أطماع أوربا التی ترتبت علی ضعف العثمانیین فی هذا العهد کان له أثر فی مضاعفة السکان، کذلک فقد شنّ الروس حروبهم فی أجزاء من آسـیا، وکذلک فعل الإنکلیز وفعلت فرنسا، فاشـتدّ الضغط علی کثیر من بلاد الإسـلام، وزادت الفتن والحروب ففرّ کثیرٌ من بلاد الإسـلام بـدینهم، والقلیل بـدنیاهم إلی مکّة والمدینـة وجـدة لبعـد هذه البلاد من ضغط الأوربیین واستقلالها بأحکام الدین. وقد بدأ أثر ذلک فی أکثر العائلات التی تسکن الحجاز الیوم، فإن أبرز من فیها ینحدر من أصل مصـری أو ترکی أو مغربی أو شامی أوصـینی، ولما اشتدت الکروب فی الهند والأفغان وجاوی اشتد تدفقهم علی البلاد، واتخذ الجمیع من أجزائها فی مکـة والمدینة وجدة مناطق خاصة سـمیت بأسـمائهم، ففی مکة الیوم من آثار ذلک جبل الترک وجبل الهندی وحارة السلیمانیة (۱)، وزقاق المغاربة وزقاق البخاریة، وفی المدینة وجدة کثیر من هذه المسمیات.

وشوهـدت مکة فی هذا العهد تنقسم باعتبار الاجناس إلی أقسام تشبه المستعمرات، فمنطقة تحتلها جالیات الترک، وثانیة یحتلها أهل بنغالـة والهنـد، وثالثـة یحتلها أهالی غرب أفریقیا «التکارنـة» وغیرها یحتلها الجاویون وأهل بخاری وأهل السـند والشام والیمن وحضـر موت، ونقلت هذه الجالیات معها إلی مکة عاداتها وتقالیدها وأخلاقها، وکثیراً منصناعاتها، وبذلک انتفعت مکة بهذا الخلیط.

وعنی العثمـانیون فی هـذا العهـد ببعض الإصـلاحات فأسـس الـوالی الـترکی (عثمـان نـوری) فی مطلع القرن الرابع عشـر الهجری داراً للحکومـة والبولیس أمام المسـجد، وفی أجیاد التی سـمّاها (الحمیدیـة) أسـس نقطـة للبولیس بجوار الصـفا وقـد بقی الی أن هـدم فی توسعة الشوارع فی عـام ۱۳۷۰، وأنشأ داراً للصـحة فی أجیـاد کـان مکانها نقطـة عسـکریة للمدفعیـة، وهی الیوم إدارة للصـحة العامة ومستشـفی کما أنشأ مطبعـة للحکومة، وهی باقیة إلی الیوم بعد أن نقلت إلی داخل أجیاد بجوار مقر المالیة، وأهداه الشـریف الحسـین بن علی داراً له بجوار باب الوداع لیتخـذه إدارة للبرید، وقد ظل علی ذلک إلی عهد طویل من الحکم السـعودی الثانی، ثم نقل البرید منه وجعل مقراً لإدارة الأسعاف ثم أزیل فی توسعة المسجد.

---

۱ – ۱ تطلق کلمـة السـلیمانیة فی مکـة علی أهـالی الأفغـان وحـارة السـلیمانیة، وتنسب إلی رجل من العلماء کان اسمه الشیخ سـلمان المغربی وهو الذی بنی قبور السلیمانیة وبابها.

ص: ۱۶۵

وأنشأ عثمان نورى داراً لضيافة الحجاج فى جرول ثم أحيل إلى قشلاق عسكرى، وهو كذلك إلى اليوم كما أنشأ قشلاقاً فى أجياد وهو اليوم داراً لبعض الدوائر الرسمية.

واصلح العثمانيون كثيراً من مجارى عين زبيدة، وبنوا لها خزانات وموارد فى كثير من أنحاء مكة، كما أصلحوا بعض الميضآت القديمة بجوار المسجد ورتبوا لها البوابين.

الهوامش:

غزوة بدر الكبرى

غزوة بدر الكبرى

حسن أبو أمجد

المقدمة:

هذه الدراسة لا ـ ترتدى الطابع الأكاديمى، إذ إنها لا تهدف إلى كشف جوانب خفية من هذه الغزوة لمّا يتمكن علماء التاريخ من كشفها.

ولكنها دراسة هادفة لاستخلاص بعض الدروس التى تعين العاملين فى حقل الدعوة إلى اللّه، وكذلك لمعرفة السنن الإلهية عليصعيد المجتمع، التى تمكن الدعاة إلى سبيل اللّه من العمل

ص: ۱۶۶

باتجاه تغيير المجتمع فی المنحنی الصحيح الذی يحقّق العدل لجميع أبنائه. وذلک إذعاناً لأمر اللَّه تبارک وتعالی ونبيه المصطفیصلی الله عليه و آله و سلم بإقامة دار الإسلام.

ودراسة تاريخ الأمم والشعوب أمر هام لاستخلاص الدروس والعبر حتی لا نقع فی الزلل. كما أن هذه الدراسة أمر حثّ عليه القرآن الكريم فی العديد من آياته الكريمة: يقول اللَّه تبارک وتعالی: «أفلم يسيروا فی الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم كانوا أَكثَر منهم وأشدَّ قوةً وآثاراً فی الأرض فما أغنی عنهم ما كانوا يكسبون فلمّا جاءتهم رسلُهم بالبيّنات فرحوا بما عندَهم من العِلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون فلمّا رأوا بأسَنا قالوا آمنّا باللَّه وحدَهُ وكفرنا بما كُنّا به مشركين فلم يکُ ينفعُهم إيمانُهم لمّا رَأوا بأسنا سنةَ اللَّه التی قد خلت فی عباده وخَسِر هنالِک الكافرون» (۱).

كما أنّ دراسة التاريخ أمر يشترک فيه جميع الناس، ولا يختص به المسلمون. أما ما اختص به المسلمون- من حيث إنهم إذا تركوه أو تجاوزوا عنه، أصبحوا آثمين- هو موضوع التأسی برسول اللَّهصلی الله عليه و آله و سلم.

يقول تبارک وتعالی: «لقد كان لكم فی رسول اللَّه أسوة حسنة».

من هنا كانت دراستنا لغزوة بدر أمر لابدّ منه إذعاناً لأمره تعالی؛ ذلک لمعرفة كيفية طاعة الرسول المصطفی عليصعيد بناء المجتمع ومجابهة الأعداء، وتحديد الأولويّات فی العمل السياسی من جميع جوانبه.

بدايات بدر:

۱- المستوی الفكری والنظری:

أمضی الرسول الكريم أكثر من عشر سنوات فی مكّة بعد بعثته يربی أصحابه علی الإسلام، وكان القرآن الكريم ينزل عليه. والمسلمون يدرسونه ويتدبرونه. وهذه الفترة وما تلاها فی المدينة المنورة يمكننا تسميتها البدايات النظرية للمعركة مع المشركين. يقول تبارک وتعالی: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن اللَّه واللَّهُ مع الصابرين» (۲)، فالنصر ليس حكراً علی الكثرة، ويمكن للقلة إذن أن تكسب النصر فی شروط معينة، وهذا واضح تاريخياً. والقرآن الكريم زاخر بالأمثلة. فتجارب الأنبياء مع أقوامهم كانت الغذاء الروحی للمسلمين فی مكة. وكان النصر من نصيب المؤمنين مع أنهم كانوا قلة.

ما نقدم لا يعنی بالضرورة أن شروط النصر للقلة علی الكثرة هی قيادة أحد الأنبياء لها أو إيمانها بالتوحيد، لأنّ اعتماد هذين الشرطين

۱- ۱ غافر: ۸۱- ۸۵.

۲- ۲ البقرة: ۲۴۹.

ص: ۱۶۷

يجعلنا قاصرين عن تفسير إمكانية انتصار فئات كافرة على فئات كافرة مثلها. إذن هناك سنن إلهية للنصر، من يلتزم بها يحرز الانتصار ومن يتجاوز عنها أو يهملها يكون نصيبه الهزيمة.

فالنصر والهزيمة حدثان سياسيان أو عسكريان. حدثان تاريخيان تنطبق عليهما قوانين التاريخ والقوانين العسكرية وجميع السنن الإلهية لتطور المجتمعات، ومن ضمنها العلاقات السياسية والاقتصادية والعسكرية. والمؤمن عليه اكتشاف هذه القوانين والسنن، يقول تبارك وتعالى: «... وتلك الأيام نداولها بين النّاس ...» (۱).

أيام تتداول بين الناس يعيش الناس فی مذاهب مختلفة علی أرض واحدة. منهم المؤمن ومنهم الكافر والمنافق والفاجر. ولكل مجتمع لابدّ من مهيمن. ولكن الهيمنة ليست مطلقة، وكذلك التداول، ولكنهما محدودان وموقوفان على: «وليعلمَ اللَّهُ الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ...» (۲). إذن التداول سيظل حتى يتسلم المؤمنون قيادة هذه المجتمعات، المؤمنون الذين يستوعبون الدروس الإلهية الموجودة فی كتاب اللّه:

يقول تعالى: «أَولم يسيروا فی الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم وكانوا أشدَّ منهم قوّة وما كان اللّه ليعجزَهُ من شیء فی السماوات ولا فی الأرض، إنّه كان عليماً قديراً» (۳).

ويقول تعالى: «أوَلم يسيروا فی الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم كانوا أشدَّ منهم قوةً وأثاروا الأرضَ وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلُهم بالبيّنات فما كان اللَّهُ ليظلمَهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» (۴).

ويقول تعالى: «ظهر الفسادُ فی البر والبحر بما كسبت أيدی الناس لِيُذيقَهم بعض الذی عملوا لعلهم يرجعون قل سيروا فی الأرض فانظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلُ، كان أكثرهم مشركين» (۵).

ويقول تعالى: «وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءَهم الهُدى ويستغفروا ربَّهم إلا أن تأتيهم سنّةُ الأوّلين أو يأتيهم العذابُ قُبُلًا» (۶).

ويقول تعالى: «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فی الأرض فانظروا كيف كان عاقبةُ المكذبين هذا بيانٌ للناس وهدًى وموعظةٌ للمتقين» (۷).

۱- ۱ آل عمران: ۱۴۰.

۲- ۲ نفس المصدر.

۳- ۳ فاطر: ۴۴.

۴- ۴ الروم: ۸- ۹.

۵- ۵ الروم: ۴۱- ۴۲.

۶- ۶ الكهف: ۵۵.

۷- ۷ آل عمران: ۱۳۷- ۱۳۸.

ص: ۱۶۸

لا بيان أوضح مما رأينا. إن اللَّه- عزّ وجلّ- يحث قارئى القرآن على دراسة تاريخ الأمم الخالية حتى يتمكنوا من استيعاب الدروس والعبر والقوانين التى تمكنهم من النصر. إن معرفة الأخطاء التى وقع فيها الأولون تمكن المؤمنين من تجنبها لأن المؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرّتين. كما أن استيعاب هذه الأخطاء فى أسبابها لا يعفو المؤمن عن تفتيش السنن التى تمكنه من تسخير ما منَّ اللَّه عليه. ذلك أن السنن التى خلت من قبل هى هدًى وموعظةٌ للمتقين، كما أنها بيان للناس أيضاً. وهذا يعنى أن للكافر حظاً فى الاستفادة من هذه السنن إن أراد ذلك.

فإن سنن النصر نجدها فى كتاب اللَّه وسنة نبيّه المصطفى وفى تاريخ الأمم السالفة، وما تقدم يجعلنا نقول بأن المسلمين عندما مضوا إلى يوم الفرقان، يوم بدر، كانوا مفعمين بالإيمان وبالوعى النظرى بإمكانيّة النصر، أو على الأصح بأرجحية النصر. إذ إنهم كانوا قد استوعبوا دروس الأمم التى خلت من خلال القرآن الكريم ومن خلال قيادة الرسولصلى الله عليه و آله و سلم.

۲- المستوى العملى:

بدايات بدر على المستوى العملى تبدأ حسب رأينا منذ مدّة بعيدة، منذ بيعة العقبة الثانية، بيعة القتال.

أ- بيعة العقبة الثانية: كانت بيعة العقبة الأولى لا تتضمن أىّ كلام عن القتال. بينما بايع الأوس والخزرج النبىَّ فى العقبة الثانية على القتال. قال النبيُّصلى الله عليه و آله و سلم: «أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون نساءكم وأبناءكم».

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال:

«نعم، والذى بعثك بالحق نبياً لنمنعنّك مما نمنع منه أُزُرَنا، فبايِعْنا يا رسولَ اللَّه، فنحن واللَّه أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر». ثم قال رسول اللَّه بعد كلام للأنصار: «بل الدّم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منّى، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم» (۱).

هذه البيعة بحقيقتها تجميع لقوى الإيمان ضد قوى الشرك. ويوم بدر هو يوم الفرقان.

ب- الهجرة: الهجرة فى حقيقتها هى الخطوة الأولى على طريق إقامة دار الإسلام فى المدينة: القاعدة الآمنة التى ينطلق منها المؤمنون لقتال المشركين. وقد أحسّ مشركو قريش إحساساً حاداً خطورة الهجرة. يقول تعالى: «وإذ يمكر بك الذين كفروا ليُثبتوك أو يقتلوك أو يُخرجوك ويمكرون ويمكر اللَّه، واللَّهُ خير الماكرين» (۲). أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن نفراً من قريش ومن أشراف كل قبيلة اجتمعوا

۱- ۱ البوطى: ۱۲۰.

۲- ۲ الأنفال: ۳۰.

ص: ۱۶۹

ليدخلوا دار الندوة فاعترضهم ابليس فيصورة شيخ جليل فلمّا رأوه قالوا:

من أنت؟ قال: شيخ من أهل نجد سمعت بما اجتمعتم له فأردت أن احضركم ولن يعدمكم منّى رأى أو نصح، قالوا: أجل فادخل. فدخل معهم فقال: انظروا فى شأن هذا الرجل (محمد)، فقال قائل احبسوه فى وثائق ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير ونابغة، فإنما هو كأحدهم، فقال عدو اللّه الشيخ النجدى: لا واللّه، ما هذا لكم برأى، واللّه، ليخرجنّ رائد من محبسه إلى أصحابه فليوشكنّ أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم، ثم يمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم، فانظروا فى غير هذا الرأى. فقال قائل: أخرجوه من بين أظهركم واستريحوا منه فإنه إذا خرج لن يضركم ماصنع، فقال الشيخ النجدى: واللّه، ما هذا لكم برأى، ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه وأخذه للقلوب بما يستمع من حديثه؟ واللّه، لئن فعلتم، ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه ثم ليسيرن إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم. قالوا:صدق واللّه، فانظروا رأياً غير هذا. فقال أبو جهل: واللّه، لأشيرنّ عليكم برأى ما أراكم أبصرتموه بعد، ما أرى غيره قالوا: وما هذا؟ قال: تأخذون من كل قبيلة وسيطاً شاباً جلداً ثم نعطى كل غلام منهم سيفاًصارماً يضربونه ضربة رجل واحد ... (تفسير الجلالين أسباب نزول الآية ۲۰ من الأنفال).

نقلنا هذا الكلام الطويل لأهميته وخاصة ما كان يقوله الشيخ النجدى- لعنه اللّه- بأن محمداً سوف يخرجهم من بلادهم إذا سمحوا له بالهجرة. لقد أحسَّ المشركون بخطورة هذه الخطوة (الهجرة) فكيف بصاحبها؟

ج- الوثيقة بين المسلمين وغيرهم فى المدينة: ومن بنودها:

- المسلمون من قريش ويثرب ومَن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أمة واحدة من دون الناس.

- لا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن. (هدم العصبية القبلية).

- يهود (بنو عوف) أُمّة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته.

- إن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وإن بينهم النصر على مَن حارب أهل هذه الصحيفة.

ص: ۱۷۰

- كل ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مردّه إلى اللَّه- عزّ وجلّ- وإلى محمد رسول اللَّه.

وهناك بند يمنع أى تعامل مع قريش.

إن أهميـة هذه الوثيقة هى فى جعل المدينة قاعدة آمنة للمسـلمين فى انطلاقهم لقتال المشـركين، هذا من جهة، ومن جهة ثانية جعلت الوثيقة من رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم المسؤول الحاكم وباعتراف الجميع، وعلى اليهود نصرته فى حال اعتدى على المدينة.

د- السرايا والغزوات: أهميتها تأتى من أنها حققت ما يلى:

۱- جعلت المسلمين متأهبين دائماً لجهاد الكفار.

۲- جعلت الكفار فى وضع غير آمن وباستمرار وذلك لكثافتها.

۳- تأثيرها السلبى على حركة التجارة المكية علماً أن طريق الشام من مكة تمر فى المدينة أو فى محيطها.

۴- أتـاحت للمسـلمين عقـد اتفاقـات عـدم اعتـداء مع قبائل لم تكن على الإسـلام مما أعطى المسـلمين حريـة أكثر فى التحرك ضـدّ المشركين، خاصة مشركى قريش.

وإليكم هذه السرايا والغزوات:

۱- سـرية حمزة بعد سـبعة أشهر من الهجرة: «وخرج حمزة يعترض عير قريش ... وفيها أبو جهل بن هشام، فى ثلاثمائة رجل ... فالتقوا حتى اصطفوا للقتال ... ولكن لم يتم قتال. وكان المسلمون ثلاثين رجلًا».

۲- سرية عبيدة بن الحارث:

«بعثه رسول اللَّهصـلى الله عليه و آله و سـلم، فى ستين رجلًا من المهاجرين ... فلقى أبا سـفيان بن حرب وهو فى مائتين من أصحابه ... فإنما كان بينهم الرمى ولم يسلوا السيوف ولم يصطفوا لقتال». وكانت بعد ثمانية أشهر من الهجرة.

۳- سرية سعد بن أبى وقاص:

بعد تسعة أشهر من الهجرة، لم يلتق قريشاً.

۴- غزوة الأبواء بعـد سـنة من الهجرة: وتسـمى غزوة ودان. وهى أول غزوة غزاها النبيُّ نفسه، «وفى هـذه الغزوة وادع مخشـى بن عمرو الضـمرى، وكـان سيدهم فى زمـانه على أن لاـ يغزو بنى ضـمرة ولا يغزوه، ولا يكثروا عليه جمعاً، ولا يعينوا عـدواً، وكتب بينه وبينهم كتاباً». وكانت غيبته خمس عشرةَ ليلة.

۵- غزوة بواط: بعد ثلاثة عشر شهراً من مهاجره. خرج لاعتراض عير قريش ولكنه لم يلق كيداً.

۶- غزوة طلب كرز بن جابر الفهرى: راح فى طلبه لأن كرزاً هذا أغار على أنعام المدينة وسرقها. وفى

ص: ۱۷۱

هذه الغزوة دلالة على أن المسلمين هم حكّام المدينة والمسؤولون عن أمنها.

۷- غزوة ذى العشيرة: بعد ستة عشر شهراً، لم يلتق قريشاً.

«وفى هذه الغزوة وادع بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة».

۸- سرية عبد اللّه بن جحش الأسدى: بعد سبعة عشر شهراً من الهجرة. بعثه النبىُّ فى اثنى عشر رجلًا إلى بطن نخلة وهى قرب مكّة. فاستولى على العير وقتل واحداً هو ابن الحضرمى واسر اثنين. ولهذه السرية أهمية خاصة، لقربها من مكّة، وللقتل والأسر والمغانم التى حصلت فيها. وكذلك للأثر الذى تركته فى نفسية مشركى قريش، وقد كانت هذه الموقعة موضوعاً للتحريض فى معسكر المشركين لمعركة بدر ضد المسلمين.

نضيف ملاحظة على هذه السرايا والغزوات أنها مكثفة جداً فهى تتم شهرياً. هذا إذا أخذنا بعين الاعتبارصعوبة المواصلات. فهذا يعنى أن كثافتها تشكل إرباكاً فعلياً للعدو، مما جعل الأمن العسكرى لقريش مهدداً وكذا أمنها الاقتصادى، فقد باتت تجارة مكة غير آمنة وهذا ما يستتبع شللًا اقتصادياً مما أثر على جميع عوائل مكّة.

غزوة بدر:

أ- عشية الغزوة: يقول أصحاب السير بأن النبيَّصلى الله عليه و آله و سلم خرج فى أربعة عشر وثلاثمائة رجل فيهم من المهاجرين والأنصار، وهى الغزوة الأولى التى يخرج فيها الأنصار مع رسول اللّه. أما الغاية من خروجه فكانت الاستيلاء على قافلة لقريش آتية من الشام بقيادة أبى سفيان بن حرب. ومن الملاحظ أن النبيَّصلى الله عليه و آله و سلم لم يبعث الأنصار قط لاعتراض عير قريش، فلماذا أخذهم معه فى هذه المرّة؟ المهم أن قافلة أبى سفيان تمكنت من الإفلات. وعلم النبىُّ فى هذه الأثناء أن قريشاً جمعت وهى آتية لقتاله. فعرض الأمر على أصحابه. يقول تبارك وتعالى: «كما أخرجك ربُّك من بيتك بالحقِّ، وانّ فريقاً من المؤمنين لكارهون يجادلونك فى الحقِّ بعدما تبيّن كأنما يساقون إلى الموت وهم يَنظرون» (۱). أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى أيوب الأنصارى قال: قال لنا رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم ونحن بالمدينة وقد بلغه أن عير أبى سفيان قد أقبلت: «ما ترون فيها لعل اللّه

۱- ۱ الأنفال: ۵- ۶.

ص: ۱۷۲

يغنمناها ويسلمنا؟» فخرجنا فسرنا يوماً أو يومين. فقال: ما ترون فيهم؟

فقلنا: يا رسول اللّه ما لنا طاقة بقتال القوم إنما خرجنا للعير. فقال المقداد:

لا تقولوا كما قال قوم موسى: «اذهب أنت وربّك فقاتلا إنا ههنا قاعدون» فأنزل اللّه الآيتين (تفسير الجلالين فى أسباب نزول الآية ۵- ۶ من الأنفال).

من سياق هاتين الآيتين يتبين وكأن اللّه- تبارك وتعالى- ما أراد من خروج رسول اللّه إلا قتال المشركين.

ويبدو هذا واضحاً فى سياق الآية:

«إذ أنتم بالعُدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركبُ أسفلَ منكم، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضىَ اللّه أمراً كان مفعولًا ليهلكَ مَن هلك عن بينة ويحيى من حىّ عن بينة وإن اللّه لسميعٌ عليمٌ» (۱). فالتقاء الجمعين تدبير من ربِّ العالمين. ولا غرابة فى أن يكون الرسول- عليه الصلاة والسلام- على علم من ربّه بهذا التدبير وإن لم يخبر أصحابه.

وهذا بين فى الآية التى يعاتب اللّه فيها المؤمنين: «وإذ يعدُكم اللّهُ إحدى الطائفتين أنها لكم وتودُّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريدُ اللّهُ أن يحقَّ الحقَّ بكلماته ويقطعَ دابر الكافرين ليحقَّ الحقَّ ويُبطل الباطل ولو كره المجرمون» (۲).

مما تقدم يظهر بأن المعركة لابد من وقوعها بين المسلمين والمشركين وعن وعى من النبيِّصلى الله عليه و آله و سلم. والظاهر أيضاً بل الجلى هو أن اللّه- تبارك وتعالى- قد تعهد هذه المعركة بالنصر.

يقول تبارك وتعالى: «إذ يريكهم اللّه

۱- ۱ الأنفال: ۴۲.

۲- ۲ الأنفال: ۷- ۸.

ص: ۱۷۳

فی منامک قلیلًا، ولو أراکهم کثیراً لفشلتم ولتنازعتم فی الأمر ولکن اللَّه سلم إنه علیم بذات الصدور» (۱).

ما رآه النبی من قلهٔ عددهم یشدّ من عزیمته ویشدّ من عزیمهٔ أصحابه، ولکن تدبیر من ربِّ العالمین.

ب- معسکر المسلمین عشیهٔ المعرکهٔ: جاء فی طبقات ابن سعد (ص ۱۴): «ومضـی رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم حتی إذا کان دون بدر أتاه الخبر بمسیر قریش. فأخبر به رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم أصحابه واستشارهم».

جـاء فی الطبری (ص ۴۲۴): «أن أبـا بکر قـال: فـأحسن. ثم قام عمر بن الخطاب فقال: فأحسن». نعود إلی ابن سـعد: «فقال المقـداد بن عمرو البهرانی: والذی بعثک بالحق، لو سرت بنا إلی بَرک الغِماد لسرنا معک حتی ننتهی إلیه». ویضیف ابن سعد:

«أنه بعـد أن انتهی المقـداد قـال رسول اللّهصـلی الله علیه و آله و سـلم: أشـیروا علیّ، وإنما یریـد الأنصار. فقام سـعد بن معاذ فقال: أنا أُجیب عن الأنصار، کأنک یا رسول اللَّه تریدنا؟ قال: أجل. قال: فامض یا نبی اللَّه لما أردت، فو الذی بعثک بالحق لو اسـتعرضت هذا البحر فخضـته لخضـناه معـک مـا بقی منّا رجل واحـد. فقال رسول اللّهصـلی الله علیه و آله و سـلم سـیروا علی برکـهٔ اللَّه، فإن اللَّه قد وعدنی إحدی الطائفتین، فو اللَّه لکأنی أنظر إلی مصارع القوم».

«ثم إن النبیصلی الله علیه و آله و سلم أخذ یتحسّس أخبار قریش وعددهم عن طریق العیون التی بثّها» (۲).

«ونزل المسلمون عند ماء بدر واقترح سعد بن معاذ أن یبنی عریش للنبیّصلی الله علیه و آله و سلم حتی یکون بمأمن فیه رجاء أن یعود سالماً إلی مَن تخلف من المسلمین فی المدینهٔ وأن لا ینکبوا بفقده» (۳) وقام علی حراسته سعد بن معاذ ومعه رهط من الأنصار.

وکان النبیصلی الله علیه و آله و سلم قد خلف علی أهل العالیهٔ، لشیء سمعه عنهم أحدصحابته، والعالیهٔ هی قباء وخطمهٔ ووائل وواقف وبنو أمیهٔ بن زید وقریظهٔ والنضیر، هذا حق لا یترک مجالًا للمفاجآت تأتیه من خلف ظهره.

ولیلهٔ الموقعهٔ غشـی المسـلمین نعاس فناموا. وأمطرت السماء مطراً خفیفاً ساعدهم علی النشاط وطهرهم، وثبت الأرض تحت أقدامهم.

«فلما أصـبح النبیُّصـلی الله علیه و آله و سـلمصفّ أصـحابه قبل أن تنزل قریش، وطلعت قریش ورسول اللّهصـلی الله علیه و آله و سلم، یصفف أصحابه ویعدلهم کأنما یقوم

۱- ۱ الأنفال: ۴۳.

۲- ۲ البوطی: ۱۵۷.

۳- ۳ البوطی: ۱۵۸.

ص: ١٧٤

بهم القدح، ومعه يومئذ قدح يشير إلى هذا تقدم، وإلى هذا تأخر، حتى استووا» (ابن سعدص ١٥). ثم دخل العريش يجأر بالدعاء متوجهاً بكليته إلى اللّه تبارك وتعالى: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تُحادُّك وتكذّب رسولَك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى، اللهم أحِنْهم الغداة» (١).

ج- المعركة: وبدأ القتال، قتال التوحيد ضد الشرك، والايمان ضد الكفر، وإليكم هذه الصورة من على بن أبى طالب عليه السلام: «لما أن كان يوم بدر وحضر البأس التقينا برسول اللّه وكان أشدَّ الناس بأساً، وما كان منّا أحد أقرب إلى العدو منه» (٢). وهذهصورة أخرى من عمر بن الخطاب:

«فلما كان يوم بدر نظرتُ إلى رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم، يثب فى الدرع وثباً وهو يقول: سيهزم الجمع ويولون الدبر، فعلمت أن اللّه تبارك وتعالى، سيهزمهم» (٣).

ولكن النبى عليه الصلاة والسلام مع محاربته للعدو كان يعود إلى العريش ويدعو ربه وباستمرار، حتى أيده بالملائكة، وكان اللّه- تبارك وتعالى- يبعث إليه بالوحى حتى تطمئن قلوب المؤمنين: «إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألفٍ من الملائكة مُردِفين وما جعله اللّه إلا بشرى ولِتطمئنَّ به قلوبُكم وما النصرُ إلا من عند اللّه إن اللّه عزيز حكيم» (۴).

«روى الترمذى عن عمر بن الخطاب قال: نظر النبيّصلى الله عليه و آله و سلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا فاستقبل القبلة ثم مدّ يديه وجعل يهتف بربه: اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض. فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبلًا القبلة حتى سقط رداؤه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءَه وألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبيَّ اللّه كفاك مناشدتك ربّك فإنّه سينجز لك ما وعدك فأنزل اللّه الآية (الجلالين أسباب نزول الآية ٩ من الأنفال).

وقد وعد اللّه- تعالى- المسلمين بمساعدته من قبل، يوم أن كانوا فى مكة وهو يقصّ عليهم القصص للأمم السالفة حتى تكون لهم درساً وعبرة. يقول تبارك وتعالى:

«وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها» (۵).

ويقول تبارك وتعالى: «ونُريدُ أن نمنَّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلَهم أئمةً ونجعلَهم الوارثين ونُمكّن لهم فى

١- ١ ابن هشام، ٢: ٢٧٢.

٢- ٢ خليل: ١٨٢.

٣- ٣ ابن سعد: ٢۵.

۴- ۴ الأنفال: ٩- ١٠.

۵- ۵ الأعراف: ١٣٧.

ص: ۱۷۵

الأرض» (۱).

وكان الوحى يواكب المعركة والنبيّصلى الله عليه و آله و سلم يطمئن أصحابه ويحضهم على القتال: «يا أيها النبيُّ حرّض المؤمنين على القتال، إن يكن منكم عشرونصابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائةٌ يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنّهم قومٌ لا يفقهون» (۲). وبما أن الخبر من المولى- عزّ وجلّ- معناه الأمر؛ لذلك خفّف اللَّه عن المؤمنين رحمة بهم:

«الآن خفّف اللَّهُ عنكم وعلِم أنَّ فيكم ضعفاً، فإن يكن منكم مائةٌصابرةٌ يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألفين بإذن اللَّه واللَّه مع الصابرين» (۳).

وكان النصر المبين للمسلمين فى بدر.

د- جهاز المشركين: بعد أن نجا أبو سفيان من المسلمين وقد كان بعث إلى قريش لنجدته، تَهيَأت قريش جميعها لنجدته، من دون استثناء.

علماً أن هناك مصدراً يقول بأن بنى عدى بن كعب لم يخرج منهم أحد (۴).

وتجمع جميع المصادر على أن أبا لهب، عمَّ النبىّ، لم يخرج وبعث مكانه.

جاء فى سمط النجوم (ص ۱۵):

«فتجهز الناس سراعاً وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى؟ كلا واللَّه ليعلمن غير ذلك». وكانوا يشيرون إلى سرية عبد اللَّه بن جحش رضى اللَّه تعالى عنه.

وجاء فى الطبرى: «فلمّا أتى قريشاً الخبر (خبر العير وتعرض محمد لها) نفر لها أهل مكة (ص ۴۲۲).

وجاء فى البوطى: «فبلغ الخبر قريشاً، فتجهزوا سراعاً، وخرج كلهم قاصدين الغزو، حتى إنه لم يتخلف من أشراف قريش أحد، وكانوا قريباً من ألف مقاتل (ص ۵۷).

«ولما فرغوا من جهازهم وأجمعوا على المسير ذكروا ما بينهم وبين بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة من الحرب والعداوة وقالوا: نخشى أن يأتونا من خلفنا. وكاد ذلك أن يثبطهم ويثنيهم» (۵). وفى هذا دلالة على التردد.

وسارت قريش تريد رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم وفى طريقهم عرفوا أن العير قد أفلتت من أيدى المسلمين، عندها سرت بلبلة فيصفوفهم.

وكانوا قد نزلوا فى الجحفة. ورأى أحد المشركين من قرابة رسول اللَّه رؤية وكأن أئمة الكفر يقتلون. فبلغت هذه الرؤية أبا جهل فقال: «وهذا أيضاً نبىّ آخر من بنى المطلب» (۶).

۱- ۱ القصص: ۵- ۶.

۲- ۲ الأنفال: ۶۵.

۳- ۳ الأنفال: ۶۶.

۴- ۴ سمط النجوم: ۲۲.

۵- ۵ سمط النجوم: ۱۶.

۶- ۶ ابن هشام: ۲۷۰.

ص: ۱۷۶

يقول ابن سعد (ص ۱۴):

رجعت بنو زهرة من الجحفـة، أشار عليهم بذلك الأخنس بن شـريف الثقفى. وكان بنو زهرة يومئذ مائة رجل وقال بعضـهم: بل كانوا ثلاثمائة رجل. وكانت بنو عدى بن كعب مع النفير. فلما بلغوا ثنية لفت عدلوا فى السحر إلى الساحل منصرفين إلى مكة، فصادفهم أبو سفيان بن حرب فقال: يا بنى عدى كيف رجعتم لا فى العير ولا فى النفير، ويضيف ابن سعد:

فلم يشهد بدراً من المشركين أحد من بنى زهرة ولا من بنى عدى».

وجاء فى سيرة ابن هشام (ص ۲۷۱) قال الأخنس لبنى زهرة:

«يا بنى زهرة، قد نجّى اللّه لكم أموالكم، وخلّص لكمصاحبكم مخرمة بن نوفل، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوا لى جُبنها وارجعوا، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا فى غير ضيعة (منفعة)، لا ما يقول هذا، يعنى أبا جهل، فرجعوا».

وقيل أن سـبب رجوع الأخنس ببنى زهرة: «أنه خلا بأبى جهل حين تراءى الجمعان فقال: يا أبا الحكم أترى أن محمـداً يكـذب؟ فقال أبو جهـل: كيف يكـذب على اللّه وقـد كنّا نسـميه الأـمين لأنه ما كـذب قط، ولكن إذا اجتمعت فى بنى عبـد مناف السـقاية والرفادة والحجابة والمشورة ثم تكون فيهم النبوة فأى شىء بقى لنا؟» (۱).

ولهـذه القصـة أثر سيّئ على نفسـية المشـركين قيـادة وعامـة وذلـك ليقينهم إنما يحاربون اللّه ورسوله، وفى هـذا دلالـة على الإحباط الشديد.

«ومضـى القوم، وكانت بين طالب بن أبى طالب- وكان فى القوم- وبين بعض قريش محاورة فقالوا: واللّه لقد عرفنا يا بنى هاشم- وان خرجتم معنا- أن هواكم مع محمد، فرجع طالب إلى مكة مع من رجع» (۲).

ه- معسكر المشركين فى بدر:

وعسـكر المشـركون بالقرب من بدر الذى كان قد وصـلها رسول اللّهصـلى الله عليه و آله و سلم وهم فى هذا الوضع المتفكّك نفسياً، فما كان وضعهم بعد أن عسكروا؟

«فلما اطمأن القوم بعث المشـركون عمير بن وهب الجمحى، وكانصاحب قـداح، فقالوا: احزر لنا محمداً وأصـحابه، فصوب فى الوادى وصعد ثم رجع فقال: لا مدد لهم ولا كمين، القوم ثلاثمائة إن زادوا زادوا قليلًا، ومعهم سبعون بعيراً وفرسان.

يا معشـر قريش، البلايا (جمع بليـة وهى الناقـة أو الدابـة تربط على قبر الميت فلا تعلف ولا تسـقى حتى تموت) تحمل المنايا، نواضـح يثرب تحمل الموت الناقع. قوم ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم أما ترونهم خرساً لا

۱- ۱ سمط النجوم: ۲۲.

۲- ۲ الطبرى: ۴۲۹- وكذا فى ابن هشام وسمط النجوم.

ص: ۱۷۷

يتكلمون، يتلمظون تلمظ الأفاعي؟

واللَّه ما أرى أن نقتل منهم رجلًا حتى يُقتل منّا رجل، فإذا أصابوا منكم عددهم فما خير في العيش بعد ذلك.

فروا رأيكم. فتكلم حكيم بن حزام ومشى في الناس، وأتى شيبة وعتبة وكانا ذوي نقبة في قومهما فأشاروا على الناس بالانصراف، وقال عتبة:

لا تردوا نصيحتي ولا تسفهوا رأيي، فحسده أبو جهل حين سمع كلامه، فأفسد الرأي وحرش بين الناس ...

وجاء عمير بن وهب فناوش المسلمين» (۱). وبدأت الحرب بعد مبارزة أبلى فيها علي عليه السلام بلاءً حسناً وقتل فيها أحد أئمة الكفر. بدأت الحرب التي جرّ أبو جهل قريشاً اليها كرهاً وخوفاً من الوهن والانقسام والتردد.

أما الغاية من الحرب كما حدّدها أبو جهل فهي: «واللَّه لا ـ نرجع حتى نرد بدراً فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجُزُرَ ونطعم الطعام ونُسقى الخمر وتَعزف علينا القيان، وتسمع بنا العربُ وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا» (۲). وفيهم أنزل اللَّه تبارك وتعالى: «ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاءَ الناس ويصدُّون عن سبيل اللَّه، واللَّهُ بما يعملون محيط» (۳).

لدينا الآنصورة واضحة لوضع المشركين المتفكّك قيادة وقاعدة. والذين يعيشون الخوف الحقيقي من المسلمين. أرسل النبيصلى الله عليه و آله و سلم عماراً وابن مسعود ليروا وضع المشركين ليلة المعركة، فقالا: «القوم مذعورون فزعون إن الفَرس ليريد أن يصهل فيضرب وجهه مع أن السماء تسح عليهم» (۴).

و- نتائج المعركة: إذا افترضنا أن الوضع هو كما عرضناه وطرحنا السؤال: أيّ من الفريقين له الحظُّ الأوفر في الانتصار؟ سيكون الجواب ومن دون تردّد أن الفوز سيكون من نصيب المسلمين. وفي هذا دلالة على أن المسلمين بقيادة النبيِّ قد أخذوا بالأسباب المادية للنصر. ولكن، من وجهة نظرنا كمؤمنين، الأخذ بالأسباب لا يعني حتمية النصر، ولكنه يعني أن احتمال النصر هو الاحتمال الأوفر. والأخذ بالأسباب يسمى العزم، يقول تبارك وتعالى:

«فإذا عزمت فتوكل على اللَّه».

بقي أن نستعرض العامل الحاسم في النصر وهو التوكل على اللَّه.

وما النصر إلا من عند اللَّه.

يقول تبارك وتعالى: «قد كان

۱- ۱ ابن سعد: ۱۶- ونحوه عن ابن هشام: ۲۷۴.

۲- ۲ البوطي: ۱۵۸.

۳- ۳ الانفال: ۴۷.

۴- ۴ خليل: ۱۸۱.

ص: ۱۷۸

لكم آية فى فئتين التقتا، فئة تقاتل فى سبيل اللّه وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين، واللّهُ يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرةً لأولى الأبصار» (۱).

ويقول تعالى: «وإذ يُريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلًا ويقللكم فى أعينهم ليقضى اللّه أمراً كان مفعولًا، وإلى اللّه ترجع الأمور» (۲).

ويقول تعالى: «إذ يُغشّيكم النعاس أمنةً منه ويُنزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ويُذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويُثبت به الأقدام» (۳).

ويقول تعالى: «إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم أنى ممدّكم بألف من الملائكة مردفين» (۴).

هذا السيل من الآيات يبين لنا وبوضوح كيف أن اللّه تبارك وتعالى قد تولى المعركة. وهذا ناتج من أن المسلمين قد حددوا هدفهم بنصرة دين اللّه. يقول تعالى: «إن تنصروا اللّه ينصركم ويثبت أقدامكم» وهذه سنة ثابتة أزلية من سنن النصر، لا تتغير ولا تتبدل.

كما أن الدعاء هو من السنن الثانية لتأييد اللّه عزّ وجلّ، يقول تعالى: «قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم» (۵). لذا رأينا رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم يجأر فى الدعاء قبل وأثناء المعركة: «اللهم إنّى أسألك عهدك ووعدك؛ اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم» (۶).

إذن الغاية من القتال هى التأكيد على العبودية للّهتبارك وتعالى.

الشأن الذى خلق اللّه الخلق من أجله:

«وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون».

المشركون موعودون بجهنم والمؤمنون موعودون بالجنة أو النصر.

لمن الغلبة إذن؟

والقرآن، القرآن الذى وعاه المسلمون، مسلمو بدر. كان يعدهم بالنصر لأنهم مستضعفون. قال النبيُّ فى دعائه: «اللهم إنهم حفاة فاجملهم، اللهم إنهم عراة فاكسهم، اللهم إنهم جياع فأشبعهم».

انهم مؤمنون: «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين» (۷)، «إن اللّه يدافع عن الذين آمنوا» (۸).

وانتصر المسلمون فى بدر لالتزامهم بالسنن الإلهية للنصر: العزم والتوكل. الأخذ بالأسباب والدعاء.

ز- الأنفال: بعد هذا الانتصار الباهر غنم المسلمون الكثير من الغنائم. واختلفوا فيما بينهم لمن تكون.

كل يريدها له. فكيف السبيل إلى حلّ هذا الإشكال؟ نعود إلى نقطة البدء.

لقد قاتل المسلمون لإعلاء كلمة اللّه

۱- ۱ آل عمران: ۱۳.

۲- ۲ الانفال: ۴۴.

۳- ۳ الانفال: ۱۱.

۴- ۴ الأنفال: ۹.

۵- ۵ الفرقان: ۷۷.

۶- ۶ الطبرى: ۴۴۷.

۷- ۷ الروم: ۴۷.

۸- ۸ الحج: ۲۹.

ص: ۱۷۹

وليس للغنائم. لذلك جاء حلّ هذه المعضلة من عند اللّه: «يسألونك عن الأنفال قل الأنفال للّهوالرسول فاتقوا اللّه وأصلحوا ذاتَ بينكم وأطيعوا اللَّهَ ورسولَه إن كنتم مؤمنين» (۱) وهكذا حلّ الإشكال برضى جميع الناس. «سأل عبادة ابن الصامت عن الأنفال؛ فقال: فينا أصحاب بدر نزلت، حين اختلفنا فى النَّفَل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه اللَّه من أيدينا، فجعله إلى رسوله، فقسمه رسول اللَّه بين المسلمين عن بواء.

يقول: على السواء» (۲).

قاتل المسلمون لإعلاء كلمة اللَّه. والأنفال هى أيضاً للَّهالذى لولا رحمته لم يكن النصر. يقول تبارك وتعالى: «واذكروا إذ أنتم قليلٌ مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون» (۳).

لا خلاف إذن، إيمان واحتساب وأخوة والرزق من عند اللَّه.

إنها التربية التوحيدية التى ترفع الإنسان إلى مستوى العبودية للَّه وحده، أرفع مستوى يمكن أن يصل إليه الإنسان.

وكانت بدر يوم الفرقان كما أراد ربُّ العزّة، وأصبح المسلمون كتلة مهابة الجانب فى شبه الجزيرة العربية، يمكنها نشر التوحيد فى شتى أنحاء البلاد دون خوف أو وجل.

دروس وعبر:

إن الإحاطة بجميع الدروس والعبر والقوانين من هذه المعركة هى مهمة مستحيلة، لأن السنة ثابتة لا تتغير، ولكن ما هو خاضع للتغير والتبدل هو الإنسان والعصر. وبالتالى فإن تغير الإنسان والعصر يستتبع تغير الفهم لهذه القوانين تبعاً لتطور العلوم الطبيعية والإنسانية، وتطور العلوم يعنى تقدم إمكانية الإنسان على فهم أكثر اكتمالًا للسنن والقوانين الإلهية فى الكون، وفى الطبيعة والمجتمع.

وانطلاقاً من هذا الفهم سنحاول استخلاص بعض الدروس:

۱- المسلمون كانوا قلة وانتصروا فى بدر. هل انتصار القلة على الكثرة قانون اختصّ به المسلمون دون غيرهم؟ إذا كان الجواب بالايجاب. فكيف يمكننا تفسير انتصار الشعب الفيتنامى على أمريكا؟ وكيف يمكن تفسير إنتصار إسرائيل على العرب؟

التفسير الممكن هو أن اللَّه-

۱- ۱ الأنفال: ۱.

۲- ۲ ابن هشام: ۲۹۶.

۳- ۳ الأنفال: ۲۶.

ص: ۱۸۰

تبارك وتعالى- قد جعل قوانين لتطور المجتمعات. وأن الفئة التى تتمكن من اكتشاف هذه القوانين وفهمها وتسخيرها يمكنها النصر. وهكذا يمكننا تفسير هزيمة المسلمين فى أحد مع أنهم كانوا بقيادة النبيصلى الله عليه و آله و سلم، وكذلك يمكننا تفسير هزيمة الهنود الحمر أمام جلاديهم ومغتصبى بلادهم.

۲- تحديد الشيطان: المؤمنون يحاربون الشيطان. ونحن كمؤمنين نستعيذ اللَّه من الشيطان الرجيم يومياً.

مَن هو الشيطان؟ هل هو وهم أم واقع؟ علماً أن اللَّه قد أعلمنا أن الشيطان يمكن أن يكون إنساناً أو مجموعة من الناس أو نظاماً إنسانياً، كما أن الشيطان يمكن أن يكون من الجان. فإذا كان الشيطان من الجن فما علينا إلا أن نستعيذ باللَّه منه لأنه من الغيب، الذى لا- يمكننا رؤيته. وإن كان من الإنس فما علينا إلا تحديده ومحاربته. ومحاربته بالنسبة للمؤمنين أمر واجب ومستمر. لذلك رأينا الرسول الأعظم قد حدّد الشيطان للمسلمين عندما أعلن أن المعركة مع قريش: رأس الكفر. علماً أن الكثير من القبائل العربية كانت لا تزال على الشرك. ولكن معرفة الرسول بالعلاقات القائمة فى الجزيرة العربية دفعته لمحاربة قريش إذ إن الانتصار عليها يعنى تفكيك أو بالأخرى تدمير جميع أو معظم العلاقات الشركية القائمة فى الجزيرة العربية. وتحديد الرسول كان موفقاً لأنه بعد الانتصار على قريش (فتح مكة) رأينا جميع القبائل تأتى إلى الرسول تُعلن إسلامها من دون قتال.

ولا بأس هنا من الإشارة إلى أن تحديد الإمام الخمينى للشيطان الأكبر كان تأسياً برسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم.

وهذا لم يحصل فى التاريخ الحديث إلا على يدى الإمام رحمه الله. ولا ضرورة للإشارة إلى أننا لا نزال خاضعين لهذا التحديد. لأن عقدة العلاقات الشركية على الصعيد العالمى هى بيد أمريكا، وعقدة هذه العلاقات الشيطانية فى منطقتنا هى بيد إسرائيل. فشياطيننا هى أمريكا وإسرائيل كما سبق تحديدهما من قبل الإمام الخمينى رحمه الله.

۳- تحديد الأولويات فى العمل: يقول رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم:

«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لاإله إلا اللَّه وأن محمداً رسولاللَّه».

ومع هذا رأينا أن رسول اللَّه لم يقاتل اليهود فى المدينة بل كتب عهداً معهم ولم يقاتل بنى وائل وغيرهم مع أنهم كانوا على الشرك، بل آثر قتال قريش، لأن تحديد الأولويات فى

ص: ۱۸۱

العمل ضروری للانتصار. لذلک کان الشکل الشرکی الذی یجب تحطیمه، حسب تحدید رسول اللَّه هو قریش.

۴- معرفة قواک الذاتیة وقوی العدو: سحب جمال عبد الناصر القوات الدولیة المرابطة بینه وبین العدو الإسرائیلی. وکان یعتقد أنه سینتصر علی إسرائیل خلال ساعات فکانت النتیجة أن هزمت جمیع الأنظمة العربیة خلال ستة أیام. وإسرائیل نفسها بعد أن تطورت آلتها العسکریة بما لا یقاس بالنسبة لعام ۱۹۶۷ لم تتمکن خلال سبعة أیام من الحرب الضروس من إزاحة مقاتل واحد من المقاومة الإسلامیة من جنوبِ لبنان؟!.

بینما راح رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم- قبل التوجه إلی المعرکة- یستشیر أصحابه بما سیقدم علیه، واطمأن إلی جیشه. وراح یتحسس قوی عدوه، وبعد أن عرف قواه وقوی عدوه أقدم علی الحرب المنتصرة.

۵- روحیة النصر: إذا توجهنا إلی جمیع أجهزة الإعلام المکتوبة والمسموعة والمرئیة، مع بعض الاستثناءات الضئیلة، نری أن عدونا هو من الصنف الذی لا یمکن هزیمته.

فإذا کنّا مهزومین نفسیاً قبل التوجه إلی المعرکة، هل یمکننا الانتصار؟

بالطبع لا. أما جیش المسلمین بقیادة النبیصلی الله علیه و آله و سلم کسب النصر قبل البدء بالمعرکة. ماذا قال الرسول لأصحابه؟

قال: إنی أری مصارع القوم. فی نفس الوقت کان قادة قریش یقنعون أصحابهم بالعودة وعدم دخول المعرکة. وهذا ما یجعلنا نفهم کیف أن الحجر المؤمن فی فلسطین یجابه الدبابة الإسرائیلیة.

۶- معرفة مکامن الضعف ومکامن القوة: قوة قریش کانت تقوم علی تجارتها، لذلک رأینا أکثر السرایا والغزوات تتوجه لتهدید ومنع هذه التجارة.

۷- الإمداد: کان اعتصام المسلمین بحبل اللَّه. أما المشرکون فلیس لهم إمداد روحی. المسلم موعود بالجنة والمشرک موعود بالنار.

وکان المسلمون قد أنذروا المشرکین مدّة ثلاث عشرة سنة فی مکة بالمصیر الذی ینتظرهم فی الدنیا والآخرة إن هم استمروا علی کفرهم وعنادهم.

۸- الغایة من القتال: کانت

ص: ۱۸۲

غایة المسلمین من القتال إعلاء کلمة اللَّه وتدمیر العلاقات الشرکیة، وکانت غایة قریش المجون والفسوق والطغیان.

هذه بعض الدروس والعبر التی أمکننا استخلاصها مع تأکیدنا أنها قاصرة عن الإحاطة.

وأخیراً لابدّ من تأکید ضرورة بذل الکثیر من الجهد الجماعی لدراسة سیرة المصطفیصلی الله علیه و آله و سلم. وذلک بغیة معرفة التأسی به. لأن مجتمعنا الیوم وأعنی المجتمع الإسلامی، بأمسّ الحاجة لهذا، فما نراه من الهجمة الاستکباریة علی جمیع الصعد العسکریة والاقتصادیة والعلمیة والتربویة یحتّم علینا العودة إلی المعین الصافی.

الهوامش:

الحجُّ فی مبناه ومعناه

الحجُّ فی مبناه ومعناه

لبیب بیضون

الأغراض الفردیة والاجتماعیة للعبادات:

یُعدُّ الإسلامُ الفردَ الصالح نواة للمجتمع الصالح. وهذا یعنی أن الهدف النهائی هو المجتمع ولیس الفرد. ولذا إذا

ص: ۱۸۳

تعارضت مصلحهٔ الفرد مع مصلحهٔ الجماعهٔ قدّمت مصلحهٔ الجماعهٔ علی الفرد.

من هـذا المنطلق نجـد أن العبـادات التی هی فی أصـلها تکلیف فردی، أن هـدفها العمیق لیس إصـلاح الفرد فقط، وإنما قیام المجتمع الصالح.

فالصـلاهٔ التی تهـدف إلی تطهیر الفرد من الـدنس بردعه عن فعـل الفحشـاء والمنکر، هـدفها أیضـاً تخلیص الغیر من شـرور الفرد، لأن الفواحش لا یمارسها الفرد إلا مع الغیر.

والزکـاهٔ التی تهـدف إلی تطهیر النفس من عبودیـهٔ المـادهٔ، لا یکون مجال إنفاقها وفاعلیتها إلا فی المجتمع، فتکون التأمین الضـروری لکل فرد عاجز فی المجتمع لکی یعیش عیشهٔ إنسانیهٔ مرضیهٔ.

أما الصوم الذی هو دورهٔ تدریبیهٔ سنویهٔ للفرد علی التقوی، والالتزام بالواجبات والمحاسبهٔ الدقیقهٔ للنفس علی کل عمل، فهو فی نفس الوقت شـعور بحرمان الفقیر من کل حاجاته، حتی الحاجات الضـروریهٔ کالطعام والشـراب والکساء، فیکون هـدفه الاجتماعی مساعدهٔ العاجز والبائس ومشارکهٔ المساکین فی آلامهم ومآسیهم.

أمـا الأـمر بـالمعروف والنهی عن المنکر، فهما من العبادات ذات الغرض الجماعی الظاهر، فکل انحراف یراه المسـلم فی المجتمع علیه إصـلاحه لیحافظ علی المجتمع السـلیم. وبما أنه لا انفصال بین مصـلحهٔ الفرد ومصلحهٔ المجتمع، فإن إصلاح المجتمع تعود علیه ثماره بشکل غیر مباشر.

من هـذا تظهر وحـدهٔ المجتمع فی الصـلاح والفساد. فکل ما یحـدث فی جزء من المجتمع یعود تأثیره علی کل فرد فی المجتمع، وهو فحوی قول النبی الأعظمصلی الله علیه و آله و سلم:

«مثل المؤمنین فی توادهم وتراحمهم وتعاطفهم کمثل الجسد الواحد، إذا اشتکی منه عضو تداعی له سائر الجسد بالسهر والحمی».

فلیس لأحد أن یعیش فی معزل عن غیره، ویزعم أنه حر فیما یعمل، طالما أنه خاضع للتأثیر المتبادل بینه وبین مجتمعه.

وقدصوّر لنا النبیصلی الله علیه و آله و سلم هذه الحقیقهٔ الواقعهٔ خیر تصویر فی حدیثه عن قوم رکبوا فبدأ أحدهم یحفر فی الجزء الذی اختص به. یقولصلی الله علیه و آله و سلم:

«مثل القائم علی حدود اللّه والواقع فیها کمثل قوم استهموا علی سفینهٔ، فأصاب بعضُهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فکان الذین فی أسفلها إذا اسـتقوا من المـاء مروا علی من فوقهم، فقالوا: لو أنّا خرقنا فی نصـیبنا خَرْقاً ولم نؤذ من فوقنا. فإن یترکوهم وما أرادوا هلکوا جمیعاً، وإذا أخذوا علی أیدیهم نجوا ونجوا جمیعاً».

من هـذا المنطلق وقیاساً علی ما سـبق، نجـد أن فریضـهٔ الحـجّ ذات مقاصـد فردیـهٔ واجتماعیهٔ علی حد سواء، شأنها فی ذلک شأن کل العبادات.

وبما أن فریضـهٔ الحـج مبتناهٔ علی اجتماع الناس بأعداد کبیرهٔ، ومن شتی أصـقاع الأرض ودول الإسـلام، فإن الأهداف الاجتماعیهٔ فیها لابُدّ من أنها هی الغالبهٔ.

ص: ۱۸۴

ونحن إذا نظرنا إلى الحجّ فى معناه ومبتغاه نجد أن هدفه تصفية النفوس وتزكيتها من أدران الخطيئة والذنوب، وذلك بوفادتها إلى بيت اللّه الذى يغفر الذنوب، واستضافتها فى داره، وطوافها حول كعبته، كدلالة على خلوصها من قيود الشيطان وسلطته، وارتباطها الوحيد بعمود الإسلام وقبلته.

لكن طواف المسلمين فى جموعهم المحتشدة حول الكعبة يعطى- إضافةً لذلك- المعنى التوحيدى للمجتمع الإسلامى، فهم فى طوافهم حول مركز واحد مع اختلاف ألوانهم وأجناسهم، يشبهون نجوم السماء التى انتظمت فى مجرة واحدة هى مجرة الإسلام. أو إنهم كالإلكترونات فى الذرة يتشابهون فى تكوينهم وطبيعتهم ولا يختلفون إلّا بمقدار قربهم وبعدهم عن النواة. وتتجسم معانى الإسلام الحقيقية فى هذا اللقاء الفريد، وقد خلع الجميع زينة الدنيا ليتحلوا بزينة الدين.

ولا فرق بينهم فى موقفهم هذا بين أبيضهم وأسودهم ولا بين فقيرهم وغنيهم ولا بين رئيسهم ومرؤوسهم ولا بين عربيهم وأعجميهم.

يقول النبيصلى الله عليه و آله و سلم: «لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لأبيض على أسود، ولا لحر على عبد، إلّابالتقوى».

وإذا كان الإسلام حريصاً كل هذا الحرص على تنقية نفس الفرد المسلم فى فريضة الحج مما علق بها من أرجاس وأدران، فما أحراه أن يهدف فى هذه الفريضة إلى تنقية المجتمع الإسلامى مما يعانيه من أمراض وأسقام وتخليصه مما يعتوره من محن وأخطار.

لذلك كان الحجُّ أنجح فرصة لاجتماع المسلمين على طاولة واحدة، ومدارستهم لمشاكل المسلمين ووضعهم الخطط القويمة لدفع الأخطار المحيقة بهم.

فيكون الحج عبارة عن لقاء أخوى فى كنف اللّه وعلى مائدة اللّه لدراسة شؤون أمة اللّه.

يقول سبحانه فى سورة الحج:

«وأذّن فى الناس بالحج يأتوك رجالًا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ...» (۱).

وهل أعظم منفعة للمسلمين من أن يتدارسوا ما ينفعهم وما يضرهم، فيعملون على ما ينفعهم ويدرَءُون عنهم ما يضرهم.

ونحن لسنا مبتدعين فى هذا المعنى بل متمثلين بأعمال النبيصلى الله عليه و آله و سلم وسيرته. فلقد كانصلى الله عليه و آله و سلم يتخذ من الحج منبراً لتوجيه المسلمين وإرشادهم بما يحفظ كيانهم وسلامتهم. ومن أبرز ذلك خطبته المشهورة فى حجة الوداع التى حذّر فيها المسلمين من بعض الأُمور التى تضعفهم وتزعزع كيانهم، ومنها أن لا يقتتلوا فيما بينهم، وأن لا يثيروا النعرات القبلية التى كانت بينهم كالمطالبة بالثأر، يقولصلى الله عليه و آله و سلم:

«أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا، ألا هل بلغت اللّهم اشهد .. من كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها وإن ربا الجاهلية موضوع ..

وإن دماء الجاهلية موضوعة .. وإن مآثر الجاهلية موضوعة .. أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس، ألا هل بلغت اللّهم اشهد .. ألا لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإنى

۱- ۱ الحج: ۲۷- ۲۸.

ص: ۱۸۵

ترکت فیکم ما إن أخذتم به لن تضلوا، کتاب اللَّه ربکم».

الحجُّ هو العبودیهٔ الخالصهٔ للَّه:

والآن لننظر فی حقیقهٔ ما یفیدنا به الحج. فهل نحن نفهم الحج علی حقیقته؟! إن الحج هو العبودیهٔ الخالصهٔ للَّه وحده. إننا نرجم إبلیس ثم نرزح أمام نیر إبلیس ونقع فی قبضته.

هل الحجُّ مجرد طقوس بلا معنی ولا هدف؟

لقد أراد بعض المسلمین أن یجمدوا معنی الحج ویحجروا علیه لیجعلوه جسداً بلا روح، وطقوساً بلا معنی.

وکذلک الصلاهٔ، فمتی کانت الصلاهٔ مجرد حرکات وسکنات، إذن لم تکن فی حقیقتها تحمل معنی التجرد من کل عبودیهٔ لغیر اللَّه ..

کیف یرتع بعض المسلمین فی أکناف المستعمرین الکافرین، ویأتمرون بأمرهم ویستمدون القوهٔ منهم، ثم یدّعون الإسلام، والعبادهٔ للواحد الدیان ..

یقول تعالی: «أرأیت الذی ینهی عبداً إذاصلی» (۱) فکیف بمن ینهی أحداً عن أیهٔ عبادهٔ للَّه. کیف یجوز لأحد من المسلمین أن ینهی مسلماً عن ممارسهٔ أیهٔ عبادهٔ للَّهفی بیته الحرام، الذی جعله مثابهً للناس وأمناً؟ «وما نقموا مِنهم إلّاأن یؤمنوا باللَّه العزیز الحمید» (۲).

إن الحج أعظم فرصهٔ وأکبر سوق لتجارهٔ التقوی والتقرب من اللَّه، وکل من یمنع أحداً من المسلمین من ممارسهٔ هذا الحق فهو مخالف لحقیقهٔ الإسلام.

یجب أن ینتبه کل مسلم مهما کان نوعه ولونه أن الحج دورهٔ تدریبیهٔ یتحرر فیها المسلم من أنواع الخضوع والعبودیهٔ لغیر اللَّه، علی مستوی الفرد والجماعهٔ، وأنه مطالب إذا رجع إلی وطنه أن یعمل علی جعل مجتمعه متحرراً من کل أنواع الاستعباد والاستعمار للقوی غیر الإسلامیهٔ، وخاصهٔ تلک التی تحارب الإسلام وترید محوه ومحقه.

إن الحج هو امتحان لنا واختبار لمدی إیماننا ویقیننا بخالق الوجود، الذی هو خالق کل نور وکل طاقهٔ وکل قوهٔ وکل شیء، والذی هو فوق کل فرد عظیم أو دولهٔ عظمی. یقول سبحانه فی سورهٔ النور:

«اللَّه نور السموات والأرض، مثل نوره کمشکاهٔ فیها مصباح، المصباحُ فی زُجاجهٔ الزجاجهُ کأنها کوکب درّی، یوقد من شجرهٔ مبارکهٔ زیتونهٔ، لا شرقیهٔ ولا غربیهٔ ...» (۳).

۱- ۱ العلق: ۹- ۱۰.

۲- ۲ البروج: ۸.

۳- ۳ النور: ۳۵.

ص: ۱۸۶

لنستمد من ربنا وحده عزيمتنا وعزتنا، ولنقتبس من ديننا قوتنا وهدينا .. ولنتذكر أن قوة إسلامنا من قوة اتحادنا وتضامننا، حتى نكون يداً واحدة على كل أعداء الإسلام .. عند ذلك نفرض لنفسنا السلام، سلام العزة والإسلام، وليس سلام الخضوع والإستسلام.

النبيصلى الله عليه و آله و سلم لم ترهبه قوة الشرق ولا قوة الغرب، حين بدأ دعوته الحقة بحفنة من المؤمنين الصادقين، فلما رأى اللَّه منهمصدق النية أنزل عليهم النصر، وقد تألبت عليهم كل قوى الشر من أحزاب العرب واليهود، فلم يزدهم ذلك إلا إيماناً وتسليماً.

هذه هيصفة المؤمن الحق، الذى لا يتوجّه إلّاالى اللَّه، ولا يتوكل إلّاعلى اللَّه، ولا يستمد القوة إلّامن اللَّه.

بهذا الإيمان الصحيح فتح أجدادنا الدنيا وأصبحوا أعزّة، وبدون هذا الإيمان الصحيح استعمر الكفار بلادنا وأصبحنا أذلة ..

يقول الفيلسوف الكبير الدكتور محمد إقبال رحمه الله فى شعره المترجم:

كنا نقدم للسيوفصدورنا لم نخشَ يوماً غاشماً جبارا

وكأن ظل السيف ظِل حديقة خضراء تنبت حولنا الأزهارا

كنا جبالا فى الجبال وربما سرنا على مرج البحار بحارا

بمعابد الإفرنج كان أذاننا قبل الكتائب يفتح الأمصارا

لم نخشَ طاغوتاً يحاربنا ولو نصب المنايا حولنا أسوارا

ندعو جهاراً لا إله سوى الذيصنع الوجود وقدّر الأقدارا الهوامش:

تعريفٌ بكتاب «اخبار مكّة» للفاكهى

تعريفٌ بكتاب «أخبار مكّة» للفاكهى

محمد على مهدوى راد

ص: ۱۸۷

خلال تـدوين التاريـخ الإسـلامى، كان لطريقـة تـدوين تاريـخ المدن والأمصار قدمٌ عريقٌ فيه. وقد احتلّ تاريخ مكّةَ وما جرى فيها من الوقائع والأحداث أهميّةً بارزةً تتناسب ومكانتها ضمن هذا السياق.

فمكّةُ مدينـةٌ عريقـة ذات شأن عظيم وصيـت شائع فى الآفاق. وكانت منـذ القـدم محطَّ أنظار الشـعوب والأمم، وهى من منظار القـدم التاريخى تُعدُّ من أقدم الأمصار التى شـيّدت على وجه المعمورة، وضـمّت بين ربوعها شعوباً وقبائلَ شتّى. وفى العصر الإسلامى كانت أخبار مكّـة، والنصوص التى تُعنى بأحـداثها ووقائعها المختلفـة تحظى بأهميـة بالغـة لـدى المسـلمين، فقد كانت فضائل مكّة وأخبارها ومكانتها الرفيعة وامتدادها التاريخى تلقى اهتماماً واسعاً لدى المسلمين ولأسباب كثيرة.

فقـد كـانت- ولاـ زالت- المعرفـة الدقيقـة لما دوّن عن مكّـة تحتلُّ أهميـة قصوى نابعـة من ضـرورتها فى تفسير القرآن، وفهم الآيات الرّبانيّة، وسيرة النبىّ، وكيفية إنبثاق الرسالة الإسـلاميّة وانتشار شعاعها فى كلّ الأرجاء. وعلى هذا الأساس فإنّ أقدم النُصوص المدوّنة فى الحضارة الإسلاميّة هى تلك التى كتبت عن تاريخ مكّة والمدينة.

قِدَم هذه النصوص:

يظهر أن أقدم مُصَـنَّفٍ ورد فى كتب التاريخ والسيرة حول هذا الموضوع، هو كتاب محمد بن عمر الواقدى، الذى ولد عام ۱۳۰ وتوفى عام ۲۰۷ للهجرة (۱)، وكان محـدّثاً كبيراً ومؤرخاً حاذقاً. وكان كتابه الموسوم ب «أخبار مكّـة» مصـدراً لمن تلاه من المحقّقين الذين استقوا منه فيما كتبوه عن مكّة من أخبار ونصوص. وجاء من بعـده على بن محمد المدائنى (۱۳۵- ۲۲۵ ه) وهو من المؤرخين الذين أغنوا التاريـخ بغزارة مؤلّفـاتهم وتنوع كتاباتهم. وذكر ابن النـديم- الـذى نقل آثاره تفصـيلياً وبشـكل موضوعى- أن له كتاباً عن مكّة اسمه «تاريـخ مكّـة»، ولا يوجـد لهـذا الكتاب أىُّ أثر اليوم شأنه فى ذلك شأن الكثير من مؤلّفاته الأخرى. وينبغى لى التـذكير هنا بأن الكثير من المصادر الأخرى التى تحدّثت عن سيرته ومؤلّفاته لم تذكر عن هذا الكتاب شيئاً (۲).

بعد كتاب المدائنى لابدّ من الاشارة إلى الكتاب القيم الذى ألّفه أبو الوليد محمد بن عبد اللّه بن أحمد الأزرقى (...

إلى مـا يقـارب ۲۵۰ ه)، وعنـوانه «أخبـار مكّـة»، ونقـل فيه أخبـاراً كـثيرة عنهـا. ومن حسن الحـظّ أن الكتـاب موجـود اليوم، ولاـ يزال المحقّقون يرجعون إليه وينهلون من فيضهِ (۳).

۱- ۱ يلاحظ وجود اختلاف طفيف فى سنة ولادته بين المصادر المختلفة، انظر كتاب: الوافى بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى، ۲: ۲۳۸- النجوم‌الزاهرة فى ملوك مصـر والقـاهرة، لجمـال الـدين ابى المحاسن يوسف بن تغرى، ۲: ۱۸۴- كتاب المغازى للواقدى، ۱: ۵.

۲- ۲ انظر: تاريخ بغداد، ۱۲: ۵۴- معجم الأدبـاء لياقوت الحموى، ۱۴: ۱۲۴- والنجوم الزاهرة، ۲: ۲۵۹- سير أعلام النبلاء، ۱۰: ۴۰۰- وتاريخ التراث العربى، ۱: الجزء ۲: ۱۳۹- أخبار مكّة للأزرقى المقدّمة. تجدر الإشارة إلى اختلاف المؤرخين فى سنة وفاته أيضاً.

۳- ۳ سنتحدّث عن هذا الكتاب بالتفصيل فى أحد أعداد «الميقات» المقبلة.

ص: ۱۸۸

ألّف أيضاً الزبير بن بكّار الذى ولد عام ۱۷۲ وتوفى عام ۲۵۶ للهجرة كتاباً فى هذا الموضوع. وكتابه هذا أشار إليه السخاوى (۱)، وذكرتْه أيضاً مصادرُ أُخرى (۲). إلّاأن النصوص الواردة فى الكتب التاريخية والمصادر التى تحدثّت عن سيرته، والفهارس التى أحصت مؤلفاته لم تذكر شيئاً عن هذا الكتاب (۳).

يُعَدُّ عمر بن شَبّة أيضاً من المؤرّخين الذين كتبوا عن مكّة وأخبارها، وله كتاب يُدعى ب «تاريخ مكّة» ذكره البخارى ونقل عنه (۴)، وقال: إنّ له كتاباً آخر فى هذا الصدد واسمه «أُمراء مكّة»، لكن البعض احتمل أن يكون كلا الاسمين عنواناً لكتاب واحد (۵).

نسبت بعض المصادر إلى الحسن البصرى (م ۱۱۰) كتاباً اسمه «تاريخ مكّة»، ويبدو أن نسخة منه موجودة الآن فى أحد مكتبات مصر (۶).

ثم يأتى بعد كل هذا كتاب أبى عبد اللّه محمد بن إسحاق الفاكهى، وهو كتاب قيّم وفريد وقد سمّاه ب «أخبار مكّة فى قديم الدهر وحديثه» وهو محور اهتمامنا الآن:

يوصف كتاب الفاكهى بأنّه كتابٌ تاريخى واجتماعى وجغرافى، يُتاح للمرء- بالاستناد إليه- التعرف على الكثير من الحقائق المتعلقة بمكّة، والكيفية التى كانت عليها الأطراف المحيطة بها. والموجود حالياً هو الجزء الثانى من الكتاب وهو يحمل بين دفّتيه ما يناهز الثلاثة آلاف حديث وخبر.

أما الجزء الأول منه فقد كان فى متناول أيدى المحقّقين والمحدّثين حتّى سنوات من بعد تأليفه، فكانوا يستفيدون من مضامينه ومحتوياته. وقد أعاد محقّق هذا الكتاب- وبالاستناد إلى نقلهم وروايتهم-صياغة قسمٍ من جزئه الأوّل، وهذا ما سنشير اليه لاحقاً.

أهمية الكتاب:

لقد ظل كتاب الفاكهى وعلى مَرّ الزمن موضعَ اهتمام العلماء والمحدّثين والمؤرّخين، فانتفع منه الكثيرون وأكّدوا أهميته الكبيرة فى تاريخ الإسلام. أثنى عليه ابن حجر العسقلانى الذى استفاد منه كثيراً فيما ألّفه عن أخبار مكّة قائلًا:

«كتاب قيّم فى خمسة كتب» (۷).

وكتب تقى الدين محمد بن أحمد الفاسى المكّى الذى نقل فى كتابه الكثير مما جاء فى كتاب الفاكهى: «امور مفيدة جداً ليست من معنى تأليف الأزرقى ولا من المعنى الذى ألّفناه» (۸).

لقد حوى كتاب الفاسى علماً غزيراً ونافعاً. وقوله هذا- وهو قول رجل عارف- يحمل منتهى الدلالة على المكانة الرفيعة لكتاب الفاكهى وسعة مادّته ووفرة المعلومات المدوّنة فيه.

النقطة الأخرى التى تتضح من خلالها أهمية كتاب الفاكهى هى المعلومات والبيانات المسطورة عليصفحاته، ولا أثر اليوم لمصادرها الأصلية.

لقد ضبط محقّق الكتاب- وهو لا شك محقّق جاد وبارع- النصوص والأخبار التى نقلها الفاكهى عن الآخرين بالشكل التالى:

«نقل عن كتاب عثمان بن عمرو بن الساج فى تاريخ مكّة (۴۷) مورداً (۹).

۱- ۱ الإعلان بالتوبيخ لمن ذَمَّ أهل التاريخ، السخاوى: ۶۴۸ مطبوع ضمن علم التاريخ عند المسلمين، ۲: ۳۱۹.

۲- ۲ أخبار مكّة، للازرقى المقدّمة: ۱۰- أخبار مكّة، للفاكهى المقدّمة، ۱: ۳۴. نقل الفاكهى قسماً من آثاره فى كتابه.

۳- ۳ انظر: معجم الأُدباء، ۱۱: ۱۶۴- الفهرست: ۱۲۳- تاريخ التراث العربى، ۱: الجزء ۲: ۱۴۷.

۴- ۴ تاریخ المدینة المنوّرة، ۱: المقدمة، ی.

۵- ۵ نفس المصدر.

۶- ۶ نفس المصدر.

۷- ۷ تعلیق التعلیق، ۵: ۴۷۱، هذا الکتاب من المؤلفات المهمة لابن حجر: انظر الحافظ بن حجر العسقلانی، عبد الستار الشیخ ۳۹۱- ۴۰۲- اتحاف القارئ بمعرفة جهود العلماء علیصحیح البخاری: ۷۶.

۸- ۸ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ۱: ۴.

۹- ۹ لمعرفة المزید عن حیاته راجع کتاب: تاریخ التراث العربی، ۱: الجزء ۲: ۲۰۱.

ص: ۱۸۹

وعن الواقدى ۲۶ مورداً، وعن مؤلّفات الزبير بن بكار ۱۴۳ مورداً لا يوجد منها إلا جزء يسير فى مؤلفاته المطبوعة.

نقل عن كتاب لأبى عُبيدة معمر بن المثنّى ۱۱ نصاً عن آبار وأخبار مكّة، وأخذ عن كتاب «فضائل مكّة» لأبى بكر الحميدى (صاحب السند) ۲۹ نصاً.

استقى الفاكهى أيضاً من بعض مصنّفات الحديث القديمة التى لا وجود لها اليوم ككتابَى «الجامع» و «المناسك» لابن جُريح ونقل عنهما ۲۴۸ حديثاً بطرق مُختلفة.

نقل أيضاً عن كتاب «الجامع» لسفيان الثورى ۱۰۸ أحاديث، وعن «الجامع» لسفيان بن عينية ۷۳۷ حديثاً ونصّاً، ونقل عن مصنّف وكيع بن الجرّاح ۲۴ حديثاً ونصاً، وكذا نقل عن «سُنن موسى بن طارق أبى قُرّةَ ۱۶ نصّاً».

وضَمّن الفاكهى كتابه هذا أسماء عدد من مشايخه فى الحديث، ونقل من كتبهم عدداً من الأحاديث والنصوص، ومن جملة ذلك كتاب «السُنن» لسيد بن منصور إذ نقل عنه ۱۱ نصّاً. وأخذ عن أحد كتب الحسين بن حسن المروزى ۱۱۵ حديثاً ونصاً، وعن الحسن بن على الحلوانى ۳۲ نصاً، وعن مسند محمد بن يحيى بن أبى عمر العدنى المكّى ۵۲۶ خبراً، وعن مسند يعقوب بن حميد بن الكاسب ۱۸۸ حديثاً ونصّاً.

راجع الفاكهى كتب السيرة لغرض تدوين كتابه، ومن جملة كتب السيرة التى أفاد منها وهى مفتقدة اليوم ما يلى: كتاب عروة بن الزبير الأسدى وأخذ عنه ۵ أخبار، و «المغازى» لموسى بن عقبة وقد أخذ عنه ۱۳ نصاً.

إضافة إلى ما ذكر، كان الفاكهى ينقل الأحاديث والنصوص أيضاً عن أشخاصٍ لا أثر اليوم لمؤلّفاتهم، وبهذا فإنّه يكون قد أودع بين دفّتى كتابه قسماً عظيماً من التراث التاريخى والحديثى مدّخراً إيّاه للأجيال والعصور (۱).

كتاب الفاكهى فى مؤلفات الآخرين:

غدا كتاب «أخبار مكّة» موضع اهتمام العلماء بعد تدوينه ونشره. فقد اقتبس الكثير من المحدّثين والمؤلفين مقاطع منه وضمنوها مؤلّفاتهم، ومن جملتهم: أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربى فى كتابه «المناسك»، وأبو عمر بن عبد البر، فى «الاستيعاب»، وأبو عبيد البكرى فى «معجم ما استُعجم»، وياقوت الحموى فى «معجم البلدان»، وكتاب «المشترك وضعاً المفترقصقعاً»، ومحمد بن أحمد الفاسى فى «العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين»، وكتاب «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام»، وابن حجر العسقلانى فى «فتح البارى» و «الإصابة» و «تهذيب التهذيب» و «تعليق التعليق»، وعمر بن فهد المكّى فى «إتحاف الورى بأخبار أمّ القُرى»، ومحمد بن عبد الرحمن السخاوى فى «المقاصد الحسنة»، وجلال الدين السيوطى فى «الدر المنثور»، و «تاريخ الخلفاء» و «الجامع الكبير»، ومتّقى الهندى فى «كنز العمّال»، وجمال الدين بن ظهيرة المخزومى فى «الجامع اللطيف فى فضل مكّة وأهلها وبناء البيت الشريف»، وقطب الدين النهروانى فى «الأعلام بأعلام بيت اللّه الحرام» و ... الخ.

لقد ذكر المحقّق هذه المجموعة وسواها وأتى أيضاً على ذكر موارد النقل فى هذه المؤلّفات بالدّقة (۲).

۱- ۱ انظر: أخبار مكّة، ۱ المقدمة: ۳۳- ۳۵.

۲- ۲ نفس المصدر.

ص: ۱۹۰

لمحة سریعة لفصول الکتاب:

لم یبوّب الفاکهی کتابه بشکل منظم، فکان یأتی بالعنوان ویدرج تحته ما لدیه من معلومات. أمّا المتبقّی من الکتاب- الیوم- فهو یبدأ من النصوص التی تتحدث عن الحجر الأسود وفضیلته وأحکامه، وقد وردت هذه ضمن ۱۵ عنواناً و ۲۱۴ حدیثاً وخبراً.

تناول هذا الفصل «الحجر الأسود» وکیفیّته وقدمه، وآداب استلامه وزیارته، وکیفیة استلام النساء إیّاه، ومدی ارتفاعه عن الأرض، والأرکان الأُخری وکیفیّتها، والمسح علیه بالأیدی، والتقبیل وغیرها من آداب الأرکان. تمتاز النصوص الواردة فی هذا الفصل بالدقة، وجاءت إلی جانبها أیضاً أخبار ومواضیع تاریخیة واجتماعیة مهمّة.

تحدّث فی الفصل الثانی عن مقام «الملتزم». قال یاقوت الحموی: «الملتزم»؛ ویقال له أیضاً: «المَدْعَی» و «المتعوّذ»: هو ما بین الحجر الأسود والباب ... (۱).

استعرض فی هذا الفصل مقام «الملتزم» مستعیناً بالأخبار والروایات، وتحدّث عن أهمیّته وفضائله، وعظمة الدعاء فی هذا المکان والصورة التی یتم فیها، وذکر من وقفوا فیه موقف التضرع. ونقل أیضاً مواضیع أخری مفیدة فی هذا الباب وقد تضمّن هذا البحث ۷۶ حدیثاً وخبراً.

اشتمل الفصل الثالث (ج ۱، ۱۸۶- ۳۶۸)، وهو فصل طویل نسبیاً، علی ۶۰ بحثاً و ۴۷۹ حدیثاً وخبراً عن الطواف حول الکعبة وکیفیّته. فالکعبة بناء قدیم حضیَ علی مرّ العصور بتقدیس واحترام الشعوب والأقوام. وکان الطواف حولها سُنّةً متّبعةً، إلا أن بعض التغییرات قد طرأت علیه عبر التاریخ فبدّلت من کیفیّته وأسلوب إقامته.

یتحدّث هذا الفصل عن طواف الکعبة وفضیلته وآدابه، وکیفیة القیام بهذه العبادة المهمّة. الأحادیث والأخبار الواردة فی هذا البحث نفیسة جداً فهی تکشف لنا عن الکثیر من السنن والآداب الدینیة والاجتماعیة التی کانت سائدة عند الأقوام والشعوب آنذاک.

یصف هذا الفصل کیفیة الطواف، وکیفیة طواف النساء فی الظروف والأزمنة المتباینة. وکیفیة طواف أصحاب النذور؛ فالأشخاص الذین فی رقبتهم نذر یطوفون علی حالة وهیئة خاصّة، ویشیر کذلک إلی کیفیة إنهاء الطواف.

والطواف نیابة عن الأحیاء أو الأموات، وطواف الأحرار وطواف العبید فی زمن الجاهلیة، والحوادث التی وقعت خلال الطواف فی الکعبة، وانهدام الکعبة ... الخ. وقد ورد کلُّ ذلک بشکل مفصّل ویضم بین ثنایاه الکثیر من الأخبار والروایات. ونقل وفسّر فی ختامه الحدیث الشریف: «لا تُغزی مکة بعد الفتح».

وفی الفصل الرابع (ج ۱، ۳۶۸- ۴۳۸) تناول وجوب الحج من خلال استعراضه ل ۱۷ بحثاً، ونقله ل ۱۸۷ حدیثاً وخبراً دُرجت تحت عنوان «فریضة الحجّ»، وأوضح أهمیة هذه الشَعیرة الإلهیة الکبری من خلال تفسیره للآیة: «ومَن کفر فإن اللَّه غنیّ عن العالمین».

واستعرض مواضیع شتّی ضمن عناوین متعددة: کاستطاعة الحجّ، والزاد والراحلة فی الحجّ، وحجّصغار السن، وفضیلة السیر إلی الحجّ، والنتائج السیئة المترتّبة علی ترک الحجّ، ومکانة الزائر لبیت اللَّه، والمغفرة لذنوب الحجّاج، وفضل الحاج یوم القیامة الذی زار بیت اللَّه وهو عارف بأهمیة تلک الزیارة وما لها من حرمة.

۱- ۱ معجم البلدان، ۵: ۱۹۰- وانظر أیضاً إلی معجم دهخدا، حرف «م»: ۱۰۶۲.

ص: ۱۹۱

یمتاز هذا الفصل علی غیره بما فیه من جوانب فقهیة وأبعادٍ أخلاقیة. وفیه نصوص تلفت النظر للتعرّف علی فتاوی الفقهاء فیصدر الإسلام. ویشتمل أیضاً علی أحادیث تستوجب الاهتمام فی آداب الزیارة وما ینبغی أن یتحلّی به الزائر منصفات. وتمثل خاتمة الفصل عرضاً لضرورة المسارعة فی أداء فریضة الحجِّ واجتناب التهاون فیها.

تحدّث مؤلّف الکتاب فی الفصل الخامس، وهو الفصل الأخیر فی المجلّد الأوّل (۴۴۰- ۴۸۱) عن مقام إبراهیم وفضیلته، وأشار أثناء ذلک إلی قیام إبراهیم فی المقام، والأثر الذی یمکن مشاهدته علیه، والجلوس خلف مَقام إبراهیم والصلاة فیه، والبیعة بین الرکن والمقام وسوی ذلک من الأمور الأخری المتعلّقة فیه. ویضم هذا الفصل بین ثنایاه نُصوصاً تاریخیة علی قدر کبیر من الأهمیة. ویلاحظ فی هذا الفصل وجود أحادیث تتحدث عن الإمام المهدی (عج) من جملتها الروایة التالیة:

«یبایع المهدی بین الحجر والمقام علی عدّة أهل بدر، ثلاثمائة وثلاثة عشر» (۱).

یتناول الفصل السادس (ج ۲، ۵- ۸۶) بئر زمزم وکیفیته وتاریخه والفصول التاریخیة التی تناوبته علی مرّ الزمن. یرکّز هذا الفصل علی النمط الذی یتمّ به حفر بئر زمزم للمرّة الأولی، وطریقة الاستفادة منه فی الأدوار التاریخیة المتعاقبة. وفیه أیضاً نصوص وأخبار عن قدسیّة ماء زمزم عند الشعوب، وسقیه وحمله للمرضی للاستشفاء به. وفی هذا الفصل أیضاً وردت أسماء زمزم والعیون المتکونة منه وکیفیة البناء علیه. ومن الأخبار التی یمکن العثور علیها فی هذا الفصل هی الأخبار المتعلّقة ببئر زمزم ومکانته، ومن الذی کان یتولی أمره والحفاظ علیه علی مرّ الدهر وتعاقب الدول. تندرج المواضیع والأخبار المختصّة بزمزم خلال الأدوار التاریخیة تحت ۱۹ عنواناً یضم ۱۲۹ حدیثاً وخبراً. فقد کان لزمزم وکیفیة الاستسقاء منه علی مرّ التاریخ دورٌ لا یُستهان به فی بناء الترکیب السیاسی والاجتماعی لنظام القبیلة فی تلک الربوع آنذاک. وتشتمل تلک الأخبار علی مواضیع مهمّة عن أهمیة ودور ذلک المقام فی المسائل المذکورة.

ویُعدّ الفصل السابع (ج ۲، ۸۶- ۲۰۹) من الفصول المهمّة فی الکتاب. یشرح هذا الفصل ما یتعلق بالمسجد الحرام وفضله وأحکامه. وفیه أیضاً ذکر للحدود الدقیقة لأبعاده والصورة التی کان علیها بناؤه الأول، وما أُضیف علیه إلی عهد الفاکهی، ومن المواضیع المهمّة التی وردت فی هذا الفصل هی الصلاة فی المسجد الحرام وأحکامها والنوم فیه، والآراء التی طرحها علماء وفقهاء ذلک العصر، وکذلک کیفیة استفادة المسلمین من المسجد الحرام فی ذلک الیوم.

وفضیلة الأذان، والمؤذن الذی عُیّن فیه. وتحدّث کذلک عن حکم الاعتکاف، وما یجوز وما لا- یجوز فیه من أنواع التصرّفات والأعمال. ثمّ ذکر الإضافات التی ألحقت به وفقاً لترتیبها التاریخی، مع وصف دقیق لبناء المسجد والمسافات والفواصل التی کانت موجودة فی ذلک الحین، مضیفاً إلیها ما کان موجوداً من قنادیل وزینة ومنائر وبیوت متّصلة به.

وهذا الفصل هو من الفصول التی ینبغی الاهتمام بها؛ نظراً لما یحتویه من مواضیع فقهیة وتاریخیة واجتماعیة مهمّة، کان لها دورها فی تاریخ الإسلام وفی معرفة دور المسجد الحرام فی التحوّلات السیاسیة التی حصلت فیصدر

۱- ۱ أخبار مکّة، للفاکهی، ۱: ۴۷۰.

ص: ۱۹۲

الإسلام.

وتطرق الفصل الثامن من الكتاب إلى موضوع السعى بين الصفا والمروة، وما ورد فى التاريخ بشأن هذين الجبلين، والبداية والنهاية المفروضة للسعى بينهما والأحكام والحدود الخاصة بهما.

ورد فى هذا الفصل ۱۶ بحثاً و ۱۷ حديثاً كلها مخصصة لوصف البناء الذى كان قد أُقيم فوق الفسحة الفاصلة بين الصفا والمروة، والدور التى كانت متّصلة به، وطواف أهل الجاهلية والأشعار والأقوال التى كانوا يردّدونها أثناء السعى، والأصنام التى كانت موضوعة على الصفا والمروة، والمسافة الفاصلة بينهما، إن لنصوص هذا الفصل أهمية خاصّة من الوجهة التاريخية؛ لأنها تعين على معرفة بعض آداب ومعتقدات العصر الجاهلى وأحد مظاهره العبادية المتمثّلة بالسعى بين الصفا والمروة.

ويُعَدّ الفصل التاسع (ج ۲، ۲۴۶– ۳۸۵ و ج ۳، ۱– ۱۴۹) من الفصول الطويلة فى الكتاب ويحوز أهمية قصوى بسبب ما يتضمنه من ترسيم لحدود الحرم، وكيفية تحريم الحرم ونصب العلائم الدّالة على تلك الحدود وتغييرها على مرّ التاريخ، ومن ثم ذكره لأسماء مكّة، والخلفاء الذين سكنوها والصحابة الذين توفّوا فيها. وقد ورد فى هذا الفصل ذكر مجاورة مكّة وفضل الصبر على البلايا والمكاره التى تحفّ بمن يختار سكناها.

يحتل هذا الفصل مكانة هامّة بين فصول الكتاب، فهو يتحدث عن قيام عبد اللّه بن الزبير ومعاركه، وما جرى فيها على أهل مكّة؛ ولهذا فهو مفيد من الناحية السياسية والاجتماعية والثقافية.

واختصّت الصفحات الأُخرى فى هذا الفصل لتبيان الحوادث الطبيعية والوقائع السياسيّة التى شهدتها مكّة، والآداب والسُنن التى تطبع ساكنيها. وفيه أيضاً أخبار مثيرة وجذّابة عن الحفلات ومجالس الأنس والشراب والطرب التى دأب الناس على إقامتها فيها.

ويضمّ هذا الفصل بين طيّاته أيضاً أخباراً عن مكّة وأهلها فى نظر الآخرين، والأهمية والقداسة التى كانت توليها بقية المدن والأمصار والقبائل لأهل مكّة، والأشعار التى وصفوهم بها، وأخباراً أخرى عن الزهاد والقُضاة والعلماء والعباد والأمراء الذين عاشوا فيها، والكيفية التى كان أهل مكّة يقرأون بها القرآن وآداب ختمه عندهم، والطريقة التى كانوا يلبّون بها حين وصولهم إلى «والضحى» عند قراءة القرآن.

وجاء فيصفحات الكتاب الأخرى ذكر جدّة وأحوالها وأخبارها، وفضيلة الموت فيها، وكذلك أشار إلى «البطحاء» و «الأبطح» وموقعها الدقيق فى مكّة، وذكر من كانت أسماؤهم وكناهم على اسم الرسولصلى الله عليه و آله و سلم وكنيته من أهل مكة.

ينتهى هذا الفصل بذكر الخطب التى ألقيت فى اجتماعات مكّة، كخطبة أبى ذر، وعتبة بن سفيان، والحجّاج بن يوسف، وداود بن على بن عبد اللّه و ... الخ وهى خطب تفضى بنا إلى معرفة الكثير من الأحوال السياسية والأوضاع الاجتماعية التى كانت سائدة آنذاك.

أما الفصل العاشر (ج ۲، ۱۵۷– ۲۰۸) فهو تحت عنوان «باب جامع من أخبار مكّة فى الإسلام» ويختص بذكر الأخبار والمواضيع حول إدارة مكّة فى الجاهلية والإسلام، وفيه عناوين فرعية نذكر فيما يلى بعضها على سبيل المثال وهى: ولاة مكّة من الذين ماتوا فيها، ولاة مكّة من قريش وسواها وبعض أعمالهم وسيرتهم، قضاة مكّة من قُرشىّ الطائف، وسكن قبيلة ثقيف فيها ... الخ.

الفصل الحادى عشر (۲۰۸– ۲۴۳) وهو فصل قصير إلّاأنه طريف وحرىّ بأن يُقرأ، وقد جرى فيه الحديث عن الأوائل فى مكّة من أمثال: إنَّ أوّل من ضرب الدينار والدرهم هو آدم (۳: ۲۰۸)، وإنَّ أوّل من اتّخذ للخطابة منبراً هو إبراهيم (۳: ۲۰۹) و ... الخ. وقد كتب محقّق الكتاب عن هذا الفصل ما يلى:

يُعَدُّ هذا الفصل من الفصول الطريفة والمهمّة فى كتاب الفاكهى، فقد بذل جُهداً واسعاً فى جمعه وترتيبه، وهو ما يؤشر على سعة اطّلاعه ومراجعته لمختلف المصادر. فالفاكهى هو الوحيد من بين مؤرّخى مكّة الذى عالج هذا الموضوع، وقد نقل فى هذا الفصل ۶۲

حديثاً وخبراً (۱).

الفصل الثانى عشر (۲۴۳- ۲۵۹) وهو أيضاً فصل قصير تطرق فيه للأحكام الشرعية للبيع والإجارة وامتلاك البيوت فى مكّة وبناء البيوت فيها. وتحدّث فيه أيضاً عمَّن يتمكّن من بناء دار هناك والسكن فيها، وعَمَّن لا يتمكن من الإقامة فيها، وجاء كل ذلك فى ۴۱ حديثاً ونصّاً.

الفصل الثالث عشر (ج ۳، ۲۸۳- ۳۵۳) وهو من الفصول الطويلة والمهمة فى هذا الكتاب، فهو يزوّدنا بمعلومات مهمّة ودقيقة عن القبائل والبطون التى سكنت مكّة، وعن الجوانب المتعلّقة بالحياة الاجتماعية والقبلية التى كانت سائدة فى تلك الربوع آنذاك.

وجاء فى هذا الفصل على ذكر حارات مكّة وأحيائها وأجواء الحياة القبلية فيها، وأسماء الدور والأحداث التاريخية التى شهدتها مكّة فى ذلك الزمن، وكلّها مواضيع جذّابة وتستحق القراءة، وذكر فيه أوّل من قسّم الأراضى على القبائل وجعل لكلّ بطن محلّة خاصة بها، وفَصل بيوت كلّ قبيلة وحدودها، فهو قد ذكر على سبيل المثال بيوت أبناء عبد المطلب بشكل دقيق (ج ۳، ۲۶۳- ۳۰۳). وقد وردت فى طيات الكتاب نصوص ومعلومات تاريخية جمّة منها الحوادث التى وقعت فى هذه الأحياء والبيوت، وعقود البيع والشراء التى حصلت فيما بينهم، ومن تحالف مع هذه الأحياء والدور، والأمور التى تصدّى لها وجوه القوم والشخصيات البارزة لتلك القبائل والبطون.

يُختتم الجزء الثالث بالفصل الرابع عشر (۳۵۳- ۳۹۲)، ويضمّ معلومات دقيقة عن حدود مكّة وتهامة، وحكم طرد المسلم من مكّة، وحكم القاتل الذى التجأ إلى الحرم، والأشجار التى يجوز قطعها فى الحرم والاستفادة منها، وحكم الصيد فى الحرم ومقدار كفّارته، والحيوانات التى يجوز قتلها فى الحرم و ... الخ.

وجاء فى الفصل الخامس عشر (ج ۴، ۵- ۹۶) ذكر الأماكن التى تُستحب فيها الصلاة، وهى بعض المساجد من أمثال: المسجد الموجود فى «دار الأرقم»، ومسجد فى «عرفة»، و «مسجد الكبش»، و «مسجد البيعة»، و «مسجد ذى طُوى»، ومسجد فى «جبل النور» «جبل حراء»، ومسجد قرب شعب أبى طالب و ... الخ. وذكر فيه أيضاً مقبرة مكّة فى زمن الجاهلية، ومقبرة المهاجرين، وآثار النبى والصحابة، واستعرض أيضاً جبال وبقاع مكّة.

وبمناسبة ذكر القبور، أورد روايات مهمّة بشأن زيارتها، من جملتها:

قال رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم: «زوروا القبور فإنّها تذكركم الموت» (۲).

وأشار فى هذا الفصل أيضاً إلى وادى «محصّب» (۳) وحدوده والنصوص الواردة بشأنه، وأورد الإشارة هنا إلى أنّ «محصّب» أرض واقعة على مسير مكّة باتجاه منى وهنالك اختلاف فى تحديد حدودها، ويَعدُّ أهلُ السُنّة قيامَ الليل فيها بعد العودة من منى، مستحباً.

يتولى الفصل السادس عشر (ج ۴، ۹۶- ۱۲۸) الحديث عمّا كان فى مكّة من آبار وعيون وبُرَك وأحواض فى زمن الجاهلية والإسلام، وهو فصل يسترعى الاهتمام بسبب ما يحتويه من لمحات اقتصادية واجتماعية، وفيه إجابات مفصّلة عن الأسئلة المطروحة بشأن الأشخاص الذين فطروا تلك الآبار والعيون، وكيفية استثمار الناس لتلك الينابيع؛ وما هى الدوافع والمقاصد التى كانت وراء حفر تلك الآبار؟ وما هى مكانة القبائل أو الأشخاص الذين كانوا يبادرون لمثل هذه الأعمال؟ وما هى أهميّة بئر زمزم بين كل تلك الآبار؟ وما هى الآبار التى تمّ حفرها، والينابيع التى استُثمرت، والعيون التى تدفقت بعد انبثاق الإسلام؟ وتجدر الإشارة إلى أن كل ذلك جاء منظوماً على هيئة الأشعار والقصص التى تحكى كيفية الاستفادة من تلك المصادر المائية، وهى مفيدة لمن أراد التعرّف على الآداب والرسوم والسنن التى كانت سائدة فى العصر الجاهلى فى محيط مكّة.

ركّز الفصل السابع عشر (ج ۴، ۱۲۹- ۲۴۶) على ذكر الطرق والشوارع والوديان ومجارى السيل والأماكن التاريخية التى كانت قائمة فى مكّة، والمداخل والمخارج والجبال المتصلة بالحرم، والأماكن التاريخية التى دارت فوقها الأحداث والوقائع المهمة.

وكما ذكرنا مراراً بأنّ الفاكهى لم يكتف بذكر الأماكن والأحداث، بل كان يبين كل ما يمت إلى ذلك الموضوع بصلة. فهو قد ذكر

على سبيل المثال قمّة أحد الجبال بمناسبة حديثه عن الجبال، وقال: إنها تُنسب إلى أحد المكيين، وأشار أيضاً إلى ذهاب النبيّصلى الله عليه و آله و سلم إلى ذلك المكان وما حصل فيه من مبايعة الرجال والنساء له، ووصف ذلك الموقف بالتفصيل ذاكراً ما جرى فيه بالشكل التالى:

أخبرنى عبد اللّه بن عثمان بن خُثَيم، أن محمد بن الأسود بن خلف أخبره، أنّ أباه الأسود حضر النبيّصلى الله عليه و آله و سلم يبايع الناس يوم الفتح، قال: جلس عند قرن مصقلة.

قال: وقرن مصقلة الذى إليه بيوت ابن أبى ثُمامة، وهى دار ابن سُمرة، وما حولها.

قال الأسود: فرأيتُ النبيصلى الله عليه و آله و سلم جلس إليه، فجاءه الناسُ الصغار والكبار، والرجال والنساء، يبايعونه على الإسلام والشهادة. قال: قلتُ: وما الشهادة؟ قال: أخبرنى محمد بن الأسود أنّهصلى الله عليه و آله و سلم بايعهم على الإيمان باللّه، والشهادة: لا إله إلّااللّه (۴).

كتب فى هذا الفصل أيضاً- وبمناسبة الحديث عن «شعب البيعة» عن بيعة العقبة، وأسهب فى وصف من شهدها وكيفية حصول تلك الواقعة وما جرى خلالها، ولا يخلو هذا الموضوع من الأهمية بسبب ما يحتويه من جوانب تاريخية مهمّة تساعد على معرفة الظروف التى سهّلت هجرة الرسولصلى الله عليه و آله و سلم إلى المدينة المنوّرة.

خصص الفصل الثامن عشر (۲۴۶- ۳۱۱) للحديث عن منى وما يتعلق بها، وما لها من فضيلة ومكانة، وحدودها وأحكامها، وكيفية رمى الجمرات، والطرق المؤديّة إليها. ومنازل النبىّ والخلفاء فيها، ومسجد خيف وما يمتاز به من فضائل، والمواضيع المتعلّقة به كالعبادة وقيام الليل فيه، وكذلك أحكام رمى الجمرات، وما جاء فى أدب العرب عن منى وما يرتبط بها.

ومن المواضيع الأخرى التى تطرّق إليها هذا الفصل هو مسجد «الكبش» وفضيلته والأخبار التى وردت فيه، وأوّل من رمى الجمرات، ورمى جمار إبراهيم عليه السلام باعتبارها سُنّة قديمة، والدعاء والذكر أثناء الرمى، واسم مقبرة منى، وأوّل من نصبصنماً فى هذه البقعة، ومساحة مُنى ومدى طولها وعرضها، ومساحة مسجدها.

ينتهى المجلد الرابع بالفصل التاسع عشر (۳۱۱- ۳۲۹) وفيه جرى التركيز على المزدلفة، ووجه تسميتها، وفضيلتها، وأحكامها، والطرق المؤديّة إليها. وتحدّث هذا الفصل أيضاً عن قُزَح (وهو جبل قليل الإرتفاع فى جنوب شرقى مزدلفة ويشرف على مسجد المشعر الحرام) والمشعر الحرام ومسجد المشعر الحرام، والمسافة الفاصلة بينه وبين عرفات. تتسم النُصوص والمعلومات الواردة فى هذا الفصل بالدقّة والطرافة والأهمية.

أما الفصل العشرون من الكتاب (ج ۵، ۵- ۵۴) فهو مكرّس للحديث عن عرفة وحدودها وفضيلتها وأحكامها، ووصف مسجدها، وفضيلة الدعاء فى عرفة والصوم فيها، ووقوف النبىّ فيها قبل وبعد الهجرة. وتولى هذا الفصل أيضاً بيان سبب تسمية تلك الأرض باسم عرفة، ووصف منبرها والبعد الفاصل بينه وبين المسجد الحرام، وذكر بالمناسبة قبر «ميمونة» زوجة رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم ومحلّه فى أطراف مكّة.

الفصل الحادى والعشرون (۵۷- ۱۰۶) وهو الفصل الأخير من الكتاب، ويبيّن بعض الأماكن المعروفة الواقعة على مقربة من مكّة من أمثال مسجد التنعيم وما له من فضائل وما ورد فيه من أخبار، ومسجد الجعرانة، ومسجد الحديبية، وأخبار عن عدد العمرات التى أدّاها النبيُّصلى الله عليه و آله و سلم. والمدن والقرى الواقعة فى أطراف مكّة التى كانت تتبع سلطة والى مكّة، والمناطق التى وطأتها أقدام النبىِّ وأصحابه فى الغزوات و ... الخ.

إنّ نظرة سريعة على الفصول الذهبية لكتاب الفاكهى تظهر لنا وبكلّ وضوح مدى الأهمية والمنزلة السامية التى يحتلّها هذا الكتاب فى تاريخ الإسلام ومكّة، ودوره فى التعرّف على الحوادث التى وقعت فيصدر الإسلام. ولا يقتصر كتاب الفاكهى على سرد تاريخ مكّة فحسب، بل ويتعدّاه أيضاً إلى تدوين تاريخ السياسة والثقافة والأدب والاعتقادات والسُنَن التى كانت سائدة فى مكّة أثناء العصر

الجاهلى، وبداية ظهور الإسلام. إن استقراء الجوانب المختلفة لـذلك الكتاب تظهر لنا وبكلّ وضوح بأنّه كتاب لا يستغنى عنه أىُّ محقّق أو مؤرّخ أو فقيه أو مفسّر أو محدّث أو باحث راغب فى إدراك حقائق الإسلام عن طريق البحث والدراسة.

وكما ذكرنا سابقاً فإن الفاكهى لم يبوّب الكتاب، والفصول الآنفة على أساس التقسين الذى أوجده المحقّق الجاد والبارع للكتاب.

ملحقات الكتاب:

سبقت منّا الإشارة إلى أنّ ما استعرضناه من كتاب الفاكهى يمثل الجزء الثانى منه. وقد تولّى محقّق الكتاب عملية استخراج الجزء الأوّل منه، من المصادر المختلفة وأعادصياغتها بالشكل والترتيب الذى نستعرضه فيما يلى على شكل ملحقات:

يتركز الحديث فى الملحق الأوّل على كيفية مجىء إبراهيم عليه السلام إلى مكّة، وقصّة بئر زمزم، وذبح إسماعيل. ومما يلفت الانتباه أن الفاكهى فى بحثه هنا يريد أن يثبت أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق وينبه إلى نفوذ النصوص المحرّفة لأهل الكتاب وتسلل الإسرائيليات إلى المصادر والمؤلفات الإسلامية.

تتحدّث النصوص الواردة فى هذا الملحق أيضاً عن زواج إسماعيل بامرأة من العمالقة وكيفية مجىء بعض القبائل إلى مكّة، والسبب فى تسمية أُولئك القوم بالعمالقة. والأخبار التى تبيّن تاريخهم العريق، وتذكر بعض القبائل التى سكنت تلك البقاع وبعض العادات والتقاليد التى كانت تطبع حياتهم الاجتماعية.

إضافة إلى ذلك ورد فيه ذكر الحروب والأيام التاريخية الهامّة التى مرّت بهم، و «النسىء» ومن كان مسؤولًا عنه، وأوّل من بَنى الكعبة والكيفية التى كان عليها البناء ووضع الحجر الأسود، وتطوّر بناء الكعبة بعد الإسلام حتّى زمن الفاكهى وغير ذلك من المواضيع.

إشتمل الملحق الثانى على بعض الرسومات التى أوردها المحقّق نقلًا عمّا كان الفاكهى قد عرضه فى كتابه، وهى رسومات تصوّر بعض المناطق والأماكن المشهورة مع ايضاحات لأوضاعها، وبهذه الصورة يبيّن الترابط بين الماضى التاريخى لها وحاضرها المشرق.

يضمّ الملحق الثالث خرائط توضيحية عن مكّة والأطراف المحيطة بها، وهى تعكس وضع مكّة وما كانت عليه فى ذلك الزمن، ومن جملة ما تضمّنته تلك الخرائط ما يلى:

۱- مكّة فى القرن الثالث للهجرة.

۲- أشهر الدور والأماكن والجبال فيها.

۳- الآبار التى كانت فيها آنذاك.

۴- الينابيع والأحواض والبرك والصهاريج.

۵- الجدران والأسوار والقلاع.

۶- الطرق الرئيسة فى مكّة، والمضائق والمنعطفات والطرق الجبلية والمقابر.

۷- الأماكن التاريخية والمساجد.

۸- رسوم دقيقة لبناء الكعبة، والمسجد الحرام وما يحيط به فى العام ۲۷۲ للهجرة فى عهد خلافة المهدى العبّاسىّ.

بهذه اللمحة الوجيزة تنتهى مضامين هذا الكتاب القيم الذى تولّى المحقّق دراسته وتحقيقة بأسلوب منهجى شامل ومتين.

أُسلوب الفاكهى فى تدوين الكتاب ونقل النصوص:

اتّضح لنا- من خلال الخلاصة التى استعرضناها لموضوع الكتاب- الأُسلوب الذى اتبعه الفاكهى فى تحريره.

ونحاول فيما يلى التوسع فى شرح هذا الموضوع. فهذا الكتاب يحتوى على ما يقارب الثلاثة آلاف حديث ونصّ ورواية، وقد وردت جميعها مؤيّدة بأسانيدها: وقد راعى المؤلف فى نقله لتلك الأحاديث جميعَ الأصول المتّبعة فى النقل والرواية وبشكل دقيق. فهو يصرّح أحياناً بأنه سمع الحديث (ج ۳، ۲۲۲)، ويشير فى أماكن أُخرى بأنّه قد استقاه من مصدر آخر وعرضه على «شيخه فى الحديث»، ويظهر فى أحيان أُخرى بأنه نقل النص «إجازةً» (ج ۳، ۱۷۴). ويضيف فى بعض المواضع قرائن أخرى لعملية النقل ليثبت

أن سَماعهُ كان قطعياً (ج ۵، ۱۴ الرقم ۲۷۳۳)، ويذكر أحياناً المكان الذى سمع فيه الحديث (ج ۳، ۱۳۴- ج ۲، ۱۳۵) وإذا شكّ بكلمة فى الحديث فإنّه يشير إليها (ج ۲، ۱۱۱). ويصرّح كذلك بذكر المحدثين الذين رآهم وكانوا واسطة له فى نقل جميع هذه الروايات (ج ۲، ۳۰۳).

وإذا ورد أىُّ تصحيف فى نصّ الحديث فهو يصرّح به، ويشير إليه مذكّراً به بعد نقل الحديث (ج ۳، ۳۴- ج ۴، ۳۰).

وهو مع كل هذا يعطى رأيه فى بعض الأوقات فى كيفية الحديث وصحّته أو سقمه (ج ۳، ۱۶۰).

ومن بعد هذا يَحسُن بنا القول بأنَّ الفاكهى قد ولد بمدينة مكّة، ونما وترعرع بين ربوعها، وعلى هذا فإن القسم الأعظم من الكتاب يتألّف من أوصاف وتصاوير تمّت مشاهدتُها عياناً ومن غير واسطة، وقائمة على الدقّة والأمانة.

ولم يكتف المؤلف بنقل الآثار والأخبار بل إنّه نقدها وأعطى رأيه فيها بعد دراسته وتمحيصه لها. وتتجلّى هذه المسألة على أشدّها فى البحوث الفقهية، ولا سيما تلك المتعلّقة منها بالطواف والسعى والإحرام والوقوف فى عرفة وتحديد مواقع وحدود الأماكن المقدّسة والتاريخية.

وللأدب العربى فى هذا الكتاب أيضاً مكانته الرفيعة والمرموقة. فهو يستعرض الأشعار العربية فى المناسبات المختلفة، ويكون بهذا قد مزج بحوث الكتاب بصبغة الأدب العربى وخلّف وراءه أثراً أدبياً طريفاً. ومن الأوجه الأخرى التى تستوجب الثناء فى كتاب الفاكهى هو تنوّع المآخذ وتعدد مصادر النقل. وإلى جانب كل هذا ينبغى القول: إنّه قد بذل جهداً مضنياً فى جمع وتبويب الأخبار، ونقل الأسانيد بدقّة متناهية لكى يبقى الأبواب مُشرعة أمام المحقّقين اللاحقين لنقد وتقييم الأُسلوب الذى اتّبعه فى نقله.

مؤلف الكتاب:

هو محمّد بن اسحاق بن العباس الفاكهى من العلماء والمؤرخين والمحدّثين فى القرن الثالث الهجرى. لا توجد معلومات دقيقة عن سَنَة ولادته، ويحتمل محقّق الكتاب أن تكون سنة ولادته ما بين عام ۲۱۵- ۲۲۰ فى مدينة مكّة، ونشأ وترعرع فيها وبدأ دراسته فيها أيضاً؛ فأخذ العلم عن مشايخ مكّة، ولم يقف عند هذا الحد بل سافر إلى البلدان الأخرى لكسب المعرفة وتعميق ما ناله من العلوم. ومن جملة البلدان التى سافر إليها بغداد والكوفة وصنعاء، وحضر فى حلقات العلم التى كان يعقدها مشايخها وعلماؤها وأخذ عنهم العلم والمعرفة.

كانت له فى مكّة مكانة اجتماعية مرموقة، وهذه الحقيقة يمكن استنتاجها من بين ثنايا النصوص التى أوردها فى كتابه، فهو يدوّن فى بعض الأحيان أحداثاً، ويصف مواضع ومواقف لا يتيسّر للمحدّث العادى الوصول إليها. ومن القرائن الأخرى الدالّة على سموّ مكانته هى الأخبار التى أوردها، وتحدّثَ فيها عن المراسلات التى كانت تجرى بين الأمراء ووصفه الدقيق لها.

أحصى محقّق الكتاب ۲۳۱ شيخاً من مشايخ الفاكهى وذلك استناداً إلى ما ورد من أخبار ونصوص فى «أخبار مكّة» (ج ۱، ۱۹- ۲۹)، وهذا يدلّ على سعيه الحثيث ونشاطه الدؤوب من أجل تحصيل العلم وتوسيع دائرة معارفه.

تاريخ وفاة الفاكهى مجهول أيضاً. يقول محمد بن أحمد بن على الفاسى: «لا أعلم سنة وفاته، إلا أنه كان فى العام ۲۷۲ حيّاً قطعاً (۵). وقد نقل قول الفاسى هذا الكثير من كُتّاب السيرة واعتمدوا عليه (۶). ويرى البغدادى أنه توفى عام ۲۸۵ من غير ذكر أىّ مصدر موثوق لهذا القول (۷).

أما محقّق الكتاب فيرجّح- ومن خلال دراسته وتدقيقه فى الأخبار والنصوص التى أوردها الفاكهى فى كتابه- أنّ سنة وفاته كانت بين عام (۲۷۲) وعام (۲۷۹).

تحقيق الكتاب:

تولى تحقيق الكتاب وتنقيحه عبد الملك بن عبد اللّه بن دهيش وهو من الكُتّاب والفضلاء السعوديين. ونشره فى ۶ أجزاء مزوّدة بالهوامش التفصيلية. الأجزاء من (۱- ۵) هى نصّ الكتاب وملحقاته، أما الجزء السادس فهو مختص بالفهارس. ويُعَدّ تحقيق هذا

الكتاب واحداً من الأمثلة الرائعة التى يُحتذى بها فى التحقيق العلمى للنصوص القديمة.

ونحاول إنهاء هذه المقالة بإلقاء نظرة سريعة على النمط الذى اقتفاه فى تحقيقه لهذا الكتاب:

١- نصُّ الكتاب:

لقد قام المحقّق بتنقيح الكتاب على أساس النسخة الوحيدة الموجودة منه، وقابل هذه النسخة مع مصادر الكتاب، ومع الكتب الأخرى التى ألّفها معاصروه أو اللّاحقون من العلماء، وتضمنت كتبهم شيئاً مما نقلوه عنه، أو كان فيها مواضيع مشابهة لمواضيع كتابه؛ وذلك لغرض الحصول على نصّ سليم ودقيق. وقد ثبت فى النصِّ كلَّ ما رآهصواباً بعدَ أن بذل جهداً حثيثاً وتحقيقاً مناسباً ودقيقاً فى مقارنة النسخة الموجودة مع ما ذكرنا من مصادر، وذكر فى الهامش موارد التحريف والتصحيف والأخطاء التى وقعت فى النسخة الخطيّة. وصحّح أسانيد الكتاب بمراجعة لكتب الرجال، وهذّبها من كل ما لحق بها من تحريف وسقطات وتصحيف، فشخص الحديث بدقّة وذكره كما هو، إن كانصحيحاً أو ضعيفاً أو ما شابه ذلك. وخرّج كل ما حواه الكتاب من أشعار وأخبار وأحاديث وآثار وحدّد أماكنها بالدقّة فى مصادرها.

٢- الهوامش:

ذكر المحقّق فى الهوامش مصادر النقل بدقّة، وأشار فيما إذا كانت هذه الروايات والأخبار لها نظائر فى المصادر، وكان أحياناً يشير بإيجاز إلى شخصية الراوى، ويشير إلى موقعه بين رجال الحديث. وإن كانت الوقائع والحوادث والأماكن غير واضحة الدلالة فى النصِّ ومذكورة فيه باختصار، فإنّه يوضّحها ويُبيّن دلالتها بدقّة ويُصحّح أخطاء المحقّقين فى هذا المجال إن وُجدت، إضافةً إلى أنّه كان يوضّح غامض الكلمات.

٣- الفهارس:

خصّص المحقّق المجلد السادس للفهارس الفنيّة للكتاب، وأورد فيه فهارس للآيات والأحاديث، والأعلام، والأشعار، والأماكن، والمصادر، والمواضيع. فقد رتّب الأحاديث فى فهرسها الخاص على أساس الحروف الأبجدية ومن ثم ذكر الراوى وموضعه فى الكتاب.

وقسّم أيضاً فهرس الأعلام إلى الأقسام التالية:

١- فهرس الرواة؛ وحدّد فى هذا الفهرس مشايخ الفاكهى بالحرف (ش).

٢- فهرس الرجال والأعلام الذين وردت أسماؤهم فى الكتاب من غير الرواة.

٣- فهرس أصحاب الحرف.

۴- فهرس القبائل والأقوام.

ورتّب أيضاً فهرس مواضيع الكتاب متسلسلة وفقاً لحروفها الأبجدية. ونظم فى الفهرس كلَّ المواضيع والأماكن والحوادث التى ورد لها ذكر فى الكتاب. وأتى فى فهرس الأشعار على ذكر الأشعار أوّلًا ثم ذكر من بعدها القافية واسم الشاعر.

أما فهرس المراجع فقد حدّد فيه بدقّة المصادر والمراجع التى اعتمد عليها. وأورد فى خاتمة الكتاب فهرساً عاماً لمواضيع المجلّدات الخمسة.

۴- مقدّمة الكتاب:

افتتح المحقّق الكتاب بمقدّمة تحقيقية مطوّلة ومفيدة ضمّنها شرحاً لسيرة المؤلف وشيوخه وتلاميذه.

وقد سبق لنا أن قُلنا: بعدم توفّر معلومات وافية عن سيرة المؤلف فى كتب السيرة. وقد تحدّث المحقّق- بشكل مفصّل ومن خلال التمعّن فى نصوص الكتاب- عن سيرته والتاريخ التقريبى لولادته ووفاته، وما قام به من رحلات فى طلب العلم، وعن مكانته العلمية والاجتماعية فى القرن الثالث للهجرة، ومشايخه وتلاميذه. ثم انتقل إلى الكلام عن كتاب الفاكهى، فأبرز أهميته، وذكر المصادر

والمراجع التی عوّل علیها الفاکهی، وأوضح مدی التأثیر الذی خلّفه فی آثار مَن جاء بعده.

وبیّن فی ختام مقدّمته الأسلوب الذی اقتفاه فی دراسة الکتاب وتحقیقه وتنقیحه. إنّ تحقیق هذا الکتاب یمثّل نموذجاً ملموساً للتحقیق العلمی والمتعمّق والواسع والدقیق.

الهوامش:

الإخلاص فی الحج

«الإخلاص فی الحج»

عادل العلوی

قال اللَّه تعالی فی کتابه الکریم:

«وما أُمروا إلّالیعبدوا اللَّه مخلصین له الدین ...» (۸).

لقد خلق اللَّه الإنسان فی أحسن تقویم، وتمدّح بخلقه فی قوله تعالی: «فتبارک اللَّه أَحسن الخالقین» (۹) ورکّبه من سرّ وعلن، وروح وبدن. وبدنه من تراب وروحه من أمر ربه «ونفختُ فیه من روحی» (۱۰) فأودعه أسرار خلقه.

جرمهصغیر ولکن انطوی فیه العالم الأکبر. فدنا فتدلّی فکان قاب قوسین أو أدنی، فعلّمه الأسماء الحسنی وفهّمه البیان الأتم، وأناله اللَّه تعالی بخضوعه وعبودیته له المقام الشامخ، فإن العبودیّة جوهرة کنهها الربوبیّة، وأنطقه بأقواله سبحانه ومَن أصدق من اللَّه قیلًا، وأصبغه بصبغته ومَن أحسن من اللّهصبغة، وهداه النجدین:

نجد الخیر ونجد الشر، وجعله مختاراً فی سلوک الطریقین إمّا شاکراً وإمّا کفوراً.

وخلق لروحه وبدنه منافیات وملائمات، وآلام ولذّات، ومنجیات ومهلکات، فمنافیات البدن الأمراض والأسقام الجسمانیة، وملائماته الصحة واللّذات الجسمانیة، والمتکفّل ببیان تفاصیل هذه الأمراض، وکیفیة علاجها هو علم الطب، ومنافیات الروح وآلامه هی رذائل الأخلاق وذمائمها التی تهلکه وتشقیه، وتردیه وتهویه إلی أسفل السافلین، فیکون کالأنعام بل أضل سبیلًا، وقلبه کالحجارة بل أشدّ قسوة. والمتکفّل ببیان هذه الرذائل الأخلاقیة ومعالجاتها هو (علم الأخلاق).

أماصحة الروح فتتمّ برجوعها إلی فضائل الأخلاق ومحامدها التی تُنجیه وتُسعده فی الدارین، وتأخذ بیدیه إلی مجاورة أهل الحقّ عند ملیک مقتدر فی مقعدصدق.

وإنما بعث اللَّه رسوله خاتم النبیین محمدصلی الله علیه و آله و سلم لیتمّم مکارم الأخلاق، فقالصلی الله علیه و آله و سلم: «إنّما بعثتُ لأُتمم مکارم الأخلاق» وقد مدحه ربّه فی قوله تعالی: «وإنک لعلی خلق عظیم» (۱۱). وقد أقسم فی سورة الشمس بأحد عشر قسماً أنه «قد أفلح من زکّاها وقد خاب من دسّاها» حتی قیل أوجب الواجبات الأخلاق الحسنة والمحمودة.

ثم البدن مادیّ فانٍ، وکل من علی الأرض فان. والروح مجرد باق، وإذا اتّصفت بشرائف الأخلاق کانت منعّمة فی السعادة الأبدیة، وإن اتّصفت برذائلها کانت فی الشقوة والعذاب مخلّدةً.

فعلی المرء الواعی أن یهذّب نفسه، ویزکّی أخلاقه، ویعالج أمراضه، قبل فوات الأوان. کما أن المریض ینبغی له أن یعالج بدنه وصحته. وکلُّ شیءٍ إنما یعالج بضدّه، فإن علاج الیابس بالرطب، والرطب بالیابس، والحار بالبارد والبارد بالحار، وهکذا أمراض الأخلاق، فإن الجهل یُعالج بالعلم، والبخل بالسخاء، والکبر بالتواضع، والشّره بالکفّ عن الشهوات، ومرض الریاء بالإخلاص. وإن کان ذلک کلّه یستلزم التکلّف والمرارة، فإنّ مَن أراد أن یعالج مرض بدنه علیه أن یتحمّل مرارة الدواء، وأن یصبر عن المشتهیات، وکذلک الروح حیث یُرید الإنسان علاجها فلابد له من احتمال مرارة المجاهدة وشدّة الصبر الذی هو سیّد الأخلاق. فیصبر علی فعل الطاعات والعبادات، وترک المعاصی والآثام، لیداوی بالصبر أمراض القلوب. وإن علاجها أولی من علاج الأبدان، فمرض البدن

یخلص الإنسان منه بالموت، ولکن مرض الروح- والعیاذ باللّه- یدوم حتی بعد الموت.

فالحریّ بمن یخاف علی نفسه وقلبه وروحه أن یباشر المعالجهٔ قبل الموت، فإنه سیندم یوم لا ینفعه الندم.

ثم أصل تهـذیب النفس وتزکیتها أن یقف الإنسان علی حقیقـهٔ نفسه، ویری عیوبها ومهلکاتها. فمن کملت بصـیرته وتمّت حذاقته، لم تخف علیه عیوبه. ومن عرف الأـمراض والعیوب یسـهل علیه التـداوی والتخلّص منهـا. ولکنّ أکثرَ الناس جهلوا عیوب أنفسـهم، فیرون القذی فی أعین الآخرین، ولا یرون الجذع فی عیونهم.

ولابـدّ من الاعتـدال والحکمـهٔ فی الأخلاق فهما الصـحهٔ للقلب والنفس والروح. أما المیل والانحراف عن حـدّ الاعتـدال فهما المرض والسقم الذی یخاف منه.

وعلاج النفس لمحو الرذائل والأخلاق الذمیمـهٔ عنها، یکسـبها الفضائل والأخلاق الحمیدهٔ، کما أن تخلیهٔ القلب من الأهواء والأمراض النفسیّهٔ، وتحلّیه هو الآخر بالأخلاق الفاضلهٔ، یجعل الروح أکثر جلاءً، ویصقلها حتی تکون کالمرآهٔ تنطبع فیها أسرار اللّه وکونه.

ثم الغـالب علی أصل المزاج البـدنی هو الاعتـدال، وإنما تعتریه العلل المغیرهٔ بعوارض الأغذیـهٔ والأهویـهٔ والأحوال. وکـذلک الروح، فکل مولود یولد علی الفطرهٔ المعتدلهٔ الصـحیحهٔ، وإنما أبواه یهوّدانه أو ینصّرانه أو یمجّسانه، فالمحیط والتربیهٔ والتعلّم والتعوّد لها الأثر البالغ فی اکتساب الإنسان الرذائل والآثام.

ولما کان البـدن فی ابتـداء خلقه لم یخلق کاملًا، وإنما ینمو ویکمل وتقوی القوی فیه بالنشوء والتربیـهٔ بالغـذاء والماء، فکذلک النفس تخلق ناقصـهٔ، إلاـ أنهـا قابلـهٔ للتکامل المنشود فی جبلته، والـذی خُلق الإنسان من أجله، یصل الإنسان بجهـده وجهاده إلی کماله، وأن یکون مظهراً لأسـماء اللّه وصـفاته. وتکمـل هـذه النفس بالتزکیـهٔ وتهـذیب الأخلاـق، وتغـذیتها بالعلم النافع والعمل الصالـح والإیمان الراسخ.

وإذا کان البدنصـحیحاً، فشأن الطبیب حینئـذٍ تمهیـد القانون وبیانه للصـحهٔ والمحافظهٔ علیها، وإن کان البدن مریضاً فشأن الطبیب أیضـاً جلب الصـحهٔ إلیه، فکذلک النفس، فإن کانت سـلیمهٔ وزکیهٔ ومهذّبهٔ الأخلاق، فینبغی السـعی من أجل حفظها وسلامهٔصحتها وبقائها، واکتساب زیادهٔصفائها وجلائها، وإن کانت عدیمهٔ الکمال، فاقدهٔ للصفاء الروحی، فینبغی الجهد المتواصل لجلب الصحهٔ النفسیّهٔ إلیها.

هـذا ومن أمراض القلب الخطرهٔ جـداً هو الریاء فی النوایا والعمل، فإنّه کدبیب نملهٔ سوداء فی لیلهٔ ظلماء علیصخرهٔصلداء، فمَن یحسّ بدبیبها؟

وان الریاء من عمل الشیطان الرجیم لیضل الناس ویغویهم «قال فبعزّتک لأغوینهم أجمعین الا عبادک منهم المخلصین» (۱۲).

ویقابـل الریـاء الإخلاص، «والأعمال بالنیات»- کما ورد فی الخبر- «ولکل امرئ ما نوی»، والنیّـهٔ من عمل الجوانـح وهو القصـد القلبی نحو العمل المقصود اتیانه والمنشود فعله. ولو کانت النیـهٔ خالصهٔ للّه سبحانه فإنها توجب قبول الأعمال، فإنّ الکلم الطیّب- وهو الذی فیه الإخلاص کما ورد فی الأثر- یصعد إلی اللّه سبحانه، وإنما یتقبّل اللّه من المتقین، والإخلاص أساس التقوی.

قال رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم: طوبی للمخلصین أولئک مصابیح الهدی، تنجلی عنهم کلّ فتنهٔ ظلماء (۱۳).

وقالصلی الله علیه و آله و سلم: العلماء کلّهم هلکی إلّا العاملون، والعاملون کلّهم هلکی إلّاالمخلصون والمخلصون علی خطر.

وقالصلی الله علیه و آله و سلم: إذا عملت عملًا فاعمل للّهخالصاً لأنّه لا یقبل من عباده الأعمال إلا ما کان خالصاً.

وقالصلی الله علیه و آله و سلم: لیست الصلاهٔ قیامک وقعودک إنما الصلاهٔ إخلاصک، وأن ترید بها وجه اللّه.

وقال أمیر المؤمنین علی علیه السلام:

العمل کلّه هباء إلا ما أُخلص فیه.

وقال علیه السلام: ضاع مَن کان له مقصدٌ غیر اللّه.

وقال الإمام الصادق علیه السلام:

ولابدّ للعبد من خالص النيّة فى كلّ حركة وسكون؛ لأنه إذا لم يكن ذلک منه يكن غافلًا، والغافلون قد وصفهم اللَّه تعالى فقال: «أولئک كالأنعام بل هم أضل سبيلًا» وقال: «أولئک هم الغافلون».

قال اللَّه تعالى عن لسان نبيّه:

«قل إنّى أمرت أن أعبد اللَّه مخلصاً له الدين وأمرت لأن أكون أوّل المسلمين» (۱۴).

قال رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم: إنّ لكل حقّ حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإخلاص حتى لا يحبّ أن يحمد على شيء من عمل للَّه.

وقالصلى الله عليه و آله و سلم فى حديث آخر:

«أما علامة [علامات] الُمخلص فأربع: يسلم قلبه وتسلم جوارحه وبذل خيره وكفّ شرّه.

وعن أمير المؤمنين على عليه السلام قال: مَن لم يختلف سرّه وعلانيته، وفعله ومقالته فقد أدّ الأمانة وأخلص العبادة.

قال أبو حامد الغزالى فى إحياء علوم الدين فى بيان حقيقة الإخلاص- بعد أن ذكر أقوال الشيوخ فيها-:

الأقاويل فى هذا كثيرة ولا فائدة فى تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة، وإنما البيان الشافى بيان سيد الأولين والآخرين، إذ سُئل عن الإخلاص فقال: «هو أن تقول ربّى اللَّه ثم تستقيم كما أُمرت» أى لا تعبد هواک ونفسک ولا تعبد إلا ربّک، وتستقيم فى عبادته كما أمرک- إياک نعبد وإياک نستعين- وهذه إشارة إلى قطع كلّ ما سوى اللَّه عزّ وجلّ من مجرى النظر وهو الإخلاص حقّاً.

ثم من آثار الإخلاص فى حياتنا الفردية والاجتماعيّة، وفى العلميّة والعمليّة، هو تفجّر ينابيع الحكمة وجريانها من قلب المخلص على لسانه.

وقال رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم: قال اللَّه عزّ وجلّ: لا أطّلع على قلب عبد فأعلم منه حبّ الإخلاص لطاعتى لوجهى وابتغاء مرضاتى إلا توليت تقويمه وسياسته.

وقال أمير المؤمنين على عليه السلام:

غاية الإخلاص الخلاص. والمخلص حرىّ بالإجابة، وعند تحقق الإخلاص تستنير البصائر، وبالإخلاص ترفع الأعمال، وفى إخلاص النيّات نجاح الأمور، ومَن أخلص بلغ الآمال، أخلص تنل.

حرىّ أن تكتب هذه الكلمات بأقلام من نور على وجنات الحور، فما أروع قوله عليه السلام: أخلص تنل.

كلمتان فقط ولكن فيها ما فيها من الأسرار والحِكم والحقائق، فإن الإنسان إنما ينال ما ينال بالإخلاص.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: إن المؤمن ليخشع له كلّ شيء ويهابه كلّ شيء، ثم قال: إذا كان مخلصاً للَّه أخاف اللَّه منه كلّ شيء حتى هوام الأرض وسباعها وطير السماء.

ثم يا هذا هل بعد الإخلاص من مقصود ومنشود؟

وقد قال الإمام الباقر عليه السلام: ما بين الحق والباطل إلا قلّة العقل- أى من يختار الباطل فهذا من قلّة عقله- قيل: وكيف ذلک يا بن رسول اللَّه؟

قال: إن العبد يعمل الذى هو للَّهرضىً فيريد به غير اللَّه، فلو أنه أخلص للَّه، لجاءَه الذى يريد فى أسرع من ذلک (۱۵).

هذا فى الإخلاص الذى هو من جنود العقل، ويقابله الرياء الذى هو من جنود الجهل، وقد قال اللَّه تعالى فى محكم كتابه: «ولا تكونوا كالّذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدّون عن سبيل اللَّه» (۱۶).

قال رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم لابن مسعود: يا بن مسعود إياک أن تظهر من نفسک الخشوع والتواضع للآدميين، وأنت فيما بينک وبين ربّک مصر على المعاصى والذنوب. يقول اللَّه تعالى:

«يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور».

وقال: أشد الناس عذاباً یوم القیامهٔ من یری الناس أن فیه خیراً ولا خیر فیه (۱۷).

قال أمیر المؤمنین علی علیه السلام:

المرائی ظاهره جمیل وباطنه علیل.

وقال الإمام الصادق علیه السلام:

إیاک والریاء فإنه من عمل لغیر اللَّه وکله اللَّه إلی من عمل له.

وعن رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم: ان الملک لیصعد بعمل العبد مبتهجاً به فإذاصعد بحسناته یقول اللَّه- عزّ وجلّ- اجعلوها فی سجّین إنه لیس إیّای أراد به.

وفی حدیث آخر: تصعد الحفظهٔ بعمل العبد مبتهجاً به فیطأُون الحجب کلّها حتی یقوموا بین یدی اللَّه فیشهدوا له بعملصالح ودعاء، فیقول اللَّه تعالی: أنتم حفظهٔ عمل عبدی وأنا رقیب علی ما فی نفسه، إنه لم یردنی بهذا العمل علیه لعنتی.

وقالصلی الله علیه و آله و سلم: إن المرائی یُنادی یوم القیامهٔ: یا فاجر! یا غادر! یا مرائی! ضلّ عملک وبطل أجرک، اذهب فخذ أجرک ممّن کنتَ تعمل له.

وقال الصادق علیه السلام: ما علی العبد إذا عرفه اللَّه ألّا یعرفه الناس؟

إنّه من عمل للناس کان ثوابه علی النّاس، ومن عمل للَّهکان ثوابه علی اللَّه، وإن کلّ ریاء شرک.

قال اللَّه عزّ وجلّ: أنا أغنی الشرکاء عن الشرک، فمن عمل عملًا أشرک فیه غیری فأنا منه بریءٌ فهو للذی أشرک.

وقال رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم: إنّ اللَّه تعالی لا یقبل عملًا فیه مثقال ذرّهٔ من رئاء.

وقالصلی الله علیه و آله و سلم: یا بن مسعود إذا عملت عملًا من البرّ وأنت ترید بذلک غیر اللَّه فلا ترج بذلک منه ثواباً فإنّه یقول: «فلا نقیم لهم یوم القیامهٔ وزناً» (۱۸).

وعن شدّاد بن أوس قال:

رأیت النبیّصلی الله علیه و آله و سلم یبکی، فقلتُ: یا رسول اللَّه! ما یبکیک؟ فقال: إنی تخوّفت علی أُمتی الشرک أما إنّهم لا یعبدونصنماً ولا شمساً ولا قمراً، ولکنهم یراؤون بأعمالهم.

وعن الإمام الصادق علیه السلام:

یُجاء بعبد یوم القیامهٔ قدصلّی فیقول:

یا ربّصلّیت ابتغاء وجهک فیقال له:

بلصلیت لیقال ما أحسنَصلاهٔ فلان اذهبوا به إلی النار.

ولکلّ شیءٍ علامهٔ، وقد جاء فی علامهٔ المرائی عن رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم: «اما علامهٔ [علامات] المرائی فأربع؛ یحرص فی العمل للَّهإذا کان عنده أحد، ویکسل إذا کان وحده، ویحرص فی کل أمره علی المحمدهٔ، ویحسن سمته بجهده».

وقال الإمام الباقر علیه السلام:

الإبقاء علی العمل أشدُّ من العمل. قال الراوی وما الإبقاء علی العمل؟ قال:

یَصلُ الرجل بصلهٔ، وینفق نفقهٔ للَّه وحده لا شریک له فتکتب له سراً، ثم یذکرها فتمحی فتکتب له علانیهً، ثمّ یذکرها فتمحی وتکتب له ریاءً.

قال رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم فی وصف المؤمن: لا یعمل شیئاً من الخیر ریاءً، ولا یترکه حیاءً. وفی غرر الحکم عن أمیر المؤمنین علیه السلام:

کلّ حسنهٔ لا یراد بها وجه اللَّه تعالی فعلیها قبح الریاء وثمرها قبح الجزاء.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: ما كان من الصدقة والصلاة والصوم وأعمال البرّ كلّها تطوّعاً فأفضلها ما كان سرّاً، وما كان من ذلك واجباً مفروضاً فأفضله أن يعلن به (١٩)، فالرياء حرام والمرائى عند اللّه سبحانه ممقوت ومغضوب عليه، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار كما ذكرنا.

هذا غيض من فيض فى أخبار الإخلاص والرياء وبيان حدودهما وما يترتب عليهما من الآثار فى الدنيا والآخرة.

وبعد هذه الوقفة العاجلة عند عظمة الأخلاق الإسلاميّة، ودورها البالغ فى حياة المسلم الرسالى، وبعد عرض موجز عن الإخلاص والرياء، وإنّ القلبَ منشؤهما ومحطهما، فإنه العالم باللّه وهو العامل للّه، والساعى والمخلص والمتقرب إليه، وهو الكاشف بما عند اللّه ولديه، وإنما الجوارح أتباع له، وخَدَم وآلات يستخدمها القلب كاستخدام الراعى للرعيّة، وهو المقبول عند اللّه إذا سلم من غير اللّه، وهو المحجوب عنه إذاصار مستغرقاً بغير اللّه، وهو المخاطب وهو المطالب، وهو المثاب والمعاقب، فيفلح الإنسان إذا زكّاه، ويشقى ويخيب إذا دَنّسَهُ ودسّاه، وهو المطيع للّهبالحقيقة، وإنما التى تظهر على الجوارح الظاهرية من العبادات أنواره، فهو سلطان البدن، وهو العاصى المتمرد على اللّه، وإنما السارى على الأعضاء من الفواحش آثاره. وبظلمانيته ونورانيته تتجلّى المحاسن الظاهرية ومساويها، فإن كلّ إناء بما فيه ينضح، وهو الذى إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، ومن عرف نفسه عرف ربّه، فتارة يهوى إلى أسفل السافلين ويكون كالأنعام بل هو أضلّ سبيلًا، وأخرى يصعد إلى أعلى عليين، ويرتقى إلى عالم الملائكة المقرّبين.

ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ويترصّد ما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه ومنه، فهو ممّن قال اللّه تعالى فيه: «ولا تكونوا كالذين نسوا اللّه فأنساهم أنفسهم اولئك هم الفاسقون» (٢٠). فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدين، وأساس السالكين، فلا تغفل.

فلابدّ للمؤمن من أن يخلص فى نواياه وأعماله، وحركاته وسكناته، حتى يلقى اللّه وليس فى قلبه سواه وذلك هو القلب السليم، الذى ينفع فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

والمؤمن الحاج، والمؤمنة الحاجة لابدّ لهما من الإخلاص فى مناسكهما، وفى حجّهما وعمرتهما، فإنّ الحجَّ من فروع الدين ومن العبادات، وشرطها الأوّل النيّة الخالصة متقرّباً بها إلى اللّه سبحانه وتعالى.

والحجُّ من العبادات الدينية والسياسيّة والاجتماعية ذات المفاهيم القيّمة، روحياً وبدنياً، فرديّاً واجتماعيّاً، فى جميع جوانب الحياة من العبادة، والإقتصاد والسياسة، والثقافة والحضارة، والأخوة الإسلاميّة وغير ذلك.

ويكفى فى شرافة الحج، ومقامه الشامخ فى الدين الإسلاميّ الحنيف، أنه أحد الأركان التى بنى عليها الإسلام، فهو من الأسس الأولى التى يعلو عليها الإسلام العظيم. وتتجلّى فى الحجِّ روح المحبّة والأخوة والصفاء، وحكومة الروحانيّات على الماديّات.

وكل مسلم متحمّس لدينه يرى فى حجّه وعمرته، أن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، وأن هذا الدين القيم لو تمسّك به أهلُه حقَّ التمسك، وطبقوه فى كل زوايا حياتهم لحكم العالم ولرفرفت راياته على ربوع الأرض ولو كره المشركون.

فإن الإنسان الضائع، والبشرية التائهة تجد انشودتها وسعادتها فى هذا الدين، فهو يتكفل سعادة الإنسان فى دارى الدنيا والآخرة.

فالحجُّ يمثّل بوضوح عزّ الإسلام وبقاءه وسلطانه، وكرامة المسلمين وشرفهم، فليس لأُمّة وملّة من الأمم والملل مثل هذا المؤتمر العالمى العظيم، والمشهد السنوى الكبير، الحافل بالخيرات والبركات؛ ليشهدوا منافع لهم؛ ليجتمع فيه المسلمون من شرق الأرض وغربها على اختلاف جنسيّاتهم، وطوائفهم، واشكالهم وألوانهم ولغاتهم، ولا يتميز غنيّهم عن فقيرهم ورئيسهم عن مرؤوسهم، وكلّ واحد منهم وقد اتزر بأحد ثوبى الإحرام وارتدى بالآخر؛ ليلبى دعوة اللّه، التى يدويصداها عبر الأحقاب والأجيال من شيخ الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام فى قوله تعالى: «وأذن فى الناس بالحجّ يأتوك رجالًا وعلى كل ضامر يأتين من كل فجّ عميق» (٢١).

فالحجّ فلاح وصلاح وقد أفلح من اقامه، ورفع بنيانه كما أمر الشارع به، وإنما ركّز القرآن الكريم، ورسولُ اللّه الأعظمصلى الله عليه و آله و سلم، وأهل بيته الأطهار عليهم السلام على الحجِّ لما فيه من المغزى والمعنى الملكوتى، ولأنّه يحتوى على كثير من العبادات،

والفضائـل الأخلاقیـة، والخیر والإحسـان الاجتمـاعی، والثواب الأـخروی فـإنه من بین أرکان الإسـلام ومبانیه، عبادة العمر وختام الأمر، وتمام الإسلام وکمال الدین فیه، قال النبیصلی الله علیه و آله و سلم:

«من مات ولم یحج فلیمت إن شاء یهودیاً وإن شاء نصرانیاً» (۲۲).

فهو نقلة اجتماعیة، ورحلة جماهیریّة یتّجه فیها الناس من کلصوب ومکان؛ لأداء فریضة إلهیّة واجبة، فی مکان مقدس واحد هو أشرف بقاع الأرض: مکّة المکرّمة.

وفی زمان واحـد من الأشـهر الحرم، ذی الحجة المبارک؛ لیمارسوا شـعائر موحدة، ومناسک دینیّة، وطقوساً خاصة، تجرّد الإنسان عن عالم المادیّات، وتحلّق بروحه إلی عالم ملکوتی وروحانی بلا نهایة، إلی الرفیق الأعلی فیکون قاب قوسین أو أدنی.

ولکن نوایا الناس مختلفة، والإنسان علی نفسه بصیرة، ولو ألقی معاذیره وأستاره، فقد روی فی خبر من طریق أهل البیت علیهم السلام: «إذا کان آخر الزمان خرج الناس للحـجِّ أربعـة أصـناف: سـلاطینهم للنزهـة، وأغنیاؤهم للتجارة، وفقراؤهم للمسألـة، وقرّاؤهم للسُّمعـة» (۲۳).

فلیس کلّ من أدی فریضة الحجِّ نال الکمال وبلغ العُلی، بل بشرطها وشروطها والإخلاص أوّل شروطها.

قال الإمام الصادق علیه السـلام: الحـجُّ حجّان: حـجٌّ للّهوحـجٌّ للناس، فمن حـجّ للّهکان ثوابه علی اللّه الجنّة، ومن حجّ للناس کان ثوابه علی الناس یوم القیامة (۲۴).

ولا یخفی أنّ من یـدخل الجنة فهو من السـعداء لقوله تعالی: «وأمّا الذین سـعدوا ففی الجنة خالدین فیها ...» (۲۵) فمن کان سعیداً فی حجّه، إنمـا یخلص للّهفی مناسـکه ویبتغی وجه اللّه فی أعماله، ومن عمل للناس فقـد خسـر الـدنیا والآخرة، فإن الـدنیا الدنیّـة دار ممرّ، وأهل الـدنیا لا وفاء لهم، وفی الآخرة کلّ ینادی وانفساه، وکلّ یفرّ من أخیه وصاحبته وبنیه وعشیرته التی کانت فی الـدنیا تؤویه. فمن الحماقة وقلّة العقل أن یعمل الإنسان لغیر اللّه سبحانه، کما ورد فی الخبر.

قال الإمام الصادق علیه السلام: مَن حجّ یرید به اللّه ولا یرید به ریاءً وسمعة غفر اللّه له البتّة (۲۶)- أی قطعاً-.

فمن حـجّ لیُنادی فی المجتمعات والنوادی: یا حاج فلان، یا حاجّـة فلانة، ولیفخر علی الآخرین ویتطاول علیهم، لم یصـیبه من حجّه إلا التّعب والنّصب. والأعمال العبادیة تبطل بالریاء فیجب إعادتها وقضاؤها حینئذٍ. فهل بعد هذا إلا الإخلاص فی النوایا والعمل؟!

وعن الإمام الصادق علیه السـلام فی حدیث یذکر علامات ظهور المهدی علیه السلام: ... ورأیت طلب الحجّ والجهاد لغیر اللّه ... فکن علی حذر واطلب من اللّه النجاة (۲۷).

ختامه مسک:

ولنختم الموضوع بما ورد عن الإمام الصادق علیه السلام فی أسرار الحجّ ودقائقه، وعلوّ معانیه وسموّ مفاهیمه:

روی فی مصـباح الشریعة عنه-صلوات اللّه وسلامه علیه وعلی آبائه وأولاده الطاهرین- أنّه قال: «إذا أردت الحجَّ فجرّد قلبک للّهتعالی من کـلّ شاغـل وحجـاب کـلِّ حاجب، وفوِّض أمورک کلّها إلی خالقک، وتوکّل علیه فی جمیع ما تظهر من حرکاتک وسـکناتک، وسـلّم لقضـائه وحکمه وقـدره، ودع الـدنیا والراحـة والخلق، واخرج من حقوقٍ تلزمـک من جهـة المخلوقین، ولاـ تعتمـد علی زادک وراحلتک وأصـحابک، وقوّتک وشـبابک ومالک، مخافة أن یصیر ذلک عدوّاً ووبالًا، فإنّ من ادعی [ابتغی] رضا اللّه، واعتمد علی ما سواه،صیّره علیه وبالًا وعدوّاً؛ لیعلم أنّه لیس له قوّة وحیلة، ولا لأحد إلّا بعصمة اللّه وتوفیقه.

فاستعد استعداد من لا یرجو الرجوع، وأحسن الصحبة، وراع أوقات فرائض اللّه وسنن نبیّهصلی الله علیه و آله و سلم، وما یجب علیک من الأـدب، والاحتمـال والصبر، والشـکر والشـفقة، والسـخاوة وإیثـار الزاد علی دوام الأوقات، ثم اغسل بماء التوبـة الخالصـة ذنوبک، والبس کسـوة الصـدق والصـفا، والخضـوع والخشـوع، وأحرم مـن کـلِّ شـیءٍ یمنعـک عـن ذکر اللّه، ویحجبـک عـن طـاعته، ولبِّ تلبیةصادقةصافیة، خالصة زاکیة للّهتعالی فی دعوتک، متمسّـکاً بالعروة الوثقی، وطف بقلبک مع الملائکة حول العرش، کطوافک مع

المسلمین بنفسک حول البیت، وهرول هرولة من هواک، وتبرّأ من حولک وقوّتک، واخرج من غفلتک وزلّاتک بخروجک الی منی، ولا ـ تتمنّ ما لا یحلّ لک ولا تستحقّه، واعترف بالخطایا بعرفات، وجدّد عهدک عند اللّه تعالی بوحدانیّته وتقرب إلیه، واتّقه بمزدلفة، واصعد بروحک إلی الملإ الأعلی بصعودک علی الجبل، واذبح حنجرة الهوی والطمع عند الذبیحة، وارم الشهوات والخساسة والدناءة والذمیمة عند رمی الجمرات، واحلق العیوب الظاهرة والباطنة بحلق شعرک، وادخل فی أمان اللّه، وکنفه، وستره وکلاءته، من متابعة مرادک بدخولک الحرم، ودُر حول البیت محقّقاً لتعظیمصاحبه، ومعرفة جلاله وسلطانه، واستلم الحجر رضا بقسمته وخضوعاً لعزّته، وودّع [ودع] ما سواه بطواف الوداع، واصف [وصفِ] روحک وسرّک للقائه یوم تلقاه بوقوفک علی الصفا، وکن بمرأیً من اللّه، نقیّاً [ونقِ] أوصافک عند المَروة، واستقم علی شرط حجّتک هذه، ووفاء عهدک الذی عاهدتَ به مع ربّک، وأوجبته له الی یوم القیامة.

واعلم بأنّ اللّه- تعالی- لم یفرض الحجّ، ولم یخصّه من جمیع الطاعات بالإضافة إلی نفسه بقوله تعالی: «وللّه علی الناس حج البیت من استطاع إلیه سبیلًا» ولا شرع نبیّه سُنّةً من خلال المناسک علی ترتیب ما شرّعه، إلّا للإستعانة والإشارة إلی الموت والقبر والبعث والقیامة، وفضل بیان السبق من الدخول فی الجنّة أهلها، ودخول النار أهلها بمشاهدة مناسک الحجّ من أولها إلی آخرها لأولی الألباب وأولی النهی (۲۸)، انتهی کلامهصلوات اللّه علیه وسلامه، واغتنموا الفرص یا ضیوف الرحمن، ویا حجّاج بیت اللّه الحرام، وإنما یتقبّل اللّه من المتّقین المخلصین.

وآخر دعوانا أن الحمد للّهربّ العالمین.

الهوامش:

حِوارٌ مع ممثّل الولی الفقیه فی شؤون الحجِّ والزیارة

حِوارٌ مع ممثّل الولی الفقیه فی شؤون الحجِّ والزیارة

مجلّةُ المیقات: فی البدایة نشکرکم علی إتاحة هذهِ الفرصة للاطلاع علی آرائکم القیّمة بشأن الحجِّ وما یتعلق به من مسائل:

کم مرّة تشرفتم بالحجِّ، وفی أی الأعوام؟

ج: بسم اللّه الرحمن الرحیم، بما أن هذا هو أول لقاء لی مع مجلة «میقات الحجِّ» الغرّاء، لذا أودُّ الإشارة إلی أنّ مکان هذه المجلة کان خالیاً- حقاً- فی مکتباتنا، وبین الکتب والمجلّات التی تصدر فی الجمهوریة الإسلامیة والعالم الإسلامی، ومن حسن الحظ، مُلِئ هذا المکان الآن بحول اللّه- تعالی- وهمم الإخوة الأعزاء فی معاونیة التعلیم والتحقیق لبعثة سماحة القائد الإمام الخامنئی (دام ظلّه). وآمل أن تجد هذه المجلة طریقها نحو التکامل من خلال تعاون الکتاب الملتزمین کافة معها، لتحتل موقعها اللائق فی العالم الإسلامی.

وفیما یخصّ الإجابة علی سؤالکم لابد لی من القول: إننی لم أکن قبل انتصار الثورة الإسلامیة قد تشرّفتُ بالحجِّ، إلّاأننی- بعد انتصار الثورة الإسلامیة- تشرفتُ بالحجّ مرتین وقبل أن أتولی مسؤولیة شؤون الحجّاج؛ المرّة الأولی فی العام ۱۳۵۸ ه. ش حیث کنت مرشداً دینیاً لإحدی قوافل الحجاج، وفی المرة الثانیة ذهبتُ- أیضاً- کزائر وکان ذلک علی ما أظن فی العام ۱۳۶۲ ه. ش. وفی عام ۱۳۷۰ ه. ش حمّلنی سماحة القائد (دام ظله) مسؤولیة شؤون الحجاج الإیرانیین إلی بیت اللّه، وما زلتُ أتحمل هذهِ المسؤولیة.

المیقات: الحجّ سفرٌ إلهی ومعنوی، والمعروف أنّ الذینَ یوفقون لهذا السفر- خصوصاً السفرة الأولی- یحتفظون فی ذاکرتهم بذکریات جمیلة عن ذلک. فما هی أحاسیسکم ومشاعرکم وأنتم تدخلون الحرمین الشریفین أول مرّة؟

ج: لا ـ یمکن وصف الأحاسیس التی تتملک الإنسان فی تلک اللحظات وایصالها إلی الآخرین. إنَّ الحالة التی تتملک الإنسان فی السفرة الأولی لا تتکرر فی السفرات التالیة لها، حیث الإحساس بعظمة هذین المکانین المقدسین لهو من الذکریات التی لا یمکن نسیانها. فهناک الأماکن المقدسة التی کان یتواجد فیها الأنبیاء العظام وأولیاء اللّه الذین طافوا حول البیت الحرام. وهناک الأرض التی

شهدت أهم الأحداث فى تاريخ الإسلام، حيث انطلاقة الإسلام الأولى.

فعندما عرف الإنسان هذه الأجواء للمرّة الأولى، وراحت هذه المعانى تدخل ذهنه بنحو وآخر، تملكته حالة خاصة، وكم هو جميل وعظيم أن ينتفع بها فى تزكية نفسه والتقرُّب أكثر فأكثر إلى البارئ تعالى.

الميقات: منذ أعوام وأنتم تتعاطون الأحاديث والروايات. وتحفظون القرآن الكريم، لهذا فإنكم على معرفة واسعة بمعارف الثقلين حول الحجِّ. فما هى مكانة الحجّ فى تعاليم القرآن والحديث؟

ج: يوجد فى هذا المجال كلام كثير، كما أنه لا يمكن حتى حصر القليل منه فى مقال، والأمر بحاجة إلى تأليف الكتب من أجل توضيحه من جميع أبعاده، وبالطبع يوجد هناك بعض ما كُتب فى هذا المجال، إلّاأن ما يمكن طرحه بإيجاز فى لقاء واحد هو: أن الحجَّ واحد من المرتكزات الثقافية، والسياسية، والاجتماعية فى الإسلام. والحجّ يُعد- إلى جانب الصلاة والصيام والخمس والزكاة وسائر فروع الدين- واحداً من أهم فروع الإسلام، ويمتاز عن بقية فروع الدين بجامعيته وشموليته. ففى الحجِّ تكون السياسة إلى جانب العبادة. والمسائل الثقافية إلى جانب العبادة.

وبقصارى الكلام يمكن القول: إنَّ الحجَّ هو المظهر الحقيقى لأبعاد الإسلام ومعارفه، وبعبارة واحدة، يجب استعمال التعبير القرآنى الجميل فى وصف الحجّ «قياماً للناس» وأنه مبدأ النهوض الشامل فى العالم الإسلامى. ومن هنا فقد كان الإمام الخمينى قدس سره يُعير أهميّة كبيرة للانتفاع بأجواء الحجّ الملكوتية فى مختلف المجالات التى يحتاجها المجتمع الإسلامى.

فللقرآن الكريم تعبيران يدعوان إلى التأمل فيما يخصّ مكانة الحجِّ من وجهة نظر القرآن والإسلام.

الأول «قياماً للناس» الذى يعنى أن الحجَّ هو مبدأ النهوض الشامل.

والثانى «ليشهدوا منافع لهُم» ويُستفاد من هذه الآية أن الشعوب الإسلامية عندما تحضر هى أو ممثِلون عنها فى تلك الديار المقدسة، يجب أن تشهد منافع كثيرة. وكما بيّن ذلك الإمام الراحل قدس سره فى بياناته القيّمة؛ المنافع مطلقة ولا تختص بمنفعة معيّنة. كما وجاء فى الروايات- أيضاً- أنه عندما سُئل الإمام عليه السلام ما هو المراد من المنافع؟ المنافع الدنيوية أم الأخروية أم الاثنان معاً؟ أجاب الإمام عليه السلام: كل المنافع الدنيوية والأخروية.

فالإمام الراحل قدس سره يفهم من «ليشهدوا منافع لهم» شيئاً ملفتاً للنظر، فهو يقول: إنَّ أكبر المنافع الضرورية للمجتمع الإسلامى- اليوم- فى العالم هو حقه الذى يجب أن ينتزعه من المستكبرين، فهذه الثروة العظيمة للمسلمين أى النفط الذى يأخذه الاستكبار العالمى من المجتمع الإسلامى مجاناً، يجب الحؤول دونه، يجب على الأمة الإسلامية أن تضع يداً بيد وتنتزع هذه المادة الحيويّة الماديّة من حلقوم الاستكبار العالمى، وتأخذ حقّها من الغزاة، وهذه المسألة يمكن للحجّ أن يضمنها. فبإمكان المسلمين فى ذلك المؤتمر العظيم أن يتفاهموا ويتفقوا ويتحدوا ويقفوا بوجه المستكبرين، من أجل ضمان منافعهم الماديّة على الأقل.

الميقات: لقد أشرتم إلى نكتة مهمة جداً، فإن مسألة «قياماً للناس» و «ليشهدوا منافع لهم» يمكن للعالم الإسلامى أن ينتفع بها فى الحجّ فى المجالات المختلفة؛ السياسية، والاقتصادية و ... والآن من المناسب طرح هذا السؤال وهو: ما هو الاختلاف بين الوضع الحالى للحجّ وبين المكانة التى وضع الإسلام فيها الحجّ، وما الذى يجب عمله من أجل الوصول إلى الحج المنشود؟

ج: يوجد بين الحج الحقيقى- أو بتعبير إمام الأمة، رضوان اللّه تعالى عليه، الحج الإبراهيمى- وبين الحجّ الحالى الفاقد للمحتوى اللازم اختلاف كبير. وفى الواقع لا يمكن مقايستهما مع بعض وهما يقعان فى نقطتين متقابلتين.

فالحج الذى يُريده الإسلام الأصيل من المسلمين، هو الحجُّ الذى يكون مبدأً للنهوض والثورة. وهو الحجّ الذى يستطيع تأمين منافع المجتمع الإسلامى، لا أن يكون فيصالح منافع أعداء الإسلام. إن المستكبرين يريدون من الحجّ أن يكون وسيلة لتهدئة المجتمع الإسلامى لهم، وتبرير تسلطهم على أراضى الإسلام.

ويجب القول: إنَّ الحج اختلف اختلافاً جذرياً بعد انتصار الثورة الإسلامية عن حجِّ ما قبل الثورة. ولقد أحيا الإمام الراحل قدس سره

البُعدَ السياسى للحجِّ فى سبيل إحياء الحجّ الحقيقى الأصيل. وقد سعى بنظرته الثقافية إلى إحياء هذا البُعد المهم للحج فى حياته وليتركه اليوم كأمانة ثمينة وقيمة بأيدى الأمة الإسلامية. والآن فإن مسؤولى الجمهورية الإسلامية هم المؤتمنون على هذه الأمانة، ونأمل أن نتمكن من حراسة هذه الأمانة الإلهية العظيمة بشكل لائق. إن إحياء البعد السياسى للحج هو الذى وضع الحجَّ فى اتجاهه الصحيح. وإن كان يجب أن نعترف أنه لا تزال هناك مسافة كبيرة حتى نصل إلى الحجّ الحقيقى، إلّاأنه على أية حال، فقد ابتدأت هذه الحركة من قبل الإمام الراحل قدس سره ونظام الجمهورية الإسلامية المقدس فى إيران على أمل أن تستمر وتتواصل حتى تحقيق كامل أهدافها.

الميقات:صحيحٌ أن الوضع الحالى للحج هو أفضل بكثير بالقياس إلى ما قبل الثورة، ولكن يبدو أنه لا زال هناك الكثير مما لم يُعمل. فما هى مقترحات سماحتكم من أجل إقامة مراسيم الحجِّ بشكل أفضل وأكمل؟

ج: إنّ أول ما يجب الانتفاع به من الحج هو «تربية النفس» حيث إنّ واحدة من المشاكل المهمة والأساسية للعالم الإسلامى هو تجاهل هذه المسألة. ولو زاد عدد القوى المخلصة والواعية والمسؤولة والأشخاص الذين يفكرون بحاجات العالم الإسلامى فى المجتمعات الإسلامية فسوف يؤدى ذلك بشكل طبيعى إلى أن تقع السلطة فى أيديهم، وتحلُّ مشاكل المسلمين بالنتيجة. وفى الظروف الراهنة، قد انطلقت شرارة الوعى والشعور بالمسؤولية فى العالم الإسلامى ببركة الثورة الإسلامية، واكتسب الشباب المسلم فى أكثر البلدان الإسلامية الوعى واليقظة، وبدأوا بإعداد أنفسهم. بأمل أن تستمر هذه الحركة- إن شاء اللَّه- إلى أن تأخذ البلدان الإسلامية زمام أمورها بنفسها. فمالم يكن الإنسان قد ربَّ نفسه، لا يمكنه أن يخطو خطوات مؤثرة فى سبيل تربية المجتمع الإسلامى، كما لا يمكنه أن يُفكر بحلول لمشكلات العالم الإسلامى، فإذا تمكن المسلمون أن يخطوا فى الحجِّ هذه الخطة، إذا هم مستعدون لمواجهة مختلف المشاكل التى تأخذ- اليوم- بتلابيب العالم الإسلامى.

والشىء الثانى الذى يمكن للإنسان أن ينتفع به ويستفيد منه فى الحجّ، ويُعد ضرورياً لمواجهة مشاكل العالم الإسلامى، هو «وحدة العالم الإسلامى». فلو وضع أكثر من مليار مسلم يداً بيد، واستغلوا الإمكانيات والأماكن الحساسة والستراتيجية التى يمتلكونها كما ينبغى، فلن تتمكن أية قوة من مقاومتهم، ولأصبح القول الفصل لهم ليس فى العالم الإسلامى وحسب بل فى العالم كله. وأن أفضل مركزٍ يمكن أن يضمن الوحدة للمسلمين هو الحج.

إن موسم الحجّ لهو مجمع حقيقى للتقريب فى العالم الإسلامى. فهناك يمكن لزعماء البلدان الإسلامية- علماءً كانوا أو سياسيين- أن يجتمعوا ويمدوا يد الوحدة بعضهم إلى بعض، ويفكروا بإيجاد حلولٍ لمعضلات العالم الإسلامى، بدلًا من الخلافات التى منشؤها- بالأساس- الأهواء النفسانية ووساوس الإنس والجن الشيطانية.

فإذا امتلك حَجُّنا هذين الشيئين أو البعدين (تربية النفس والوحدة) فسيكون حلّ مشاكل العالم بالنسبة للمسلمين بسيطاً، ولا تجد، والحال هذه، مشكلة تستعصى على الحل. وإذا كنّا اليوم نشهد مشاكل وقمع المسلمين فى بلدان إسلامية؛ كالبوسنة والهرسك، وفلسطين المحتلة، وبعض المناطق الأخرى الذين يتألم قلب كلّ إنسان لمظلوميّتهم، فإنَّ سبب ذلك يعود إلى انعدام الوحدة بين المسلمين، وعلى أى حال، يمكن الانتفاع بالحج لصالح المجتمعات الإسلامية الكثيرة فيما يتعلق بمختلف القضايا؛ الفردية، والاجتماعية، وكذلك القضايا الثقافية والعقائدية، والسياسية، والاقتصادية، وحتى العسكرية.

لقد كان إمام الأمة- رضوان اللَّه تعالى عليه- يصدر أهم بياناته فى أيام الحج، وهذا الأمر يدلُّ على مدى اهتمامه وأمله بهذه القاعدة العظيمة! فقد كان الإمام قدس سره يعتقد وجوبَ أن يشع النور من هذا المركز ويُتحرك منه لحل مشاكل العالم الإسلامى.

لميقات: إن أعمال العمرة والحجّ والتمتع، من الإحرام حتى آخر المراحل، لكل واحد منها ميزة خاصة، ففى رأيكم أى هذه الأعمال، يمكن للإنسان أن يشعر فيها بذروة المعنوية؟

ج: إنّ مناسك الحج، من الإحرام حتى آخر عمل، هى مظاهر للجلال والعظمة. فعندما يحضر المسلمون من أقصى نقاط العالم إلى

تلك الـديار المقدسـة ويتركون جانبـاً كـل المميزات؛ يؤدى الجميع، الفقير والغنى، الأبيض والأسود، الرئيس والمرؤوس، الرجـال والنساء، يؤدون جميعـاً سلسلة أعمـال واحـدة جنبـاً إلى جنب، ويقفون لـدعاء البـارئ تعالى و ... ولعله لم يكن يوجـد مشـهد عبادى واجتماعى أعظم واجلُّ من هـذا المشـهد. ولكن من بين جميع الأعمال، توجد بعض الأعمال التى تتمتع بميزات بارزة مثل الوقوف فى عرفات، والوقوف فى المَشعر، فهناك حيث يجتمع الحجاج فى مكان واحد، بين جبال عرفات أو فيصـحراء المشـعر، يُسـلمون القلوب إلى البارئ تعالى، فى تلك اللحظة الخاصة بين الطلوعين. ومن ثم يحضـرون بعد ذلك جميعاً بمهابة لا يمكن وصـفها إلى منى حيث تصل العظمة والمهابة المعنوية غاية ذروتها.

الميقات: منذ السنة التى تشـرفتم فيها إلى الحج وإلى الآن، تم تخريب الكثير من الآثار الإسـلامية فى مشـروع توسـيع الحرمين- وحتى خارج المشروع- فما هو التحول والتغيير الذى شاهدتموه فى هذه الأماكن منذ ذلك الوقت وإلى الآن؟

ج: مقـدارٌ من هـذه التغييرات، التى أُجريت فى الأبنيـة التأريخيـة الإسـلامية، يعود إلى مـا قبـل انتصار الثورة، وإننى لم أكن قـد وفقتُ للـذهاب إلى هنـاك قبـل انتصـار الثورة الإسـلامية كى أتمكن من المقايسـة بهـذا الشـأن. وبالطبع هناك كتب مؤلفـة ومطبوعـة بهـذا الخصوص يمكن الرجوع إليها.

إلّاأنه منذ عام ۵۸، الذى سافرت فيه إلى الحج لأول مرّة، وإلى الآن حصلت تغييرات كثيرة فى مسجد النبى بالمدينة المنوّرة. ولم يكن موجوداً فى عـام ۱۳۵۸ كـل هـذا الموجود الآن فى مشـروع توسـيع مسـجد النبىِّ من أسواق، ودور، وفنـادق، وكل هـذه التغييرات قد حصـلت خلال هـذه الفترة التى تمتـد إلى ما يقارب الخمسـة عشـر عاماً. كما قـد أُجريت خلال هـذه الفترة بعض التغييرات فى البقيع. فمسـجد قبا لم يكن بهذا الشـكل الذى هو عليه الآن، وإنما كان عبارة عن مسجدصـغير. ولم يكن زقاق بنى هاشم ودار الإمام الصادق عليه السـلام قد تمّ تخريبه فى ذلك الوقت. ولم يكن مسجد القبلتين بهذا الشكل الذى هو عليه الآن. وكذلك مسجد الشجرة لم يكن بشكله الفعلى الآن وإنما كان عبارة عن مسجدصغير. هذه هى التغييرات الحاصلة فى المدينة المنوّرة.

وفى طريق مكـة، لم يكن وضع المواقيت على ما هو عليه الآن. فلقد كان مسـجد الجحفة، مسجداًصـغيراً جداً حتى إنّه لم يكن له باب وهيكل مقبول. وكذلك ممرّه كان فيه مصاعب كثيرة، ومبنى قرن المنازل هو الآخر جديدٌ أيضاً.

وإن أعمـال التوسعة الحاصـلة الآن فى المسـجد الحرام كلها حديثـة، سواء فى ذلك المسـجد الكبير المضاف إليه أو الأقسام التى تمّ ايجادها فى الجهة اليمنى من المسعى.

وقـد تمّ ايجـاد تغييرات جذريـة فى عرفـات، حيث لم تكن قبـل ذلـك الكثير من هـذه الأشـياء، وكان الناس يواجهونصـعوبات كثيرة. وكذلك فى منى، وبالطبع أن التشجير هنا ليس مثل عرفات. وهناك تحول فى الجمرات.

فجمرة العقبـة كـانت جبلًا خالصـاً؛ لم يكن مفتوحاً منه أكثر من قسم واحـد حيث كانوا يـدخلون من باب واحـد ويخرجون من الباب الآخر. إنّ هذه هى مجموعة التغييرات التى كانت ملموسة بالنسبة لنا، وهناك أماكن كثيرة أخرى أعدمت ولم يبقى منها أثر.

الميقات: من الطبيعى أنَّ كلَّ الذين يتشرّفون بالحجِّ لديهم طموحات وحاجات يطلبونها من اللّه تعالى، والكثير منها يحظى بالاستجابة، هل لكم أن تحدثونا عما طلبتموه من اللّه تعالى أثناء سفركم إلى مكة أو المدينة، وهل حظيت هذه الطلبات بالاستجابة أم لا؟

ج: أنَّ أهم ما يطلبه الحاجّ فى هذا السفر المعنوى، بل يجب أن يكون مأربه الوحيد هو «اللّه» فقط. فلا ينبغى للإنسان أن يحجَّ بيت اللّه ويطلبَ شيئاً غير اللّه، وإذا ما توجه الحاجّ للّهفقط سيكسبُ كلَّ شىء (ماذا فقدَ مَنْ وجدكَ وماذا وَجَدَ مَنْ فقدك).

لقـد سـعيتُ على الـدوام أنْ لاـ أطلب من اللّه نعمـاً ماديّةً، ولا أتـذكر أننى قـد طلبتُ من اللّه أموراً تتعلق بحياتى الشخصـية إلى الآن، وبالطبع فقد دعوتُ للأصدقاء والأقارب.

فما طلبته من اللّه أثناء هذه الأسفار الأربعة الأخيرة كان بخصوص الأمور الاجتماعية، وبخصوص الأمور المتعلقة بالحجِّ.

الميقـات: إنَّ حجاجنا يمثّلون طبقاتٍ مختلفـةٍ وبعضـهم بما يمتلكونه من قناعاتٍ سابقـةٍ أو بسـبب عـدم امتلاكهم للتعليم الصـحيح فى

مجالات التعامل فهم یخلقون المصاعب، فما هی توصیاتکم إلی حجاج بیت اللّه الحرام فی هذا المجال باعتبارکم أمیراً للحاجّ؟

ج: المسألـهٔ الأولی التی یجب علی کلِّ حاجٍ الاهتمام بها، هی أنَّ الحجّ فرصهٌ استثنائیهٔ ووجیزهٌ جداً ولعلّها لا تحصل لأغلب النّاس إلا مرّهٔ واحدهً مدی عمرهم، لهذا فمن أجل أن ینتفع الحاجُّ بهذه الفرصهٔ القصیرهٔ والاستثنائیهٔ والثمینهٔ غایهٔ الانتفاع؛ یجب علیه أن یخطّط لنفسه قبل شهورٍ من الحجِّ فی کیفیهٔ الاستفادهٔ من الأیام واللّیالی واللحظات التی تمرّ خلال هذا السفر الإلهی.

وللأسف فإنَّ قسماً من حجاجنا وبسبب الإهمال وعدم التخطیط یصطدمون بأجواءٍ خاصهٍ بحیث لا یعرفون ماذا یفعلون ولا یلبثون حتی یجدوا أنَّ هـذه الأسابیع المعـدودهٔ قـد انصـرمت! ولم ینتفعوا بها الانتفاع اللازم. فلو کانوا قـد سَعَوْا کثیراً لتمکنوا مثلًا من أداء أعمال الحـجّ بصورهٍٔصـحیحهٔ، وطبعاً هـذا مهمّ جـداً، لکن لابـدّ للحاج من أن یُحدِثَ تغییراً فی وضـعهِ خلال هذه الأیام، وأن تظهر فی روحهِ وباطنهِ ثورهٌ. فقـد ورد فی الروایات أنَّ الحجَّ یُطهّر الإنسان من الأدران. فالإنسان یتطهر طهارهً واقعیهً عندما تحصل فی ذاتهِ الثورهُ، وأنْ یشعر بالاستنارهِ والمعنویهٔ.

إنَّ الکثیر من حجّاج بیت اللّه یهـدرون وقتهم فی التجوّل بالمتاجر أو الأعمال التافهـهٔ وأحیاناً فی الأعمال الضّارهٔ، بسـبب عـدم الانتباه إلی هذا المعنی أو بسبب التخبط.

یقول القرآن الکریم:

«قل هل نُنَبِّئُکم بالأخسرین أعمالًا الذین ضلَّ سعیهم فی الحیاهٔ الدنیا وهم یحسبون أنهم یُحسنونصُنعاً» (۲۹).

یتصورُ البعض أنه یقوم بأعمالٍ حسنهٍ، بینما هی مضرهٌ للغایهِ بالنسبهٔ للنظام الإسلامی وللإسلام أیضاً وبالتالی فهی مضرهٌ لهم جداً.

ففی المکان الذی یسوده مذهبٌ غیر المذهب الشیعی یجب أنْ نتصـرّف بنحو لا یؤذی الآخرین، فنحن هناک نمثل الإسـلام الأصـیل فإذا لم یؤدِ حجاجنا الصـلاهٔ فی أوّل وقتها، واذا تواجدوا خارج المسجد الحرام أثناء وقت الصلاهٔ، أو خارج مسجد النبیصلی الله علیه و آله و سلم أو المساجـد القریبـهٔ من البیوت، أو تواجـدوا فی السوق وارتکبوا عملًا مخالفـاً یلحقُ ضـرراً جسـیماً بالإسـلام والجمهوریهٔ الإسلامیهٔ فإن ذلک کله یعتبر من الذنوب کما أنه یُعطی فرصهٔ للآخرین لذمنا، فکلُّ ذلک ناجمٌ عن الإهمال وعدم التخطیط.

علی حجاج بیت اللّه المشارکـهٔ فی المجالس التی تُعقـد لتعلیم مراسـیم الحـجّ قبل أشـهرٍ من سـفرهم، والعلماء مکلَّفون کذلک بإقامهٔ هذه المجالس بصورهٍٔ منتظمهٍٔ.

لقـد سـمعتُ أنَّ دروس الحـجّ تقام فی مالیزیا قبل سـتهٔ أشـهر من الحجِّ ویشترک فیها الحجّاج، وعندهم مجالس منتظمهٌ للغایهٔ، إضافهً إلی مشـاریعهم لتمکین الأـفراد علی أداء مناسـک الحـجِّ ولـدیهم مشاریع جیـدهٔ جـداً بهـذا الخصوص. وباختصار فإننا مکلّفون بإقامهٔ دروس الحـجّ قبل أربعـهٔ أو خمسـهٔ أشـهر من الحج، وعلی الحاجّ أن یعتبر نفسه مکلّفاً بحضور هذه المجالس. والنقطهٔ الأخیرهٔ هی أن علی الحاجّ أن یغتنم وقته ویخطّط له. فإنَّ أیام الحج أیام مراقبهٍ ومحاسـبهٍ دقیقهٍ للنفس فیجب علیه أن یباشـر تربیهٔ نفسهصباح کلّ یوم بمـا أعـدَّ لنفسهِ من برامـج، وأن یسـیطر علی اللحظـات والساعات کی لا یقوم بما لم یخطط له، وإذا قصَّرَ- لا سـمح اللّه- یسـتغفر اللّه ویصمّم علی أن لا یتکرر منه ذلک التقصیر کی یستطیع الانتفاع بذلک الجو الملکوتی معنویاً علی أفضل وجه.

المیقـات سـنواتٌ عدیـدهٌ وأنتـم تتحمّلـون مسؤولیـهٔ إمـارهٔ الحجیـج من قبـل ولی أمر المسـلمین، وقـد أُنجزت أعمـالٌ جیـدهٔ جـداً فی المجالاـت المختلفـهٔ للحـج علیصـعید اختیـار العلماء الصالحین الکفوئین والإداریین المتمیّزین والمجرّبین، وتألیف الکتب، والنشاطات التعلیمیهٔ، وتوضـیح المسائل المتعلقهٔ بالحجِّ عن طریق الإذاعهٔ والتلفاز. وکذلک علی الأصعدهٔ التنفیذیهٔ، فقد حقّقت بعثهٔ الحجِّ ومنظمهٔ الحجِّ والزیارهٔ نجاحات باهرهً، فما هو تقییم سماحتکم للوضع الراهن، وما مقدار نجاحکم، وکیف تفکرون بالنسبهٔ للمستقبل؟

ج: علی هذا الصـعید من الأفضل أن یحکم الآخرون، ولکن ما اسـتطیع أن أُقدّمه إجمالًا هو: بفضل اللّه، ومن خلال الجهود التی بذلها الأصـدقاء والزملاء فی بعثـهٔ قائـد الثورهٔ علی مـدی السـنوات الأربعهٔ المنصـرمهٔ، یمکننا القول إنَّ التغییر الأساس الذی طرأ فی البرمجهٔ والتخطیط والتنفیـذ، وما یلاحظ الآن فیما یختصّ بالحـجِّ هو نتیجـهٔ للمبادرات التی قام بها الإخوهٔ الأعزاء خلال هـذه الفترهٔ، وطبعاً فإنّ

الإخوة الأعزاء الذين عملوا سابقاً تحمّلوا مصاعب كثيرةً (شكر اللّهُ سعيهم) وعملوا ما فى وسعهم، وكلّ ما لدينا هو استمرارٌ لما بُذلَ من جهودٍ سابقاً، ولكن ما كان موجوداً فى السابق هو أنَّ الحجَّ كان ذا طابعٍ موسميٍّ حيث توضع الخطط من قبل مجموعةٍ ما فى موسم الحجّ ولعلَّه قبل موسم الحج بشهر أو شهرين- ثم يُعطّل، فلم تكن هناك تشكيلات ثابتةٌ- تتابع- المسائل المتعلّقة بالحج على مدار أيام السّنة، أما الآن فقد وفقنا اللّه- تعالى- فاستحدثت التشكيلات الثابتة التى تمارس نشاطاتها فيما يتعلق بمسائل الحجِّ على مدى أيام السنة، وفى جميع المجالات أيضاً، سيما مجال البحوث والأمور الثقافية التى يحتاجها الحجّاج أكثر من أىّ شىء آخر، فخلال هذه الفترة تمَّ تأليف ما يقرب من ۷۰ أثراً، واصدار مجلّتين قيّمتين، إحداهما هذه المجلّة «ميقات الحجِّ» باللغة العربية، والأخرى مجلة «ميقات الحجّ الفصلية» التى تصدر باللغة الفارسية، وهذا من الأعمال القيّمة التى انجزت. إنّ استمرارصدور هاتين المجلّتين سيؤدى الى حصول تغييرٍ فيما يرتبط بجميع مسائل الحجِّ عليصعيد البحوث، إضافةً إلى التأثير الثقافى والمعنوى الذى تتركانه فى أبناء شعبنا، وكذلك يمكن أن يكون لهما التأثير نفسه على شعوب بقيّة الأقطار.

على أية حالٍ، يمكن القول وبعبارةٍ واحدة: إنّ بعثة القائد المعظم استطاعت أن توفّر الأرضية اللازمة لبلوغ الأهداف النهائية للحجِّ فى جميع الأبعاد، مع وجود أمدٍ بعيدٍ أو فاصلة بيننا وبين الحالة المرجوّة، إلّاأنّ أعزتنا فى بعثة القائد المعظم استطاعوا إعداد الأرضية لبلوغ تلك الأهداف، آملين أن تحظى بقبول اللّه تعالى.

الميقات بسبب اهتمام سماحتكم بالتنظيم فى جميع المجالات ولحسن الحظ فقد أوجدتم هذا التنظيم فى أمر الحجِّ وتوصلتم إلى نتائج ايجابية، فاليوم يذهبُ الحاجُّ إلى الحجِّ معزّراً وهناك يشعر بالعزَّةِ أيضاً، ويؤدى مراسم الحجِّ بالنحو الذى يحظى بقبول البارئ- عزّ وجلّ- وبتلك الأهداف التى أشرتم إليها، ولكن فى السنوات الأخيرة تهامست الألسن حول إحالة منظمة الحجّ إلى القطاع الخاص، ونظراً إلى أنَّ القطاع الخاص يسعى إلى الكسب المادّى وقليلًا ما يهتم بالأمور الثقافية. فماذا تقولون بهذا الخصوص، هل توافقون على إحالة الحجِّ إلى القطاع الخاص، وما هو مقدار جديّة هذا الأمر؟

ج: هناك عدّة أمور جديرةٌ بالاهتمام فى هذا المجال، الأمر الأول هو أنَّ مسألة إحالة الحجِّ على القطاع الخاص منتفيةٌ على الإطلاق فى الظروف الراهنة، لأنَّ لدينا ما يقارب ۴۵۰ ألف حاج مسجلة أسماؤهم ولا تستطيع منظمة الحجِّ والزيارة اتخاذ أىّ قرارٍ بهذا الخصوص ما لم ترسلهم إلى الحجّ. وهذه المجموعة مسجلةٌ منذما يقارب ۱۰ سنوات ولعل هذا الوضع السائد الآن يستمر خمس سنوات أخرى.

بناءً على ذلك، فإنّ هذه المسألة منتفيةٌ بشكلٍ عام فى الظروف الراهنة، وأما ما يحدث فى المستقبل فيجب ملاحظة الوضع السياسى، والاجتماعى، والاقتصادى للبلاد، وما هو رأى المسؤولين فى ذلك الوقت؟ وبالطبع لابدّ من أن أقول: إنَّ التجربة التى لدينا بخصوص سوريا ليست بالتجربة الناجحة، أى لم تكن لإحالة زيارة العتبات المقدسة فى سوريا للقطاع الخاص ذات نتيجة جيدة، وأما الفائدة الوحيدة التى تركتها، هى أنّها نفعت الحكومة إلى حدٍ ما من الناحية الاقتصادية، وأما فى الجانب الثقافى فى الوقت الراهن فضررها كبير جدّاً، ونحن بصدد التقليل من هذه المشكلات والأخطاء والأضرار قدر الإمكان.

على أيةِ حالٍ، فاذا ما أصبحت هناك خصوصية أو ضرورة لإحالة الحجِّ على القطاع الخاصّ فيجب أنْ يكون أصل العمل بيد الدولة بنحوٍ لا- يحصل أىُّ تغييرٍ فى البرامج والتنظيم الفعلى، لئلا يكون الوضع كما كان عليه قبل الثورة، فلا يمكن القبول بتلك الحالة بأىِّ شكل لأنه لن يوصلنا الى أهدافنا الثقافية.

الميقات: من خلال اهتمام سماحتكم فإنَّصفاءً ومحبَّةً خالصةً تسود بين بعثة القائد المعظم ومنظمة الحجّ والزيارة، وكل الأعزاء الذين يعملون فى هذين المركزين يعملون بإخلاص وجديّةٍ ومن جانب آخر فإنَّ خصائص خدمة حجاج بيت اللّه الحرام تُنمى الحوافز لدى الجميع على الخدمة، وكسؤالٍ أخيرٍ، وددتُ أنْ أرى ما هو طموحكم وتوقعكم من العاملين فى مجال الحجِّ؟ وما هى توصياتكم إلى هؤلاء الأعزاء؟

ج: إنَّ طموحی من الزملاء فی بعثة القائد المعظم ومنظمة الحجّ والزیارة هو أنْ یلتفتوا إلی أنَّ هذه المؤسسات مؤسساتٌ خاصةٌ لذلک تتعلّق بها آمالٌ خاصة.

فهذه مؤسسات تصبو إلی توجیه مجامیع من المتلهفین لحجّ بیت اللّه، إلی مرکز الوحی، لتخدم الحجاج إلی جانب بیت اللّه ومرقد رسولهصلی الله علیه و آله و سلم والأئمة الطاهرین علیهم السلام لذا یجب أن تنجز واجبها بنحوٍ مجردٍ عن کلِّ ضعف.

یجب أن تتعطر هذه المؤسسات أکثر من غیرها بعطر الإخلاص للّهفلابد من أن یتمتع العاملون فی هذه التشکیلات بإخلاصٍ مضاعفٍ، وإذا ارتکبنا تقصیراً- لا سمح اللّه- فمن الممکن أن نتعرض لغضبه. یجب أن نبذل کلَّ ما فی وسعنا وأن نخدم حجاج بیت اللّه الحرام بکلِّ وجودنا. فالحاج الذی یُرید السفر الی الحجِّ یجب أن یکون مرتاح البال. فمع أنَّ الحجّ فیه مشاکل طبیعیة إلّاأنَّ ذلک لا یعتبر معذّراً لنا ولا مبرّراً لتقصیرنا. إنَّ المحافظة علی بیت المال الذی تضعه الحکومة تحت تصرّفنا لتوفیر الراحة للحجاج، هی مسألة حساسةٌ للغایة، حیث یجب مضاعفة الاهتمام بذلک فی الجانب التنفیذی، فإنَّ العبثَ ببیتِ المال حتی بقدر ریالٍ واحدٍ أو ۱۱۰۰ من الریال هو ذنبٌ عظیمٌ سیما فی الظروف الاقتصادیة التی یمرّ بها بلدنا فی الوقت الحاضر، فیجب التدقیق فی استئجار البیوت ومختلف المشتریات. بل یجب الاحتیاط حتی لا تُهدَر ذرةٌ من بیت المال. والحمد للّهفقد کان للمسؤولین والعاملین فی الحجّ والزیارة جهود حثیثة بهذا المجال علی أمل أنْ یتحسَّنَ الوضع یوماً بعد یوم.

أسأل اللّه- تعالی- المزید من التوفیق والتقدم لجمیع القائمین علی الخدمة فی بعثة القائد المعظم ومنظمة الحجّ والزیارة.

الهوامش:

لبّیک قد لبّیتُ لک

لبّیک قد لبّیتُ لک

أبو نواس

إلهنا ما أعدلکْ ملیکَ کلِّ مَنْ مَلَکْ

لبیکَ قد لبیتُ لک لبیکَ إنّ الحمدَ لک

والملک لا شریک لک ما خاب عبدٌ أمّلک

أنت له حیث سلک لولاکَ یا ربّ هلک

یا مخطئاً ما أغفلک عجل وبادر أجلک

واختم بخیر عملک لبیک إنّ الملک لک

والحمد والنعمة لک والعزّ لا شریک لک

مفتاح القلوب

مفتاح القلوب

ریاض عبید- لبنان

دمعةُ العشقِ راحةٌ لِمُغالی ما لأحداقی، فی غرامی، ومالی؟!

لا تغزُّ الدّموعُ منّی فأهدا أو تداوی الضلوعَ عندَ اعتلالی

لیس فی الکونِ عازفٌ وسعیدُ لیس فی سِفْرِهِ قلوب خَوالی

فغنائی مُسربَلٌ بشقائی أین منّی عُذوبةُ الموّال؟

ومراری مکبّلٌ لِصوابی وصَبائی مُعلَّقٌ بالوصالِ

واشتیاقی إلیه أَلغی زمانی ودعانی إلی ربوع الشَّمالِ

فنوی البعد عن بلادِ حبیبی حملتْنی علی جناح الخیالِ

هانَ عمری هناکَ دون اعتماری ولقائی أُمَّ القُری، واکتحالی

وَتَفادَیتُ دونَ نظرةِ عینٍ فی شهوبِ الحبیب، أو فی التِّلالِ

حیث سارتْ خُطاهُ تمشی الهُوَینا واجتهادُ النّفوسِ خَطْوُ الرّجالِ

حیثُ عطرُ الذُّری روی مجدَ طه واختصارُ الزّمانِ سَحرُ الکمالِ ... ***

یا دیاراً، یفوقُ عندی هواها لَهَفاتی لوثبةِ الآمالِ

لی بأعطافک الحنائنِ وَعدٌ طیّب ذکرهُ کشهدٍ مُسالٍ واعترانی إزاءَ قُدسِکِ لَأیٌ نافذُ السَّهْمِ، رائقُ الإشتمالِ

ذاکَ سعیُ الحجیج یتلو هتافاً سَطَّرتْهُ الدّموعُ عندَ القِبالِ

تزحفُ الأبوابُ احتضاناً فضاقتْ لِسُراةِ العیونِ رحبُ الُمجالِ

وأنا الوعدُ طافَ بی فبرانی حُبُّکمْ، رامَ فی لُمَی العُذّالِ

وصلاتی عندَ المقامِ نداءٌ أَرَّقَ العالمینَ فی الإبتهالِ

طوّف الطیرُ بالقلوبِ وغنّی ساعیاً أو مهرولًا منْ أَثالِ

یضحکُ اللیل فی نهارٍ مدیدٍ لا یُقاسُ الرّضی هُنا باللّیالی

تترکُ الشمسُ فی القلوبِ نفوساً تُطْلعُ النّورَ من خلالِ الخِلالِ

وکزحفِ السَّدیم یعبُر جندٌ هلّلوا بالمنی بظلّ الهِلالِ

عرفاتٌ، ووقفةُ الخَلْقِ فیهصورةُ الحشرِ، خُصَّ بالإبتهالِ

ما الجمارُ الدّماءُ ما الحَلْقُ عِتقٌ أوثقَ الإحرام اتّجاهَ الرّحالِ

ما هُناکَ المکانُ یطوی زماناً .. ما هناکَ الزّمانُ رَهْنُ المَکانِ ..

ما هُناکَ الأنا .. وأنتَ .. وکُنّا .. ما هناکَ النشیدُ بینَ النّصالِ

أوَ بعدَ الفتونِ ذا من فتونٍ؟ أوَ بَعْدَ الجمالِ ذا منْ جمالٍ؟!

وبدا البابُ، یالَقُرَّةِ عینی! مدخلّ الحقِّ، وثبةُ الْأَجیالِ

سُلَّمُ المجدِ، والزّمانُ ضنینُ موطنُ الوحی، مقصدُ الترحالِ

یا ریاضَ الحبیبِ، جئتُکِ سَعیاً تعتلینی لُهاثَةُ المِعجالِ ...

یحملُ القلبُ ثقلَ عمری ویُلقی فی کیانی حَبَّ النَّقا المِهیالِ

وغَزَتْ لحظةُ اللّقاء تمادتْ وأضاءتْ بصیرتی وقنالی

واعتلی همَّتی خشوع رطیبُ والحنایا تضجُّ بالإنفعالِ

۱- ۱ أخبار مکّة، ۱: ۴۱.

۲- ۲ أخبار مکّة، ۳: ۵۶.

۳- ۳ انظر: معجم البلدان، ۵: ۶۲- أخبار مكّة، ۴: ۷۲- ۷۳ فی الهامش- ومعجم دهخدا، الحرف «م»: ۹۳۸.

۴- ۴ أخبار مكّة، ۴: ۱۳۷.

۵- ۵ العقد الثمين، ۱: ۳۱۰.

۶- ۶ انظر كشف الظنون، ۱: ۳۰۶- معجم المؤلفين، ۴: ۴۰- هدية العارفين، ۲: ۳۱۰- الأعلام، ۶: ۲۸.

۷- ۷ أخبار مكّة، ۱: ۳۲. أخبار مكّة فی قديم الدهر وحديثه، تصنيف الإمام أبی عبد اللّه محمد بن إسحاق الفاكهی، دراسة وتحقيق عبد الملك بن عبد اللّه بن دهيش الطبعة الأولی، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، مكّة المكرّمة، ۱۴۰۷ ۲۲۷۳صفحة وزيری تصوير.

۸- ۸ البينة: ۵.

۹- ۹ المؤمنون: ۱۴.

۱۰- ۱۰ الحجر: ۲۹.

۱۱- ۱۱ القلم: ۴.

۱۲- ۱۲ص: ۸۲- ۸۳.

۱۳- ۱۳ كنز العمال ح ۵۲۶۸- الدرّ المنثور، ۲: ۲۳۷.

۱۴- ۱۴ الزمر: ۱۱- ۱۲.

۱۵- ۱۵ الروايات نقلناها من «ميزان الحكمة» المجلد الثالث فراجع.

۱۶- ۱۶ الأنفال: ۴۷.

۱۷- ۱۷ كنز العمال: ح ۷۴۸۵.

۱۸- ۱۸ الكهف: ۱۰۵.

۱۹- ۱۹ نقلنا الروايات من ميزان الحكمة، ۴: ۲۲ فراجع.

۲۰- ۲۰ الحشر: ۱۹.

۲۱- ۲۱ الحج: ۲۷.

۲۲- ۲۲ تفسير ابن كثير، ۱: ۳۸۶.

۲۳- ۲۳ المحجة البيضاء، ۲: ۱۸۹ أخرجه الخطيب البغدادی فی تاريخه، ورواه ابو عثمان الصابونی فی كتاب المائتين بلفظ آخر كما فی المغنی.

۲۴- ۲۴ كتاب ميزان الحكمة، ۲: ۲۷۶.

۲۵- ۲۵ هود: ۱۰۸.

۲۶- ۲۶ ميزان الحكمة، ۲: ۲۷۶.

۲۷- ۲۷ نفس المصدر.

۲۸- ۲۸ المحجة البيضاء، ۲: ۲۰۷.

۲۹- ۲۹ الكهف: ۱۰۳- ۱۰۴.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإماميّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلى التَّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فى آكناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"
تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)
رقم التسجیل: ۲۳۷۳
الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶
الموقع: www.ghaemiyeh.com
البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com
المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com
الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)
الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)
مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)
التِّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹
امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.



مركز القائمية اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹